الأعمال الكاملة  زهدي الداوودي

أطول عام

رواية



زُهْدِيْ الداوُودِيْ

أطوَلُ عَام

رواية

١

كان الاولاد الثلاثة تمددوا على سفح التل المنحدر، حول حفرة صغيرة يراقبون جمعا من العقارب الصفراء المشتبكة مع بعضها في معركة جماعية حامية. بين فينة وأخرى كان يرفع أحدهم رأسه بعفوية ليتأكد من أن خروفا أو ماعزا لم يشرد من القطيع المنتشر على حافة الوادي المكسوة بالعشب الندي الذي تغمره أشعة شمس نيسان الدافئة.

كان الوادي يواجه سلسلة جبل بازوخ الذي ينتهي فجأة، ليشكل جرفا عميقا هائلا، يقابله من الجهة الثانية الجرف الشامخ لجبل قاجر. ويشقهما نهر آوه سبي بتحد وكبرياء متفيأ بظلال أنواع الاشجار والنباتات المتسلقة والأزهار والنعناع والرياحين التي تنشر أريجها في أنحاء المضيق المشبع بالهواء الندي الذي يداعب الرذاذ المتطاير من الشلالات الصغيرة ومياه العيون المنسابة من جانبي المضيق، لتتهاوى إلى أعماق الوادي على شكل قطرات أو رشاشات ما تلبث أن تتلاشى لتتحول الى قوس قزح. وما أن يترك النهر، المضيق وراءه حتى يتوسع المجرى كي يحتضن الوادي الذي يشبه راحة اليد بمياهه البلورية. وينساب النهر هادئا شفافا، تتكسر على شاطئيه مويجات صغيرة تتفاوت في قوتها وعنفوانها، وهي تغسل الحصباء الملونة وتدفع حبات الرمل الى الشاطئ لتعيدها مرة أخرى الى النهر. وفي بعض الاماكن تصطدم المويجات الهارية بجدار الجرف لتشق فيه نفقا عميقا تغمره مياه زرقاء داكنة، أو إلتواءً هائلا، تعلوه أعمدة عملاقة من الكتل الترابية الصلدة والصخور الرملية. وفي الجانب الآخر يظهر قاع النهر، أجرد تغطيه الاحجار البركانية التي تتخللها شجيرات الدفلة.

وتحيط بالنهر من الجانبين أنواع النباتات والشجيرات والاشجار العالية، الدفلة بأزهارها البيضاء والوردية، عرق السوس، السرو، التين والعرموط البري تتخللها أعشاش القبج والحمام والبط. وغالبا ما تمر أسراب القطا بالنهر مثل غيمة متحركة لتتزود بالماء.

كان لكل واحد من الاولاد الثلاثة مجموعته التي ميّزها بخيط معين شد به ذيل كل عقربة. وكانت كل واحدة من هذه اذا لدغت قبل أخرى أو حاولت الخروج من الحلبة تكون قد حكمت على نفسها بالموت.

وفي النهاية يحتفظ كل واحد بعقربة واحدة مقطوعة الشوك. وعندما انهزمت عقارب قادر رفع رأسه الكبير المفرطح وراح ينظر اليها بأستياء وهو يدفنها في حفرة أخرى. ثم ما لبث أن وجد

غارا آخر وجّه عقربته لولوجه. وهندما اختفت هذه داخل الغار راح يراقب حركة الخيط الذي بدأ بالتوتر، ثم سحب الخيط برفق، ولما أحس به التفت الى صاحبيه وقال بفرح مهدداً:

«الان سنعود الى اللعبة، ولنر من الذي ينهزم في النهاية».

وعندما اصبحت عقربته خارج الغار، جرّت معها عقربة أخرى كبيرة وممتلئة شبكت صاحبتها بمقصها وهي تحرك ذيلها بمرونة.

قال وهو يهدم الغار قاطعا على العقربة الجديدة طريق العودة:

«لا تستعجلي يا عزيزتي فأمامك معركة أخرى».

رفع العقربة بطرف العصا ووضعها على الكومة. كانت العقارب الأخرى تبدو متعبة، خائرة القوى، ولكنها كانت لا تزال تواصل معركتها. عندما لاحظ رستم عقربة قادر وهي تصول وتجول جلس في مكانه قائلا:

«هذه معركة غير متكافئة. ان عقاربنا متعبة وهي مشغولة بالعراك منذ فترة غير قصيرة وأنت تنزل الى الميدان بجندي جديد».

قام عباس من مكانه وقال وهو يعدل من وضع ملابسه:

«أنت خسرت المعركة في هذه الجولة يا قادر، تستطيع أن تحتفظ بجنديك للجولة القادمة».

سحب قادر عقربته من الساحة ووضعها في كيس صغير وعقب:

«حسنا، ها انني سحبت جنديي، ولنر من الذي سينتصر في الجولة القادمة».

وعاد الاثنان الى لعبتهما، بيد ان العقارب كانت منهكة بشكل ملحوظ وراحت تتباطأ في حركتها الى أن سكنت كلها دفعة واحدة فأنتهت المعركة بتعادل الطرفين.

كان قادر مازال واقفا في مكانه يراقب القطيع ويمضغ لقمة الخبز بهدوء، قال ساخراً:

«إدفنوا عقاربكم المتعبة وأبحثوا عن غيرها».

قام رستم وعباس من مكانيهما بعد أن واريا كومة العقارب بالتراب. ثم راحا يسويانها بأقدامهما. قال رستم وهو مازال يضرب الارض بقوة بقدمه:

«هيا لنحرك القطيع الى مكان آخر».

كان قادر يمضغ لقمته وينظر الى بعيد كما لو أنه يراقب شيئا:

«رستم، أنظر معي، أعتقد أن هؤلاء الثلاثة غرباء».

وراح كل من رستم وعباس ينظران بفضول الى نفس الاتجاه. كانت ثلاث نقاط سوداء تتحرك

في الافق، سالكة الطريق المؤدي الى قرية «بانشاخ» الواقعة على أعلى مطل على النهر. قال رستم بعد أن ظلّل عينيه بيمناه:

«انهم ثلاثة فرسان غرباء».

أضاف عباس:

«أثنان منهما يرتديان ملابس الجندرمة».

كفَّ قادر عن المضغ وقال وعلائم الخوف بادية على ملامحه:

«هيا لنبلغ الجد زوراب بسرعة».

قال رستم وقد ارستم الشحوب على وجهه المستطيل:

«أنتما ستبقيان هنا. سابلّغ أنا الجد زوراب».

أمتطى صهوة الجواد الابيض وأنطلق مثل الريح الى قرية بانشاخ. كان الشيخ زوراب قد أتكأ على مخدة من الريش يتبادل أطراف الحديث مع صاحبيه رمضان وميرزا ويشرب معهما قهوة الضحى. كان يعدّ حبات المسبحة الطويلة باصابعه المعروفة ويبسمل متناغما معها. وعندما رأى رستم يقفز من على ظهر حصانه، قفز هو الآخر من مكانه بخفة لا تناسب العقود الثمانية من عمره، ملقيا المسبحة والغليون جانبا، وقال بصوت يشوبه بعض الخوف:

«يا الله، يا ستار»..

قال رستم مرتبكا:

«بابا، ثلاثة فرسان غرباء يتوجهون الى القرية.. اثنان منهم يرتديان ملابس الجندرمة».

قال رمضان وقد ارتسمت على وجهه علائم الوجل:

«لا أهلا بهم ولا مرحبا...»

علّق ميرزا منفعلا وهو يقوم من مكانه:

«لن نتخلص منهم حتى لو ذهبنا الى آخر الدينا».

أمسك الشيخ زوراب يد رستم وتوجه معه بسرعة الى السلم الطيني المتآكل، يتبعهما رمضان وميرزا. وعندما بلغوا أعلى مكان على سطح البيت، راح رستم يؤشر بيده الى الفرسان الثلاثة الذين مازالوا يبدون من بعيد كثلاث نقاط داكنة، قال الشيخ زوراب:

«ها هم، لقد رأيتهم».

أكمل رمضان:

«إنهم هم أنفسهم، اليوزباشي والقولجي والجاووش»..

قال الشيخ زوراب وهو يهبط السلم بخفة:

«ان وجود اليوزباشي معهم علامة سيئة، لا شك انهم جاءوا يريدون رجالاً».

وعندما أصبحوا أمام المضيف، كانوا ينظرون الى بعضهم البعض بحيرة، وقد أطبق عليهم الصمت. مسّد الشيخ زوراب رأس رستم وقال بصوت هادئ:

«يا بني، مرّ على القرى، ولا تستعجل، فبينهم وبيننا مسافة غير قصيرة. فقط النساء والاطفال يبقون أما الرجال وكل الاولاد الذين تجاوزا الرابعة عشرة فيتركون القرى. ولا يرجع أحد الى القرية إلاّ بعد أن يسود الظلام. هل فهمت؟».

قفز رستم على ظهر حصانه، وأنطلق مثل السهم..

أرتشف الشيخ زوراب فنجانا آخر من القهوة ثم اختفى في احدى الغرف، بعد أن طلب من زوجته ان تحضر له ملابس المناسبات، وهي تتكون من زبون وسترة قصيرة بأردان طويلة وعريضة من قماش أملس مقلم، وحزام من القماش الملّون. خرج من الغرفة وبيده صرّه صغيرة. ودون أن يضع الصرة جانبا، ارتدى ملابسه بسرعة وشد رأسه بيشماغ (ميشكى) ووضع الخنجر الدبان في وسطه، وتهيأ لإستقبال الضيوف غير المرغوب فيهم. جاءت زوجته بسجاد وفرشته جنب اللباد في الظل أمام البيت. وحين سمع شيخو الابن الاكبر للشيخ زوراب بالخبر شدّ البغال بسرعة وهرع الى المضيف وهو ينادي على زوجته التي كانت مشغولة بخض قربة اللبن المتدلية من وسط ثلاثة أعمدة خشبية، ويحثها لمساعدة زوجة ابيه سنجان في تنظيف المضيف ونقل الافرشة اليه.

كان الشيخ زوراب يتمشى بانفعال امام باب الدار وقد شبّك يديه خلفه. أما رمضان وميرزا فكانا واقفين بلا حراك. أراد ميرزا أن يغيّر الجو المتوتر فقال:

«ماذا تقولان؟.. هل أنصب الخيمة؟».

أجاب رمضان بإشمئزاز:

«الخيمة تنصب لأفراحنا و أحزاننا وليس لهؤلاء الأوباش»..

عندما جاءت سنجان بمخدتين، نظرت باستغراب الى زوجها الذي لم يسبق لها أن رأته مرتبكا، وقالت:

«زوراب، ما بالك قلقا لا تجلس في مكانك؟.. هل داهمتك البراغيث؟»

تمعن زوراب في وجه زوجته التي مازالت بقية من آثار الجمال بادية عليه وقال:

«ان هؤلاء الثلاثة الذين سيحلون علينا ضيوفا هم أسوأ بكثير من البراغيث».

قالت بصوت دافئ فيه مرح ولا ابالية:

«ومنذ متى استعصت عليك مشكلة؟.. شيخو ذبح الخروف وقبل أن ينتصف النهار سيكون الأكل جاهزا، فلماذا الخوف؟ انهم سيعودون مثلما جاءوا».

قال الشيخ زوراب بلهجة فيها شيء من اليأس:

«ولكن اليوزباشي يا سنجان، اليوزباشي.. اننا لا نعرف من اية طينة هو».

وجهت سنجان كلامها الى ثلاثتهم وهي تتركهم لوحدهم:

«أنا لا أخاف عليكم، أنتم أقوى من اليوزباشي بكثير. كيف يمكن لرجل في عمركم أن يعرف الخوف؟».

ابتسم الثلاثة وهم ينظرون الى بعضهم البعض بحرج.

أحس الشيخ زوراب بشيء من الاعتداد بالنفس والاطمئنان، إذ أن زوجته كلما تفاءلت في أمر ما تكون النتيجة عادة مقرونة بالخير.

وتّم اعداد المضيف في الهواء الطلق اعداداً جيداً، حيث بدأ شيخو بمعاونة زوجته وزوجة ابيه بفرش السجاد ورش الارض بالماء واعداد أواني القهوة. وعندما اقترب الفرسان الثلاثة، كان التعب باديا عليهم، تقدم لإستقبالهم الشيخ زوراب ورمضان وميرزا وشيخو.

وعندما ترجلوا، أخذ بعض الرجال الخيول الى الاسطبل بعد ان رفعوا السروج من على ظهورها، وكان التعب والارهاق باديين على الخيول أيضا، إذ أن العرق المتصبب في بعض الاماكن من اجسادها قد تحول الى وغف. وسرعان ما قدم لها الماء والعلف. وعندما بدأ شيخو يسقيهم باللبن في وعاء فخاري، قال الشيخ زوراب: «اللبن أحسن من الماء لكسر العطش، ولكن الشرب الكثير يؤذي». وعندما انتهوا من تناول اللبن، تم الترحيب بهم مرة أخرى من قبل الشيخ زوراب. وكان يحاول بكل جهده أن ينطق اللغة التركية بشكل جيد، ولكن عبثا فاللكنة الكردية كانت هي الغالبة في لغته. ففي فترة خدمته في الجيش العثماني كان معظم الجندرمة العاملين معه من الاكراد، لم يكن يتحدث باللغة التركية الاّ مع آمره وكانت معظم الكلمات التي تعلمها هي الشتائم البذيئة والكلمات المهينة فضلا عن انه لم يخدم كثيرا في الجيش بسبب هروبه وعصيانه عليهم. والفضل في معرفته لهذا القدر من اللغة يعود الى تعامله مع المهربين الاتراك في أيام شبابه، اذ كانوا يسرقون الخيول والبنادق من معسكرات الجيش العثماني، ويبيعونها إمّا للقبائل العربية في اطراف جبال حمرين أو للفرس والاكراد في كرمنشاه وقصر شيرين ويجلبون بالمقابل التمر والملح والقهوة ومواد غذائية أخرى، اضافة للأقمشة والسجاد، حيث يبيعونها في مناطق تمتد

حتى ديار بكر.

كان اليوزباشي على غير ما توقعه الشيخ زوراب، بشوشا، هادئا من النوع الذي يمكن التفاهم معه. ولما كانت فراسة الشيخ زوراب لم تخنه أبدا، فقد ادرك بسرعة أن هذا الرجل يحتاج إلى اسلوب خاص في التعامل، اذ انه يختلف اختلافا كليًا عن اقرانه الآخرين الذين يرعدون ويزبدون وينشرون الرعب في القرى باطلاق الرصاص على الناس والكلاب، ويصادرون كل ما يقع في أيديهم ويضربون الفلاحين لسبب او دون سبب.

وبدا للشيخ زوراب أنه يعرف هذا الرجل، وكلما تفرّس في وجهه وسمع كلماته ازداد قناعة بمعرفته لهذا الانسان، وراح يشغل ذاكرته.

كان اليوزباشي قد فك حزامه ولفائف قدميه ونزع حذاءه واتكأ على وسادتين فوق بعضهما من الريش مزيلا عن جسده آثار رحلة الطريق المتعبة، قال وهو يرتشف فنجانا من القهوة: «كنا نعتقد يا شيخ زوراب اننا لا نستطيع الوصول اليكم هذا اليوم ونموت عطشا في الطريق الوعر..» قال الشيخ زوراب ببشاشته المعهودة: «لا سمح الله ان يموت رجال مثلكم، ثم ان مثل هذا الشيء لا يمكن أن يحدث في وادي كفران، ان الله وأنبياءه كانوا ولا يزالون يحمون وادي كفران من كل سوء. في قديم الزمان يا بني مرّ قوم كفار من هذا الوادي وعاثوا فيه الخراب، بيد ان الله عز وجل انتقم منهم وابادهم الى بكرة ابيهم. انك لا تجد في الوادي سوى الخير والبركة، وسترى». كان صوت زوراب عميقا دافئا يبعث الطمأنينة والثقة في نفس سامعه. وعندما تطرق في حديثه الى الأسماء المقدسة جلس اليوزباشي احتراما لها، ورأى أنه من المناسب الان البدء بالمواضيع الرسمية التي جاء من اجلها، حتى يتمكن فيما بعد الاسترسال في تبادل أطراف الحديث ليتمكن من كتابة التقرير المطلوب منه حول الاوضاع الاجتماعية والمعاشية للمنطقة.

قال اليوزباشي وهو ينظر الى الارض كما لو انه يريد تجميع افكاره ويحرك بطرف سبابته اليمنى فنجان القهوة الخالية: «ان مجيئنا اليكم هذا اليوم يا شيخ زوراب يختلف عن زيارات القولجية والجندرمة الآخرين الذين أساءوا الى سمة دولة العلية العثمانية. ان العالم قد تغيّر الآن، وان دولتنا العظمى يجب ان تأخذ مكانتها. ان علم دولتنا يجب ان يصل الى كل بقعة من ارضنا، تفضل انظر، انتم تعيشون هنا في هذا الوادي الشاسع دون أن يعرف أحد عنكم شيئا، وأنتم أيضا لا تعرفون عن العالم شيئا.. هناك بلد أسمه اوروبا، فيه مكائن تعمل بالبخار وعربات تسير على سكك من الحديد ويملكون انواعا من النواظير ينظرون بها الى القمر والنجوم ويتعرفون على اسرارها..»

قال الشيخ زوراب باستنكار متأملاً في وجوه الآخرين: «استغفر الله رب العالمين، انهم يتدخلون حتى في شؤون الله..» ثم غرق مرة اخرى في شروده، إذ انه كان يعرف بسليقته ان مثل

هذا الكلام الجديد لابد ان يخفي في طياته شيئا جديدا، وهذا الشيء الجديد لا يعفي في كل الاحوال وادي كفران من تقديم الضرائب للدولة سواء بالارواح ام بالاموال، وان ارسال هذا اليوزباشي الافندي الذي الذي يتحدث بلسان لبق خوفا من تحركات الامراء الاكراد، أو ارسال ابناء وادي كفران مرة اخرى وقودا لحرب في مكان ما.

مدّ يده اليمنى الى جيب سلطته «السترة القصيرة» العريض وتحسس الصرّة، ثم سحب يده برفق وراح يحك صدره المغطى بشعر كثيف أبيض، وحدّق في قسمات وجه اليوزباشي ما زال مسترسلا في كلامه الذي لم يفهم منه زوراب اي شيء. ولكن عندما نشر اليوزباشي على الارض الاوراق التي أخرجها من حقيبته، توقف زوراب عن التفكير واعتراه خوف، اذ ان إبراز أي ورقة يعني مصادرة رجال واموال العشيرة. قال بلا إرادة منه محاولا بذلك تأجيل هذا الموضوع: «جناب اليوزباشي، أعتقد ان الأكل جاهز فلنترك وجع الرأس هذا الى ما بعد الاكل.» قال اليوزباشي دون ان يرفع رأسه عن الاوراق: «من المستحسن أن نتخلّص من وجع الرأس هذا قبل الأكل، لأنني أريد أن تأكل انت ايضا بشهية طيبة، فلي اخبار مفرحة لكم..». ارتسمت علامات التعجب على الوجوه. التفت الشيخ زوراب الى ابنه الذي رغم بلوغه الخمسين، احتفظ بنظارة وجهه الذي تلمع فيه عينان نفّاذتان تشبهان عيون الصقر، فاتحتان يختلط فيهما اللون العسلي بالازرق الفاتح، فكان اخوانه يسمونه احيانا ب«جاوشين» (ابو العينين الزرق) وفهم شيخو من نظرات ابيه ان الموضوع يجب ان يقاطع بجلب الاكل، إذ ان ملاحظة اليوزباشي ليست سوى من باب التهكم، وإلاّ فاي خبر مفرح هو هذا الذي يأتي من الباب العالي؟

قال اليوزباشي وهو يفكر في المكافأة التي لابد أن تأتيه من هذه البشرى السارة التي أفرحت كل العشائر الكردية الاخرى والتي أغدقت عليه الهدايا النفيسة ووضعت خدماتها في تصرف الدولة: «هناك يا شيخ زوراب أمر من الباب العالي لتحديد أراضي العشائر الكردية في گرميان وتخطيط حدودها وتمليكها لرئيس العشيرة بموجب فرمانات جاهزة أصدرها الباب العالي لهذا الغرض. وقد تم

تطبيق هذا الامر في معظم العشائر الاخرى التي اعلنت عن فرحها وولائها التام للدولة..». وتبادل الاب والابن نظرات مريبة ولكن فيها تساؤلات وشيء من الارتياح والرهبة. قال الشيخ زوراب بوقار: «انه بالطبع لأمر مفرح أن يفكر الباب العالي بوادي كفران واهله، وحدود وادي كفران واضحة منذ الازل، فنحن نعرف اي شبر يعود لنا وأي شبر يعود لجيراننا فلا نحن نتجاوز هذه الحدود ولا هم يتجاوزونها، واذا حدث ان سرحت اغنام الجيران في مراعينا سهواً فاننا نحل ذلك بيننا بالتفاهم ولم يسبق أن حدثت بيننا مشاكل لهذا السبب. أما مسألة تمليك الارض لرئيس العشيرة فانا في الحقيقة لا أفهم هذا الشيء. ان وادي كفران هو ملك عشيرتنا وعشيرتنا ليس لها

رئيس، ولا تريد ان يكون لها رئيس. ان اكبر رجل سنا بيننا، هو الذي تتم إستشارته في حسم امور العشيرة بعد التداول في امورها من قبل الشيوخ. هذا هو قانون وادي كفران منذ الازل، وهو ما أراده الله، فلماذا التدخل في شؤون الله؟».

قال اليوزباشي وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة لسذاجة الشيخ زوراب: «يا عمي الشيخ زوراب، ان هذا الامر هو من مصلحتك انت ومصلحة عشيرتك. تصور، ان وادي كفران، هذه المنطقة الشاسعة الجميلة التي يشقها هذا النهر الجميل، غير مذكور في الخريطة، أي ان هذا الوادي غير موجود، فهل هذا صحيح؟». «طبعا غير صحيح، فسواء كان وادي كفران مسجلا في الاوراق او غير مسجل، فهو موجود منذ الازل.» أجاب الشيخ زوراب دون تفكير، ضحك اليوزباشي وقال: «يا شيخ زوراب انت لا تعرف قيمة ما ترفضه، ان مثلك هو مثل ذلك الشخص الذي توضع امامه أحمال الذهب، فيرفضها. اذا لا تفرح لهذه الهبة من الباب العالي؟. قال الشيخ زوراب بلهجة فيها حدّة: «اتريدني أن أفرح لورقة يعطينيها الباب العالي؟ ان وادي كفران هو هبة من الله وليس من أحد». أجال عينية في وجوه الجالسين مستفهما: «بالله عليكم يا ناس، الباب العالي يريد ان يمنحني أرض عشيرتي، فهل يدخل مثل هذا الشيء في عقولكم؟ تصوّر يا جناب اليوزباشي، ان حصانك الان مربوط في الاسطبل، وأنا اقوم من مكاني وأفك زمام الحصان واجلبه الى هنا واقول لك تفضل يا جناب اليوزباشي اريد ان اهديك هذا الحصان، فهلا تضحكون عليّ يا ناس بالله عليكم؟.». وضحك الجميع، بيد أن اليوزباشي قهقه بصوت عال. لقد افرح ذلك الشيخ زوراب، فزاد تفاؤله، وعرف من قسمات وجه اليوزباشي التي تفرس فيها كثيرا من هو هذا الرجل، فزاد اطمئنانا، وترك موضوع مفاتحته الى فترة تناول الطعام، اذ ان المزاج يكون لطيفا عند الاكل.

بعد هنيهة ارتسم الجد على وجه اليوزباشي وقال: «اننا يجب ان ننتهي من حل هذا الموضوع يا شيخ زوراب فالأمر هو أمر ولا يستطيع أي واحد منا أن يخالف الامر السلطاني، فارجو ان اسمع كلامك الحاسم الان، هل تريد أن نسجل الفرمان باسمك أم باسم احد اولادك؟ والتفاصيل الاخرى يمكن ان ندخل فيها بعد الاكل». قال الشيخ زوراب ملتفتا الى رمضان و ميرزا: «قرروا ما تشاؤون الأمر بيدكم انتم، ولا تنسوا اننا جميعا رعايا هذه الدولة والباب العالي فوقنا جميعا، بيد أن الله هو فوق الجميع». قال رمضان: «إذا كانت العشائر الاخرى كلها قد رضت لهذا الامر، فلماذا يشذ عنها وادي كفران، ولذلك فانني أرى اما ان يسجل باسمك او باسم شيخو». قال ميرزا: «أنا لا مانع لدي، والحسم الان لك وحدك». قال زوراب دون ان يساوره الخوف من قراره: «ليسجل باسم شيخو». تنفس اليوزباشي الصعداء وهو يسجل ملاحظاته في دفتر سميك قديم تهرّأت زواياه، ثم رفع رأسه ملتفتا الى الابن: «وهل انت موافق يا شيخو؟». لم يتكلم هذا بل التفت الى ابيه منتظرا منه اشارة: «الكلام لك يا شيخو». قال شيخو بأدب وهو يفرك شاربه الكستنائي

الفاتح: «ان ما قاله ابي هو جوابي.». هز اليوزباشي رأسه وهو ما زال يسجل في الدفتر: «اعتقد اننا قد انتهينا من الشيء الاساسي، واذا كانت الحدود معروفة بينكم وبين جيرانكم فنكون قد انتهينا من هذه المشكلة». ثم قام من مكانه بعد ان أخرج انبوبا من حقيبته وقال: «اريد ان نصعد على السطح او اعلى مكان في القرية لأرى الحدود التقريبية لوادي كفران». وعندما اصبحوا فوق السطح، ذكر له الشيخ زوراب اسماء العشائر الاخرى المحاذية لوادي كفران، وحين أشار بيده الى جبل قاجر رفع اليوزباشي الناظور وراح يتأمل جبل قاجر ومضيق خورنەوزان، قال بدهشة: «يا الهي ما أجمل هذا المنظر». كان الشيخ زوراب يفكر طيلة الوقت بهذا الانبوب الغريب، فقال مبهوتا: «أهذا هو نفس الشيء الذي ينظرون به في ذلك البلد البعيد الى القمر والنجوم؟». قال اليوزباشي متباهياً: «نعم هو شيء أشبه بهذا» وسلّمه الناظور: «هاك انظر بنفسك يا شيخ زوراب».

تناول هذا الناظور وراح يقلبه بين يديه محدجا في فتحتيه باستغراب ودهشة: سبحان الله» ثم رفع الناظور وراح يركز عينه اليمنى على احدى الفتحتين مثلما فعله اليوزباشي، وقال بدهشة: «سبحان الله، لقد صغر جبل قاجر يا جناب اليوزباشي». ضحك اليوزباشي وعدّل من وضع الناظور: «هذه هي الفتحة الصحيحة يا شيخ زوراب، هاك انظر الان..» سبحان الله، سبحان الله، وكأنني واقف على سفح جبل قاجر. ان لم نمت سنرى العجائب والغرائب».

واتخذوا أماكنهم من جديد، قال الشيخ زوراب: «اعتقد انكم قد جعتم الان، والطعام جاهز. قال اليوزباشي وهو يقلب الاوراق: «بقي أن ابلّغكم ببعض التعليمات الاخرى الضرورية بخصوص الضرائب والتجنيد في الجيش، حتى نضع حدا للتصرفات الكيفية التي يقوم بها القولجية وافراد الجندرمة. ان العشيرة ملزمة بدفع العشر للدولة سواء من المحصولات الشتوية أو الصيفية او من الحيوانات التي تملكها. والدولة تحتاج الى سبعة رجال من وادي كفران هذا العام على الاقل، اذ انكم لم تجندوا حتى الان اي شخص في الجيش العثماني، وللتفاهم حول تفاصيل هذه المسألة يجب ان يأتي شيخو بنفسه الى مركز السنجق، وهناك يجري تسليم الفرمانات الى رؤوساء العشائر ويتم تنسيق العمل معهم. وعند مجيئه يصطحب معه سبعة رجال ليجري فحصهم وتسجيل اسمائهم بغية نقلهم في وقت لاحق الى وحدات الحدود.

التفت الشيخ زوراب الى إبنه، واوحاه بإشارة بجلب الطعام. ثم نظر الى اليوزباشي وهو يفكر في وضع خطة جديدة لمواجهة الموقف الجديد: «نحن يا جناب اليوزباشي كلنا رعايا الدولة، نحن مستعدون للقيام بأي شيء تطلبه منا الحكومة، والان يجب أن تأكلوا فقد دختم من كثرة القراءة والكتابة».

جلبت صحون الرز واللحم التي تتصاعد منها رائحة شهية، ووضع الشيخ زوراب بنفسه الصحن

المحتوي على رأس الخروف أمام اليوزباشي وبدأ الجميع بالأكل عدا الأبن الذي كان واقفا. كان الشيخ زوراب يأكل ببطء وينظر في قسمات اليوزباشي، قال: «اني سعيد جدا بوجودكم بيننا، والحمد لله اننا استطعنا ان نحل كل شيء بهدوء، ولكن لي سؤال شخصي لجناب اليوزباشي، فهل من الممكن الاجابة عليها بصراحة؟» قال اليوزباشي وهو يعالج قطعة لحم كبيرة: «بالطبع، يا شيخ زوراب بكل صراحة». «ألست ابن سيد نالي؟». تجمدت اللقمة في فم اليوزباشي وتوقف عن المضغ، وبقيت يده معلقة في الهواء وهي ممسكة بقطعة اللحم، وقال باستغراب: «ومن اين عرفت ذلك يا شيخ زوراب؟ من اين تعرف والدي؟». «كان والدك من أعز اصدقائي يا بني في أيام الشباب، ولكن الزمان فرّق بيننا واتخذ كل منا طريقه. كان والدك جريئا ورفيقا جيدا في الليل لا يهاب الاهوال. ما هي اخباره الان؟». قال اليوزباشي كما لو أنه يتألم على شيء كان يمكن تفاديه: «لقد قتل قبل اعوام بغدر، اذ انه حتى اللحظة الاخيرة من حياته كان لا يفارق حصانه وبندقيته». قال الشيخ الزوراب بألم: «رحمه الله، لقد كان جريئا، جريئا حقا، نادرا ما تعثر على رجل مثله في هذه الايام. كان يغير على معسكرات الجيش مثل السهم ولا يخرج منها الا وهو يحمل اكثر من بندقية».

حين انتهوا من الأكل صب شيخو الماء على ايديهم من إبريق نحاسي مزركش ثم قام اليوزباشي من مكانه لقضاء حاجة، وكان قد تغير تماما بعد التعرف عليه، اذ اعتراه شيء من الذهول والهدوء، وقام الشيخ زوراب معه ايضا ليصطحبه الى الاسطبل الذي أعدّ لهذا الغرض، وسلمه ابريقا فخاريا قائلا: «سأنتظرك هنا الى ان تقضي حاجتك، وبعد ذلك سنذهب الى الحريم لأعرفك على خالتك وأخواتك فأنت هنا في بيت عمك.» قال اليوزباشي بلهجة صادقة: «لقد احسست منذ البداية بانجذاب روحي اليك يا عمي، والآن احس كما لو ان والدي قد عاد الى الحياة في شخصيتك». ووجد زوراب ان اللحظة الحاسمة قد حانت، مد يده الى جيبه وأخرج الصرّة قائلا: «يا بني، انت اليوم قد افرحتني بقدومك الينا ثم ان لك حق عليّ، وانت ابن اخي، هذه هدية متواضعة من عمك ارجو ان لا ترفضها وتخيّب ظن عمك فيك، ولكن ارجو منك ان تقول للباب العالي ان عشيرة كفران مستعدة ان تعطي كل شيء عدا الرجال، فأرجو ان تصنع معروفا لعمك.». قبل اليوزباشي يد الشيخ وقال وهو يتحسس بأنامله الليرات الذهبية في طي الصرّة: «انا لن ارفض شيء يأتيني من عمي، اما بالنسبة الى الرجال فما عليك الا ان تذكر امام مرافقي الاثنين حججا اؤيدها بدوري وانقلها الى الحكومة..» قال الشيخ زوراب وهو يقبله من رأسه: «لقد قرّت عيني يا بني فأنت حقا ابن ابيك. والآن هيا اذهب وتغوط بهدوء.» واختفى اليوزباشي في الكوخ المعتم.

قال اليوزباشي بعد ان ارتشف قهوته: «ان الفرمانات سوف توزع بعد عدة أسابيع على رؤساء

العشائر في مركز السنجق، وعلى شيخو ان يحضر بنفسه الى هناك ليوقع بابهامه على الاوراق، وهناك يتم التفاهم حول التفاصيل الاخرى، منها عدد الرجال الذين ترسلهم العشيرة للتسجيل في الجيش، والتفت الى الشيخ زوراب منتظرا منه الجواب الجاهز. قال هذا بعد أن حكّ لحيته البيضاء: «لقد سبق ان قلت بأننا رعايا الدولة، واننا مستعدون ان نقدم رؤوسنا لها، والانسان يستطيع ان يقدم ما يملكه حقا، وان ما يقدمه يجب ان يكون شيئا صالحا، حتى لا ينقلب الى عبء، فما فائدة البندقية العاطلة اذا تهديها لصديقك، انك بهذه الهدية انما تقتله. فما الذي استطيع ان اقدمه انا للدولة؟.. لي سبعة أولاد، سأسلم اعناقهم بيدك، وخذهم سبعتهم معك، وان شئت فهذا اليوم، ولكن يا ترى هل الاوردو (الجيش) العثماني سيكون فخورا بهم؟ هذا شيخو امامكم، هو أكبرهم، جعلناه هذا اليوم شيخا للعشيرة، فهو اذن شيخ فلا تأخذوه.

الثاني، اقرع مجرب الرأس فلا تأخذوه.

الثالث، مجنون فلا تأخذوه.

الرابع، أعمى فلا تأخذوه.

الخامس، حمار برجلين فلا تأخذوه.

السادس، أعرج فلا تأخذوه.

السابع، بليد لا تأخذوه.

رفع الشيخ زوراب يده اليمنى مؤشرا بها الى جهة مجهولة بحركة تمثيلية أصيلة، قائلا: «هؤلاء هم اولادي يا جناب اليوزباشي فإذا كنتم مصرين على أخذهم فيجب أن تنتظروا عدة أيام حتى أجلبهم من قراهم فخذهم معك ولتقر عين الباب العالي بهذه النماذج العظيمة». خيم الصمت عليهم، إذ أن لهجة الشيخ كان يشوبها الأسى والألم. نظر اليوزباشي الى زميليه، مستطلعا آثار الكلام على وجهيهما فتبين له انهما قد صدقا الكلام ثم التفت الى الشيخ قائلا: «مصائر الناس ليست بأيديهم يا شيخ زوراب، انها مسجلة في اللوح المحفوظ، فلا سلطة لنا على ما يقره الله.. أعتقد ان الامور واضحة الان.» جمع الاوراق، بعد ان سجّل آخر ملاحظة، ووضعها في الحقيبة.

كانت الشمس المتوجهة في السماء الزرقاء العميقة تبعث دفئا لذيذا في أجواء وادي كفران المغطى باللون الاخضر الذي تتخلله الوان زاهية يغلب عليها اللونان الاحمر والاصفر. وكان اللون الاخضر يتلاشى على جانبي النهر ليتحول بالتدريج الى ازرق ضبابي لايلبث ان يتحول في بعض الالتواءات الى وردي فاتح فبنفسجي يغطي جبل قاجر الذي يرتدي ظله الازرق ذي الحواشي الضبابية. وكانت المياه الفضية الملتمعة تبعث شعاعات ملّونة تتكسر في سماء الوادي، وتتداخل مع الاشعة الساقطة في أعماق الجرف. ومن بعيد تبدو قطعان الغنم وهي غير

بعيدة عن مجاميع الغزلان التي ترعى بإطمئنان. قال اليوزباشي وهو يقف في اعلى مكان من الجرف خارج القرية مع الشيخ زوراب، وهما يطلان على الوادي: «لقد حدثني المرحوم والدي عن وادي كفران، ولكنني كنت لا اتصوره بهذا الجمال والروعة». قال الشيخ بانتباه: «ولكنك يا بني ماذا ستقول حين ترى مضيف خورنه ومزان؟ انه اجمل بقعة على الارض. عليك ان تزورنا في الصيف. سننصب هناك خيمة كبيرة، وسنخرج كل يوم الى الصيد..». وواصلا سيرهما.

وقف الشيخ زوراب فجأة وهو يؤشر الى شقوق صغيرة في الارض، ويقول بفرح طفولي: «هذه كمأة.. سيكون عشاؤنا هذا اليوم كمأة وجبن..». وراح يحفر بطرف خنجره برفق واخرج كمأة بحجم بيضة.. «انظر.. ان هذه المنطقة مليئة بالكمأة..». كان اليوزباشي شاردا يفكر في شيء آخر، اذ انه بعد استلام الصرّة بفترة وجيزة شعر بنوع من الاحراج ووخز الضمير، ولا سيما بعد ان كثرت احاديثه معه، فقال بعد أن أخذ الكمأة من يد الشيخ: «الحقيقة يا عمي انني عندما أخذت الهدية منك كنت لا اريد ان احرجك لأنك بمثابة ابي. ان سبعة ليرات مبلغ هائل فماذا افعل به. ان ليرة واحدة تكفيني والبقية اعيدها اليك..» قال الشيخ هازا رأسه بالنفي: «مستحيل يا بني مستحيل، انني املك الكثير من المال ولا احتاجه، فماذا افعل به؟ انت شاب وامامك الحياة فإن لم تكن متزوجا فتزوج، وان كنت متزوجا فاشتر لك بيتا وان كنت تملك بيتا فاشتر به حصانا واذا كنت تملك حصانا فاشتر به بندقية جيدة واذا كنت تملك بندقية فدخره لليوم الاسود. وكان والدك أخي، كنا نتقاسم كل شيء عدا زوجاتنا والله يعلم ذلك». شكره اليوزباشي مرة أخرى واكد له انه طالما يعمل في مركز السنجق، فإن احدا لا يستطيع الحاق الاذى بوادي كفران، ثم نصحه أن يهتم بشيخو وان لا ينادوه من الان فصاعدا باسمه المجرد بل بـ(شيخو بك)، حتى اخوانه يجب ان ينادوه بهذا اللقب، وعليه عند ذهابه الى مركز السنجق ارتداء احسن الملابس واخذ كمية من الهدايا للمسؤولين مثل الخرفان والسمن او سجادة ان امكن، وعليه أن لا يهاب القائمقام، ثم انه اذا اغرقه بالهدايا يلصم فمه ويستطيع أن يتصرف كما يشاء.

وعادا ببطء الى القرية، وكانت البيوت الطينية الواطئة تبدو من بعيد بمزابلها وأعمدة الدخان المتصاعدة منها وأشجار الصفصاف المحيطة بها مشرقة هادئة تبعث الحياة في وادي كفران.

كان اليوزباشي يتمنى ان يبقى عدة أيام في وادي كفران، اذ ان احاديث الشيخ زوراب وأجواء القرية ذكرته بطفولته وأيام صباه التي قضاها في الريف، بيد أن كثرة المسؤوليات الملقاة على عاتقه وضرورة العودة السريعة الى مركز السنجق جعلته يفكر بالعودة في نفس اليوم، على ان الشيخ زوراب رفض ذلك رفضا قاطعا، وأكد بأنهم هم ابناء المنطقة نفسها لا يتنقلون ليلاً في وادي كفران، إذ أن السعالي والطناطل تسد الطرق، ويظل المرء يدور في حلقة مفرغة حتى الصباح دون ان يصل الى هدف. ثم ان هناك حيوان خطير أسود يشبه النمر يسمى (فارس) يقفز على ظهر

الحصان مثل السهم ويعظ الانسان من عنقه، هذا بالاضافة الى الذئاب الخطيرة وحيوانات مفترسة أخرى لا تترك مكانها إلاّ في الليل.

«سنسهر هذه الليلة يا بني، فهذا اليوم هو عيد بالنسبة لي، انت لا تدري مدى صداقتي العميقة مع المرحوم والدك.. سأروي لك هذا المساء حكايات جميلة، وذكريات عشتها مع المرحوم والدك» قال ذلك الشيخ زوراب بعد ان اتكأ على مخدته. وكان اليوزباشي قد تمدد على سجاد وثير في المضيف، وقد سرى الخدر في اوصاله بعد ان حشى بطنه بالرز واللحم وقال: «كما تشاء يا عمي شيخ زووراب ولكن يجب ان نستيقظ غدا في وقت مبكر لأن امامنا أشغال كثيرة». وكان الجميع قد رضخوا لنوم القيلولة.

في الاماسي يطيب الحديث في مضيف الشيخ زوراب، ولا سيما في ليالي الشتاء والربيع، حيث يطول الليل. ويجري عادة تبادل الزيارات بين افراد العشائر المجاورة. وهناك مواضيع كثيرة للتحدث عنها، وغالبا ما يجري تكرار نفس الموضوع، ولكن بشكل آخر ومع اضافات جديدة ويبدأ عادة الشيخ زوراب بنتفات من مغامراته القديمة والمدن التي رآها، وبعد عرض قصير يطلب من الآخرين أن يأخذوا زمام الحديث، وبالطبع هو الذي يوزع الادوار ويشخص الذين يتكلمون، اذ ان العادة الجارية، ليس فقط عشيرة كفران بل عند كافة العشائر الاخرى، هي أن كبير القوم هو الذي يعطي الكلام للجالسين. واما اذا حدث وجاء غريب الى المضيف فإن له الحق ان يبقى يسكن هناك عدة ايام دون أن يسأله احد عن سبب مجيئه، بيد أنه يكون اساسا للاحاديث، حيث يسألونه عن اوضاع الزرع والمطر ورعية الاغنام والمواشي وحركة السوق والتقاليد الخ وغالبا ما يستدرجون الضيف للتحدث عن ذكرياته ومغامراته ويعطونه كامل الحرية للاسترسال في حديثه. وطالما يبالغون أمامه في سرد مغامراتهم سواء مع البشر أم مع الجن، وحيث يريد الرجل أو لا يريد تنتقل اليه عدوى التهويل والمبالغة، فيأخذ حريته في السرد، ثم لا يلبث الشيخ زوراب الا ويكلف أحد رواته بالدخول في منافسة الرجل في التهويل، وهكذا تبدأ المباراة والمقالب، والرجل يأخذ كل شيء بمنتهى الجد. وحين يتركهم ليواصل رحلته، يؤكدون عليه مرارا بضرورة زيارتهم مرة اخرى في طريق عودته، ليحدثهم عما شاهده من جديد في طريق رحلته. ويبقى الرجل ومغامراته المزعومة موضوعا جديدا يتندرون به لعدة اسابيع الى ان يرسل لهم الله ضيفا جديدا، ينسيهم الضيف الاول.

في فترة القيلولة وحيث كان اليوزباشي ورفيقاه القولجي ومراد جاووش مستغرقين في نوم عميق، تصدر عنهم موجات متفاوتة من الشخير، التفت الشيخ زوراب الى رمضان وقال: «ان اليوزباشي انسان طيب ويعجبني حقا، كذلك كان والده ايضا، ولكن هل تدري ان المرحوم عندما كن يكذب كانت السماء بكاملها تهتز لاكاذيبه؟». قال رمضان بهدوء وهو يمتص الدخان من

لفافته: «الابن لم يقصّر، انه قد تجاوز المرحوم بدرجات..» قال زوراب: «كلا، لا أتصور ذلك، اذ انني استغربت كيف انه لم يرث ذلك من أبيه؟». حدجه رمضان بنظرات استخفاف: «هل تريد ان تضحك عليَّ أنا ايضا يا زوراب؟ ان الجرف كله كاد ان ينهار ويغطي نهر آوسبي من أكاذيب الرجل، هل نسيت ما قاله عن هذا البلد العجيب الذي يصنعون فيه مكائن تعمل بالبخار وعربات تسير على سكك من حديد، ونواظير ينظرون بها الى القمر والنجوم.. ماذا تريد بعد، ومن الذي تريد ان ينافسه هذا المساء؟ من؟.. قل لي؟ انه سيهزمنا جميعا..» قال الشيخ زوراب وكأنه يعالج مسألة مهمة جدا تتعلق بمصير وادي كفران: «الاشياء الاخرى لا اتذكرها، ربما لم التفت اليهما، ولكن هذا الانبوب اللعين الساحر قد نظرت من خلاله بأم عيني، مرة ابتعد جبل قاجر وكأنه اصبح في نهاية العالم، ولما نظرت من خلال الفتحة الثانية اصبح قاجر أمامي حتى حسبت انني استطيع ملامسته» أطلق رمضان ضحكة صغيرة وقال بتهكم: «هل حسبت الخرفان التي تسرح على سفح الجبل؟» «هذا لا يحتاج الى جدل يا رمضان.. الانبوب امامك، فإذا اتسيقظ اليوزباشي يمكنك استعماله بنفسك» قال رمضان: «انا يعجبني أن انظر من خلاله الى القمر، على كل حال، ان هؤلاء الثلاثة، ولا سيما هذا القولجي المدور الذي لم ينطق حتى الان بكلمة، نحتاج الى ان يبقوا عندنا اسبوعا كاملا، فلا شك لديهم من الاكاذيب والمغامرات ما يكفينا لسنة كاملة.» قال زوراب متحسراً: «يؤسفني انهم سيغادروننا غدا، وأخشى أن لا نستطيع استدراج القولجي للكلام هذا المساء.». قال رمضان بكل ثقة: «لا تخف، لقد دللناهم بما فيه الكفاية، وسوف يتحولون الى شركاء عمرنا سواء شئنا أم أبينا وأما القولجي فسترى كيف سيدوّخنا هذا المساء. ولكنني لا اعتقد ان ابن صاحبك سيفسح له مجالا للكلام..». «على كل حال سنرخي له الحبل، ولنر ما اذا كان يستطيع منافسة المرحوم والده، ولكن الحق يقال، أن والده كان جريئاً، جريئاً حقا لا يهاب الليل..».

٢

عندما عاد رستم الى المضيف كان الضيوف الثلاثة يتمعتون بقيلولتهم فنظر اليهم باستغراب كما لو انه يرى مخلوقات غريبة. وأشار اليه الشيخ زوراب بيده أن يتابعه فخرجا من المضيف. كان التعب والجوع باديين على الصبي، طلب الشيخ زوراب من زوجته ان تقدم له لحما كثيرا لأنه أدّى واجبه كالرجال، كلفه بعد ان ياخذ قسطا من الراحة، ان يبلغَ كل من يصادفه في طريق عودته الى قطيعه بأن الامور قد سارت بشكل جيد، وان عليهم العودة الى القرى، ولكن بعد مغيب الشمس.

وعندما غابت الشمس، وأسدل الليل ظلاله على الوادي، بدأ الظلام يلف كل شيء. وفي هذا الوقت تعود الطيور الى أعشاشها، بينما يبدأ عالم آخر بالحركة، عالم غريب مبهم يخيم عليه ظلام دامس لا مثيل له في مكان آخر، وتبدأ الارواح و السعالي والطناطل بالاستيقاظ والتحرك في انحاء الوادي بعد رقاد طويل دام نهاراً كاملاً. وتظهر هذه المخلوقات اما على أشكالها الحقيقية المرعبة او على شكل حيوانات اعتيادية مثل الثعالب والضباع والقطط الوحشية، وتسكن هذه الكائنات عادة المقابر والكهوف والطواحين المهجورة. والمعروف بين ابناء العشيرة أن الشيخ زوراب يعرف معظم هذه الكائنات ويدرك خفاياها وأمزجتها وسلوكها، كما يعرف الشرير منها والخيّر والمناطق التي يتركزون فيها، وكذلك يعرف سبل التخلص منها ومطاردتها، بل وحتى القاء القبض عليها، بيد أن الغريب في الامر أن اي كائن من هؤلاء يتملص من اليد بسهولة ولا يمكن الاحتفاظ به أبداً. ويوصي الشيخ زوراب ابناء عشيرته أن لا يهابوا هذه الكائنات، فهم في حالة الخوف الشديد يتغلبون على الانسان ويأسرونه، وفي هذه الحالة ان لم يكن المرء قوي الاعصاب جريئا يصاب اما بالجنون أو الشلل. وقد تعالج هذه الحالة او لا تعالج، ولذلك يوصي الشيخ زوراب ابناء عشيرته ان يضبطوا اعصابهم حين يظهر لهم كائن من هذه الكائنات ويواجهوها بجرأة ويعبارة (بسم الله الرحمن الرحيم) أو بآيات من القرآن الكريم، كما وينبغي على اي فرد مهما كان عمره أن يحمل معه آلة جارحة، اذ ان هذين الشيئين هما عدوان لدودان لهذه الكائنات غير المرئية.

وتحت جنح الظلام عاد الشباب الى قراهم، وبدأت المضائف في القرى الاخرى تكتظ بالحركة ايضا. وكان بود الابناء الستة زيارة الاب في مضيفه والتعرف على هؤلاء الرجال الثلاثة الذين يدخلون وادي كفران لأول مرة بصورة سلمية. وكان المصدر الوحيد لنقل المعلومات وتقديم

صورة متكاملة لهيئة الرجال الثلاثة وأشكالهم وملبسهم وطريقة كلامهم هو رستم أصغر الأبناء الابن السابع للشيخ زوراب، كريم لقبه بـ(كەرمەمەومنى) – حمار لا تأخذوه – وكان السبب الذي جعله يلقبه بهذا الاسم هو عناده، الذي لا يمكن ان يضاهيه الا عناد الحمار، اذ انه بسبب كونه أصغر الاولاد ولوفاة امه وهو في سن مبكرة، نشأ مدللا يتمتع بعناية خاصة من الجميع، وفي الليلة التي ولد فيها رستم، قرر الشيخ زوراب أن يلزم الحراسة بنفسه حتى الصباح، وكانت ليلة شتائية عسيرة، دخل فيها الشيخ زوراب معركة حامية مع الجنية الفاتنة (في)، ومن حسن الحظ ان الشيخ زوراب لزم الحراسة بنفسه ولم يكلف أحدا من الشباب بالمهمة، وإلاّ فانهم كانوا سيستسلمون لإغراءات هذه الفاتنة اللعينة، الأمر الذي كان سيسّهل لها إختطاف الوليد.

كان نهر آوه سبي قد فاض في تلك الليلة، حتى ملأ كل أخاديد الوادي بمياهه الهائجة، المحملة بالغرين، وكان هدير المياه وزمجرة العواصف تختلط بعواء الكلاب وعويل الذئاب الجائعة التي تحوم حول القرى. وعرف الشيخ زوراب بأن الجنية (في) لابد أن تظهر هذه الليلة، اذ ان تَنَقُلها على متن العواصف والأمواج الهائجة أسهل بكثير من التنقل في الليالي الهادئة التي تسرح وتمرح فيها الطناطل والعفاريت التي تخاف منها، اذ انها الوحيدة التي تستطيع الامساك بها من شعرها واغتصابها. والجنية (في) معروفة بجمالها الذي لا يوصف، فهي شقراء، ذات عينين زرقاوين عميقتين واسعتين، وشفتين ممتلئتين بلون العسل، وشعرها الطويل الاصفر بلون الذهب، يتماوج على جسدها الاهيف الرشيق فيغطيه تاركا النهدين النافرين يطلاّن من خلال موجات الشعر الحريري. ويقول الشيخ زوراب أن هذه الجنية الساحرة التي طالما ضحكت على ذقون الشباب فأختطفت منهم أكبادهم، انما هي واحدة من النساء الخمسمائة الجميلات اللواتي جلبهن جنود الملك سليمان من الجن كي يتزوجهن، ولكنهم جاءوا بهن اليه كانت قد وافته المنية، فتزوجوا هم أنفسهم منهن، فنشأ الاكراد من أولاد هؤلاء. بيد أن إحدى هذه النساء الخمسمائة، بقيت لسبب مجهول بلا رجل، فحولها الله جنية في غاية الجمال، وهكذا أخذت هذه الجنية تتنقل في انحاء كردستان منذ الازل، وتخطف بين حين وآخر مولودا جديدا.

في تلك الليلة، بعد أن انتهت عملية الوضع، واستغرقت الام في نوم عميق، ونام المولود الجديد ايضا بعد ان تعب من الصياح، راح الشيخ زوراب يتوقع ظهور الجنية. ورغم الرهبة التي كانت تحيط بقلبه، كان شيئا من الغبطة والفضول يسبغ على عواطفه. وكانت ذبالة اللمبة الزيتية المعلقة قرب مهد الوليد، ترسل ظلالا متراقصة، تبدو مثل أشباح متحركة في زوايا الغرفة المعتمة. وكانت عيون الشيخ زوراب تلمع في العتمة وهي تتلفت يمينا ويسارا، وتحدق في الزوايا المظلمة التي لا يصلها النور. وراح يحلم بشعرها الذهبي الذي يلفّ جسدها البض، وفجأة أحسّ بالغرفة المعتمة تتحول الى كتلة من النور الوهاج، وارتخت يده التي كانت مهيأة لمسك مقبض

خنجره، وتحول سقف الغرفة الاسود المصنوع من جذوع وأغصان الشجر الى بياض ناصح تتدلى منه مئات القناديل المتوهجة الشبيهة بالنجوم في ليلة غير مقمرة، وأطبق الصمت على كل شيء، ولم يعد يسمع هدير الامواج الهائجة وعويل الرياح. وأطلّت الجنية مثل موجة أثيرية، وهي تسبح في فضاء الغرفة برشاقة وانسياب، عارية تلف جسدها بموجات شعرها الذهبي. تسمرَ الشيخ زوراب في مكانه. وأبلغه هاتف من أعماقه بأن هذه الجنية الجميلة ليست شريرة ومن المستحيل أن تؤذي الطفل أو تختطفه، وان مثل هذه العيون الواسعة الزرقاء مثل بحيرات آوه سبي العميقة تحت الاجرف، والتي تكتنفها البراءة لم تأت لإختطاف الوليد، بل لكي تباركه وتسبغه بالخير. وأحس الشيخ زوراب انه قد تحول الى شاب في ذروة الفتوة، وسال لعابه للشفتين العسليتين، واقتربت الجنيّة منه مبتسمة، وكانت اسنانها مثل حبات البلّور، ورفع يديه بلا ارادة منه يريد أن يمررها على حزم الشعر الحريري، بيد أنها إنسابت بحركة سريعة مثل سمكة فضية من تلك الاسماك التي تملأ نهر آوه سبي، وما لبثت أن دارت حوله بحركة سريعة، تطاير خلالها شعرها فبدا جسدها الاهيف مغريا يسلب العقل ثم جلست القرفصاء في احدى الزوايا وقد تكومت عليها موجات شعرها فلم يبد منها سوى وجهها، وهي تبتسم واجتاحته رغبة عنيفة في أن يمسك بها ويعانقها، ولكنه تذكر انه يحرس المولود، وانه ينبغي ان يبقى الى جانبه، بيد أن الهاتف الصادر من قلبه ألحَ عليه مرة اخرى بان هذه الجنية بريئة، وانها جاءت لتبارك الطفل، وان الناس منذ الازل يعتقدون خطئا بأن هذه الجنية شريرة فهي بسبب حرمانها من الرجل بعد وفاة الملك سليمان، وعدم اتاحة الفرصة لها للزواج من أحد الجنود الخمسمائة لسبب مجهول، ما زالت حتى الان تبحث عن رجل يناسبها، واذا صادف أن عثرت على مثل هذه الرجل، فانها ستأخذه هو وتعيش معه سعيدة الى الابد، ولكن الرجال البلداء لا يفهمون ذلك، ولا يريدون أن يفهموا ذلك، بل يعتبرونها جنية شريرة، بل عفريتة قبيحة تتقمص صورة إمراة جميلة، فيبقون متعلقين بزوجاتهم القبيحات، ويحاولون ضربها بآلة جارحة، الأمر الذي يفقدها اعصابها فتهجم على الوليد الجديد لتنزع منه روحه انتقاما من تصرف الرجل الغبي.

وظلت جالسة في مكانها، مشبكة شعرها على نهديها. وكان الشيخ زوراب يسمع دقات قلبه، ويشعر بدفء الدم الساري في شرايينه، وهو حائر بين الاعتقاد السائد حول حقيقة الجنية والهاتف الصادر من قلبه، لا يعرف ايهما يصدق، بيد أن شكوكه وخوفه على الطفل كانت هي الغالبة. واراد ان يقوم من مكانه ولكنه لم يستطيع، فقد كان متسمرا. أراد ان يتكلم، ولكن لسانه لم يسعفه. كان مشلولا سليب الارادة. وهنا وقفت الجنية في مكانها. وكانت أشبه بحورية من حوريات الجنة، وتقدمت ببطء من مهد الطفل غطى شعرها المهد كله. اراد زوراب ان يمد يده الى الخنجر، فلم ترضخ لمشيئته. اراد ان يذكر اسم الله فلم يستطيع، اذ انها استطاعت ان تسحره

وتجمده في مكانه، وهنا أدرك، بل اعتقد اعتقادا جازما بان الجنية قد انتصرت نهائيا عليه وسلبت روح الطفل، وان كل شيء قد انتهى، يا خيبتك يا زوراب، كيف ستواجه اولادك غدا، أنت الذي كنت تخشى ان تغريهم الجنية، وها هي قد اغرتك انت وسلبت عقلك وارادتك وحولتْك الى مراهق نزق. وهزته قوة مجهولة من داخله، فاندفع نحوها ليمسك بها، لكن الجنية تملصت من بين يديه مثل سمكة ملساء، واختفت بعد أ ن ادارت له ظهرها البض. وتصبب العرق من جبينه، وسرت قشعريرة في بدنه، وتحولت الغرفة من جديد الى عتمة تتراقص الظلال على جدرانها مثل اشباح متحركة، وكان لا يزال يعتقد انها قد سلبت روح الطفل، فتساقطت دمعة على خده، ثم اقترب من الطفل ووضع ظهر يده على وجهه. كان وجهه دافئا ويتنفس برتابة. وهنا تنفس الصعداء، وكاد أن يطلق صرخة فرح، ولكنه تمالك نفسه وحمد الله لنجاة الطفل. وعاد الهاتف هذه المرة يقول له بصوت واضح كما لو انه رجل يتحدث معه، «الم أقل لك أن الجنية جاءت لتبارك الطفل؟.. كان بامكانك التصرف معها بهدوء، فربما كانت تقتنع بك وتأخذك معها وتعيد لك شبابك فتعيش معها الى الابد..».

عندما بدأت خيوط الفجر تلونً حواشي جبل قاجر بالوانها الوردية والبنفسجية، حلقَت أسراب البط البري فوق النهر، وكان الصمت العميق لا يشوبه سوى هدير الامواج الذي بدأ يخف. وقبل أن يعلن أي ديك حلول نهار جديد، شق صياح الطفل السكون ليستقبل النهار الاول من حياته. وقالت الام فرحة كما لو انها كانت تتوقع صياحه: «بلى، بلى، نحن نعرف انك هنا» وقطع صياحه حين شدته الى صدرها. وقالت: «انت ما زلت جالسا في مكانك يا عمي، لقد عذبناك. انك تستطيع ان تنام الآن، فالنهار قد بدأ» وتمدد الشخ زوراب على الفراش مغطيا نفسه بسجادة: «الآن أستطيع أن انام هادئ البال». واستغرق في نوم عميق ثم سرعان ما نام الطفل واعقبته في ذلك الام..

وحلم الشيخ زوراب بالجنية. تتسلل الى فراشه تغطيه بغيمة من شعرها الاصفر الناعم مثل الحرير وتقول: «لقد باركت لك الطفل»، ثم راحت تمرر اناملها الرقيقة في ثنايا لحيته، وكانت رغبة عنيفة تطغي على الشيخ زوراب لم يعهدها من قبل، وعرف من نظرات الجنية أن لها ايضا رغبة جارفة، ووضع رأسه بين نهديها الممتلئين. كانت تفوح منها رائحة البخور وراح يمرر أنامله الخشنة في ثنايا الشعر الذهبي ويقبله، ثم طوقها بذراعيه وهو يلثم عنقها وخدودها وشفتيها العسليتين. وكان يعتقد أنه في الفردوس الذي طالما يتحدثون عنه في الدنيا الفانية. وكانت كتل الشعر المتماوجة قد غطَت جسدها، ولما مد يده الى بطنها، أتت بحركة أزاحت الشعر جانبا فبدا الجسد البض أهيف ناصعا، ووجد نفسه هو الآخر عاريا، وطوقا بعضهما بعنف وهما يشتعلان رغبة، وعندما تدفعت المياه الدافئة في أحشائها صاحت متأوهة وهي تكاد تخنقه من

العناق: «منذ ألف عام وأنا أبحث عن هذه الليلة». وأما الشيخ زوراب فكان قد تحول الى كتلة من اللهب ما لبثت ان تحولت الى رماد. وزال كل شيء ووجد نفسه يقف عاريا فوق جبل قاجر وراح يتبول بشكل غير منقطع وبوله ينحدر بصورة موازية لنهر آوه سبي الى أن صبَّ في نهر روخانه الذي تنتهي عنده مراعي وادي كفران. وحين استيقظ من النوم كان اشبه بالمأخوذ، صامتا لا يتكلم مع أحد، وتصور الاولاد أنه قد أصيب بمس من الجنون. كان رأسه خاليا الاّ من صورة الجنية (في). وبعد أسابيع جاءت قافلة من الغجر وحطتً رحالها كعادتها على نهر آوه سبي لتأخذ قسطا من الراحة قبل ان تواصل رحلتها الى اقصى الجنوب. وذهب شيخو الى كبيرهم وشرح له موضوع والده الذي أصابه مسٌ من الجنون، وضمن له انه سيحقق له كل ما يريده اذا اعاد الشيخ الى حالته الطبيعية. قال شيخ الغجر انه لا يريد شيئا سوى الخبز لأتباعه خلال اقامتهم في وادي كفران وكذلك حمايتهم، ثم ارسل معه والدته العجوز الساحرة. ولما علمت العجوز أن المسٌ قد حصل في ليلة حراسة الوليد، طلبت من الآخرين ان يتركوهما لوحدهما. علمت العجوز من أول نظرة ان الشيخ لم يصبه اي مس من الجنون، بل ان شيئا ما قد سلب عاطفته فأصيب بمرض العشق، ولما فاتحته بذلك تلكم الشيخ زوراب لأول مرة وحدثها بالتفصيل عما حصل. قالت العجوز وهي تحرك اناملها المعروفة بين ثنايا حفنة الرمل وتحرك قطع الحصى والعظام: «فأل حسن يابني، فأل حسن... لقد ماتت زوجتك قبل سنوات وانت لم تتزوج.. أنظر يا شيخ زوراب، ان ذريتك ستتجاوز وادي كفران وتصل الى نهر روخانه، وسيكون هذا النهر هو الحد الفاصل بين عشيرتك والعشائر الاخرى. انك مازلت خصبا مثل ارض وادي كفران وستظل خصبا حتى يوم مماتك، فأبحث لك عن امراة صالحة اما الوليد الذي قمت بحراسته قبل أسابيع، فسيكون فارسا شجاعا ترضخ له الاهوال، هيا اذهب وسمّه باسم رستم. كان الجميع ينتظرون في الخارج بلهفة وفضول ما تنطق به العجوز ولما خرجا وفوجئنا بالشيخ زوراب وهو يتحدث كعادته وكأن شيئا لم يكن أرتفعت أنغام المزمار والطبل، وساعتها ذبح شيخو خروفين، ثم أمر بذبح خروفين في كل قرية وشاركهم الغجر فرحتهم بالغناء والموسيقى حتى الصباح.

جمع رستم كل ما جمعه الرعاة من الكمأة والفطر ووضعه في خرج، بعد ان اعطاهم بتبآه نتفاً من المعلومات السريعة حول الرجال الثلاثة، وأكد لهم مرار بأن اليوزباشي انسان طيب، وان والده كان من اصدقاء جدهم، وهذا يعني انه لا يختلف عن اي فرد في العشيرة، ولكن مع ذلك فعليهم ان يذهبوا الى قراهم، وحذرهم من ان يدفع بهم الفضول لزيارة مضيف الجد، اذ ان الرجلين الآخرين المرافقين له قد يخلقان له وللعشيرة المشاكل.

وصعدت رائحة الكمأة والفطر والبصل المقلية بالزيت الطري واختلطت برائحة الخبز الحار،

وكانت الاطباق تحتوي على كميات وافرة من الطعام. وانحنى الرجال يأكلون بشهية. وطلب الشيخ زوراب من الصبي رستم ان يجلس الى جانبه ويأكل معه. وكان شيخو واقفا كعادته يسقيهم باللبن ويرفع الاطباق الفارغة ليعيدها ممتلئة. وكان الشيخ زوراب يحث الضيوف على الأكل ويدفع اليهم الاطباق قائلا: «كلوا جيدا، ان الكمأة لذيذة جدا ولكنها لا توجد دائما، انها تظهر مرة واحدة في السنة..».

وعندما انتهوا من الأكل فكّوا احزمتهم وتمددوا في أماكنهم وراحوا يدخنون ويشربون القهوة. التفت رمضان الى الشيخ زوراب وقال: «كان المرحوم والد اليوزباشي صديقك الحميم، والمعروف عنه انه كان رجلا شجاعاً، ألا تحدثنا شيئا عن ذكرياتك معه؟» هنا تململ اليوزباشي في مكانه وقال: «بالضبط يا شيخ زوراب، هذا ما كنت أريد أن أسألك أياه». قال زوراب: «ولكن سرد هذه الذكريات يحتاج الى ليال طويلة، ثم انني اريد أن اسمع منكم ايضا شيئا عن أخبار الدنيا، فنحن هنا بين هذه الهضاب والجبال نعيش مثل الضباع والثعالب لا نعرف شيئا عما يدور حولنا.. لا شك اننا سنلتقي كثيرا، اذ يجب عليكم ان تزورونا من الآن فصاعدا باستمرار، وقد نزوركم ايضا في مركز السنجق، وعند ذلك سأحدثكم عن تلك الذكريات بما فيه الكفاية، واما الآن فحدثونا عما يجري في الدنيا» قال رمضان وهو يهزّ رأسه موافقا: «صحيح، هذا كلام صحيح، افتحوا عيوننا قليلا على هذه الدنيا يا جناب اليوزباشي، ثم اننا نريد ان نسمع ايضا شيئا عن اخينا القولجي فهو لم ينطق حتى الآن بكلمة» وبد لليوزباشي كما لو أنه أدرك المقلب، ووجه كلامه الى القولجي بعد ان اعتدل في جلسته: «صحيح يا حاج رضا، حدثنا على الاقل عن الحج وزيارتك الى مكة المكرمة» وكان اليوزباشي يعرف ان حديث الحج، هو الحديث المفضل لدى القولجي، وانه لن يمل عن هذا الحديث حتى لو كرره ألف مرةً. قال الشيخ زوراب: «كانت زيارة الحج وما زالت امنية العمر عندي، ولكنني لا أعرف كيف السبيل الى ذلك». تململ القولجي الحاج رضا واعتدل في جلسته، وهو يفتح فمه لأول مرة: «الحج قسمة ونصيب، لقد استغرقت رحلتنا ستة أشهر، وكنت اذ ذاك اسكن في كركوك، فالقافلة تتحرك من هناك وتمر بتازه خورماتو فطاووق وطوز وجبل حمرين فدلتاوه ثم بغداد. كل هذا الطريق نقطعه على البغال والحمير والخيول..» وقاطعه اليوزباشي قائلاً: «وكل هذا الطريق يستغرق اربعة أو خمسة ايام، وأسوا منطقة فيه هو تلك الواقعة بين جبل حمرين ودلتاوه، حيث اللصوص وقطاع الطرق..» «بالضبط، يا جناب اليوزباشي» قال ذلك القولجي وواصل: «أما القسم الثاني من الرحلة، فتبدأ من بغداد الى البصرة، حيث تشحن الامتعة على كلكات عائمة على مياه دجلة.» قال اليوزباشي: «أشرح لهم ما هي الكلكات يا حاج رضا، انهم لم يروا شيئا من هذا القبيل» واصل القولجي متباهيا: «انها سفن مصنوعةمن القصب والبردي واغصان الاشجار تعوم على قرب منفوخة

نفخا جيدا» تساءل رمضان وهو يشك في مجمل القصة: «وكم رجلا يستطيع أن يجلس في مثل هذا الكلك». « الكلكات لها أنواع مختلفة من الاحجام قد يكون صغيرا بحيث يحمل ثلاثة انفار أو كبيرا يحمل ثلاثين نفرا مع امتعتهم» قال الشيخ زوراب، «سبحان الله كم نحن جهلاء..» علّق رمضان: «اعتقد أن مثل هذه الكلكات، اذا استعملناها نحن ايضا ستخلصنا من مشكلة التنقل بين جانبي آوه سبي في ايام الشتاء..».

قال اليوزباشي: «ولكنني أعتقد ان هذه الكلكات لا تصلح لنهر آوه سبي، اذ انه يحتوي في بعض الاماكن على صخور مدببة تؤدي الى تحطم القارب وعند ذلك تبدا الطامة الكبرى». قال الشيخ زوراب: «أعوذ بالله وما لنا بهذه المشكلة التي نريد أن نصنعها بايدينا؟».

وفي تلك الساعة بالضبط أضيفت كلمة جديدة الى قاموس اللغة في وادي كفران، فالكلمة بالاضافة الى معناها الاصلي اصبحت مرادفة لكلمة الكذب المكشوفة جدا، فبدل القول، أن فلانا يكذب كانوا يقولون أن فلانا يصنع الكلكات او يجيد صناعة الكلكات، ويعرف السامع ما المقصود بذلك.

قال رمضان: «لقد قاطعناكم بالخير يا حاج رضا، والآن وصلتم بالكلكات الى البصرة، وماذا بعد؟» أراد القولجي أن يطيل في وصف الرحلة النهرية بين بغداد والبصرة، بيد أن اليوزباشي طلب منه ان يصف الباخرة التي اقلعت من ميناء البصرة، والفترة التي استغرقتها الرحلة البحرية الى مكة المكرمة. وقال القولجي: «الباخرة يا شيخ زوراب عجب من العجائب. مثل هذا الشيء لم أشاهده من قبل، لا أكذب اذا قلت لكم انها أكبر من قريتكم بعشر مرات..» هنا التفت رمضان الى الشيخ زوراب وأفتعل سعلتين وهو يقول: «ما شاء الله» وقال الشيخ زوراب: «كم جهلاء نحن...». وواصل القولجي كلامه بتباه وهو يزداد غرورا: «كان اشبه بعملاق من عمالقة الف ليلة وليلة. كان عشرات الناس والمواشي وأكياس لا تحصى من الحبوب والتمر تحشر في السفينة فتضيع في زواياها. ثقوا بالله العظيم، ان عملية الشحن وحدها استغرقت نهارا كاملا..» قال رمضان هازاً رأسه: «هذه سفينة نوح عليه السلام لا غيرها..» قال اليوزباشي وهو يريد انهاء الحديث: «وبعد ذلك ركبتم الباخرة واستغرقت رحلتكم ثلاثة اشهر الى مكة مكرمة..» وكان القولجي قد طاب له الحديث فواصل: «واما البحر، فالانسان يكاد يجن حين يراه لأول مرة. المياه اللانهائية تحيط بك من كل الجهات، ثلاثة أشهر ونحن لا نرى سوى المياه..».

قال رمضان: «مشكلة الماء كانت محلولة اذن، ولكن كيف مع الطعام؟». «كلا يا شيخ رمضان، ان ماء البحر غير صالح للشرب، انه مالح ومرّ، كانت الباخرة مجهزة ببراميل كثيرة تحتوي على الماء العذب. واما الطعام فكنا نطبخ في اماكن معدةٍ لهذه الغرض» قال رمضان وهو يسبغ الجد على كلامه: «هذه ليست سفينة، بل ولاية» قال الشيخ زوراب: «واين كنتم تتغوطون؟..» دعمه

رمضان: «هذا ما كنت افكر فيه ايضا» قال اليوزباشي بتهكم: «بالتأكيد كنتم تقذفون بها بطريقة ما الى البحر..» قال القولجي وقد ارتسمت على وجهه علامات الجد: «هذه كانت مشكلة نعاني منها حقا، فنحن كما تعلمون تعودنا أن نتغوط في الهواء الطلق، واما هناك فكانت ثمة غرف صغيرة جدا فيها فتحات تدعى مراحيض تفوح منها روائح نتنة تكاد تخنق الانسان، وخلال عملية التغوط تكاد تزهق الروح..».

قام رمضان من مكانه بعد أن تذكر انه يجب ان يتغوط وقال: «واما انا فيجب أن اذهب الى الهواء الطلق..».

وخرجوا كلهم الى الهواء الطلق..

قال اليوزباشي: «والآن جاء دورك يا شيخ زوراب، حدثنا عن مغامراتك مع المرحوم والدي..» قال وهو يمتص كمية من الدخان من غليونه: «لا بأس انني سأحدثكم عن عن هذه المغامرات، متى ما اردتم ذلك، ولكنني أعطي الكلام الآن لرمضان». كان هذا قد انتهى لتوه من لف لفافة، فقذفها للقولجي قائلاً: «حديثك قد اعجبني حقا، ولذلك تستأهل هذه اللفافة» ثم واصل كلامه: «انا من سوء حظي لم ار في حياتي شيئا اسمه السفينة أو البحر، ولكنني صادفت اشياء أخرى ما زال يقشعر بدني لها حتى الآن. كنت ذات مرة راكبا حصاني أجتاز أراضي عشائر زهنگهنه، ولا شك أنكم تعرفون كم هي وعرة تلك الاراضي، وكنت متعبا جدا، وكانت الشمس حارة تلهبني وانا أتحسر على ظل شجيرة اتق بها لسعات حرارة الشمس، وساعتها رايت أمامي فطرا عملاقا لم أر له مثيلا. كانت رائحته اللذيذة تخدر الاعصاب. عند ذلك ترجلت وربطت حصاني في ظل، وفككت أنا الآخر حزامي وتمددت تحته وأنا أفكر في كيفية نقل هذا الفطر، اذ انه يكفي لعشاء عشيرة بكاملها. «كان اليوزباشي يعرف منذ صغره مواضيع الاحاديث في المجالس الكردية، وكان والده هو من أحد ابطالها، فراى أن الحديث قد طاب فعلا وراح يعطيه زخما أكثر فقال وهو ينظر الى القولجي ضاحكا: «والان ماذا تقول يا حاج رضا؟.. هل وجدت مثل هذا الفطر في الحجاز؟» قال القولجي وهو بين مصدق ومكذب: «ان الله قادر على خلق كل شي واما مثل هذا الفطر الذي يرقد في ظله رجل وحصانه فمسألة صعبة التصديق. نظر كل من اليوزباشي والشيخ زوراب في وجه رمضان، وعيونهما توحي بالتحريض، قال رمضان: «يا حاج رضا، اذا كانت هناك سفينة تمل عشرات الرجال ومئات الاكياس، بل وتحمل حتى الدواب وتحتوي حتى على المطابخ، فلماذا لا يجوز وجود مثل هذا الفطر؟.. ان الله الذي خلق تلك السفينة يستطيع أن يخلق مثل هذا الفطر ايضا. اننا صدقنا كل كلامك، فلماذا لا تصدقون كلامنا؟» قال الشيخ زوراب واليوزباشي بصوت واحد: «اننا صدقنا كلامك يا شيخ رمضان، ولكن الحاج رضا هو الذي يشك في كلامك» قال القولجي: «اذا كنتما تصدقان هذا الشيء فلا بد ان يكون صحيحا، ولكنني انا

شخصيا لم أر مثل هذا الفطر..» قال رمضان وهو يحاول اضفاء القناعة على كلامه: «ليس من الضرورة أن يرى المرء الشيء بالذات حتى يقتنع به، فنحن مثلا صدقنا جناب اليوزباشي عندما حدثنا عن هذا البلد البعيد الذي توجد فيه العجائب دون ان نراه، وكذلك صدقناك في حكاية السفينة دون ان نرى السفينة، كما ونحن نصدق بوجود الله عز وجل دون أن نراه» قال القولجي بقناعة: «لقد صدقت كلامك يا شيخ رمضان ولا أشك فيه».

كان رستم يستمع الى هذه الاحاديث بانتباه شديد، ويخلق تصوراته حول السفينة العملاقة والبحر والكلكات العائمة على النهر وقبر النبي، وأما أحاديث العم رمضان بشأن الفطر العملاق أو النملة العملاقة التي وقفت مثل السد في وجه مياه آوه سبي أو الدب الذي خطف إمراة وعاش معها، فكان قد سمع بها كثيرا، ويعرف أنها من نسيج الخيال. وكن شغله الشاغل طلية الفترة التي جلس فيها الى جانب جده هو هذا الانبوب السحري الممدد الى جانب الحقيبة الصغيرة أمام اليوزباشي. همس في اذن جده: «بابا، انني نعسان اريد أن انام..» وقال زوراب: «اذهب اذن إلى فراشك يا بني» قال بتوسل: «ولكن هل يسمح لي العم اليوزباشي ان انظر من خلال هذا الانبوب قبل ان انام؟» وقال اليوزباشي: «طبعا يستطيع أن ينظر، ولكن ليس في الليل، لأنه لا يستطيع أن يرى شيئا في الظلام». قال رمضان وكأنه كان ينتظر هذه اللحظة: «حرنا في أمركم يا جناب اليوزباشي، في ذلك البلد البعيد يحق لهم النظر الى القمر والنجوم، واما في كفران فلا يحق لنا ذلك، لا تخف، ان هذا الصبي جرئ، انه اذا رآى العفاريت والطناطل على القمر أو النجوم فلا يرتعب، لأنه هو نفسه عفريت صغير..».

٣

بعد النصيحة التي اسدتها الغجرية الساحرة بضرورة زواج الشيخ زوراب، توطدت العلاقة بين شيخو والغجر، كما وجرى تبادل الزيارات بين الشيخ زوراب وشيخيهم. ولما كان شيخو هو الرئيس المتنفذ في العشيرة، فقد اجتمع باخوانه الستة في بيت اصغرهم وتباحث معهم في مسألة زواج والدهم وضرورة ذلك حسب ما اقترحته الساحرة الغجرية. وكان ذلك حسب تقويم العشيرة في عام الزواج الثاني للشيخ زوراب، أي قبل ستة عشر عاما من زيارة اليوزباشي.

كان الأخوان الستة في مضيف الأخ الأصغر (كريم) المفروش بالسجاد الإيراني الفاخر الذي تناثرت عليه وسائد الريش الملونة، يصغون بانتباه بالغ الى كلام أخيهم الأكبر شيخو وهو ينقل لهم كامل الصورة لحديث الغجرية، ولما أكدّ لهم بأن ذريتهم ستمتد الى نهر روخانة، وبأن أباهم ما زال خصبا مثل أرض وادي كفران وانه سيظل خصبا حتى يوم مماته، ارتسمت علامات التعجب والفرح في وجوه الاولاد وكادوا يطيرون من البهجة وهم ينظرون الى بعضهم البعض بدهشة وسرور، وفي سرائر انفسهم ينمو اعتقاد راسخ بأنهم سيرثون نفس قوة الأب وخصويته التي لا حدود لها. وبعد المداولات والمناقشات الطويلة حول زوجة الاب المنتظرة، قرروا ان يفاتحوا الأب نفسه بعد أن قدموا عدة مقترحات حول مواصفات العروس وأصلها وعشيرتها وموعد زف العروسة. وفي جلسة ثنائية مع الأب، نقل شيخو كافة المقترحات الى والده.

كان الشيخ زوراب سعيدا جدا بمقترح الغجرية بيد انه كان لا يصدق بان ابناءه سيتبنون الاقتراح بهذه السرعة، اذ انه لم تمض أيام قلائل على المقترح، الاّ واصبح الأمر حقيقة. وكانت مشاعر الشيخ زوراب منذ التقائه بالغجرية قد تغيرت تماماً، فالكآبة واليأس والشعور بالكبر قد زالت نهائيا من اعماقه، وحل محلها التفاؤل والمرح والشعور بالقوة، إذ أنه بعد يومين من اللقاء بالغجرية أمتطى فرسه وزار اولاد أعمامه في قراهم المتناثرة وراء جبل بازوخ ويقى عندهم ليلتين بعد انقطاع دام أكثر من سنتين، ولما كان اولئك فقراء وزاروه أكثر من مرةً دون أن يرد زياتهم بالمثل، لذا دفعهم إباءهم ان يقاطعوه، بعد أن ترسخ عندهم الاعتقاد بان الشيخ زوراب قد اغترّ بسبب الغنى والجاه. ويعد أن اعتذر منهم، أكد لهم بان الزيارات ستستمر وان افراد العائلة يجب ان يتماسكوا فيما بينهم، وان الدنيا بدأت تتغير، فهم لابد سيحتاجون بعضهم البعض، ثم اقترح عليهم ان يتركوا هذه الهضبة القفرة التي لا ماء فيها ولا حياة الى وادي كفران. وفي الحقيقة كانت المنطقة جميلة ولها مراع جيدة، بيد أن أراضيها الصالحة للزراعة كانت قليلة

ووعرة. وأهم ما كانت المنطقة تتميز به هو ذلك النبع الذي يتدفق منه البترول منذ الأزل. وكانوا يستفيدون من هذه المادة كوقود ويبيعونها في قِرَبٍ للعشائر الاخرى. ولذلك اقترح عليهم عدم ترك المكان نهائيا، بل الاحتفاظ بقرية واحدة فقط لأنهم يحتاجون النفط.. وكذلك المراعي الجيدة لا يمكن التفريط بها، اذ انهم يحتاجونها للأغنام في الصيف. استقبل أولاد أعمامه الاقتراح بترحاب، اذ كانوا في عوز حقيقي لا يحتمل، ولا سيما لأن محصولهم في تلك السنة كان سيئاً جداً، وتعرضت أغنامهم لهجمات الذئاب الضالة دون ان يستطيعوا حمايتها. واتفقوا مبدئيا على مقترحه على ان ينفذوه في فترة قريبة لاحقة. وأستغرب أقاربه كيف أنه لم يتزوج بعد أن مرّت سنتان على وفاة المرحومة زوجته، وأن رجلاً مثله يجب أن تكون امرأة صالحة في خدمته في هذا العمر، فالبيت بلا امرأة مثل القبر. وأكدوا له أن لهم امرأة صالحة وجميلة من بنات أعمامه لم تتجاوز الأربعين، ولما وقعت عيناه عليها بدأ قلبه يدق بعنف، وتذكّر الجنية (في)، واعتذر لهم مرة اخرى عن هذا الانقطاع الطويل الذي لم يكن له أي سبب آخر سوى الانشغال بأمور الحياة والاولاد ثم الكبر، وأكد لهم أنه سيأخذ مشورتهم بخصوص الزواج بجد، ذلك لأن الزواج هو نصف الدين، وان الفترة التي مرّت على وفاة زوجته كافية بان يتزوجَ بدون تأنيب ضمير. وكان الشيخ زوراب اذ ذاك في حوالي الخامسة والستين من عمره، بيد أنه كان يبدو قويا واصغر بكثير من عمره الحقيقي. وكانت نظرات المرأة التي قد يئست من الزواج، وما زالت تحتفظ بجمالها الصارخ، توحي بالرضا، ولا سيما انها قد سمعت الكثير عن ابن عم أبيها الشيخ زوراب المعروف بمغامراته وجرأته وجاهه.

كان الشيخ زوراب ينظر الى الأرض ويمتص الدخان بشراهة من غليونه وهو يصغي بانتباه لكل ما يقوله شيخو، الذي كان يتكلم بهدوء وقناعة. وكان المضيف خالياً الاّ منهما، حتى أن رمضان قد عرف أنهما مشغولان بحديث خاص جداً، لذلك لم يطأ أرض المضيف، بل تقهقر دون أن يحسا به. كان المعروف عن الشيخ زوراب أن عواطفه رقيقة جدا ويتألم بسرعة، رغم أنه إذا أضطرّ فكان يقتل دون أن يرف له جفن. وفي اللحظة التي انتهى فيها شيخو من حديثه وأكد له بأن ابناءه السبعة يتمنون أن يروا يوم زواجه، شهق بعمق وانحدرت على خده دمعتان. ولم يستطع أن يتكلم، بل انتظر هنيهة ثم قال: «كل شيء بيد الله، فاذا اراد الله ذلك فلا بد أن يكون». قال شيخو: «ان الله يأمر ونحن ننفذ... لقد انتهى كل شيء. ان بيتنا بحاجة الى امرأة أخرى، انت تعرف جيداً ان زوجتي واختي لا تستطيعان تدبير امور البيت لوحدهما. واشغال البيت تزداد يوما بعد يوم. ان زواجك ضرورة، ولكن قل لنا الى أي عشيرة أو بيت ينبغي أن نتوجه لطلب اليد. هذه المسألة لا نستطيع نحن الاولاد حسمها، أنها بيدك أنت...». كانت العادة الجارية أن أحدا إذا أراد ان يتزوج ولا سيما الشيخ، فانهم كانوا لا ينطلقون من مبدأ الحاجة الروحية أو الجنسية

للمرأة، بل لكونها ضرورية لبناء عائلة، أو لأن ادارة البيت تحتاج الى امرأة ولأن الدين لا يكتمل الا بالزواج. وكان كل واحد يعرف في قرارة نفسه ان كل ذلك مجرد تغطية لحاجة حقيقية أخرى، وهي حاجة الروح والجسد الى الجنس الآخر. وكان كل من الشيخ زوراب وشيخو يعرفان جيدا أن هناك حاجة حقيقية الى امرأة تقوم بتدفئة الفراش البارد للشيخ زوراب. وقبل تنبؤ الغجرية بأشهر شعر الاولاد أن أباهم ينفعل بسرعة، ويركن الى الانعزال، ويدخن كثيرا، وغالبا ما يمتطي فرسه ويغيب نهارا كاملا ثم يعود ليلا دون أن يتكلم مع أحد. وتبعه ذات مرة أصغر أولاده كريم دون ان يحسّ به. فرآه من بعيد وقد جلس على صخرة عالية وهو يغني بصوت حزين. وكان كريم يعرف ان والده يجيد الغناء، بيد أنه لا يغني الاّ اذا كانت هناك مناسبة مهمة جدا، فعرف أن والده يعاني من ألم وحزن. ولما طرح ذلك على اخوانه، أكدوا له أنه ما زال حزينا على أمهم، ولكن كريما لم يقتنع بذلك، بل عبّر عن رأيه بصراحة وقال لهم بأنه بحاجة إلى امرأة وانه يجب أن يتزوج وعليهم أن يفاتحوه بذلك. لم يأخذ اخوانه كلامه بالجد، بل اتهموه بالتهور، وأن الوالد إذا أراد الزواج فانه ليس بحاجة الى استشارة الاولاد. ورغم العلاقة الجيدة بين كريم وابيه، إلاّ أنه لم يجرأ على مفاتحته بهذا الخصوص، رغم انهما غالبا ما كانا يخرجان معا الى الصيد. ولذلك عندما اجتمع شيخو بإخوانه للتداول في زواج الأب لم يختر بيت كريم اعتباطا، وعند بدئه بالحديث تطرق الى الملاحظة الذكية التي أثارها في حينه أخوهم الأصغر بخصوص معاناة والدهم، ومنذ ذلك الحين يستشيره في الكثير من الأمور المهمة التي تتعلق بشوون العشيرة، فكما يقول والده أن صغير القوم وإن كان متهورا أحيانا، ولكنه في نفس الوقت يكون حاد الذكاء وسريع الحركة.

قال الشيخ زوراب بانشراح، محاولا اخفاء فرحته بالامر: «أنتم اذن تباحثتم في مسألة زواجي، شيء جميل أن يفكر الاولاد بهذا الشكل بأبيهم. أنا فخور بكم جميعا يا بني شيخو. ان الله سوف يوفقكم جميعا. وإذا كان الأب راضيا عن أولاده فسيرضى الله عنهم أيضاً، وإذا كان لابد من إدخال امرأة الى بيتنا، فينبغي أن يكون واحدة من أبناء عمومتنا، ولا سيما أنهم عرضوا علينا امرأة. فإذا رفضنا ذلك فإن القطيعة تكون هذه المرة نهائية.». وكانت التقاليد الجارية في وادي كفران والعشائر المحيطة به أن عائلة أو عشيرة ما اذا عرضت فتاة إلى عشيرة أخرى، كان ينبغي الالتزام به، اذ أن مثل هذ العرض لا يأتي للتخلص من الفتاة، بل تكريما واعجابا للطرف المقابل، وانطلاقا من مبدأ توطيد أواصر الصداقة والدم.

وواصل الشيخ زوراب كلامه بألم: «لقد نسينا أولاد عمومتنا منذ سنتين ولم نزرهم، يبدو أن امور الدنيا بدأت تنسينا أعزّ الناس...». كان من عادة الاولاد انهم لا يتحدثون في حضرة ابيهم الاّ اذا كان كلامهم ضروريا جداً، أو جوابا لاستفسار، ولذلك كان شيخو يصغي فقط، وبانتباه،

وينتظر أن ينتهي الأب من حديثه. وعندما ينتهي الأب من حديثه يوحي الى الابن أنه قد انتهى منه وأنه يستطيع البدء بالكلام. وكانت هذه العادة جارية بين الأخوان ايضاً، اذ ان أكبر الأخوان كان يعامل معاملة الأب. ولم يأت هذا التقليد نتيجة الفرض بالقوة أو الخوف، بل اقتبسوه من الأجداد، ويسري عادة بطريقة الإيحاء.

وتذكر شيخو أنهم فعلا قد انسوا أقاربهم وراء جبل بازوخ، ولما تأكد أن اباه قد انتهى من حديثه، قال: «شيء مؤسف جدا إننا لم نلتفت إلى ذلك، ينبغي علينا أن نتدارك تقصيرنا، وسوف نتوجه إليهم غدا..». كان الشيخ زوراب لا يتدخل في الشؤون التفصيلية والتنفيذية، بل يتركها لشيخو، وكان واثقا من مقدرته على ذلك. وكان المعروف عن ابناء عشيرة وادي كفران أنهم إذا اتخذوا قرارا، فانه كان ينبغي إن ينفذ في أسرع وقت ممكن، اذ أن ذلك قد اصبح عندهم تقليدا ورثوه من أجدادهم أيضاً، وهم يعتقدون أن القرار الذي يقبل التأجيل لا يجوز تسميته قرارا بل شيئا آخر، وهم ينطلقون في ذلك من مبدأ الطرق على الحديد وهو ما يزال حارا.

وفي اليوم الثاني بدأت الحركة تدبّ في ارجاء وادي كفران، وانتشر خبر زواج الجد الأكبر كسريان النار في الهشيم دون أن يدري أحد كيف، كما واستقبلت العشيرة خبر اعادة العلاقة مع أولاد العم وراء جبل بازوخ بالفرح والسرور، وحملّت البغال والحمير باكياس الحنطة والشعير والبرغل والرز وخصصت ثمانية خرفان وبقرة وتم نقل ذلك كله الى جبل بازوخ، وكانت هذه الهدايا هي في الواقع، بالاضافة الى كونها مساعدة لأولاد الأعمام، مهرا لعروسة الشيخ زوراب. وقاد المسيرة شيخو بنفسه مصطحبا معه رمضان وكريم وزوجته وزوجة رمضان التي ماتت بعد سنتين من ذلك العام. وكان بود الأبناء كلهم مرافقة المسيرة، بيد انهم انطلاقا من نصيحة ابيهم بعدم الظهور بصورة جماعية بسبب عيون الحسد والسوء، لم يستطيعوا تحقيق ذلك. وكان اولاد الأعمام قد نصبوا خيمة سوداء كبيرة لاستقبال الضيوف. وكانت تلك من أجمل الليالي التي عاشتها العشيرة، حيث أن خيمة الإجداد بدأت تلم شمل العشيرة من جديد. وجلس كل من شيخو والشيخ ميرزا ابن عم الشيخ زوراب ورمضان في صدر الخيمة، وكان الفقر باديا حتى على الشيخ ميرزا، رغم انه كان قد ارتدى أحسن ملابسه. كانت الخيمة الكبيرة تطل على واد عميق يشرف عليه جبل بازوخ الخضر، وكان الشتاء القاسي قد ولّى ليحل محله الربيع بشمسه الدافئة وألوانه الزاهية. وقال ميرزا وهو ينظر الى جبل بازوخ الذي اختفت وراءه الشمس: «إذا كانت الجبال لا تستطيع أن تلتقي، فلا بد للأحباب والأقارب أن يلتقوا، إنني الآن لا يهمني أن أموت بعد أن التقينا من جديد تحت خيمة الأجداد.»

كان الشيخ ميرزا، قبل أن تتوسع العائلة وتتحول الى عشيرة تمتد الى وادي كفران وأطراف جبل بازوخ، يعيش مع أولاد أعمامه الآخرين بضمنهم الشيخ زوراب ورمضان في بيت جدهم

الكبير في القرية الواقعة على جبل قاجر. وكانوا اذ ذاك يملكون أعداداً هائلة من الغنم والماعز. وكان جدهم الكبير قد ورث من أبيه هذه الخيمة الكبيرة المصنوعة من شعر الماعز، التي كان يعتني بها أشد العناية ويعيد صيانتها كل عام بنفسه. وكان يقول ان الإنسان يجب أن يبقى طليقا مثل الطيور، فان هذه البيوت التي نصنعها من الصخور والطين تحوّلنا عبيدا للأرض، وأما الخيمة فهي البيت المتحرك الذي يمكننا التنقيل به الى حيث الخير والبركة. وكانوا اذ يتنقلون في الربيع والشتاء الى أقاصي وادي كفران حيث نهر روخانة وأما في الصيف والخريف فكانوا يعودون الى قريتهم حيث المراعي الوفيرة. ولما كان جدهم الأكبر قليل الكلام ويعمل ليلا ونهارا، لذا لم يحتفظ الاولاد بأي نتفة من المعلومات عن ماضيه. كان لا يعرف عن دنياه شيئاً سوى الإشتغال كالبغل، ويقال عنه أنه كان أقوى حتى من البغل نفسه، فقد روت له جدتهم ذات مرة، وربما هذا هو الخبر الوحيد الباقي عن سيرة شباب جدهم الأكبر، أنه سافر في شبابه مع حماره المحمل بالقمح الى قرية قريبة من بغداد تدعى دلتاوه، وعاد بحمل من التمر، وعندما وصلا الى جبل حمرين، فطس الحمار من التعب، فحمل الكيس على ظهره، وحين وصل البيت قال لزوجته أن الحمل لم يتعبه بقدر ما آذته شوكة لعينة في رجله فرجاها أن تساعده في إخراجها من اللحم، ولما عالجت الزوجة الشوكة، تبين أنها ليست شوكة بل مسمار. والظاهر أن هذا الحدث لم يدخل في تقويم العشيرة، ربما لعدم أهميته آنذاك، أو ربما لأن تقويم العشيرة لم يكن قد بدأ بعد. ورغم أن أحفاد الأحفاد لا يعتقدون بصحة هذا الخبر ويعتبرونه ضربا من نسيج الخيال، الاّ أن الكثيرين يؤكدون أنه كان أقوى من الدب وعاش أحداثا أهم بكثير من قصة حمل التمر ولذلك كان يسمى بـ(ناله گورگه) أي نادر الذئب. وحسب ما جاء في روايات جدتهم الكبيرة، فان جدهم الأكبر ناله گورگه كان قد تمرد على بيت ابيه وإخوانه ولم يرث منهم سوى الخيمة وأنه اعتمد على نفسه في جمع ثروته، وكان اذا سأله أحد عن أبيه واخوانه، يؤكد أنه لا أحد له وأنه إنما خرج من الأرض مثل الكمأة. ولم يستطع أحد بما فيه زوجته من سبر كنه سر اعتزازه بالخيمة. ولذلك عندما مات، وأضطر الاولاد لتقسيم الإرث، بعد أن توسعت عائلهم ولم يعد بمقدورهم العيش في بيت واحد، أصرَّ والد ميرزا بأن تكون الخيمة من حصته، ولما كان الوالد قد أوصى في وصيته بأن الخيمة تعادل كل ثروته، لذا فإنها كانت الحصة الوحيدة التي نالها. وتسامح أحد اخوانه وهو والد زوراب واعطاه حمارا ليستطيع نقل الخيمة الى حيث يشاء، وهكذا ورث ميرزا بدوره الخيمة من أبيه.

قال شيخو وهو ينظر في ارجاء الخيمة الكبيرة التي غطت مساحة كبيرة من الأرض، ويشم من خلال خيوطها السوداء الخشنة والمتشابكة بعناية رائحة الأجداد: «ان هذه الخيمة التي كان جدنا الأكبر يحبها بجنون، يجب أن ترى أجمل الأعياد والأعراس، وإننا اليوم جئنا ليس كي نوطدّ

علاقاتنا بالزيارات فقط، بل لنسقيها بدماء جديدة. إننا جئنا نطلب يد ابنة عمنا سنجان.» قال ميرزا بزهو، كما لو كان يتوقع هذا اليوم منذ أمد بعيد: «لقد ابينا ان نسلّم سنجان الى أيدي من خارج عشيرتنا، وها انها تكون عاملا لجمع شملنا من جديد.» وقال رمضان: «ان سنجان لابد ستجلب الخير والبركة الى وادي كفران، وإنني أتمنى أن يأتي ذلك اليوم الذي ننصب فيه هذه الخيمة في أجمل بقعة هناك، حيث سنقضي نحن أولاد العمومة الثلاثة بقية أعمارنا مع بعضنا البعض. هزّ الشيخ ميرزا رأسه الملفوف بقطعة قماش بيضاء عتيقة وقال بفم خال من الأسنان: «هذا ما كنت اتمناه ايضاً، ولا شك سنحقق ذلك في وقت لاحق. إن روح جدنا الأكبر سترقد هادئة حين يبلغها خبر زواج سنجان من الشيخ زوراب...».

كانت الخيمة الكبيرة تعج بالحركة والضجيج مثل خلية نحل، وكانت القدور الضخمة منتصبه في الهواء الطلق تشتعل تحتها النيران، والأبخرة المتصاعدة تنقل أريج الطعام الى النفوس التي تحلم باللحم. وكان الأطفال الصغار باسمالهم البالية واقدامهم العارية يجترون الخبز وينتظرون بلهفة حصتهم من المرق الحار والعظام.

قال شيخو وهو يفكر بالخيمة أكثر من أي شيء آخر: «ان وادي كفران يتسع ليس لقراكم الخمس الصغيرة حسب، بل لأكثر من مائة قرية. ان خيراته لا حدود لها» وأيده رمضان: «ولذلك نزحت أنا والاهل من أعالي جبل قاجر لأستقر هناك، وأقضي بقية عمري بين ابناء عشيرتي...». «حسن، يا أولاد عمي، سنأتيكم، وقد اتفقنا بخصوص التفاصيل مع الشيخ زوراب، ولكننا يجب ان نتمهل، فالعجلة من الشيطان والصبر من الرحمن.» وبعد أسابيع من زواج زوراب، أنتقل ميرزا مع الخيمة وعدد من أقاربه الى قرية بانشاخ.

في احدى الغرف الداخلية الصغيرة الخالية من أية كوة، والتي تضيؤها لمبة زيتية هادئة، كان قد أعد الماء الساخن لاستحمام سنجان. وكان المثل الشائع عند أفراد قبيلة كفران يقول: «ان الانسان يغتسل ثلاث مرات غسلا تاما، مرة حين يأتي الى الدنيا، ومرة حين يتزوج، ومرة قبل أن يدفن». وكانت القابلة العجوز هي التي تقوم بهذه المهمة سواء للنساء أم الرجال الشباب ممن يتزوجون لأول مرة، ذلك لأنها كانت تعطيهم في نفس الوقت تعليمات معينة في عملية ممارسة الحب، اذ أن هذه كانت من اعقد العمليات بالنسبة للشباب والشابات لأفتقادهم لأي تجربة بهذا الخصوص. وبعد أن تم غسل شعرها الاسود الطويل بالگل(*) الذي يستخرجونه من أماكن معينة في جبل بازوخ أزالت العجوز شعر العانة والابطين بمسحوق الزرنيخ ثم وضعت قطعة الصابون التي تستعمل في المناسبات فقط في جوف الليفة المحبوكة بخيوط الصوف الخشنة، وراحت تمسد برقة بيدها المعروقة عنقها وظهرها وساقيها وكل جزء من جسمها الغض الذي ما زال

(*) نوع من التراب الأبيض الهش.

محتفظا بطراوته ورشاقته. وكانت سنجان قد أغمضت عينيها السوداوين الواسعتين وهي تتمتع بالمساج الذي لم تعهد به من قبل. وكان الخدر اللذيذ يسري ببطء في كل عصب وشعرة ليتجمع في مكان ما من مجاهل جسدها، وبعد أن انتهت العجوز من مسد الابطين برقة متناهية مررت الليفة المغطاة بالوغف الكثيف من بين نهديها النافرين ببطء متناه ثم نزلت عبر بطنها الاملس الى العانة، ولما كان الساقان متلاقيين بتشنج غريزي، مدت العجوز يدها اليسرى الى طيهما قائلة بصوت أمومي دافئ: «لا داعي للتشنج يا ابنتي، رخيّ ساقيك، وحذار أن تشنجيهما حين تكونين في حضن الرجل ولا داعي للخوف ابدا... انك ستستقبلين أجمل لحظات حياتك..». وعندما أرخت ساقيها، بدأت العجوز تمسد العانة وحواليها برقة أكثر من ذي قبل، وفي نفس الوقت كانت تمسد عنقها بيدها اليسرى لتنحدر بها فيما بعد الى نهديها. وأحست سنجان بالدماء تفور في جسدها وبلذة غريبة تنتشر في جوفها، وقبل أن ترتعش أمسكت العجوز بحركة لا ارادية وراحت تتأوهً، قالت العجوز وهي تضغط بيمناها على العانة وتمسك بيسراها نهدها: «هذه علامة جيدة يا ابنتي، انت ما زلت محتفظة بقوة الشباب، ولا تقلقي أبدا، ستكونين سعيدة جدا مع الشيخ زوراب، انه رجل قوي. والكبار هم أحسن بكثير من الصعاليك الصغار الذين لا يفرقون بين الفرج والصرة..» وكانت سنجان ما زالت تحت تأثير الرعشة، فراحت العجوز تصب على جسمها الماء الدافئ ثم تنشفه بقطعة القماش القطني. قالت وهي تساعدها في ارتداء ملابسها: «ان زوجك خبير في هذه المسألة ولذلك سوف لا تعانين أي مشكلة، أطيعي زوجك واخدميه وافعلي ما يريده ولا تتهالكي عليه حين تكوني أنت راغبة، بل يجب عليك ان تبدي قليلا من التمنع دون المقاومة، ولا تدخلي معه الفراش الا وانت متأكدة من نظافتك، يكفي ان تغسليه قبل وبعد المجامعة بالماء الدافئ. وأما في أيام العادة، فمهما الحَ عليك فلا تقتربي منه، مهما كانت رغبتك أنت شديدة. وبعد ثلاثة أسابيع أو أشهر وبعد أن يزول الخجل نهائيا، وربما يزول الخجل بعد أيام قليلة، يجب عليك أن تساعديه انت ايضا اذا كان راغبا في المجامعة، اذ أن الكبار في السن ليسوا مثل الشباب، انهم بحاجة الى المساج والتدليك، وعليك ان تكتشفي الاماكن الحساسة في جسمه، ويمكنك أن تسأليه ايضا. ان هذه المسائل ليست من الامور المعيبة يا ابنتي. وان كافة الانبياء والاولياء قد احبوا وتزوجوا وتجامعوا وانجبوا، فالحياة بلا مجامعة لا يمكن أن يستمر، وهذه هي سنة الحياة شئنا أم أبينا، ولذلك لا خجل في هذا الشيء».

كانت العادة الجارية في عقد القران هي أن العريس والعروسة لا يتخاطبان أمام الشاهدين والملا مباشرة بل يخولاَن أقرب المقربين اليهما للتحدث بأسمهما، وكان الملاّ يسأل الطرفين ما اذا كانا فعلا قد خولاّ الشخصين، فبالنسبة للشيخ زوراب كان واضحا بأنه قد خولّ شيخو للتحدث باسمه ولذلك لم يتوقف عند هذا الطرف ولكنه أراد أن يتحدث بنفسه مع سنجان. وعندما

دخل عليها الملا كانت قد انتهت من تناول طعام الفطور، فبدت له بملابسها الزاهية التي جلبتها معها زوجة شيخو كما لو أنها أميرة من أميرات بابان، وتلعثم الملا ثم ضبط كلماته وهو ينظر الى الارض خجلا: «هل أنك خولت الشيخ ميرزا للتحدث باسمك؟». قالت باعتداد وثقة: «نعم ايها العم الملا...» وهل أنت موافقة على أن يعقد القران بإسمك؟». «نعم ايها العم الملا؟». قال الملا بخجل وهو ما زال ينظر الى الأرض: «سؤال أخير يا ابنتي... هل أنت خولتيه بمحض ارادتك أم اجبرت على ذلك؟». «كلا لم يجبرني أحد على ذلك ايها العم الملا..».

بعد أن انتهت مراسيم عقد القران في الخيمة الكبيرة التي كانت تغمرها أشعة شمس الربيع، تعانق الجميع رجالا ونساء، وراحوا يوزعون الملبّس والحلويات. وكانت الخيول قد جهّزت لمرافقة العروس. وعندما امتطت سنجان الفرس المعّد لها بمساعدة شيخو، ذرفت أمها وقريباتها الدموع. وكانت علامات الفخر والبهجة بادية على الشيخ ميرزا وهو يرى شيخو ممسكا بزمام فرس العروس يرافقها مشيا، ولم يستطع هو الآخر التغلب على دموعه التي تدحرجت على لحيته البيضاء. وظلّوا يلوحون بايديهم الى أن اختفوا وراء التلال.

كانت المسافة بين قرية بانشاخ وبازوخ مشيا لا تتجاوز نصف نهار. وعندما أشرفوا على وادي كفران، كانت الشمس قد بلغت منتصف السماء وهي تنشر الدفء في كل مكان. وكانت أعمدة الدخان تتصاعد عالية من قرية بانشاخ التي تعج بالحركة والضجيج. وكانت الخيام السوداء المنصوبة في الساحة الواسعة امام دار الشيخ زوراب العاجةً بالاطفال والنساء والرجال، والتي تحيط بها القدور الكبيرة التي تتصاعد منها الابخرة المشهية، تعلن ميلاد العرس غير المعلن، اذ أن العادة الجارية في مثل هذه الحالات من زواج الارامل، أن العرس يتم بصمت وبدون رقص، وذلك تكريما لروح الفقيدة وعدم ازعاج الاولاد. وكانت مشاعر زوراب تتضارب بين نقيضين من العواطف، الفرح والحزن، ففي الوقت الذي تلوح أمام ناظريه صورة المستقبل وحياته الجديدة مع سنجان، كانت تنتصب أمامه صورة الماضي مع زوجته الفقيدة التي كان يحبها بصدق. بيد أن إحدى العاطفتين ينبغي أن تتغلب على الثانية، والا يستحيل حسم الامور. ورأى أن أولاده فرحون جدا. وعندما لمح شيخو وهو يمسك بزمام الفرس ويرافق العروس مشيا، زادت ثقته به، وتأكد أن الامر لم يعد خيالا، وها أن سنجان تأتي كما لو أنها مَلَكٌ نازل من السماء. وخفق قلبه، ولأول مرة في حياته يحسّ بأن النهار يطول. وكانت رغبته في الانفراد بها جامحة..

«لا تجهد نفسك كثيرا، فانك ستحتاج قوتك هذا المساء يا شيخ زوراب». كان ذلك آخر الكلمات التي سمعها هذا اليوم من رمضان، وها أنه يودع النهار بضجيجه ويغلق عليه الباب دون أن يكون قد أجهد نفسه فعلا، وها أنه وحده مع سنجان تحت سقف واحد. ويبدو له كل شيء مثل الحلم. وتسارعت الذكريات في ذهنه وهو ينظر الى عينيها الواسعتين اللتين أنشدتا خجلا الى الارض، وهي تجلس على الفراش الوثير الواسع على الأرض في ركن الغرفة التي تضيئُها شموع

ملونة كبيرة تفوح منها رائحة البخور وتختلط برائحة الخزامى المنبعثة من جسمها. أنجز صلاته بسرعة ثم نزع لفافة رأسه وفك حزامه والقى سترته جانبا بحركة سريعة. كان شعره الابيض الطويل مسترسلا بعناية على كتفيه. كانت مشاعره هي نفس المشاعر التي اجتاحته ليلة زارته الجنية «في»، بيد أن الفرق الوحيد بينهما هو اللون، هنا العيون السوداء والشعر الاسود الداكن مثل ظلام ليالي وادي كفران، واللون الاسمر الفاتح بلون القمح. كان الشيخ زوراب حين يغني ينظم أشعاره بنفسه، أو يرى جموع الغزلان وهي تعبر آوه سبي. وكان يجيد مقام الله ويسي الذي يتفنن في أدائه بصورة لا يبزه فيها أحد.

وكان اذا غنى في ليالي الصيف فان وادي كفران وكل المناطق المحيطة به تردد صداه. قال لها وهو يمسك برفق يديها الباردتين انفعالا: «سنجان كم هو قاس هذا الزمن، وكم هو رحيم في نفس الوقت، اني أذكرك طفلة تركض وراء الفراشات في الربيع، وانا فتى أشق الافاق بجوادي مثل السهم، والان؟... ما أغرب الزمن، ها أنت أمرأة ناضجة، تشرقين في وادي كفران فتغار منك الشمس، وتبزين القمر بجمالك، حتى ليبدو تعسا حزينا يذرف الدموع.. وأما انا فماذا بقي من عمري، ولكن هذا العمر الجديد معك سيعادل الحياة كلها يا ابنة عمي...». كانت الدماء الحارة قد بدأت تسري في يديها الباردتين، بيد ان الخجل كان لا يزال طاغيا عليها، وكان كل شيء غامضا ورهيبا بالنسبة اليها، الاَ أن الخدر المتسرب من انامله التي تداعب باطن كفها، كان يبعث فيها الاطمئنان والالفة. كانت رائحة الخزامي تثيره، قال لها وهو يزيح الشال من رأسها ويداعب عنقها: «اني اريد أن ارى وأشم هذا الشعر الحريري الاسود، وارى عينيك فلماذا تبخلين عليَ بهما..».

ونظرت اليه بثقة، ولكنها لم تتمالك دموعها، وتذكر دموع زوجته الاولى حين دخل عليها لأول مرة. دفعها برفق لتتكئ على الوسائد العالية، فقبلها من جبينها ثم من عينيها ففمها ثم وضع رأسه على نهديها، وقال متنهدا: «والآن اذا مت في هذه اللحظة، فانما أموت وانا أسعد إنسان على الأرض.» كانت هي تحس بالدفء والراحة وبسعادة لذيذة تغمر كيانها، وطوقها بذراعيه ثم فك الصدرية التي كانت تشد النهدين ودفن رأسه بينهما، وراح يمسد بطنها، كانت انفعالاتها قد زالت، وأحس بيديها تطوقانه أيضا، وخدرته رائحة الخزامى المنعشة، وتسللت يده الى ما بين فخذيها، وكانت انفاسها العبقة برائحة النعناع تلهب عنقة، قال بصوت شهواني: «هل تحبين أن نبدأ الآن، أم انت متعبة؟».

وعندما تعرت، كان جسدها القمحي يلمع تحت ضوء الشموع، وتذكر الجنية «في»، ترى أين هي الآن، ومن الذي يعاني العذاب بين يديها؟ وعندما مسك كتفيها بيديه القويتين بعنف، عرف أنها أكثر دفئا من الجنية. وحين دفن نفسه في أحشائها، كانت تشتعل هي الأخرى مثل البركان. ولم يدر، ولا هي كانت تدري، بأن الليلة بكاملها ستختصر بهذا الشكل، وبأنهما لن يجدا الوقت حتى لغفوة صغيرة. وما فائدة مثل هذه الليلة ان كانت تنقضي بالنوم.

٤

كان الربيع قد ولّى هاربا امام قيظ الصيف الذي أطل فجأة على وادي كفران. وكان اللون الاخضر قد تحول في كل مكان الى أصفر ذهبي، تزيده أشعة الشمس الملتهبة لمعاناً، بيد أن أزهار السوسن والقرنفل البري والختمة والبابونج كانت لا تزال تثبت وجودها بألوانها الحمراء والوردية والبيضاء كما لو أنها تريد أن تثبت بأن الربيع لم ينهزم أمام الصيف، على أن العوسج باشواكه الصفراء الحادة وهاماته الخشنة المنتصبة كان يثبت عكس ذلك. وكان شريطان من الاشجار الخضراء المحيطين بنهر آوه سبي، واللذين تتخللهما ثغرات من البقع الرملية أو صخور ناتئة بيضاء، يشقان البساط الاصفر المتموج، ويتلاشيان عند مضيق خورنەوزان.

كانت درجات حرارة تتصاعد مع زحف الشمس الى كبد السماء. وعندما كانت الشمس تبلغ منتصف السماء، تتلاشى الظلال، وتسقط أشعة الشمس عمودية مثل كتل من النار تلهب كل شيء. وكانت اسراب البط البري والطيور المائية والقطا والقبج تركن الى ظلال الاحراش الكثيفة التي تتخللها شجيرات الدفلة وعرق السوس والتي انعزلت في جزر صغيرة متقاربة بين الماء والجرف العالي على امتداد الضفتين بحيث انقطعت عن عالم الانسان والحيوان، أما الذئاب والضباع والثعالب وبنات آوى فكانت تتقي شر القيض في أوكارها المجهولة في شقوق وكهوف الاجراف الصخرية الهائلة المطلّة على النهر في جنوب وادي كفران، ولا تظهر إلاّ بعد جنوح الشمس الى المغيب.

وفي بعض المناطق من جانبي النهر، ولا سيما في الجانب الايمن، تنتشر حقول الرقي والبطيخ وخيار الماء (ترعوزي) على السواحل الرملية التي تنحسر عنها المياه في الصيف، وتتناثر هنا وهناك الاكواخ المصنوعة من القصب وأغصان الاشجار وأما في المنطقة الساحلية المرتفعة بعض الشيء والتي لا تصلها مياه الربيع فتمتد حقول السمسم والدخن التي تحاذيها من جهة النهر مستنقعات الرز التي تم تحويل المياه عنها.

كانت عملية الحصاد الجماعية قد انتهت منذ أيام قلائل، وكانت أكوام البيادر المتناثرة بالقرب من القرى تبدو مثل أهرامات هائلة، تدور حولها الجراجر الثقيلة التي تجرها البغال. وثمة في أماكن أخرى أكوام من التبن، تنتظر هبوب الرياح، حتى يعزل عنها القمح.

قال الشيخ زوراب وهو يفترش لبادا خفيفا في الكبر الذي تحيط به البيارد من كل الجهات:

«اننا يجب ان نعمل ليلا ونهارا للانتهاء من درس المحصول وخزنه، ان هذه الوفرة في المحصول هذه السنة تخيفني جدا. كان الجو منعشا ولطيفا في الظل الكبر وكان مجلسه يضم شيخ رمضان والملاّ وميرزا. وكان صمت الظهيرة لا يشوبه سوى صرير عجلات الجراجر الحديدية التي تدرس حزم الهشيم اليابسة، والذي يختلط بأصوات رستم وقادر وعباس، وهم يحثون البغال على الحركة. قال رمضان وهو يصب اللبن البارد من القربة الممددة على صندوق خشبي: «كل شيء محتمل. ان شيخو في كل الاحوال يجب ان يذهب الى مركز السنجق لاستلام الفرمان، لذلك أرى أن يأخذ معه كمية من القمح والبقول وعدة رؤوس غنم ويسد بها أفواه الموظفين الكبار. وخلال الاسبوعين القادمين يجب أن نعمل المستحيل من أجل رفع المحصول وإخفاء آخر حبة. ان الحصّادين القادمين من هورامان يتحدثون عن وجود تحركات بين الاغوات، الله يسترنا من المشاكل». وجه الشيخ زوراب كلامه الى شيخو: «وانت غدا اذا واجهت القائمقام أو أي مسؤول آخر تقول أن وادي كفران لا يوجد فيه رجال. هنا لا يوجد سوى عجائز ونساء واطفال، واذا كان لا بد من التسجيل في الجيش، فسنذهب أنا وميرزا والملا رمضان، وعند ذلك سنفتح لهم جنا قلعة».

ها أن القرار الذي أتخذ يوم أمس، جرى تنفيذه اليوم بكل حذافيره. شيخو ورمضان ورستم وقادر وعباس يرتدون أحسن الملابس ويمتطون خيولهم تصاحبهم مجموعة من الاغنام والحمير والبغال المحملة بالحبوب. وقفوا أمام المنارة القديمة دون أن يبدو عليهم التعب، وكأنهم لم يقطعوا نصف نهار، وراح شيخو ورمضان يتشاوران حول الطريق الذي ينبغي عليهم أن يسلكوه الى مركز السنجق. كان يرى أنه من المستحسن أن يذهبوا الى الخان ويؤجروا عدة غرف لسكنهم دون أن يزعجوا أحدا، بيد أن رمضان عارض بشدة وهو يهدئ حصانه الذي كان يخاف من أزقة المدينة الضيقة، قال: «لا يا شيخو ان ذلك اهانة لأقاربنا، انهم سيجنون اذا فعلنا ذلك.». قال شيخو باستياء: «نحن قافلة يا عمي رمضان، لا يتسع لنا أي مكان غير «الخان». «ان بيت الرجل أكبر من الخان يا شيخو، هل تريد ان تخلق لي مشكلة مع أخوالي؟.. ألا تعرف انهم من أكراد «لك» المتعصبين في مثل هذه القضايا؟ هيا لنتخذ هذا الاتجاه، ان هذا الموضوع لا يحتمل أي نقاش..». كانا لم يأتيا الى مركز السنجق منذ مدة طويلة جدا، وذلك انطلاقا من مفهوم، لا ترى الشيطان ولا الشيطان يراك. وكانوا اذا احتاجوا شيئا مثل القهوة وأوراق اللف والاقمشة أو السكاكين والابر فيشترونها من الباعة المتجولين من اليهود. كانت المدينة صغيرة يقطعها شارع رئيسي مبلط، انتصبت على جانبيه أشجار التوت، وكانت ثمة في مركز المدينة من الجهتين المتقابلتين بنايات ذي طابقين بشرفات تطل على الشارع، ومقاهي اصطفت مقاعدها على الرصيف، أندهش الصبيان لكل هذه الاشياء الجديدة التي لم يعهدوها من قبل،

واندهش رستم للجدول الذي تتدفق مياهه من تحت الشارع مباشرة، وصاح بصوت عال: «عمي شيخو، أنظر، ان هناك نبع تحت هذا الشارع». قال شيخو: «هذا ليس نبعا يا رستم، انه جدول يتفرع من نهر روخانه، وهذا الذي نمر فوقه هو جسر، سوف اريك المدينة كلها فيما بعد». وأوقف بعض المارة الاولاد وهم يسألونهم بلغة كردية مكسرة ما اذا كانوا يبيعون بضائعهم، فبادر رمضان قائلا: «يا اخوان نحن لسنا تجار، هذه هدايا لأقاربنا..» وكانت ثمة بالاضافة الى الدكاكين المحيطة بالمقاهي جامع تقابله (قيصرية) سوق مسقفة ببوابتين كبيرتين تحتوي على حوالي عشرين دكانا يعود معظمها لليهود.

ومن مركز المدينة انعطفوا الى طريق جانبي يمتد بمحاذاة الجدول وبلغوا ورشة حدادة، حيث عدة رجال بعضلات قوية يضربون قطعة حامية من الحديد بمطارقهم الثقيلة. وكان الصبيان ينظرون بافواه مفتوحة من الدهشة لكل ما يجري حتى أن أحدهم كاد ان يقع في الجدول. قال شيخو وهو يساعد الصبيان في لم شمل القافلة الصغيرة: «اعتقد اننا يجب ان نبقى عدة أيام في المدينة، الخيول تحتاج الى حداو جديدة كما ونحن بحاجة الى مشتريات كثيرة، لذلك أخشى أن نزعج أخوالك..» قال رمضان بلهجة قاطعة: «لقد انتهينا من مناقشة هذا الموضوع يا شيخو فما هذا الالحاح، هل تعتقد أن كل من عاش في المدينة ينسى تقاليدنا، انك ستراهم بعد قليل بأم عينك، فإذا لم يعجبك الوضع فإن باب الخان مفتوح ليلا ونهارا.» وانعطفوا الى زقاق ضيق ببيوت طينية واطئة بدون نوافذ وبابواب خشبية ضخمة تعلوها فوانيس معلقة، وكان رمضان يتقدمهم مثل الدليل وهو ينظر يمينا ويسارا ليتأكد من الباب الذي يقصدونه وأما شيخو فظل في المؤخرة. وفي نهاية الزقاق وقف رمضان مؤشرا بيده الى شيخو وهو يترجل من على ظهر حصانه. كان الباب كبيرا أكبر من الابواب الاخرى بكثير ومفتوحا، ويطل على باحة واسعة ربطت فيها بضعة خيول وبغال وحمير، وفي الجهة المقابلة غرف بهول يعلوه طابق علوي بنافذة تطل على الحوش. ومن الجانبين أمتد صف من الزرائب ومخازن الحبوب والتبن، أمتدت بينها وبين البوابة المسقفة غرفة كبيرة يطل منه صفٌ من الكوى الصغيرة على الباحة.

كانت الشمس المطلّة من كبد السماء ما زالت لم تعلن بعد حلول الظهيرة، اذ أن ظلال الجدران الممتدة على مساحات واسعة من الباحة كانت تقاوم القيض، وتنشر جوا منعشا في ارجاء الباحة التي يخيم عليها الصمت الذي سرعان ما كدّره نباح الكلاب الهائجة التي أثارها ضجيج الضيوف. وخرج من المضيف بسرعة رجل حاسر الرأس يرتدي ثوباً ابيض طويلا أعقبه شابان، وهدأت الكلاب. وهرع الرجل الى رمضان وهو يعانقه بقوة. وبعد أن تعانق الرجل مع الجميع، أشر الى الشابين بالعناية بالخيول وانزال الحمولة، ثم جلب من احدى الزرائب بسرعة خروفا ذبحه أمام شيخو وهو يقول: «أمنية عمري لم يحققها الشيخ زوراب بنفسه، ولكن لا يهم فسواء

أجاء هو أم ابنه شيخو بك انه سيان عندي». ثم قاد الجميع الى المضيف وهو يكرر ترحابه بهم، وبعد أن اتخذوا أماكنهم، وفي الوقت الذي كان الشابان يسقيان الضيوف باللبن، قال: «منذ ثلاثة أيام وانا عيني على الطريق أنتظر قدومكم، فقد حدثني اليوزباشي عن كل شيء يا أهلا بكم فقد قرّت عيني ورفعتم رأسي، انني هنا افتخر بكم دوما أمام وجهاء المدينة، ولكنكم أنتم لا تسألون عنا..». قال رمضان وهو ينظر الى شيخو الذي بدت على وجهه علامات الدهشة لهذه المفاجأة التي لم يتوقعها: «ان وجودنا الان هنا في بيتك دليل على اننا لم ننساك.» قال وهو مازال منفعلا من الفرح: «ان هذا ليس بيتي يا رمضان انه بيتكم أنتم، لقد رفعتم رأسي، وكيف هي حال الشيخ زوراب؟ الا يستطيع أن يترك وادي كفران ويزورنا هنا لعدة أيام؟». اضطر شيخو أن ينافق فقال: «انه يسلّم عليك كثيرا، ويستفسر عن أحوالكم ويتمنى كثيرا أن يلتقي بكم، ولكنه قد كبر في السن، ولا يستطيع تحمل عناء السفر، ولكنني أرجو ان يكون لقاءنا هذا بداية لزيارات مستمرة، فالدور الان لكم لزيارتنا في وادي كفران.».

كان شيخو يتردد الى هنا مع رمضان في صغره قبل اعوام طويلة، ولّما كبر وتجاوز العشرين انقطعت العلاقات معهم فجأة، وقد حصل ذلك بعد مشادة عنيفة بين رمضان والشيخ زوراب، إذ ان هذا كان يتهجم على خال رمضان (جهانگير) منذ أن بدأ يشتغل بالتجارة ويتهمه بالتعامل مع اليهود وممارسة الربا. وقطع علاقته معه نهائيا بعد أن قرر السكن في مركز السنجق. وكان يعتبر كل من يعيش في المدينة فاسقا لا دين له، ولذلك كان يرفض زيارة المدينة والاختلاط بأهلها. وعرف شيخو ان رمضان لم يقدهم الى هذا اعتباطا او لمجرد رغبته الشخصية، وإلا فانه سيدفع الثمن غاليا أمام والده، فالزيارة اذن جاءت بالتأكيد بموافقة الشيخ زوراب، ثم ان الشيخ زوراب نفسه لو خيّر بين الخان ومنزل جهانگير لنزل عند جهانگير فلكل شيء حدوده وتقاليده، ولذلك فإنه بتصريحه الخطير بدعوة جهانگير الى وادي كفران قد وضع حداً للقطيعة بين العائلتين، وهذا هو أول قرار يتخذه شيخو دون الرجوع الى والده. ورغم ان الشيخ زوراب كان حادا جدا في تقييماته واتهاماته، الاّ انه كان يلين بسرعة، ولا سيما اذا كان محدثه لا يعانده ويسكت أمامه، وكان رمضان يعرف هذه الحقيقة أحسن من اي شخص آخر. وفي النهاية كانت الغلبة تكون عادة لرمضان، اذ انه يتحاجج بهدوء، ذاكرا الامثلة الملموسة. فعندما كان الشيخ زوراب يتهم جهانگير بالكفر والزندقة لاشتغاله بالتجارة والتعامل مع اليهود يقول له رمضان الذي كان بدوره قد حفظ الكثير من أقوال الملا فيما يتعلق بالدين: «حسن يا شيخ زوراب، يا ابن عمي، هيا لنذهب الى الملاّ ان كنت لا تصدق كلامي..» وكان الشيخ زوراب بطبيعته لا يحب اللجوء الى الملا لإستشارته، فيضطر للسكوت أمام رمضان فيقول هذا بعد ان تغمره نشوة الانتصار: «يا شيخ زوراب، ان الله قد وزّع الاعمال بين الناس وجعلهم يمارسون أعمالاً مختلفة

منذ الازل، فما الداعي ان تعتبر أنت مهنة الفلاحة أشرف المهن؟.. اننا في داخل وادي كفران نستطيع ان نعيش كما نريد، ونفكر كما نشاء، ولكن أن نطلب من كل الناس بما فيها الدولة ان تفكر وتعيش مثلما نفكر ونعيش نحن، فهذه مسألة غير ممكنة يا شيخ زوراب». ويفكر الشيخ زوراب، ويهزّ رأسه ثم ينظر الى رمضان باستكانة، ويقول بمرح طفولي كما لو أنه عثر على شيء سبق أن فقده منذ مدة طويلة: «أنا افهم كل شيء يا رمضان، ولكنني لا أفهم شيئا واحدا فقط، إلا وهو لماذا لم يجعلوك مفتيا لولاية الموصل؟».

قال جهانگير بعد أن لف رأسه بيشماغه وشد حزامه المتكون من قطعة قماش ملّونة طويلة يبلغ الذراعين، وكان يبدو عليه انه لم يتجاوز السبعين: «اذا كان الشيخ زوراب لا يستطيع السفر، فانا سأسافر اليه، انني مشتاق اليه والى كل الاهل والعشيرة.». ولاحظ شيخو أن الرجل صادق في مشاعره، وان المدينة لم تؤثر عليه، وحتى طريقة معيشته لم تتغير، وبدا كما لو أنه حمل داره بكل تفاصيلها ونقلها بقوة سحرية الى المدينة، فقال «سنرحب بك هناك، وان الجميع مشتاقون اليكم».

كان جهانگير مطلعا على كل الامور، اذ أنه بحكم احتكاره لتجارة الحبوب والاغنام، قد أوجد صلات متينة بكل الاجهزة الادارية بما فيها الجيش، كان يزودهم بالحبوب واللحوم، وكانت علاقات التجارية قد بلغت حتى مركز ولاية الموصل. وقد حاول في حينه مرارا وتكرارا شراء القمح والاغنام من وادي كفران، ولكن الشيخ زوراب لم يفسح له المجال رغم اغراءاته المالية الكثيرة، ويتحجج بأنهم هم يحتاجون منتوجهم وبأنهم ليسوا بحاجة الى النقود. وكان جهانگير قد بدأ حياته التجارية كبائع متجول وشريك لتاجر يهودي ثري. وبحكم علاقاته المتعددة ولا سيما مع كافة العشائر في المنطقة ولباقته وكونه المسلم الوحيد الذي راح يزاحم اليهود والارمن في التجارة، صعد نجمه وصار وجيها يؤخذ برأيه في كل الامور. ولما جاءت الاوامر المشدّدة من السلطان بضرورة الحفاظ على التجارة من عبث غير المسلمين، وبتمليك الاقطاعيات لرؤساء العشائر ودعمهم، وضمهم كأعضاء لمجالس الولايات والسناجق والنواحي، ارتفع نجم جهانگير أكثر فأكثر. وبعد أن جرى ضمه الى مجلس مركز السنجق، ازدادت نشاطاته، فاستطاع في فترة قصيرة جدا جذب أكثر من خمس عشائر كردية الى فلك السنجق، وذلك بتمليك رؤسائها الفرمانات الصادرة من الباب العالي، بعد أن كانت تعيش هذه العشائر منعزلة عن الدولة المركزية، يصعب الاحتكاك بها بأي وسيلة مهما كانت. ولكي يضمن صلة هذه العشائر بالدولة اقترح على القائمقام، بتمليك امتدادات من الاراضي السيحية لرؤساء هذه العشائر وتشجيعها على بناء قرى قريبة من مركز السنجق، على ان تقوم الدولة بتقديم كافة التسهيلات لبناء بيوت حديثة في هذه القرى لسكن الاقطاعيين الجدد.

قال جهانگير بتواضع وهو يحكَ رأسه: «لا داعي للاستعجال، فأنتم هنا في بيتكم، دعونا اولا نشبع من رؤيتكم. اليوم سترتاحون وسنتحدث في كل شيء بالتفصيل، سأدعو كل من القائمقام واليوزباشي وشلتهما الى وليمة على شرفكم، واما القضايا الرسمية الاخرى مثل استلام الفرمان والتوقيع عليه، فهناك يوم متفق عليه. ارتسمت علامات الدهشة على وجهي شيخو ورمضان وقال هذا باستغراب: «يبدو انك يا خالي تملك السلطة، هذا أمر مفرح جدا.» قال جهانگير بصوت واثق من نفسه: «اذا كنت تملك المال فان الكل سيركض وراءك، ولكنك يجب ان تعرف كيف توزع المال على هؤلاء كي تربطهم ومن ثم تحركهم كيفما تشاء». كان الاثنان ينظران اليه باستغراب ويفكران بعمق لما يقوله. وقال رمضان هازا رأسه وكأنه يخاطب شيخو: «هل رأيت؟ هذه فائدة الاختلاط باليهود، ان خالي يتكلم مثل اي افندي من اصحاب الطرابيش..» قال جهانگير: «هناك الف قول، ولكن قولا واحدا منه فقط ذا فائدة، والان لنتكلم كلاما ملموسا ونقلب الأمر من كل جوانبه، ولذلك كنت اتمنى أن يكون الشيخ زوراب بيننا حتى نتوصل الى قرارات قاطعة لا تقبل المناقشة والتأويل.» قال رمضان : «اننا جئنا لهذا الغرض، وان شيخو بك يستطيع أن يحسم الامور بدون الرجوع الى الشيخ زوراب، فهو الآن رئيس العشيرة الرسمي، ولذلك نستطيع أن نتفق فيما بيننا على الكثير من المسائل قبل اللقاء بالموظفين. كان رأي الشيخ زوراب هو ان نستشير اليوزباشي، ولكنك اذا كنت عليما بخفايا الامور فلماذا التوجه الى الآخرين.» قال شيخو مكملا كلام رمضان: «واننا على ثقة بأنك لا تريد سوى مصلحتنا ايها الخال جهانگير.» قال جهانگير بإرتياح: «الله يعلم ذلك ايضا وسترون النتائج فيما بعد بأم أعينكم، ولنبدأ كلامنا خطوة خطوة، ان وادي كفران لا يستطيع أن يغلق أبوابه في وجه الدولة الى الابد، لقد ولّى ذلك الزمن، فأنتم بحكم موقعكم يجب أن تتوكأوا على احد الطرفين، فإذا بقيتم تسدون أبوابكم في وجه الباب العالي سيكون الاعتقاد لديهم كما لو انكم تريدون التوكؤ على الفرس، والا فالانعزال التام غير ممكن من الان فصاعدا، أنتم تخافون على رجالكم وتخفوهم من اعين الدولة بمختلف الوسائل، ان الدولة اذا ارادت فإنها تستطيع ان تلتقطهم واحدا واحدا. هذه لم تعد مشكلة ابدا فالسلطان عبد الحميد حفظه الله الذي شاء الله ان يجعله خليفة على المسلمين قد أهتم شخصيا بهذه المشكلة التي دوّخت الجميع، ولذلك أحيا نظام (التنزيمات) من جديد وراح يطلب بتطبيق نظام (الخرج)» قال رمضان مقاطعا «كنت اتمنى لو كان الشيخ زوراب بيننا الان، هل تدري ماذا كان يقول؟ كان يقول، لماذا لم يعينوك مفتيا على ولاية الموصل يا جهانگير؟ على كل حال اشرح لنا نظام الخرج بالتفصيل يا خالي، ثم هدئ من روعك بعض الشيء فاننا لا نفهم كل شيء كما تتصور.». استرسل جهانگير وهو يحس بالزهو: «الخرج هو نوع من الضريبة تدفعونها للدولة لاعفاء اولادكم من الخدمة في الجيش، وهذا القانون يشمل المسلمين

فقط، وبهذا تتخلصون من مشكلة اخفاء الاولاد في الجبال والوديان.» قال شيخو بارتياح: «وهل يحتاج الاعمى الى اكثر من عين واحدة؟ هذا كل ما كنا نريده» هزّ رمضان رأسه وعقب: «نحن في وادي كفران مثل العميان، لا ندري بتاتا بما يجري حولنا». قال جهانگير كما لو أنه كان يتوقع هذا التصريح: «هذا ما كنت افكر فيه، ولكنه شيء جميل ان تدركوا ذلك الان على الاقل، ولذلك فانني تكلمت بهذا الخصوص مع جناب القائممقام الذي يملك صلاحيات مطلقة في هذا المجال وطلبت منه أن يولي وادي كفران اهتماما خاصا ولا يعامله كبقية العشائر، اذ انه بالاضافة الى كونه عشيرة كبيرة، يقع مباشرة على الحدود، كما وهددته بأن أقل ضغط على وادي كفران كفيل بأن يعلن العصيان فيلتجئ الى الفرس، وأنتم من جانبكم يجب أن تقدروا هذه المسألة وتوطدوا علاقتكم بالدولة، ولكي لا تبقى العشيرة منغلقة على نفسها بين جبال وادي كفران، قرر مجلس السنجق، تحويل مراعيكم الممتدة الى نهر روخانه الى أرض زراعية، كما وعليكم تعمير قريتكم المهملة على نهر روخانه، والا فإن هناك عشائر اخرى تتربص بها، ولا سيما عشيرة البابائيين الذين راحوا يتوسعون على حساب جيرانهم». قال رمضان بدهشة: «انت تتحدث يا خالي كما لو انك الوالي بنفسه، من اين تعرف كل هذه الاشياء؟». قال جهانگير مبتسما بزهو: «يا ابن اختي، انني اعيش في هذه المدينة منذ عشرين عاما، لم يبق رجل في الدولة لم اوثق علاقتي به، لقد تعلمت من كل واحد من هؤلاء، وانا الان منذ ستة أشهر عضو في مجلس المدينة، والقئممقام يعتمد عليّ في كل شيء يتعلق بالعشائر التي كانت بالنسبة لهم لغزا يصعب حله، وعندما يتسلم شيخو بك الفرمان يكون هو الآخر إن شاء الله عضوا في المجلس.»
كان شيخو ورمضان يتبادلان النظرات بدهشة واستغراب، ويتحدثان الى بعضهما باشارات خاصة من عينيهما لها لغة خاصة من المستحيل أن يفهمها غيرهما، ولعل الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يفهم ذلك هو الشيخ زوراب، اذ انهم بأشخاصهم الثلاثة يكونون تشكيلة موحدة لا تتجزأ، فكان اي واحد منهم يستطيع أن يقرأ ببساطة ما يدور في رأس الآخر، وهذه حالة قد يعرفها البعض، ولا يعرفها آخرون. وأحس شيخو وهو ينظر الى رمضان بنظرات قلقة وحائرة بأن هذه التشكيلة الموحدة المتكونة من ثلاثة أضلاع قد بدأت تتهشم، وفي اللحظة التي دخل الرجال جالبين صحون الفطور، قال رمضان دون ان يلتفت الى الداخلين الذين أعقبهم الصبيان الثلاثة: «سبحان الله! سبحان الله، لقد صدقت الغجرية..». وكان شيخو هو الآخر يفكر في تنبؤ الغجرية. قال جهانگير وهو يساعد أولاده في ترتيب الصحون والاواني دون أن ينظر اليهما: «وما هي قصة الغجرية؟» قال رمضان وهو يهيء نفسه للأكل: «قصة قديمة حدثت في عام الزواج الثاني للشيخ زوراب، فقد تنبأت الغجرية بعد تفسير حلم للشيخ زوراب بأن ذريته ستمتد الى نهر روخانه، وها انك تتحدث عما يشبه هذا الحلم» وأكمل شيخو: «أجل، كان ذلك في العام

الذي ولد فيه هذا الملاً الصغير ابن أخي كريم..» قال ذلك وهو يضع يده على رأس رستم. قال جهانگير مبهوتا وناظرا في الفراغ كأنه يفكر في شيء بعيد: «سبحان الله، ان هذه الساحرة لا تخطئ، انها قد تنبأت بوضعي الحالي قبل أكثر من عشرين سنة، والان هيا تفضلوا كلوا..» ويسملوا. وكان رمضان يجيل نظراته بين الصحون بعد أن تناول قرصا من خبز الشعير الاسود، او الخبز المخلوط في أحسن الحالات. وكانت الاطباق تحتوي على الزبد والعسل واللبن والبيض المقلي وشيء أبيض محبب لم يعرفه وتمر خستاوي ودبس، وتبادل النظرات مع شيخو الذي كان هو الآخر يقارن هذا الفطور بفطورهم المتكون من الخبز والسمن أو البيض المشوي في نار البعرور في أحسن الحالات. قال رمضان وهو حائر في اختيار طيبة من هذه الطيبات التي تتنافس فيما بينها: «يا خالي إذا كانت المدينة تقدم لكم كل صباح مثل هذا الفطور، فانني سأترك وادي كفران واعيش هنا» ثم غمس لفّة الخبز في الزبد. قال جهانگير: «اذا بقيت عندي يا خالي رمضان فسأجعلك تعيش في ربيع دائم، هذا فطور سريع وخفيف. الاكلات المحترمة ستراها فيما بعد، والان أغمس لفتّك في العسل» قال رمضان: «يا خالي، هل تريد ان تضحك عليّ؟ كيف يؤكل الزبد مع العسل». قال شيخو وهو يعالج قطعة من البيض المقلي الذي يقطر منه السمن: «جرّبه يا رمضان فهل تخسر شيئا؟» وتذوقه رمضان: «يا الهي انه يذوب في فمي مثل الروح، مكانك خالي يا شيخ زوراب». وأما رستم وقادر وعباس فكانوا يتنافسون على التمر» قال رمضان: «الا تقل لي يا خالي جهانگير ما هذا الشيء الابيض المحبب؟» قال جهانگير مبتسما: «هذا ما اردت أن اشرحه لكم، انهم يسمونه باللغة التركية قيماغ، يصنعونه من لبن الجاموس». «سبحان الله».

وعندما تأكد جهانگير أنهم قد شبعوا أمر برفع الصحون، فجاء ابنه بسماور أصفر كبير وقوري واستكانات، وكان يبدو كما لو أنه يحاول بهذه التظاهرة ان يستعرض عضلاته ويثبت لهم ان هناك ما هو احسن من وادي كفران على هذه الارض. وراح كل من رمضان وشيخو تارة يتبادلان النظرات وأخرى ينظران السماور وملحقاته، وتوصلا في دواخلهما الى ان هذا الخال اللعين الذي درس على ايدي اليهود انما يضحك عليهما ويشفق عليهما في نفس الوقت. قال رمضان بلهجة فيها خبث وفضول: «يا خالي جهانگير، افتهمنا كل شيء، ولكن الا تقل لي ما هذا المنفاخ؟ وهذه الادوات السحرية المحيطة به؟». هذا سماور يا رمضان، وسأصب لكم الشاي بيدي وسنشربه بسكر القند» قال رمضان وهو يتفحصه بانتباه: «سبحان الله، هذا هو اذن سماور..» وواصل وهو يحدث السماور: «لقد سمعت بك من قبل، وها انني أتشرف بالتعرف عليك عن كثب، فلنجرب شايك الذي سمعنا به ايضا دون ان نتذوقه..». قال جهانگير بعد ان دفع الاستكانات اليهم: «انني منذ ان اعتدت على شرب الشاي تركت القهوة. سأرسل معكم كمية من الشاي والسكر للشيخ زوراب، انه لذيذ جدا ولا سيما بعد الاكل والتدخين..».

قال رمضان وهو يرفع الاستكان الثاني مدققا في اللون الاحمر الرائق ومحاولا إضفاء الجدية على كلامه: «هل رأيت يا شيخو بك، ألم أقل لك اننا سنتعلم الكثير عند خالي جهانكير؟ على الاقل يتعلم الانسان كيف ينفق ليراته التي ادّخرها. انني سأكون اول الذين ينتقلون معك الى القرية الجديدة على نهر روخانه، وسنبدأ هناك حياة جديدة». قال شيخو: «لو كنت اعرف ان للشاي مثل هذا الطعم، لعملت المستحيل للحصول عليه». كان جهانكير قد تنفس الصعداء لوضع الجماعة ولانسجامهم معه في كل المسائل التي طرحها، وكان يفكر في مصادر الثروة الجديدة التي ستأتيه من وادي كفران المعروف بقمحه القندهاري. قال رمضان بعد أن خدّر الشاي أعصابه وراح يتمدد في مكانه: «يا خالي اريد ان اسألك سؤالا يحيرني جدا، اننا في وادي كفران لنا معاييرنا الخاصة في البيع والشراء، فإذا اردنا ان نشتري العنب او التمر من الباعة المتجولين فاننا نتبادل معهم واحدا بواحد بالقمح مثلا، أو واحدا بأربعة بالرز واذا ارادت ابنتي ان تشتري ابرا وعدة أذرع من الخام فتدفع مقابل ذلك عدة بيضات او دجاجات، ولكن الا تقل لي بأي مادة يمكن مبادلة هذا الشاي الخفيف الذي لا وزن له؟». ضحك جهانكير وحك رأسه المحلوق وقال: «إن جواب هذا السؤال عند الشيخ زوراب، ولكنه لا يريد أن يطلّعكم على كل شيء فهو لا شك يعتقد أن مثل هذه الاشياء تفسد الاخلاق. ان البيع والشراء لا يتم فقط بهذا الشكل يا خالي رمضان، هناك الليرات الذهبية التي لابد يملك الشيخ زوراب والحمد لله كميات محترمة منها. هناك اشياء لا يمكن ان تحصل عليها الا بالليرات. انك بليرة واحدة مثلا تستطيع ان تشتري عدة صناديق بحيث تكفيك لمدة سنة واحدة». التفت رمضان الى شيخو: «كان ينبغي علينا يا شيخو بك ان نزور خالي قبل فترة طويلة جدا، على كل حال ما فات مات» ثم التفت الى جهانكير مواصلا: «والذي لا يملك الليرات الذهبية، هل يحرم عليه شرب الشاي؟». «اذا كنت تملك القمح او الاغنام او الصوف او الخيول فانك تستطيع ان تبيعها بليرات ذهبية وتشتري بها ما تشاء..» قال شيخو مداعباً: «اذا كانت الحسابات بهذا الشكل فاعتقد أنك لا تستطيع ان تشرب شايك يا رمضان الا عند خالك جهانكير». قال رمضان وهو يهزّ رأسه: «هذا هو بالذات ما أفكر فيه طيلة الوقت يا حبيبي شيخو بك». فهم جهانكير الامور فورا، اذ ان اي فرد في عشيرة وادي كفران لا يستطيع التصرف بأي حاجة مهما كان بدون موافقة الشيخ زوراب، فقال دون عناء: «هذه ليست مشكلة مطلقا، انني سوف ارسل معكم في كل الاحوال كمية من الشاي والسكر، قدّموا له الشاي بعد كل وجبة أكل، فليقارن الشاي بالقهوة بنفسه ولنر.» قال رمضان: «عند ذلك ستخرج الليرات الى النور».

كان الاولاد قد تركوا الحوش مع أحفاد جهانكير الى سوق. وكان الثلاثة تمددوا في أماكنهم، يغلب عليهم النعاس. وأما الابن الاكبر لجهانكير الذي تجاوز الاربعين فكان ما زال واقفاً ومتأهبا لتنفيذ ما يطلب اليه.

٥

كانت الشمس قد اختفت وراء جبل الامام علي الذي القى بظله على وادي كفران الذي ودّع نهاراً طويلاً قائضا مليئا بالحركة والنشاط، فالحركة تبدأ عادة في وادي كفران منذ الفجر وتنتهي مع غروب الشمس في موسم الحصاد، اذ أن اي تأخير قد يؤدي الى كوارث لا تحمد عقباها، فالحملات اللصوصية سواء من موظفي الدولة او من العشائر أو حتى خطر الحرائق كلها تحدث في هذا الموسم، ولذلك فان العمل لا يقبل أي اهمال او تأخير. ويشرف الشيخ زوراب بنفسه على كل صغيرة وكبيرة، ويعمل جاهدا لتقديم أحسن الاكلات لأفراد العشيرة والحصادين القادمين من خارج وادي كفران. وفي نفس اليوم الذي غادر فيه شيخو ورمضان الى مركز السنجق، كانوا قد انتهوا من درس نصف المحصول تقريبا، ونظفوا جميع حفر الخزن بحيث أن المنتوج يكون قد أختفى عند عودة الجماعة من السنجق، احتمال مجئ القولجي والتحصيلدار برفقة شيخو قائم، فالدولة هي الدولة، ولا يمكن الاعتماد عليها ابدا مهما ابدت من وداعة وبراءة، ان اساليبها كثيرة وملتوية، انها الذئب بعينه. ويكرر الشيخ زوراب دائما مثله القائل: «ان من لا يحذر الذئب سيكون عشاءه خبازا..».

كانت الخيمة السوداء الكبيرة المنتصبة على مقربة من قرية بانشاخ وراء أكوام البيادر تضم ميرزا و زوراب وأولاده الستة الذين دعاهم للتحدث معهم في امور مهمة تخصّ مصير عشيرة وادي كفران. كان أكبرهم الذي يلي شيخو قد تجاوز الاربعين، وأصغرهم كريم لم يبلغ الثلاثين بعد، كان التعب باديا عليهم، بيد أن وجبة العشاء اللذيذة (خورما و رون)، التمر بالسمن مع البيض المقلي قد أعادت اليهم النشاط ولا سيما بعد أن راحوا يحتسون القهوة المرة. قال الشيخ زوراب وهو يؤشر بيده اليسرى الى سقف الخيمة: «يا اولادي هل ترون هذه الخيمة؟.. انها قديمة ولا أحد منا يعرف عمرها الحقيقي» والتفت الى ميرزا مواصلا: «انها تعود لك فقد ورثتها من ابيك الذي لم يرث غيرها فهل يمكنك أن تقول لي كم عمرها» رفع ميرزا رأسه بزهو وقال كمن وهب الحياة لعشيرة كفران بكاملها: «لا يا شيخ زوراب، لا أعرف ذلك، واعتقد ان ذلك ليس مهما بقدر احتفاظنا بالخيمة، هل تدرىَ كم سعيدة هي ارواح اجدادنا الان نستنشق أنفاسهم تحت هذه الخيمة؟» قال الشيخ زوراب بعد أن ارتشف كمية من القهوة المرة: «المهم اذن هو الخيمة وليس عمرها. ان وادي كفران هو هذه الخيمة، وهذه الخيمة هي وادي كفران، لعلنا توصلنا الى هذه الحقيقة بعد أن طعنا في السن، كنا من قبل لا نعرف قيمة هذه الخيمة، ويبدو أن آباءنا كانوا أكثر

ذكاءاً منا. ان جدنا الاكبر (ناله گورگه) الذي سوف لا تنجب عشيرتنا رجلا مثله، كان يعتز بهذه الخيمة بشكل لا مثيل له، والظاهر ان الابن الوحيد الذي ادرك ذلك من ابنائه الكثيرين هو عمي رستم أب عمكم ميرزا فاكتفى بالخيمة فقط، فاعطاه المرحوم والدي حمارا كي ينقلها الى المكان الذي يريده، فعانى عمي رستم ما عانى من البؤس والفقر والجوع نتيجة احتفاظه بالخيمة، حتى أنه اضطر ان يبيع النفط مثل اليهود، وحتى نحن أقرب المقربين اليه نسيناه لأن الشيطان كان يلعب لعبته ويدخل الشقاق في نفوسنا الى أن تدخل الله عز وجل كشأنه دائما وأبعدَ الشيطان عن طريقنا، وأدخل الرحمة الى نفوسنا فبدون إرادة الله لا يمكن ان يحدث أي شيء» سكت هنيهة وسعل سعلتين اعقبها ببصقة كثيفة من البلغم القاها وراءه على الارض، وبعد مسح فمه امتص كمية من الدخان من غليونه وواصل: «لا تخافوا يا اولادي، فانني اذ ابدا بمثل هذا الحديث لم اصب بعد بالخرف، ان لهذه الخيمة علاقة كبيرة بلقائنا في هذا اليوم. لقد ذهب أخوكم الاكبر شيخو وعمكم رمضان والاولاد الى مركز السنجق لأسباب خارجة عن ارادتنا. كنا لا نريد أن نرى الشيطان ولا الشيطان يرانا، ولكننا لا نملك خيارا آخر، فنحن سواء شئنا أن ابينا نعتبر من رعايا هذه الدولة. انهم منذ يومين في مركز السنجق، وربما سيبقون هناك عدة أيام أخرى». كان الاولاد قد جلسوا بأدب دون أن يتمدّد أي واحد منهم، وكلّهم آذان صاغية، وأحسّوا أن حديث الاب قد أدخل نوعا من الحيوية في أعصابهم الخاملة. «لا ندري بأية مفاجأة سيرجعون الينا، وربما سيرجعون ويصحبتهم وحدة من الجندرمة لمصادرة كل محاصيلنا والقاء القبض على كل رجالنا، وربما سيلقون بهم في السجن ليرفضوا علينا شروطهم لقاء اطلاق سراحهم. ان كل شيء ممكن في هذا الزمان. نحن لا ندري ما هي المشاكل التي تعاني منها الدولة، ولكن الشيء الذي نعرفه جيدا هو أن الدولة مثل بئر لا قعر لها، انها بحاجة دائمة للاموال والرجال. ان الشيء الذي أريد أن اقوله لكم يا اولادي هو الحفاظ على وادي كفران مثلما حافظ اجدادنا على هذه الخيمة. ان اخاكم قد ذهب الى مركز السنجق ليستلم الفرمان السلطاني ويحمل لقب (بك) وليكون رئيسا رسميا لعشيرة وادي كفران، هذا ما قاله لنا بالحرف الواحد جناب اليوزباشي. ربما ان كلامه صحيح، ربما ان الدولة قد غيرّت سياستها، ولكن يجب ان تعملوا جيدا انها لم تغيّر سياستها حباً بسواد أعيننا أو خوفا منّا، لابد من وجود أمر ما، على الاقل انهم يريدون أن يربطونا. ان فرمانهم يشبه العلف الذي يقدم للحصان الهائج ريثما يتم لجمه، وحتى في هذه الحالة أو كل الحالات الاخرى يجب أن نبقى نتصرف كما كنا من قبل. عشيرة كفران لا تعطي رجلا لأية جهة مهما كانت، ولا تهدر حتى قطرة واحدة من الدم لأي سبب كان، الاّ اذا كان ذلك في سبيل الجهاد من أجل الدين. كما واننا يجب ان نتجنب المشاكل مع القبائل الاخرى سواء أكانوا كردا أم تركمانا أم عربا، ولا أقبل أن يتصرف أي واحد من ابناء العشيرة تصرفا كيفيا مهما كان، واما اذا مت،

وهذا هو مصيرنا جميعا، فعند ذلك يبت أخوكم الاكبر شيخو في الامور. انني لا أفرض عليكم هذا يا أولادي، فأي واحد منكم حر، يستطيع أن يستقل ويأخذ حصته التي يستحقها، ولكن عليه أن لا يبقى بيننا، بل يذهب الى حيث يريد. انكم يا اولادي يجب ان تحافظوا على وادي كفران كحفاظكم على شرفكم، ان هذا الوادي هو بيتكم، ولذلك عليكم ان تقتصدوا دماءكم وأموالكم للدفاع عن هذا البيت، انكم اذا فقدتم بيتكم يكون حالكم حال الغجر الذين يمرون مرتين في السنة من هذا الوادي دون ان نعلم من اين يأتون والى اين يذهبون، وكل شيء بيد الله سبحانه وتعالى، ولكنه قد أعطانا العقل كي نفكر به، أليس كذلك يا ميرزا؟» قال ذلك بعد أن التفت الى ميرزا الذي كان مشغولا بحكّ قطعة الحجر التي مسكها بيده اليسرى، بضربات من ولاّعته الحديدية المثلثة، فأجاب هذا الذي يبدو أنه لم ينتبه جيدا الى كلامه الذي بقيت في ذهنه منه كلمة الغجر فقط: «صحيح يا شيخ زوراب، ان كل ما تقوله صحيح، ان الغجر لا يجيدون سوى الرقص والغناء ولذلك غضب الله عليهم وسلب منهم ارضهم» وقال الشيخ زوراب: «اننا لم نفعل شيئا من الموبقات أمام الله حتى يغضب علينا، ولكي نكون اقرب إليه فعلينا ان نبني في كل قرية مسجدا»

«ولكن من اين نجلب الملالي لكل هذه المساجد».

«أرى أن ترسل كل قرية واحدا او اثنين للدراسة عند الملا فملا رستم وحده لا يكفي للعشيرة».

قال الشيخ زوراب مواصلاً حديثه: «أعتقد ان كلامنا سيطول هذه الليلة، فهناك أشياء كثيرة يجب أن نتناولها، انني أريد أن أرجع الى كلام اليوزباشي، فالفرمان الذي سيمنح لقب بك لأخيكم الاكبر له ملحقات وذيول، اذ أن كل واحد سيحمل لقب (آغا) في قريته تماما مثل عشائر بهدينان، ولذلك فعليكم ان تنادوا أخاكم الاكبر بـ(بك) وتنادوا بعضكم البعض بـ(آغا)، ولكن لا تعتقدوا ان هذه الالقاب ستعطيكم الحق في الترفع على ابناء جلدتكم، والتصرف كما لو انكم فعلا أغوات. وتسهيلا لتمشية امور العشيرة التي توسعت فعلاً والحمد لله، سنضطر، وهذا ما ستتطلبه ذيول ما يدعى بالفرمان، الى تقسيم اراضي وادي كفران الى عدة مقاطعات بحيث أن كل واحد منكم سيحصل على المقاطعة التي تحيط بقريته من الاراضي الديم، واما الاراضي السيحية على جانبي النهر والمراعي واشجار الفواكه والاشجار غير المثمرة فستبقى ملكا للعشيرة. وسيحصل عمكم ميرزا مع اولاده على مقاطعة كبيرة ايضا. هذا ما اتفقت بشأنه بصورة اولية مع جناب اليوزباشي الذي كتب تقريره حوله للدولة، فاذا كان لكم استفسارا او غموضا بما يتعلق بالامر فيجب أن ننتهي منه هذا المساء، كما وان كل واحد منكم له الحق في الاعتراض على ما طرحته على أن يكون حوله بديلا مناسبا» وأجال عينيه في وجوه أولاده ثم التفت الى كل من ميرزا وزوجته سنجان. كانت علامات المفأجاة والدهشة بادية على وجوه الاولاد، وكانوا قد اعتادوا

أن يستمعوا الى أبيهم منذ الصغر ويعتبروا ما يقوله شيئا صحيحا لا يقبل الخطأ، واذا كان ثمة من يجرأ منهم لطرح سؤال أو اعتراض طفيف فهو أخوهم الاصغر كريم. كانت دواخلهم لا تحتوي على أي استفسار بقدر الفضول والحيرة أزاء الوضع الجديد الذي لا يملكون إي تصور له، ونظر بعضهم الى كريم، وكانوا يعرفون انه سيتكلم في كل الاحوال، واذا تكلم فإنه لا يتكلم لمجرد الكلام، بل انه يعكس ما بدواخلهم أو يضيف شيئا جديدا الى كلام ابيه، قال كريم بعد أن تأكد انه ليس ثمة من يريد الكلام: «لا سمح الله أن نبدي اعتراضا لما تقوله يا أبي، فليقتلنا الله قبل أن يأمرنا الشيطان على ذلك» قالت سنجان: «لا سمح الله يا بني، ليقتل الله أعداءَكم..» وواصل كريم: «اننا سننفذ كل ما تأمره أنت يا أبي، ولكنني أفهم من كلامك بأن كل واحد منا سيستقل في مقاطعته، الا نكون اذ ذاك مثل قطيع بلا راع؟..».

امتص الشيخ زوراب كمية من الدخان من غليونه ثم هزّ رأسه مبتسما وقال: «صحيح يا بني كريم، لقد فهمتني صحيحا، لقد أحسست انا شخصيا، ربما أنكم ايضا احسستم بذلك ايضا، بفترة قبل مجئ اليوزباشي وطرحه فكرة الفرمان، بأن الاعمال قد كثرت جدا، ولا سيما في السنوات الاخيرة فقد تعبنا أنا وشيخو بك كثيرا ولولا سنجان وعمكم ميرزا لقتلنا الارهاق، ولذلك فان كل واحد منكم سيكون مسؤولاً عن محصوله بالاتفاق مع ابناء مقاطعته، تتصرفون به كما تشاؤون».

قال أحد الاولاد: «وقضية البيع والشراء؟»

«قلت لكم أنكم تتصرفون بمحصولكم كما تشاؤون. كل مقاطعة تكون مسؤولة عن نفسها، تستطيع ان تتعامل مع من تريد، شيء واحد فقط يجرى ويتم عبر شيخو بك، وهو العلاقة بالدولة، ولذلك كما ترى يا ابني كريم أن الراعي ما زال موجودا». هزّ الجميع رؤوسهم كما لو انهم قد فهموا كل شيء، بيد أن الشيخ زوراب كان واثقا أن ثمة أشياء ما زالت بحاجة الى وضوح، او ان الايام القادمة هي التي ستعطيها الجواب الصحيح، قال بعد ان تململ في مكانه متكئا على الوسادة:

«ان هذا كله لا يعني اننا سنشذ عن تقاليد عشيرة وادي كفران ومصيره، انني حين قلت بان كل مقاطعة تكون مسؤولة عن نفسها فهذا لا يعني انها ستعفي نفسها عن الدفاع عن العشيرة اذا اقتضى الامر، تضع نفسها فوق وادي كفران.. أو اذا صادف أن ساء المحصول في احدى المقاطعات لا سمح الله، فان المقاطعات الاخرى تتركها مكتوفة اليدين..».

كان الصمت مخيما على جو الخيمة وكان الظلام قد لفّ وادي كفران، ولما علم الشيخ زوراب ان الاستفسارات قد انتهت، قال: «يمكننا الآن ان نخرج الى الهواء الطلق ونواصل سهرتنا هناك ان كنتم غير متعبين، ولكننا قبل أن نترك الخيمة أريد ان اضيف بعض الكلام الى واجباتكم

المقبلة، انكم تعلمون بأن العشيرة كلها تملك مسجدا واحدا فقط، وهذا لا يكفي ولذلك على كل واحد منكم ان يرسل واحدا او اثنين من الاولاد للتعلم عند الملا حتى تتمكنوا في المستقبل من بناء مسجد في كل قرية، اما بالنسبة الى مصاريف شيخو بك التي ستزداد نتيجة زياراته الى مركز السنجق من الآن فصاعدا فستدفع له كل مقاطعة نسبة عشرة بالمائة. ان هذا العشر سيعطى له عقب الانتهاء من جمع المحصول مباشرة. واما اذا متّ انا فستكون مصاريف سنجان من هذا العشر، وهي حرةٌ في اختيار سكنها. انها تستطيع أن تبقى مع عائلة شيخو بك أو تعيش بمفردها أو تعيش مع أي واحد منكم، انها هي التي تقرر ذلك فيما بعد» قالت سنجان بصوت دافئ: «لا سمح الله ان تموت قبلي يا شيخ زوراب، ليمنحك الله عمري ويأخذ روحي قبل موتك..» قال الشيخ زوراب مبتسما: «الاعمار بيد الله يا سنجان» ثم قام من مكانه معلنا بذلك انتهاء الجلسة، وقبل ان يخطو خطوتين لحقه ميرزا قائلاً: «هل نرفع الخيمة ام نتركها منصوبة؟» قال زوراب وهو يحدق في فراغ الظلام اللانهائي: «دعها منصوبة يا ميرزا طالما اننا لم ننته من جمع المحصول وخزنه، انها تجلب الخير والبركة..».

أنصرف الجميع الى قراهم، اذ انهم لم يستطيعوا التغلب على نعاسهم، رغم أن كلام الأب قد أدخل شيئا جديدا في نفوسهم، ذلك الشيء الذي أذهلهم بعض الشيء وجعلهم يدورون في دوامة لم يعهدوها من قبل، ولم يستطيعوا تصور ما سيكون، الامر الذي جعل النعاس يتغلب عليهم أكثر فاكثر. اثنان فقط بقيا يقظين، دون أن يتمكن النعاس من التغلب عليهما: الشيخ زوراب وابنه كريم بقيا يواصلان السهرة ويتحدثان في أمور كثيرة منها اصرار الملا على عدم قبوله لتعليم أولاد جدد وبطئه في تعليم رستم، وكان الشيخ زوراب قد أبدى لهذا الموضوع اهتماما خاصا، اذ أنه في شبابه عندما كان يعمل في الجيش أرادوا أن يرسلوه ضمن احدى الوحدات لخوض معركة في مكان ما، وفي الليل اتفق مع بعض زملائه من أكراد كرميان بالهرب، وبعد أن استولى كل واحد منهم على بندقية تمكنوا من اجتياز المعسكر والتسلل في جنح الليل عبر نقاط الحراسة، وبعد أن مشوا الليل كله وصلوا أرض عشيرة صغيرة تدعى برزنجة وهناك رحبوا بهم، وكانوا ثلاثة، وأما الآخرون فقد واصلوا سيرهم الى أماكن أخرى. وعندما علم الشيخ انهم هربوا من الجيش العثماني، عززهم وكرّمهم وطلب منهم أن يبقوا في معيته الى ما شاء الله. وهناك رأى أشياء لم يسبق له ان عهد بها من قبل، اذ ما أن يحل المساء كان المضيف الكبير يكتظ بالحركة ويأتي عدد كبير من الدراويش ذوي الشعور واللحي الطويلة ويبدأون بضرب الدفوف والرقص على انغامها بحركات منظمة ما تلبث ان تتحول الى هستيريا وجنون وهم يلوحّون بسيوفهم وخناجرهم في الهواء ويرددون بصوت واحد ومتناغم (لا اله الا الله، لا اله الا الله...)، وعندما كانت الحركات تشتد اكثر فاكثر يقفون في أماكنهم فجأة، ويبدأون بهزّ رؤوسهم يمنة ويسرة

وهم يرددون بسرعة: «الله حي، الله حي..» وبعد ذلك كانت تبدأ المعجزات الخارقة: الجلوس بمؤخرة عارية على صاج حام، ضرب البطون بالخناجر، مسك الجمر باليد ووضعه في الفم... وكان كل فرد من هؤلاء عند دخوله المضيف يقبل يد الشيخ الذي كان يجلس عادة في صدر المضيف وبيده مسبحة طويلة، يحسب حباتها بإبهامه ويأتي بكلمات غير مفهومة ويبدو كما لو انه محاط بمجموعة من الملائكة غير المرئيين. وذات صباح استدعاهم هذا الشيخ المبارك، وبعد أن قبّلوا يده اتخذوا مكانهم بالقرب منه وكان مساعده الذي ينادونه بالخليفة جالسا هو الآخر ويبدو كما لو انه نسخة ثانية من الشيخ، حيث كان يقلده في كل شيء، في ملبسه، شعره المسترسل ولحيته الطويلة، وكان الفرق الوحيد بينهما هو ان الشيخ كان أكثر هيبة ونظافة وعمامته أكبر كانوا قد استغربوا لهذا الاهتمام الخاص من لدن الشيخ واعتقدوا انهم سيتشرفون بسماع صوته الذي لم يسمعوا به منذ وجودهم هنا لأكثر من اسبوعين، ولذلك لم يفاجأوا حين تحدث اليهم الخليفة فقط، ان كلام الخليفة ما زال معلقا في ذهنه: «أنتم الثلاثة يا اولادي قد اثبتم خلال فترة وجودكم بيننا بأنكم مخلصين فعلا، فقد استوحى الشيخ من جده الرسول صلى الله عليه وسلم أنكم تخلون من أي غش، وإنكم بهروبكم من الجيش قد قمتم بعمل يخدم الدين والضمير، لأن هذه الدولة قائمة على الظلم والطغيان ، ونحن يجب أن نغلق في وجوههم كل منافذنا، ونحيل دون وصول أي رجل من رجالهم الى مناطقنا، اننا يجب أن نخلق رجال الدين من بيننا، ونرفض أي ملا ترسله لنا الدولة. انكم من الآن فصاعدا قد أصبحتم دراويش الشيخ، ان روح الشيخ سترافقكم اينما ذهبتم، فما ان تنادوه الا ويظهر في طريقكم اما على شكل صخرة ملقاة على قارعة الطريق أو ثعلب أو طائر من الطيور، وهناك ارواح أخرى قد تظهر في طريقكم محاولة ان توحي لكم بانها روح الشيخ، بيد ان هذه الارواح قد تكون شريرة لذلك يجب الحذر منها كل الحذر ومجابهتها باسم الله والرسول والشيخ فاذا لم تختف فمحاولة ضربها بالسيف او الخنجر. ان اشكالها قبيحة ومفزعة، ان الخوف من هذه الطناطيل المرعبة قد يؤدي الى الجنون، ولذلك يجب أن تتحلّوا بالجرأة التامة. واذا حدث أن اصيب احدكم بالجنون لا سمح الله فيجب ايصاله بأسرع وقت ممكن الى الشيخ فالعلاج عنده وحده.

كان كريم ينتبه بفضول كبير واهتمام الى ابيه، وطالما كان يحدثه في صغره عن مثل هذه الذكريات، بيد أنه اذ ذاك كان لا يعير لمثل هذه القصص أي اهتمام، وأما الآن فان كل جملة من جمل ابيه تتحول عنده الى واقع ملموس، الى صور تتجسد أمامه في أحشاء الظلام اللانهائي المخيّم على وادي كفران. «لقد كان شيخا حقيقيا يا بني فما ان تناديه الاّ وتجده حاضرا أمامك يلبي نداءَك..» قال كريم: «وهل كان يظهر بنفسه أمامك، وكيف؟» أجاب الشيخ زوراب هازا رأسه كما لو انه امام لغز: «هذا هو السر في المسألة يا بني، انه يحضر ليس بجسمه، انك لا تستطيع

أن تراه ولا تلمسه، ولكنك تحس بوجوده الى جانبك، انك لا تراه بعينيك، بل بروحك، وهذه الحالة لا يمكنك ان تعيشها الاّ اذا اصبحت درويشا..».

«أين هما الشخصان الآخران، ولماذا لم يبقوا عند الشيخ، لو كنت مكانك لبقيت عنده أخدمه طيلة حياتي..»

«الشخصان الآخران، أجل، الشخصان الآخران، هذا ما اردت أن احدثك به قبل رجوع شيخو بك ورمضان من مركز السنجق، الشخصان الآخران يا بني هما أب اليوزباشي المرحوم درويش سعيد وخال رمضان جهانگير الذي يعمل تاجرا في مركز السنجق، ولا شك أن رمضان قد أخذ شيخو بك والاولاد اليه، فهو يحنّ اليه منذ مدة طويلة جدا، ومهما كانت عوامل الفرقة بين الاقارب والاصدقاء فلا بد أن يلتقوا ذات يوم، ان الدم هو الدم ولا يمكن ان يتحول الى ماء، ورغم عيوب جهانگير الكثيرة فإننا لا نستطيع مقاطعته الى الابد، ولا سيما أن الزمان قد تغير الآن واذا كانت ثمة ذنوب فيتحملها هو بنفسه». استفسر كريم بفضول طفولي:

«وما هي عيوبه يا أبي؟»

«عيوبه يا بني انه ركض وراء المال واشتغل بالتجارة ورافق اليهود، وقد تحول الان الى اصبع من أصابع الدولة، كل هذه الاشياء قد حرمها علينا الشيخ، فنحن دراويشه الثلاثة نصحنا أن نحرّم انفسنا من ملذاتَ الدنيا وننصرف كليّا الى أمور الدين، وكان ينبغي علينا أن لا نتزوج ونبقى نعيش في تكيته حياة جماعية مع عشرات الدراويش الآخرين، ولكننا كنا من اصحاب النفوس الضعيفة، فمثلما لم نتحمل الحياة في معسكرات الجيش العثماني، لم نتحمل حياة الدروشة ايضا، وكان اصعب شيء بالنسبة الينا هو العزوبية، فالحياة بلا امرأة لا تطاق، وهكذا غادرنا التكية، على أن نزورها على الاقل مرة في السنة، وظللنا نتردد اليها لسنوات طويلة آخذين لها الهدايا والقرابين، ومع مرور السنين قلت زياراتنا وعندما توفي الشيخ قطعنا علاقتنا مع التكية نهائيا علما أن جهانگير قد قطع علاقته بالتكية قبل وفاة الشيخ بسنوات. وكان أخلصنا للشيخ والدروشة هو درويش سعيد فقد كان حقا درويشا مخلصا».

«ولكنني سمعت أنه كان لصا وكذابا..».

«هذا شيء آخر يا بني، لقد كان يسرق بعلم الشيخ ويأخذ ما يسرقه الى التكية، ان الدرواويش يجب ان يعيشوا ايضا، واما الكذب فصفة من صفات الانسان لا يمكن التغلب عليها..».

«هل نستطيع أن نجدد علاقتنا بالتكية يا ابي؟»

«بالتاكيد يا بني، وربما سيساعدوننا في إرسال بعض الملالي الذين نحتاجهم، لأن ملانا في كل الاحوال لا يساعدنا في تعليم الاولاد ويميل بكل قلبه الى الدولة، سوف نبحث هذا الموضوع عندما يرجع شيخو بك..»

أدرك كريم أن اباه قد اعيته السهرة، فكفَّ عن أسئلته قائلا: «لنجعله ليلا، فأنت متعب يا أبي».

«هل أنت متعب ايضا، أم تريد أن تقوم بدورة حول البيادر؟»

قام من مكانه متنكبا بندقيته الروسية الطويلة (سي تير) «أبو الطلقات الثلاث» وقال: «سأقوم بدورة سريعة حول البيادر ثم اذهب الى قريتي».

قال محذرا: «لا يا بني، ستنام عندنا هذه الليلة، ان الوقت متأخر جدا، وفي مثل هذا الوقت لا يجوز قطع النهر».

قال ساخرا: «وهل ثمة ما يخيف في الليل يا ابي؟ أنا نفسي عفريت يخاف منه عفاريت وادي كفران، فاذا كان هناك عفريت جرئ فليتقدم»

قال الشيخ زوراب بخوف: «لا يا بني لا تقل هذا، ان الانسان لا يستطيع أن يمزح مع العفاريت، انها اقوى منا بكثير».

قال باصرار: «يجب أن اذهب يا أبي».

«اذا كنت مصراً فلا تنس أن تغني طيلة الوقت..»

كانت قرية كريم تقع في اقصى الجانب الآخر من النهر وبالقرب من جبل قاجر، وكان اذا رجع عائدا الى البيت في وقت متأخر من الليل لا يرغم حصانه على الخبب أو الجري السريع، بل يتركه يسير على هواه، ويظل هو يتأمل النجوم ويغني بلا انقطاع الى ان يصل القرية، ورغم أنه كان متزوجا، فقد كان يحب أكثر من إمرأة، وكان الشيخ زوراب يعرف ذلك، ولا يغض عنه الطرف فحسب، بل يحس بنوع من بالزهو حين يسمع بمغامراته هنا وهناك، كان يجد فيه شبابه هو، ويعرف جيدا انه انما ورث هذا الطباع منه هو، ثم أنه لن ينسى وصية زوجته وهي في الفراش الموت حيث قالت: «زوراب، أنا لا أبكي لأنني أترك هذه الدنيا الفانية، بل أبكي لأنني تركت كريم بلا أم، فمن الذي سيدلل كريم؟ أفعل ما تشاء مع الآخرين واما كريم فبحاجة الى الدلال وحنان..» ومنذ ذلك الوقت تربى كريم مدللا من قبل الجميع، وكان الشيخ زوراب يعتقد، وهذا ما سمعه من الآخرين بأن الانسان اذا غنّى في الليل فان العفاريت والحيوانات الشرسة ستتجنبه.

كان زوراب ينام في ليالي الصيف في باحة البيت على دكة مربعة ومرتفعة مصنوعة من الطوب أشبه بسرير يحيط به جدار خفيف من الجهات الثلاث، وكان هذا القسم من الباحة معزولا بجدار عن ساحة البيت الكبيرة، بحيث أن احدا لا يستطيع الاشراف عليه. وكان معظم العوائل ينام بهذه الطريقة التي تشبه جزيرة يحيط بها قطيع الغنم الذي يرقد هو الآخر باطمئنان الى جانب رب البيت، وكان من فوائد السرير الطيني ايضا عدم تعرض النائمين بسهولة الى لدغات العقارب أو الثعابين التي تقوم بجولاتها ليلا.

تسلل الشيخ زوراب بهدوء من بين الاغنام وهو يكاد لا يجد موطنا من كثرة الاغنام التي التصقت ببعضها، ودس نفسه في الفراش، كانت سنجان يقظة هي الاخرى لا تستطيع النوم، استلقى الى جانبها واضعا ساعده على صدرها ثم أخذ يلثم عنقها مستنشقا رائحة الخزامى: «سنجان، كنت اعتقد انك نائمة، اذا كنت صاحية فلما تركتينا؟».

«اردت ان اترككما أنت وكريم لوحدكما. ان الآباء والاولاد يحتاجون احيانا مثل هذه اللقاءات لوحدهم».

«مثلما نحتاجها أنا وانت».

قالت وهي تمرر انامِلها في ثنايا لحيته: «انك تملكني الليل كله».

«مع هذا فانا لا أشبع منك، وأحس دوما بالظمأ اليك».

«آه من لسانك يا زوراب، إنك تتحدث مثل شاب مراهق، انك بهذا اللسان تستطيع أن تستولي حتى على مشاعر فتاة في مقتبل العمر».

«هل تعلمين كم كنت سعيدا هذا اليوم في لقائنا بالخيمة وانا يحيط بي اولادي وانت وميرزا؟ كنت اعتقد انني املك العالم كله، وعندما تكلمتِ أحسست برغبة جارفة في مضاجعتك».

قالت ضاحكة وهي تدغدغ بطنه: «يبدو أن أكلة خورماورون قد فعلت فعلتها، لقد وضعت لك خصيصا أربع بيضات».

«أن مثل هذا الشحن احتاجه دوما، لقد نسيت متى قمنا بفعلتنا لآخر مرة».

«أنا لم أنسها، كان ذلك قبل ثلاثة أسابيع»

قال وهو يمسد فخذها: «والآن؟ هل انت راغبة؟»

قالت بصوت دافئ عميق خافت: «كما تريد..» واستلقت على ظهرها مزيحة المخدة التي تتكئ عليها جانبا. وضع ساعده الايسر تحت رأسها قائلا: «انني قلق على كريم، فقد أصرَّ على عبور النهر، ولم يبدأ بالغناء حتى الآن..».

قالت وهي تطوقه بساعديها: «لا تخف عليه، فهو ابنك، الله يعلم بأي حضن يمر قبل أن يذهب الى زوجته».

دار كريم بحصانه حول البيادر ثم اتخذ طريقه الى أسفل الجرف عبر الطريق الضيق الذي ينحدر الى وادي النهر، كانت هناك عدة طرق تؤدي الى قريته، بيد أنه كان يفضل هذا الطريق على غيره، ذلك أن الانحدار المفاجئ والسير بمحاذاة النهر يدخلان البهجة في قلبه. وكان يقطع النهر في عدة أماكن، ويعرف الاماكن الضحلة والعميقة والاماكن التي يستحيل قطعها بسبب

الصخور الكثيرة. وكان الكل يعلم أنه لا يرتاح الا عندما يجتاز الاماكن الوعرة، ويؤكد هو دائما أن اراضي وادي كفران بالمقارنة مع مناطق كردستان الاخرى لا شيء، وهو الوحيد من بين اخوانه، الذي يكلف من قبل ابيه لقيادة الاعمال التجارية أو التهريب مع المناطق والعشائر الاخرى وذلك لتجهيز العشيرة بالمواد التي تحتاجها، فبحكم عمله هذا وصل حتى الى دياربكر مارا بجميع مناطق بهدينان، واما قصر شيرين وسنة ومهاباد فانه يتردد اليها بلا انقطاع، كما وأنه الوحيد من بين اخوانه الذي يتكلم اللهجة البهدينانية والفارسية بطلاقة.

كان الجرف العالي المطل على النهر يزيد الظلام عمقا، وكان كريم على خلاف عادته يفكر بأحاديث والده، وهذه هي المرة الاولى التي يتمنى أن يرى فيها شيئا مما يتحدث عنه الكل، وتحسر انه لم تسنح له الفرصة لزيارة الشيخ. وفكر في الطناطل التي وصفها له ذات مرة رمضان وكيف أنها قطعت عليه الطريق ذات مرة مشكلة حوله دائرة وهي ترقص وتقهقه بوجوهها المرعبة، اذ ذاك لم يصدق كلام رمضان، اذ ان المرء لا يستطيع ان يفرق عنده بين الجد والهزل. ومهما يكن فان هذه الارواح الهائمة لابد موجودة والاّ فلماذا يتحدثون عنها بهذه الكثرة، ثم أن والده يستحيل ان يكذب. ألم ير الجنيةَ بأم عينيه في ليلة ميلاد رستم؟

كان خرير النهر يضفي على الظلام العميق غموضا يحوله بدوره الى لغز مبهم، وكان ارتطام حوافر الحصان على الحصباء والرمل يحدث صوتا رتيبا يتحول الى لغة غير مفهومة لكائن غريب وخيل الى كريم أن الحصباء تتكلم. وأختلطت في اذنه أصوات غريبة أشبه بصرخات تصدر من أفواه مكمومة، وأحسّ بقشعريرة من الخوف أشبه بتيار من الماء البارد يمرّ بجسده، وتباطأ الحصان في سيره كما لو ان شيئا يشده الى الارض وسمع صوتا اشبه بالصدى يقول: «كريم...» اراد أن يجيب من أنت؟ ولكن الكلمات لم تسعفه. وكان الحصان يتبطأ أكثر فأكثر في سيره، ورأى عيونا تلمع في الظلام تشبه قناديل زرقاء وهي تتكاثر بشكل غريب. واطلق الحصان صهيلا شق سكون الليل ثم توقف في مكانه وهو عبثا يحاول التحرك، وتحولت العيون اللامعة الى النجوم متحركة فوق النهر، إراد كريم أن يترجل بيد أن شيئا شدّه الى الحصان، وبهرته النجوم المتحركة التي راحت تبدد الظلام، وكانت الشجيرات المطلة على النهر هي الاخرى تشع، وأضيء المكان ووجد نفسه بين مجموعة من الاقزام الصغيرة بوجوه غريبة وهي ترقص حوله، قال أحدهم وهو يجره من رجله: «تعال يا كريم ارقص معنا فلنا اليوم حفلة عرس» وانزلوه من على ظهر الحصان وما أن أصبح بينهم حتى قفزت امرأة ضخمة شبه عارية تخفي بعض اجزاء جسمها أسمال بالية، على ظهر الحصان. كان شعرها أشعثا وأنفها الكبير معقوفا مثل منقار البوم، وأما نهداها فقد تدليا على جانبي الحصان وهما يمسان الارض. وكان الحصان جامدا تحتها لا يأتي بأي حركة.

«تعال يا كريم أرقص معنا» وأخذوه الى كهف تحت الجرف وهم يرقصون ويتقافزون حوله، وزال خوفه واعتاد على الوجوه الغريبة التي بدت له هاشة باشّة وأحس كما لو أنه واحد منهم، قال أحدهم وهو يخرج له لسانه الطويل مازحا: «ابق معنا يا كريم، اننا نحبك، واذا بقيت معنا فاننا سنزوجك من الجنية (في) الجميلة، انها تحبك ايضا، انها حين زارت رستم في يوم ميلاده فانما اعتقادا منها بأنك أنت الذي يلزم الحراسة..» وقفز على كتفيه قزمان راحا يهمسان في اذنيه بصوت واحد: «انظر يا كريم تلك هي الجنية (في) في انتظارك» كانت الجنيّة جالسة في أحد الاركان بملابسها البيضاء وشعرها الاصفر المسترسل تحيط بها الوسائد من كل الجهات، ومن حولها الاقزام بمختلف الاشكال والاحجام. كان أصغرهم بحجم الغراب وأكبرهم بحجم طفل في السابعة. قال كريم في سره، اذ انه كان لا يستطيع النطق: «هنا اذن تعيش الجنيّة التي دوخّت الناس» قال القزم وهو يجره من يده ويمشي مثل بطة: «طبعا انها تعيش هنا منذ الازل، وها نحن جلبناك لها بناء على طلبها. وعندما أتخذ مكانه الى جانبها تلاشى الاقزام. قالت الجنية بكبرياء وهي تحدق فيه بعينيها الزرقاوين العميقتين:

«لماذا أنت خائف يا كريم؟ اين هي شجاعتك؟».

حاول كريم النطق ولكن شيئا يقيدني ويستولي عليّ، انني سعيد جدا لوجودي هنا واتمنى أن أبقى هكذا الى الابد الى جانبك».

ابتسمت الجنية، وبدت اسنانها البللورية وقالت:

«وعشيقاتك؟ أهكذا بسرعة تنساهن يا كريم؟»

مد لها يده بصعوبة، قالت هي بدلال:

«لا يا كريم، انك لا تستطيع أن تمسني، واذا اردت أن تمسني فيجب علينا أن نتزوج، ونخرج نرقص مع العفاريت الصغيرة، انهم ينتظروننا.. هيا، هيا هيا لنذهب اليهم..».

وتلاشت الجنيّة واسدل الظلام على الكهف، بيد أن آلاف النجوم كانت تلمع وتتحرك فوق النهر..

٦

وقف الاربعة أمام الباب وهم ينظرون الى بعضهم البعض، كما لو أن كل واحد منهم ينتظر أن يبدأ أحدهم بالكلام. وكان رستم واثقا ان صاحبيه لا يبادران الى الكلام قبله، ولذلك وجهً كلامه الى صديقه الجديد الذي بدا له هادئا قليل الكلام وخجولا وقال: «أنا اسمي رستم..» ثم أشار الى صاحبيه: «هذا ابن عمي اسمه قادر وهذا ابن عم والدي اسمه عباس.. وأنت؟ ما اسمك؟..».

«اسمي رمزي، ولكن الكل يسموني خطأ رزمي.»

قال رستم باستغراب ومبتسما: «انا لم اسمع بمثل هذا الاسم من قبل، حسنا رزمي اننا نريد أن ترينا المدينة..» قال رمزي بخجل: «أنت أيضا أخطأت في ذكر اسمي يا رستم.»

وضع رستم يده على كتفه وقال بود: «أنظر يا رزمي، اسمي هو الوحيد الذي لا يمكن تغييره، هذا قادر ولكننا نسميه قاله وهذا عباس نسميه عەبه..»

«ماذا تحبون ان اريكم في المدينة؟.»

وقبل ان يهم رستم بالكلام قال قادر وهو يؤشر بيده الى فانوس مقلّق على الجدار: «لماذا علقتم هذا القنديل هناك؟» نظر الكل الى الفانوس! أجاب رمزي بصوت خافت وباعتداد من يُعلّم الآخرين: «هذا الفانوس لم نعلقه نحن، انه ملك البلدية، هناك رجل يأتي كل يوم مساء ويضع النفط في هذه الفوانيس ويشعلها حتى تضئ الازقة...»

«تضئ الازقة؟ وماذا يضير اذا بقيت مظلمة».

«حتى يروا اللصوص اذا دخلوا المدينة».

«والكلاب؟ اليست لكم كلاب لمطاردة اللصوص؟» قال ذلك عباس وهو يحاول تهديف الفانوس بمصيادة أخرجها من جيبه. مسك رمزي يديه بحركة هستيرية قائلا بانفعال: «ماذا تفعل؟ هل أنت مجنون؟ انهم سيغرموننا نحن اذا كسرت زجاج الفانوس.» نظر رستم الى عباس بحدة طالبا اليه اعادة المصيادة الى جيبه. قال قادر ببلاهة: «ولكن الا تقل لي من هو هذا (البلدية)؟»

«البلدية هي الحكومة..»

«ومن هي الحكومة؟ واين تسكن؟» أستفسر قادر وهو لا يزال ينظر باستغراب الى الفانوس. كان السؤال غريبا على رمزي، حكَ رأسه وراح يفكر في جواب ملموس يجد طريقه بسهولة الى رؤوس أقاربه الجدد، وتذكرَ كلمات معلمه الانيق الذي يميل طربوشة بعناية الى جانب الايسر ويقول باللغة التركية: «الحكومة هي النظام والخليفة هو ظل الله على الارض»، أراد أن يتفخر بما يعرفه وينقل لهم نص العبارة التي نطق بها المعلم ولكنه وجد ذلك هراء لا ينفع مع هؤلاء فقال: «الحكومة هي مجموعة من الناس يعينهم الباب العالي و...» وقبل أن يكمل كلامه قاطعه رستم قائلا: «ان هؤلاء لم يذهبوا لا الى الملاّ ولا الى المدرسة، واسئلتهم لا تنتهي، وهم في كل الاحوال لا يفهمون أجوبتك، ولذلك لا داعي لضياع الوقت، اننا نريد ان نرى المدينة.»

قال رمزي مقلدا معلمه الانيق: «اننا يجب ان نعلمهم يا رستم، ان ذلك من واجبنا والاّ فان الله لن يرضى علينا.». أشرَ رستم الى صاحبيه وراحوا يسيرون باتجاه المدينة، قائلا: «هيا يا رمزي ارنا المدينة لا وقت لدينا للمجادلات». وفيما هم ابتعدوا عدة خطوات، ظل رمزي مؤشرا بذراعه

الى الجانب الايسر: «لنذهب من هنا، لا اريد أن نمر من هناك» «ولكنني أتذكر اننا جئنا من هذا الجانب وهو اقرب الى السوق.» قال رستم وهو يقترب منه. ارتبك رمزي قائلا بخجل: «هناك ولد شرير كلما اردت الذهاب الى السوق من هناك يحاول ان يعتدي عليّ. وانا اريد أن أتجنبه. اندفع قادر بسرعة: «أين هو هذا الولد الشرير، هيا ارني اياه». قال رستم بهدوء: «اننا اربعة، ولا نريد أن نعتدي على أحد، واذا اراد احدهم ان يعتدي علينا فليتقدم.»

وساروا باتجاه السوق، وعندما اصبحوا في المركز قال قادر: «أين هو هذا الولد الشرير؟». قال رمزي بعد أن عادت اليه الثقة: «ربما في البيت او اي مكان آخر، على كل حال انه لم يتغلب عليّ بعد، وهو لن يكف عني الا اذا تغلّب عليّ أو تغلبت أنا عليه، ولكنني لا اريد المشاكل..» هزّ رستم رأسه وهو ينظر في وجهي قادر وعباس وقال: «سنرجع الى هذا الموضوع في وقت آخر.»

كان كل شيء غريبا بالنسبة للثلاثة، الجامع بقبته ومنارته العالية، سوق القيصرية، الدكاكين بما تحتويه من المواد الغذائية والاقمشة، الاسكافي الذي يعالج الاحذية المختلفة، الحداد، مركز الشرطة، الشارع المبلط بالاحجار، البيوت المصنوعة من مواد غير الطين، الناس وملابسهم. قطعوا الشارع الرئيسي الوحيد الذي تتفرع منه الأزقة ثم عبروا القنطرة الى الجانب الثاني، حيث بوابة خان جهانگير ومزار بقبة، أشر اليه رمزي قائلا: «هذا هو مزار الولي بيرداوود. كان فيما مضى يتجول شبحه في الازقة ويجمع الفوانيس، ليخفيها في مكان مجهول». ومروا بمحاذاة الجدول الى أن وصلوا الى بستان كبير تتخلله النخيل. قال قادر ببلاهته المعهودة: «رستم انظر ما هذه العمالقة؟..» قال رمزي وهو يبتسم باعتداد: «هذه هي الاشجار التي تحمل التمر.». قالوا وهم يحدجون الى أعلى: «سبحان الله، سبحان الله...».

أتكأوا على الجدار الواطئ المصنوع من الطين واللبن المجفف في الشمس وهم ينظرون الى ما بداخل البستان. كانت الارضية دون مستوى الشارع بحوالي المتر، وراحوا يمدّون أعناقهم كما لو انهم يريدون ان يستطلعوا كل عشب وشجيرة، وفجأة سقطت طاقية قادر وصاح بأعلى صوته: «لقد سقط كلاوي... يجب ان اعيده، انني لا استطيع أن أمشي حاسر الرأس..» ومد الآخرون أيديهم الى رؤوسهم بصورة لا ارادية ثم راحوا يضحكون. وشجعه رستم بالنزول الى البستان. وراحوا يبحثون عن مكان واطئ، بيد أن قادر صعد الجدار في نفس المكان الذي سقطت فيه الطاقية وقفز الى البستان.» تناول طاقيته ونظر الى أعلى، كان الجدار أعلى بكثير مما تصوره هو، ثم التفت يمنة ويسرة دون أن يجد مكانا واطئا أو مدرجا، قال رستم بوجل: «ولكن ماذا نفعل الآن؟ كيف ستخرج من هذه البئر؟». كان رمزي مرتبكا جدا خشية مجئ صاحب البستان واما عباس فكان ينظر بهدوء الى قادر وكأن شيئا لم يكن، واراد ان يقول له شيئا، بيد أن قادرا اختفى وراء احد الأشجار قائلا من هناك: «قبل كل شيء يجب أن اتغوط». وراح الثلاثة ينظرون الى بعضهم

بارتباك، قال عباس: «أنا أيضا يجب أن اتغوط». «انتظر قليلا، سنرجع فورا الى البيت» قال ذلك رمزي وهو يجيل رأسه بينهما وبين البستان. ظهر قادر من وراء الشجرة: «هيا ادلوا لي الحزام» وبسرعة كبيرة فكَ عباس حزامه المصنوع من القماش الملوَن والقى بطرفه لقادر. «امسكوا الحزام بقوة والا فسيتكسر ظهري اذا وقعت». لفَ عباس طرف الحزام على يديه واتكأ على الجدار رافضا مساعدتهما، وصاح: «هيا يا قادر.». وبخفة وسرعة اصبح قادر بينهما، وراح يخرج من جيبه ليمون حامض وزعه عليهم ثم أكل واحدة بقشرها. قال رمزي: «هذه ثمرة غير ناضجة لا تأكلوها ثم أن القشرة لا تؤكل معها». واصلوا الاكل وهم يتمتعون بالحموضة التي تترك آثارها على وجوههم. سلَم عباس حزامه الى قادر وقفز الى البستان. وعندما خرج بنفس الطريقة، ساروا بمحاذاة الجدار الى أن وصلوا الى نهاية البستان، حيث سهل ممتد تغطيه مروج خضراء. وكانت تبدو من بعيد قبة كبيرة تحيطها بيوت بنيت فوق مرتفع يطل على نهر ذي وادٍ واسع. قال رمزي وهو يؤشر بيده الى القرية البعيدة: «هل ترون تلك القبة الكبيرة؟ انها مزار الامام زين العابدين، يذهب العميان الى هناك في موسم الحج وينامون في داخل المزار عدة ليالي الى أن يعود النور الى عيونهم.» قال رستم ساهما: «سبحان الله، لقد سمعت ذلك من جدي.». «ان جدنا زوراب يعرف كل شيء» قال ذلك قادر بفخر وهو لا يزال يعالج بقايا ليمونة. «واما هذا البرج على جهة اليسار فهو امام الهواء؟» استفسر رستم باستغراب: «امام الهواء؟».. لم اسمع بمثل هذا الشيء، وماذا يعني هذا؟» «انه يعالج المرضى المصابين بالهواء الفاسد في الدم والعظام.» هزَ الثلاثة رؤوسهم دون أن يقولوا شيئا، وراحوا يواصلون سيرهم باتجاه البيت، وفجأة صرخ قادر بأعلى صوته وهو يركض: «عفاريت، عفاريت، انظروا، انني لم ار عفريتا في النهار»وقف الثلاثة بصورة لا ارادية، وعندما التفت كل من رستم وعباس الى المصدر الذي أشار اليه قادر راحا يتبسملان، وواصل رستم قراءة آيات بصوت غير مسموع. قال رمزي دون أن يفهم مغزى هذه التصرفات: «ما هذا؟. ألم تروا البعران في حياتكم؟....». ضحك رستم بصوت عال وهو ينادي على قادر: «هذه بعران يا قادر تعال لا تخف»، ثم وجهَ كلامه الى رمزي: «لا تعتب علينا يا رزمي اننا قد سمعنا باسم البعير ولكننا لم نره..»

وقبل ان يصلوا الى البيت دخلوا مزاراً قديما مظلما تحيطه بقايا قبور قديمة، وكان ثمة سلَم يؤدي الى سرداب عميق. لاحظ رمزي علامات الخوف المرتسمة على وجوه أصدقائه الثلاثة، وهنا أراد أن يثبت جرأته، ولكنه قبل أن ينطق خفق بوم بجناحيه وطار بعيدا، وأندفع الثلاثة كالمجنون باتجاه الباب. أطلق رمزي ضحكة وصاح: «لماذا هذا الرعب؟ انه مجرد بوم ترك عشه خوفا منا...» قال قادر بعصبية: «انها روح الولي الراقد هنا، لقد أغضبناها بدخولنا الى المرقد..». وعندما عادوا الى المزار ثانية، قال رمزي: «ان من يريد أن تتحقق له أمنية أو مطلب

فانه يجب أن ينام هنا ليلة، والآن، هل يتجرأ أحدكم بالنزول الى السرداب؟» نظروا الى بعضهم البعض بحيرة وتساؤل، فأجاب رستم «كلا، اننا لا نستطيع الدخول الى مكان مجهول لا نعرفه، وأنت هل تستطيع ذلك؟» قال باعتداد: «نعم، استطيع ذلك، بل أستطيع أن أقوم بذلك حتى في الليل..» قال قادر باستخفاف: «اذا كنت تستطيع ذلك، وكنت جريئا الى هذه الدرجة فلماذا تخاف من ذلك الولد الشرير؟» نهره رستم: «هذا شيء لا علاقة له بذلك». قال عباس متحديا: «اذا نزل رزمي فسأنزل أنا ايضا.» كان قادر قد تعب وجاع فقال: «أنا أرى أن نؤجل هذا الموضوع الى الليل». أيده رمزي فورا: «فكرة جيدة، سنأتي في الليل، ان الاكل الآن جاهز ولا شك أنهم سينتظروننا.».

قال قادر وهو يمسد كرشه الصغير بيده: «يبدو لي كل شيء هنا مثل العيد أو مثل حفلة عرس، لم آكل في حياتي مثلما أكلته من اللحم والرز في هذا اليوم.». قال رستم وهو يضربه برفق على كرشه: «اذا بقينا هنا عدة أيام أخرى فانك ستتحول الى بعير.». أجاب قادر متباهيا: «عند ذلك سأتغلب على الفيل.» استفسر رمزي: «هل رأيت الفيل؟». «أنا؟ كلا..». «من أين تعرف اذن أنه أقوى من البعير؟». «جدي زوراب يقول دائما أن الفيل أقوى من البعير...». أراد رستم أن يثبت أنه هو الآخر يعرف بعض الأشياء رغم أنه لا يذهب الى ما يسمى بالمدرسة وراح يتلو: «ألم تر كيف فعل ربكَ بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم في تضليل. وأرسل عليهم طيرا أبابيل..» وقاطعه رمزي مواصلا إكمال الآية: «ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول. آمين..». ثم أضاف: «هل ختمت القرآن؟» «لقد ختمت جزء تبارك، ان ملاي بطيء جدا..» «وهل يعلمك الكتابة ايضا؟» «كلا، انه يعلمني القراءة فقط، انه هو نفسه لا يستطيع الكتابة.» قال رمزي بلهجة صارمة: «أتركه، وتعال عندنا، انك يجب أن تدخل المدرسة». نظر قادر وعباس بشيء من الحسد الى رستم، «ستتبريع هنا يا رستم، وستكون أفندي.». «لا تخف سنزورك كل ثلاثة أسابيع، لا نتركك لوحدك».

سقطت الفكرة مثل برق خاطف على رأس رستم، وفي لحظة واحدة تلاحقت مئات الصور في رأسه، غرق في شيء أشبه بحلم، الى أن استيقظ على صوت رمزي وهو يقول: «ها هو جاء، هذا هو اسماعيل لمبجي.» كانت الشمس قد غابت، وبدأ الظلام يلف زوايا المدينة الصغيرة. وكان الرجل الاحول الضعيف يتنكب سلما خشبيا ويحمل مجموعة من الفوانيس. وراح الثلاثة يراقبونه بأهتمام، كيف يسند السلم على الجدار وينظف زجاج الفوانيس ويضع النفط في خزاناتها، وينتقل من فانوس الى آخر، ومن زقاق الى زقاق. قال قادر وهو يحك رأسه الكبير: «لا تنسوا اننا أتفقنا أن ينزل رزمي الى سرداب المرقد.» ردَ رستم: «كان ذلك مجرد مزاح، انك تصدق كل شيء يقال»، أجاب رمزي فورا: «كلا يا رستم انني لم أمزح، كنت جادا في كلامي». استفسر

رستم باستغراب: «والآن؟ أمازلت مصرًا على كلامك.». أجاب رمزي باصرار: «طبعا يا رستم، هيًا لنذهب الآن..».

كان قادر وعباس يتشاوران بينهما بصوت خافت، وحين تأكدا من اصرار رمزي التفت قادر اليه قائلا: «ولكننا قبل أن نذهب الى المرقد يجب أن نحل مشكلة..» «أي مشلكة يا قادر؟..» استفسر رستم. «أن نذهب الى هذا الولد الشرير الذي يعتدي على رزمي ونخرجه من البيت ونؤدبه». ارتاح رمزي للفكرة، ولكن اجتاحه شعور بالخوف. وأيّد عباس الاقتراح فورا، وأما رستم فظل يفكر، وكان يعتقد في قرارة نفسه أن تلويح رمزي لهذا الشيء هو بحد ذاته نوع من طلب النجدة، وإن قادرا كان أذكى منه في الالتفات الى هذا الموضوع الذي لم يسترع أنتباهه هو ولذلك يجب مساعدته، بيد أنه خاف من العواقب، قال بعد هنيهة: «أنا أويد فكرة قادر، يجب أن نضع خطّة ونؤدب الولد بهدوء دون ضجة.» قال قادر باندفاع: «أتركوا الامر لي أنا، ما على رزمي الا أن يريني باب بيتهم.» اعترض عباس: «دع الآن يتكلم رستم». قال رستم: «ليس من الرجولة أن نشترك كلنا في تأديبه، اننا نقف في مكان بعيد بعض الشيء من البيت، واما رزمي فيطرق الباب وعندما يخرج الولد يجره من ياقته ويتحداه بطلب المبارزة واما نحن فنكون شهودا.». رأى قادر أن هذه العملية مجرد لعب وليس تأديبا، واستفسر: «ومن يقول أنه لا يتغلب على رزمي.؟». «كلا، لا يستطيع التغلب عليّ، انني أقوى منه، انه لا يستطيع التقرب مني بدون اصدقائه..» وبعد صمت قصير، واصل: «أنا اؤيد فكرة رستم..».

بعد مسيرة قصيرة دخلوا زقاقا ضيقًا مطلا على السوق، وكان يتقدمهم رمزي، أشار الى باب من الصفيح الصدئ قائلا: «هذا هو باب بيتهم»، وقبل أن يكملّ كلامه، رشق قادر الباب بحجارة بحجم الكف، فأحدث دويا شقّ سكون الزقاق الذي كان قد خيمً عليه الظلام. انفتح الباب ببطء محدثا صريرا وخرج الولد. كان صبيا في السابعة عشر، مشعث الشعر هزيلا، وكان ضوء الفانوس الذي يسقط مباشرة على وجهه، توضح ملامح الخوف المرتسمة عليه، قال رمزي بصوت هادئ: «سنحسم هذه الليلة كل شيء يا ابن العاهرة، جئت لأتصارع معك». قال الولد بارتباك فيه تراجع واضح: «لماذا تشتم والدتي يا رزمي انها ميتة، هل يقبل الله أن تشتم الموتى.». ارتبك رمزي، ولكنه سرعان ما استعاد رباطة جأشه وأدرك أن عدوه يريد أن يكسب عطفه: «اذن أخرج يا ابن الكلب وأثبت شجاعتك في الليل، هيا تعال نتصارع..». «أعرف انك لست وحدك يا رزمي وان لك عشيرة.. أنا لا اريد أن اتحداك، واذا اردّت فسنكون اعتبارا من هذه الليلة أصدقاء.». «إنك اذن انهزمت..».

وانسحب الولد بهدوء الى وراء الباب، وأوصده برفق كما لو أنه يريد أن يحيل دون الصرير الذي أعلن عن نفسه مرة أخرى. وضحك الثلاثة بصوت عال، وأما رمزي فقد بدت على وجهه علامات

التأثر والألم دون أن يعرف السبب، قال قادر وهو يحسّ بنشوة النصر: «لقد انتهينا من حل مشكلة، والآن أريد أن يرينا رزمي كيف ينزل الى سرداب المرقد.» اعترض رستم بحدةٍ: «كلا، ان مراقد الاولياء ليست مكانا للمزاج والمراهنات، ابحثوا عن أماكن أخرى لألعابكم..». قال قادر بتهكم: «من الاحسن ان تقول بانك تخاف الاقتراب من المرقد في الليل». «كلا يا رستم، ان دخول المراقد ليس كفرا، انها بنيت خصيصا للزيارات حتى يقترب الناس (من خلالها) من الله..». أضاف قادر متباهيا: «هل رأيت يا رستم، ان الملا الحقيقي الذي يعرف كل شيء هو رزمي، انك ما زلت بحاجة الى خبز كثير للوصول الى علم ملا رزمي.». سكت رستم، وبدا له أنه لا شيء أمام هذا الابليس الذي لا يعصي عليه أي سؤال. فاضطر أن يقول: «اذا كنتم كلكم موافقون فهيا اذا.». ساروا باتجاه المزار، كان الظلام الدامس يلف كل شيء.

كان ثمة نور ضئيل ينبعث من السرداب. وقف الثلاثة دون أن يتجرأ أحد منهم اجتياز الباب، أما رمزي فنزل درجتين مادًا رقبته الى أعماق السرداب الرطب ثم انسحب بخفة الى الخارج هامسا: «لا نستطيع النزول هذه الليلة، هناك درويش يتنسك». لم يستطيعوا التغلب على فضولهم، فالقى كل واحد منهم نظرة سريعة على الدرويش الذي كان يبدو بشعره الطويل المسترسل مثل شبح يسبح في غمامة من دخان البخور يتماوج حول ذبالة الشمعة التي ترسل نورها من كوة صغيرة في جدار السرداب.

٧

مرّت ثلاثة أيام على تواجدهم في مركز السنجق. وعندما كانوا يتجولون في السوق قال شيخو لرمضان: «لقد تعلمت وسمعت ورأيت في هذه الايام الثلاثة من الاشياء ما لم يسبق لي أن عهدت بها طيلة حياتي.». هزّ رمضان رأسه وهو يقلب بين يديه محراثا حديديا دقيق الصنع: «العمر الحقيقي يا شيخو لا يقاس بعدد السنوات، بل بالتجارب ومشاهدة العجائب. انظر، كنا قبل سنوات نحرث بالخشب، والان، انهم يلوون الحديد كما لو انه عجينة. نحن انتهى زمننا، ولكن ينبغي أن نعمل من اجل ان لا يعيش اولادنا واحفادنا عميان مثلنا.». قال شيخو وهو يدفع ثمن محراثين وثلاثة مناجل: «يجب ان نقنع الوالد بارسال رستم للدراسة في المدينة». «اعتقد اننا يجب ان نقنعه قبل كل شيء بالقيام بزيارة الى المدينة وبعد ذلك يمكن مفاتحته بالاشياء الاخرى. انه اذا قال مرة لا فإنه لن يستبدله بـ(نعم)».

سرح شيخو بذهنه بعيدا، دون ان يؤثر عليه ضجيج السوق. واحس انه منذ لقائه بالقائممقام وصحبه قد أصبح انسانا آخر. ولم يكن يتوقع انه سيلقى هذا الاحترام والتبجيل من شخص القائممقام الذي كان يتكلم بلهجة تختلف بعض الشيء عن لهجتهم الفلاحيّة. وحين سأل جهانگير عن أصله استغرب عن سؤاله الذي لم يخطر بباله مطلقا.». «ماذا يهمني أصله؟ المهم انه يتعامل معنا بشكل جيد فيه احترام وثقة..».

كان ذلك يوما حافلا لا ينسى بالنسبة الى شيخو. كان مضيف جهانگير حافلا بأنواع المأكولات. القائممقام بهيكله الضخم وطربوشه المائل الذي نزعه برفق، أتخذ مكانه في صدر الديوان وطلب من شيخو أن يتخذ مكانه في جانبه الايمن، بينما اتخذ اليوزباشي مكانه في جانبه الايسر، واما مأمور دائرة الخرج والقولجي وآخرون فقد جلسوا في صفين متقابلين. وكان هناك مكان شاغر جنب شيخو يركن اليه جهانگير بين حين وآخر، اذ انه هو الاخر كان مشغولا مع ابنه وآخرين بخدمة الضيوف.

في ذلك اليوم تسلم شيخو الفرمان من يد القائممقام، وبعد تبادل الكلمات بالتهاني والشكر والتأكيد على خدمة الدولة العثمانية تمّ لف الفرمان ووضع في اسطوانة معدنية مصنوعة لهذا الغرض. كان ثمة آخرون تسلموا نفس الفرمان، وأستغرب شيخو كيف أن بعضهم كان ينحني امام القائممقام ويقبل يده، ويبالغ في استصغار شأنه أمامه. وقرر الشيوخ ان يوطدوا العلاقات

فيما بينهم بتبادل الزيارات المستمرة. وعندما ودعهم القائممقام أكد عليهم بالمباشرة فورا بالعمل وتشييد القرى في الاراضي التي تسلموها. وفي الوقت الذي كان شيخو مشغولا بوضع الخطط لتعمير الاراضي الجديدة المطلة على نهر روخانه في ذهنه، وقعت عينا رمضان على أكوام السكر والشاي، فضربه على كتفه مستيقظا اياه من شروده: «انظر، هذه احسن هدية يمكننا شراءه للوالد..». وجد شيخو الفكرة صائبة، وفي نفس الحانوت اشترى ايضا كميات من التمر والدبس وانواع الاقمشة وبعض الخرز للنساء.

عرف شيخو ان الهدايا التي قدمها للقائممقام واليوزباشي والآخرين، كانت أحسن بكثير من هدايا الاغوات الاكراد الآخرين، وفهم جيدا ما كان يعنيه القائممقام من أن نوعية جبن وزيد وادي كفران هما من اجود النوعيات قاطبة، اذن فليس القمح هو أجود الانواع حسب. وابدى القائممقام اهتمامه بضرورة دراسة رستم في المدينة بعد ان اقترح ذلك اليوزباشي، وتعهد ان يساعده بعد اكمال دراسته في كركوك بإرساله الى ولاية الموصل للدراسة في دار المعلمين الابتدائية. واذا حصل على درجات جيدة هناك فيمكن ارساله الى استانبول. «هذا كثير يا جناب القائممقام، يكفي ان يكون ملا جيدا لا أكثر، نحن ابناء العشائر نمدّ ارجلنا بقدر لحافنا». قال ذلك شيخو وهو عبثا يحاول اخفاء اعتزازه برستم.

بعد ان انتهوا من شراء الحاجيات عرجوا الى خان جهانگير، حيث أكوام القمح والشعير، وكان هذا ينتظرهم في غرفته للذهاب الى البيت لتناول طعام الغذاء، والح عليهم جهانگير للبقاء على الاقل ليلة اخرى. وأكد شيخو بصورة قاطعة أنهم يجب ان يسافروا اليوم، اذ انهم بقوا اكثر من اللازم، وان والده قد جنّ جنونه الان. وأردف رمضان: «لا تخف يا عزيزي جهانگير، اننا سنكون من الان فصاعدا من زبائنك الدائميين». «أنا في خدمتكم دائما وبيتي هو بيتكم، انني اعتبر نفسي بعد تشرفكم بزيارتي قد ولدت من جديد».

واذ كانوا في طريقهم الى بيت جهانگير، ضرب قادر بخفة على كتف عباس طالبا اياه ان يخفف من سيره، وعندما شد هذا انتباهه اليه، همس قادر: «انظر، لقد سرقت هذا.» سأل عباس بدهشة: «ولكن ما هذا الشيء، ولاي غرض يستعمل؟» اجاب قادر: «لا اعرف، ولكنه أعجبني فسرقته، وأنت هل سرقت شيئا؟» اجاب بلهجة غير راضية: «خمسة اقراص نعناع فقط، اذ ان صاحب الدكان ينظر اليّ طيلة الوقت.». ناوله قرصين قائلا: «الا تقل لي ماذا ستفعل بهذا الشيء؟». «سنسأل رزمي، لا بد انه يعرف ما هذا الشيء.» وفي هذه اللحظة داهمهما رستم، فتساءل بشئ من الانفعال: «ما هذا يا قادر؟ من اي دكان سرقته؟» وقبل ان يجيب قادر بادر عباس محتجا: «لماذا هذا الاتهام يا رستم، لقد عثرنا عليه على قارعة الطريق، كيف يمكن للانسان ان يسرق شيئا دون ان يعرفه؟». تصنع قادر الوقار: «أهكذا تريد أن تكون ملاً علينا؟». تناول رستم الفخ الخشبي وراح يقلبه بين

يديه هازا رأسه وشاكا في أنهما عثرا عليه على قارعة الطريق، فمنذ وجودهما هنا قد عثرا على أكثر من شيء، في حين لم يعثر هو على اي شيء. ربما انهما محظوظان. تسارع في خطواته واقترب من رمضان وهو يريه الفخ: «عمي رمضان، لقد عثرنا على هذا الشيء على قارعة الطريق، هل يمكنك أن تقول لنا ما هو؟». وقبل ان يجيب رمضان بادر جهانگير ومسك بالشيء قائلا: «هذا فخ للفئران، انه يمكن ان يصيد ثلاث فئران في آن واحد، هنا، على هذه الصنارة تعلق الشحمة او العجينة الممضخة بالسمن ويسحب هذا المعدن الى تحت ثم يثبت بهذا اللسان المعدني المربوط بالصنارة، وعندما تبدأ الفأرة بقضم الشحمة ينسحب اللسان ويندفع المعدن بقوة الى أعلى، فتكون هذه القضمة الاخيرة.». هزّ الاولاد رؤوسهم لهذا الشيء العجيب، وعلّق رمضان: «حتى الفئران لم تنج من خديعة البشر..» قال جهانگير: «كل شيء بالعقل يا رمضان. لقد اعطانا الله العقل كي نستعمله، وعليك أن تعيش أطول حتى ترى العجائب..».

بعد الانتهاء من تناول الغذاء، ألح عليهم جهانگير مرة أخرى بالبقاء، و شكره شيخو لضيافته الكريمة وأكدّ أنهم يجب ان يسافروا اليوم، وأنهم سينتظرون قدومه في وادي كفران. قال رستم بلهجة فيها أسى الوداع: «ولكن يا عمي جهانگير لا تنس أن تجلب معك رمزي.». «طبعا يا بني، هذا ما لا شك فيه..».

بعد الظهر مباشرة انتهوا من شدّ الاحمال على البغال والحمير. ورافقهم جهانگير وابنه على فرسيهما. وفي هذه المرة لم يمروا بمركز المدينة، بل تركوها عبر طريق خلفي، ورغم الحاحات شيخو ورمضان بعدم ضرورة مرافقتهما، أكد جهانگير انه سيرافقهما حتى نهر روخانه.

كان وادي نهر روخانه يتسع كلما انحدر جنوبا، فتكون مياهه ضحلة، وفي أيام الصيف يتحول الى جداول صغيرة تتفرق هنا وهناك. وأما في ايام الشتاء فإن قطع النهر صعب للغاية، ولذلك على المرء قطع طريق جبلي وعر للوصول الى الجسر الحديدي الذي يقطع النهر في منطقة ضيقة. ومن هناك كان يمكن مواصلة السير الى مركز السنجق او الى كركوك.

بعد مسيرة غير طويلة بلغوا النهر. وترجل الكل، وراحوا يعبثون بالماء العذب، وكانت البغال والحمير هي الاخرى تأخذ قسطها منه. وعندما أشار جهانگير بيمناه الى الجهة الجنوبية محددا المناطق الجديدة التي ستلحق بوادي كفران، قال رمضان محاولا أن يثبت لصاحبه أنه يعرف كل شبر من المنطقة:

«ولكن هناك قرية صغيرة تتكون من خمسة بيوت تقع مباشرة على جدول بنعيز المتفرع من روخانه، فماذا يكون مصير هؤلاء؟».

أجاب جهانگير فورا:

«ان هؤلاء كلهم من أقاربنا، وتحدثت معهم بنفسي أنهم يرحبون بأن يكونوا جزءا من وادي كفران. انهم بحاجة الى من يتكئون عليه».

قال شيخو باستغراب:

«يبدو انك يا خالي قد درست الامور من كل جوانبها».

علّق رمضان:

«ان خالك قد أثبت بأنه ثعلب أصيل».

أضاف جهانگير بتباه:

«لقد فعلت كل ذلك من اجل الشيخ زوراب وأجلكم، المهم أن يكون الشيخ زوراب راضيا عني، هذا كل ما اريده منه.».

«اننا لن ننسى فضلك يا خالي، ولا شك ان والدي سيكون سعيدا جدا لما قدمته لنا من خدمة لا تنسى».

قال ذلك شيخو بعد ان عانق جهانگير وابنه، وتعانق الجميع على أن يلتقوا في فرصة قريبة. وظل جهانگير وابنه واقفين في مكانيهما الى أن قطعوا وادي النهر العريض واختفوا وراء التلول الكلسية الموازية للنهر. استدارا بحصانيهما تاركين النهر وراءَهما. وكانت شمس ايار تنحدر جنوبا وتخفّ من حرارتها رويدا رويدا، ورغم حقول القمح الذهبية التي تمّ حصاد أقسام منها، كانت ثمة بقع وأشرطة خضراء تتخللها الازهار الملونة، تنتشر وتمتد هنا وهناك. وكانت اسراب القطا تنتشر في السماء، وهي أشبه بغمائم متحركة، تارة تحط فوق الحقول وأخرى تصعد بحركة متماوجة سريعة لتختلط بغمامة أخرى لا تلبث ان تختفي وراء الافق.

كان الصمت مطبقا عليهما، وكان السكون لا يعكره سوى وقع حوافر الحصانين الرتيب. كان مزيجا من الحزن والسعادة يغمر كيان جهانگير، قال بشرود:

«واخيرا استطعنا ان نخرجهم من واديهم الذي اعتصموا فيه مثل بنات آوى، وسترى كيف تدّر علينا أكوام القمح والشعير، وعليك ان تضبط دفترا خاصا لوادي كفران، على كل حال كيف رأيت أقاربك؟».

كان رمزي يتأمل المنارة البعيدة ويشعر بالوحشة التي تركها أصدقاؤه الجدد، وكم كان بوده ان يذهب معهم ويتخلص من الحسابات اليومية التي لا يكل والده من املائها عليه، وحسد الثلاثة لكونهم طليقين مثل الطيور، يجلهون الجمع والطرح والتقسيم، ولا يرغمهم أحد للجلوس في الخان صباحا ومساءا في اشهر الصيف التي لا تنقضي. اربعة اشهر اخرى من العمل المكثف ما زال أمامه، وبعد ذلك يعود الى مدرسته في كركوك. ويتمنى لو يقتنع اهل رستم بارساله الى

المدرسة، اذ ذاك سيكون له صديقا يتبادل معه شجونه وهمومه. وكان هناك الكثير من الاحاديث التي اراد ان يفاتح بها رستم، بيد ان قادر وعباس كانا يعكران الجو ويخلقان مناخا آخر غير ما كان يريده هو.

«أنا سعيد لتعارفي مع اقارينا الجدد، وانا الان حزين لذهابهم، ولكن شيئا واحدا لم يعجبني عند قادر».

«ايهما هو قادر، عدا رستم الذي أعرفه؟».

«البدين ذو الرأس الكبير.».

التفت جهانگير، واستفسر بلا مبالاة:

«ولماذا لم يعجبك قادر؟.. أنا ارتحت اليه، كان مرحا يبعث الطمأنينة في النفس».

«صحيح كل ما تقوله، ولكنه سيكون لصا كبيرا في المستقبل؟».

قهقهَ جهانگير بصوت عال ثم أردف:

«هل سرق منا شيئا».

«من بيتنا لم يسرق شيئا. لقد سرق فانوس البلدية. والفخ الذي رأيته ولمسته بنفسك سرقه هو ايضا من دكان أحمد النجار»..

ضحك جهانگير مرّة اخرى:

«هذا شيء اعتيادي يا بني، كل عشيرة بحاجة الى لصوص، ثم اننا كلنا لصوص، أنا أسرق من الفلاحين، والقائمقام وبطانته يسرقون مني، والوالي يسرق منا جميعا، والخليفة الجالس في الباب العالي يسرق من الولاة، وهكذا.. انك تسرق حتى تعوّض ما سرقوه منك».

قال رمزي بهدوئه المعهود:

«ولكن هناك من لا يسرق في هذه الحلقة».

ضحك جهانگير مرة أخرى:

«أعرف، اعرف جيدا من تقصد. الفلاحون يسرقون ايضا، انهم باخفائهم حقيقة الكميات المنتجة من المحصول، يدفعون زكاة أقل وبذلك فهم أسوأ منا، اذ انهم حَزٌّ يسرقون من الله مباشرة، وهذه شر السرقات».

سكت رمزي، ولم يرد أن يعلّق على كلام والده الذي لا يمكن التغلب عليه في الجدل. وهو يعرفه جيدا، يعرف لماذا أكرم شيخو ورمضان الى هذه الدرجة. وحزٌّ في نفسه حين تذكر بعض أقاربه الذين جاءوهم قبل عامين يستجدون منه بضعة أكياس من الشعير، لأنهم لا يملكون الخبز في

البيت، فلم يكرمهم، رغم أنهم كانوا أقرب اليه من شيخو ورمضان، بل آواهم ليلة واحدة في الخان وأخذ منهم احدى البغلتين مقابل ما أعطاهم من شعير. كانوا ناس طيبين، ارتاح لهم وأتمنى أن أراهم مرة أخرى، ولكنهم لم يعودوا. طالما يسمعه أقرانه بأن اباه يأخذ الربا من الناس مثل اليهود، فيسكت هو كاتما غيظه، وهو يعرف ان الربا حرام. وان اباه انما يفعل أسوأ من ذلك. هل يفاتحه بكل ذلك؟.. ولكن، حتى اذا فاتحه بما يدور في خلده، فإنه من المستحيل ان يغيّر طبعه، وسوف يدخل معه في جدال طويل، الأمر الذي لا يريده هو الجانح ابدا الى الهدوء والشرود. وخلال وجوده في غرفته الخاصة به في الخان، كان بعد ان ينتهي من تسجيل الحسابات المطلوبة، ينصرف الى القراءة. كان يقرأ القرآن الكريم وكتب التفسير. كان يحز في نفسه انه يشارك والده في النفاق وسرقة الفلاحين الفقراء. وأردك في قرارة نفسه انه لا يستطيع مواصلة هذا العمل مع والده، فلابد ان يقوم بعمل يضع حدا لهذا السلوك الذي يرفضه القرآن، سواء شاء ذلك والده أم أبى. وذات يوم ظل في الخان الى وقت متأخر من الليل، وهو يقرأ تحت ضوء اللمبة الزيتية حتى غلبه النعاس، فحلم بجدار طيني عال يطّل من ورائه شيخ مهيب معمم ذي لحية بيضاء كثة، وأما هو فكان جالسا وسط أكوام القذارة، فقال له الشيخ: «يا رمزي انك تقرأ القرآن ليلا ونهارا، ولكنك جالس وسط القذارة. انك يجب ان تخرج من هذا المكان، وتطهر نفسك وتنشد العدالة بين الناس، والا اترك القرآن الكريم وشأنه ولا تلوثه..». ووقف رمزي في مكانه بصعوبة، وكان غارقا الى ركبتيه في القذارة، رفع رأسه ليقول شيئا للشيخ، الا ان هذا كان قد اختفى. واستيقظ مذعورا يتصبب منه العرق. وقرر منذ ذلك اليوم أن يفعل شيئا. وقد مضى على ذلك حوالي العام دون ان يفعل شيئا، سوى انه روى حلمه لزميل له في الدراسة، كان مولعا بقراءة كتب السحر الممنوعة وتفسير الاحلام لإبن سيرين، فقال له هذا، بأن الحلم واضح لا يحتاج الى تفسير، ونصحه ان يبقى عند والده الى ان ينهي دراسته، وبعد ذلك يستطيع أن يفعل ما يشاء. وبعد تلك المفاتحة، توطدت العلاقة بينهما.

كان صائب من عائلة تركمانية غنية تسكن مدينة كركوك، يتكلم التركية بطلاقة. وغالبا ما كان يتضيف رمزي الى البيت، ويقضيان الساعات الطويلة في غرفته وهما يتجاذبان أطراف مختلف الاحاديث، وكان بين كل جملة وأخرى يكرر قوله المفضل: «عدالت يوق، عدالت يوق..» ثم يشتم السلطان الجائر، وكيف ان هناك جماعة يريدون الاطاحة بدولته. وذات مرة طلب اليه رمزي ان يعرفه بهؤلاء الجماعة، فأجابه صائب بلهجة قاطعة:

«كلا يا رمزي، حذار ان تتصل بأي واحد من هؤلاء. ان الانسان بطبيعته لا يحفظ السر، فإذا وصل اسمك الى اجهزة الدولة، فإن مصيرك سيكون مجهولا. انهم يقطعون الايدي ويسملون العيون في الزنزانات».

قال رمزي مندفعا:

«ولكن، كيف تريدنا ان ننشر العدالة، اذا كنت تخاف من السجن؟».

قال صائب بلهجة واثقة وهو يحدق في الفراغ بعينيه الزائغتين:

«لقد حصلت على كتاب فريد من نوعه في السحر، وهو نادر جدا. وبعد تنفيذ الارشادات والتمائم الموجودة فيه بدقة، أستطيع اللقاء بكبير الجن، ويعد ان يعطيني بعض الاسرار، يضع كافة قدراته تحت تصرفي.. فما عليَّ إلاَّ أن أعطيه الأوامر. انه يستطيع أن يجلب لي حتى السلطان بنفسه.. اذ ذاك استطيع أن أنشر العدالة في كل مكان. وأما اذا ادخلوني السجن فلا يمكنني أن أحقق مشروعي».

بهت رمزي لهذا الكلام، ولم ينطق بشيء، بل نقله خياله الى متاهات هذا العالم اللانهائي المملوء بالاسرار، الى عالم الارواح والجن المختفي وراء ملايين النجوم والظلام الازلي. وتكون لديه الشعور بأن صائب يعرف كل شيء عن أسرار الكون، وأراد أن يطرح عليه سؤالا كان يقض مضجعه. بيد أن صائب خرق صمتهما قائلا:

«ولذلك أحتاج يا رمزي الى مكان بعيد عن الناس، مكان لا يتردد اليه أحد، ومن المستحسن أن يكون كهفا في جبل أتنسك فيه لمدة أربعين يوما، وأعتقد انك تستطيع ان تساعدني في ذلك».

أحسَّ رمزي بالاعتزاز والزهو لحاجة انسان اليه لأول مرة، وفي الوقت الذي كان يفكر بالمكان المناسب لهذه العملية الغريبة، قال بلا ارادة منه:

«ولكنني أخشى عليك يا صائب، أخشى ان لا تجري الامور بالشكل الذي تريده أنت، فإذا كانت العملية سهلة، لجرب كل واحد حظه باللقاء بكبير الجن».

ضحك صائب باستخفاف قائلا:

«المهم هو الاقدام وتجاوز حاجب الخوف».

«والدراسة؟. الا تريد ان تتمها؟»

قال صائب وهو يصب له الشاي من ابريق خزفي صيني جميل:

«سأقوم بالعملية في العطلة الصيفية، إن اقصى ما احتاجه من الوقت هو اربعين يوما واسبوعا واحدا، وبعد ذلك سأنقذ هؤلاء المساكين الرازحين في السجون، وأدوس رأس السلطان الجائر بحذائي وأنشر العدالة في كل مكان».

ثم قام صائب من مكانه بحركة هستيرية، محاولا كتم انفعاله:

«تصور، انهم اخذوا أخي الكبير ولا نعرف عن مصيره منذ أشهر أي شيء، ولكن أرجو أن يبقى

هذا سرا فيما بيننا يا رمزي.. اننا يجب نصنع شيئا».

اقترب من رمزي وجلس جنبه واضعا يده فوق يده، وهمس:

«هل استطيع أن أبقى عندكم عدة أيام دون أن ينزعج أهلك؟»

«طبعا يا صائب، انك تستطيع ان تبقى عندنا أسابيع، إنك صديقي.».

وقفز من مكانه فرحا:

«عظيم، عظيم يا رمزي، لقد أنقذتني من أعظم مشكلة»..

وواصل رمزي:

«اذا كنت مصرا على تنفيذ فكرتك، فنستطيع خلال وجودك عندنا أن نبحث بكل هدوء عن مكان ملائم في الجبال القريبة من بلدتنا».

قطب صائب حاجبيه، قال وهو ينظر الى الارض:

«سأقول لك فيما بعد متى سأبدأ بتنفيذ الفكرة، انني يجب ان اطلع على الكتاب بشكل جيد، ولكن أرجوك رجاء كبيرا بأن يبقى هذا كله سرا مطلقا فيما بيننا».

كان جهانكير ينظر من على ظهر فرسه باعتزاز الى ابنه، ويتصوره موظفا كبيرا في أجهزة الدولة، وكان قد قرر، أن يرسله، بعد انجاز دراسته في مدرسة جامع الاوقاف الدينية في كركوك، الى ولاية الموصل، من يدري فلعله سينجز الدراسة هناك بتفوق، فيرسله الى استانبول للدراسة العليا، وأراد ان يخرج ابنه من شروده العميق، ويكسر جو الصمت المطبق عليهما:

«انك تبدو شاردا يا رمزي كما لو أن سفينتك قد غرقت في البحر. هل أنت حزين لسفر أصدقائك الجدد»..

أجاب بلا مبالاة:

«نعم يا ابتي»..

«لا تخف يا بني، سنذهب اليهم في أقرب فرصة، ويمكنك أن تبقى عندهم كما تشاء».

وعاد رمزي الى شروده. كان من المفروض أن يزوره صائب في هذا الصيف ليبحثا معا عن المكان المنشود، وكان الفضول قد أقض مضاجع رمزي، بيد أن صائبا قد أخَر زيارته الى اشعار آخر، وذلك أنهما في الليلة التي قاما فيها بتحضير الارواح، كان صائب يسأل أرواح الاولياء مرارا وتكرارا ما اذا كان الوقت قد حان بأن يبدأ بعمليته، فكان الجواب يأتيه دوما بلا، فأجل الفكرة الى العام القادم. ورجاه رمزي أن يعيره الكتاب، فرفض صائب بحجة أنه ما زال بحاجة اليه، كما أنه كان يخشى أن يبادر رمزي فيسبقه في تنفيذ العملية. ثلاثة أشهر أخرى اذن يجب

أن ينتظر. تصور نفسه ليس وحيدا هذه المرة في غرفته الموحشة في مدرسته بجامع الاوقاف، بل يشاركه فيها رستم. وخطط لزيارة وادي كفران لهذا الغرض.

عندما وصلوا نهر آوه سبي في أقصى جنوب وادي كفران، كانت الشمس قد اختفت وراء الافق. كان الطريق الصخري، وعرا سريع الانحدار، ويشكل أقصر مسافة بين السهل والمضيق الصخري الضيق للنهر. وساروا بمحاذاة النهر الى أن وصلوا قرية بانشاخ. وكان الظلام قد بدأ ينتشر في أرجاء الوادي.

كان الوجوم مخيما على جو الخيمة، وأدرك شيخو بفطرته أن سوءا قد حصل، بينما اعتقد رمضان أنهم مغتاضون لبقائهم فترة أطول في السنجق، وكان قد هيأ في ذهنه بعض التعليقات المرحة، بيد أنه ما أن رأى الجو المشحون حتى نسي كل شيء. وعندما انتهوا من العناق، أستغرب شيخو من أن أخاه كريم لم يتحرك من مكانه، بل كان شاردا، مأخوذا ينظر الى الفراغ، ويحرك رأسه بين حين وآخر بحركة عصبية، فعرف أنه مصاب بالصرع نتيجة ضربة من الجن، تقدم منه وجلس الى جنبه مقبلا اياه. وتذكر ملامح والده عندما أصيب بنفس الحالة بعد يوم من ميلاد رستم. ولكن الغجر لم يأتوا بعد، ولا يمكن انتظارهم، فهم سيظهرون على الاقل بعد ثلاثة أشهر، فأما أن يذهبوا الى شيخ البرزنجة أو يذهبوا الى السيد جواد حفيد النبي. ودار النقاش الحاد حول أفضلية هذا أو ذاك. أكد الشيخ زوراب أنهم قد انقطعوا عن زيارة الشيخ منذ فترة غير قصيرة، وانه لأمر محرج جدا ان يذهبوا اليه بعد هذه الفترة الطويلة. ثم راحوا يقارنون بين كل من الشيخ البرزنجي والسيد العربي، فأجمع الكل بأن السيد له خوارق ومعجزات. وأحتكم الشيخ زوراب الى سنجان على أن يكون رأيها هو القاطع، فأكدت هذه على أهمية السيد جواد الذي شوهد اكثر من مرة وهو يطير في أعالي السماء وعباءته ترفرف وراءه. وأنه لم يخيِّب ظن كل من ذهب اليه. وكان السيد جواد يعيش مع زوجته في خيمته المنصوبة بالقرب من قرية بنعين، فرأى شيخو ان هذه فرصة جيدة للتعرف على المنطقة و على أهل قريته المقبلة مباشرة، فقرروا أن يشدّوا الرحال في فجر اليوم الثاني، ولذلك ذهب كل من شيخو ورمضان الى فراشهما ليستعيدوا نشاطهما لليوم الثاني. أراد ميرزا أن يعرف شيئا عن نتائج سفرة السنجق، ولكن الشيخ زوراب نهره بشكل غير مباشر بأن صحة كريم أهم عنده من أي شيء آخر، وانه ليست له الرغبة لسماع أي شيء، فالمصيبة التي حلّت بكريم هي نتيجة فتح ابواب وادي كفران أمام آثام السنجق والدولة الظالمة. وعرف ميرزا أنهم لا شك سيتحدثون غدا طيلة النهار في الطريق عن أخبار السفر ونتائجه، ولذلك قرر أن يسافر معهم أيضا. ورأت سنجان أن ذهاب أربعة رجال الى قرية صغيرة لا أحد لهم فيها، مسألة غير مرغوبة، فقد يضطرون للبقاء هناك أياماً طويلة، لذلك فهم بحاجة الى الأكل والنوم دون أن يكونوا عبءاً على احد، ثم ان الساكنين هناك هم حفاة عراة ينتظرون من يعطيهم لقمة

الخبز. أستمع الشيخ زوراب بأذن صاغية الى كلام زوجته وقال هازا رأسه: «صحيح يا سنجان، انك تفكرين برأس صاف، أما نحن فقد أفقدنا كريم عقلنا، قولي لي ماذا نفعل».

اقترحت سنجان أخذ الخيمة مع كميات كافية من الغذاء وعدّة رؤوس غنم، وأفرشة وأواني للطبخ، اذ أن كريم لابد أن يبقى عند السيد على الاقل اسبوعا واحدا، كما واقترحت أن تسافر هي معهم. أمتص الشيخ زوراب كمية من الدخان وهز رأسه كعادته: «صحيح يا سنجان، صحيح كل ما تقولينه، الرجال بلا نساء ضائعون.. سنفعل كل ما تريدينه..»، وبعد هنيهة وضع غليونه جانبا وقام من مكانه حاثا اياهم بتجهيز الاشياء المطلوبة للسفر من الان. قال ميرزا وهو يقوم من مكانه: «وأما أنا فسأفك الخيمة والفها فورا..». وقبل أن يركنوا الى النوم، كانوا قد أعدوا كل شيء لسفرة الغد.

كان كريم يسمع ويفهم كل شيء بكل وضوح، ويعرف جيدا أن كل هذه الضجة انما بسببه هو. وكان يود لو يقول لهم بأنه مرتاح وسعيد كل السعادة لوضعه هذا وأنه لا يريد الذهاب معهم الى أي مكان آخر. وكان يعرف أنهم بعملهم هذا يريدون أن ينتزعوا منه الجنية التي هام بها. وكان ما يزعجه هو تواجدهم بالقرب منه، ولذلك كان ينتظر على أحر من الجمر أن ينصرفوا كي يبقى لوحده حيث تأتيه الجنية (في) لتنقله الى عالمها السحري. كان يحاول بكل ما لديه من ارادة أن يقول شيئا، أن يرجوهم بالانصراف وتركه وشأنه، ولكن عبثا. كانت الاشياء تبدو له غير ما كانت عليه قبل تلك الليلة التي التقى فيها لأول مرّة بالجنية (في) وحاشيتها من المخلوقات العجيبة. كان كل شيء يبدو أبيضاً حليبيا شفافا، بحواشي مشعة وبألوان زاهية. وعندما انصرف الجميع بعد الضجة المزعجة التي افتعلوها بقي هو في فراشه، وبدأت الاشياء تتغير شيئا فشيئا. جاءت الجنية (في) بخفة مبتسمة وهي تلتفت يمنة ويسرة حتى تتأكد من خلو المكان، جلست الى جانبه مكومة شعرها الاشقر الذهبي على كتفها وهي تحدق في عينيه السوداوين الكئيبتين وتعانقه بقوة. كانت سعادته في تلك اللحظات مطلقة بصورة لم يعهدها من قبل، وكان يعتقد أنه في الجنة التي طالما سمع بها، وان ذاته هذه انما هي الذات الثانية التي تنطلق من الجسد بعد الموت. فهو لا شك قد مات في تلك الليلة، وهذه هي روحه تلتقي بالحورية (في) في الآخرة. وبهذا يكون قد أنتقل مباشرة الى الفردوس دون أن يمرّ بالجحيم الذي قال الملا ذات يوم أن المرء لابد أن يمر به مهما كان صالحا. ولكن لم هذه الضرورة؟.. أنه لم يقم بأي عمل شرير من قبل، أنه ما زال يتذكر كل لحظة من لحظات تلك الليلة، وهو اذ يعيش عالمه الخاص، لا يريد أن يخرج منه، وكان يعرف جيدا ماذا دار في العالم السحري، أراد أن يقول انه لا يريد أن يذهب الى هناك، اراد أن يأتي بحركة توحي لهم ذلك، ولكنه لم يستطع كان لا يقوى على شيء، كان مشلولا، بعكس ذهنه الحاد، وقلبه الدافئ.

كانت الجنية (في) هي كل شيء، اذ انها ملأت العالم كله بكيانها، مرة تعانقه وأخرى ترقص له وهي شبه عارية، وفي نهاية المطاف تتسلل الى فرآشه فيحس بانفاسها الدافئة تبعث الخدر في دمائه. والغريب في الامر أن (في) ما أن تظهر، الاّ وتشع كما لو أنها الشمس، فيتلاشى الظلام ويغرق كل شيء في كتلة من النور. وعندما يخَيم السكون على كل شيء، تحرر نفسها من الارض فتصعد مثل الطيف الى الاعالي، وهي تؤشر له بيديها الناصعتين الرقيقتين بأن يتبعها، ويحركة، لا يعرف مبعثها، ينطلق هو الآخر للَحاق بها، فيهيمان في أعماق السماء وبين النجوم. وفي تلك الليلة التي لن ينساها، جاءت اليه مرة أخرى وهي تريد ان تساعده وتطلب اليه أن لا يبقى هناك، بل عليه الذهاب الى البيت لأن زوجته وأولاده بانتظاره، وأكد لها باصرار أنه لا يريد أن يذهب الى أي مكان آخر، بل يريد أن يبقى هناك، في ذلك الكهف المطل على نهر آوه سبي، ولكنها رجتّه بإلحاح بالذهاب، وكانت المخلوقات العجيبة من حاشيتها تتوسل اليه هي الاخرى بالذهاب، وأما تلك المرأة العفريتة ذات النهدين الهائلين فقد اختفت، اذ ان الجنية (في) استطاعت أن تتغلب عليها. وقالت له الجنية (في): أن تلك المرأة الساحرة اللعينة كانت تنافسها للحصول عليه، ولكنها استطاعت أن تتغلب عليها وتطردها الى الابد من وادي كفران. وأراد كريم أن يقول لها أشياء كثيرة، بيد أنه كان لا تستطيع النطق، ولكنها كانت تفهم كل كلمة يقولها في سره، كانت تعرف أنه يتمنى ان يتزوجها، بل يجعل منها الزوجة المفضلة، حتى أنه ابدى استعداده بترك زوجته. وأما الجنيّة (في)، فأكدت له بأن مطلبه مسألة صعبة جدا، لا يمكن تحقيقها، وفي حالة تحقيق تلك الامنية فإنه سيختفي الى الابد من عالم الارض، ويهيم مثلها في اللانهاية، ورغم ذلك كرر كريم رجاءه، وأنه مستعد لتحمل كل شيء من أجلها. «كلا يا كريم، كلا هذا أمر غير ممكن، أنا غير مسموح لي بالزواج من أهل الارض، ولكنني سألتقي بك دوما..» قالت ذلك برقة ثم أختفت مثل شهاب في أعماق السماء.

عرف كريم أنهم اذا ذهبوا به غدا الى ذلك السيد، فإنه لن يرى الجنية الى الابد، وأما الجنية (في)، فإن أخشى ما كانت تخشاه هو السيد جواد ومذوده الحديدي الذي يلَوح به دوما، ورغم ذلك أكدت له بأنها ستزوره دائما على أن لا ينساها هو. وقالت له أنها تحب كل فرد من أفراد وادي كفران، بيد أن هؤلاء يعتقدون منذ الازل خطأً بأنها ساحرة شريرة تأتي كي تنزع روح الوليد في حين أنها تأتي لكي تبارك الطفل وتمنحه القوة ضد الارواح الشريرة التي تنتشر في وادي كفران. «والان يجب أن أذهب يا كريم، فهناك في مكان ما إمرأة في نهاية شهرها الاخير، تعاني آلام المخاض، يجب أن أذهب اليها، كي أخفف من آلامها وأبارك وليدها، قبل أن تسبقني الارواح الشريرة اليها وتسلب منها الطفل..». حاول كريم أن يمسك بها ويحيل دون ذهابها، بيد أنها افلتت مثل الطيف وهي تشع في الظلام الليل الحالك.

ها أنهم بعد أن قضوا نهارا كاملا من المسيرة التي تخللتها عدة استراحات، يقتربون من أكواخ قرية بنعين، وكانت خيمة السيد جواد السوداء منصوبة في مكان غير بعيد من القرية. وثمة بالقرب منه قبر يحيط به سياج من الاحجار المرصومة بشكل غير منتظم، ترتفع في وسطه عند رأس القبر مباشرة سارية ترفرف في نهايتها خرقة خضراء. كانت الشمس تميل الى الغروب وراء روخانه الذي يعكس أشعتها الذهبية اللامعة. وكان أهل القرية من النساء والاطفال والرجال الذين تبدو عليهم علائم البؤس والفقر ينظرون بفضول الى القافلة الصغيرة التي عرجت الى الخيمة، فعلموا أنهم إنما يحلّون ضيفا على السيد. وتقدم ثلاثة رجال منهم بإتجاه الخيمة وهم ينهرون الكلاب الهائجة التي سكتت عائدة الى الاكواخ وهي تنكس أذيالها. وكان أحد الرجال الثلاثة يحمل قربة ماء، وما أن رآه السيد حتى قال بصوت عال: «بارك الله فيك يا ابني..»، ترجل الجميع وراحوا يندفعون الى السيد، يقبلون يده، وكان هو يقبلهم من رؤوسهم، ويتمتم بكلمات غير مفهومة. وأما كريم فظل جالسا على ظهر حصانه، ولما أراد شيخو أن يساعده، صرخ السيد وهو يقترب من كريم: «أتركه، أتركه..». وخيّم عليهم الصمت.

كان السيّد يرتدي ثوبا أبيض ويلف رأسه بقماش أخضر غطّى عنقه وأذنيه، وكانت تجاعيد وجهه الاسمر توحي أنه قد تجاوز الستين، ورغم ذلك فإن عينيه كانتا نفاذتين قويتين تحت حاجبين كثيفين تشبهان عيون الصقر. وقف برأس شامخ أمام حصان كريم، كان الجميع ينظرون اليه برهبة لم يسبق لهم أن عهدوا بها من قبل. وراح يحدق في عيني كريم الذي أحس في قرارة نفسه ان الاشياء قد تغيّرت منذ أن بدت لهم الخيمة مثل نقطة سوداء في الافق. وكانت الجنية (في) ترافقهم منذ أن تركوا بانشاخ، وكان كريم ينظر اليها طيلة الوقت وهي تسبح فوق رؤوسهم مثل غمامة ناصعة البياض، ويبادلها الحديث بصمت. ولكن ما أن بدت الخيمة من بعيد، حتى بدأت الجنيّة تأتي بحركات غريبة، وتتلوى كما لو أنها تعاني من آلام حادة الى أن اختفت دون ان تودعه كالعادة. وبدأت الاشياء تفقد ألوانها السحرية الغامضة وشعاعها. وعندما حدّق السيّد في عينيه، لمح كريم الجنيّة من بعيد وهي تريد أن تقول شيئا. صرخ السيد: «ترجل يا كريم..». ظل كريم شاردا دون أن يأتي بحركة. التفت السيّد الى الخيمة ونادى زوجته: «هاتي المذود يا شمسه..». وما ان خرجت الزوجة بملابسها السوداء وبيدها المذود، حتى قفز كريم من على ظهر حصانه، وأسرع الى السيد يلثم يده وهو يرتجف. مسكه السيد بقوة وراح يقبل رأسه، وأما زوجة السيّد فالقت بالمذود جانبا وراحت تهلهل وتطلب من الضيوف أن يدخلوا الخيمة. أما الرجال الثلاثة من قرية بنعيز فراحوا يصيحون بأعلى صوتهم: «لا اله الا الله، لا اله الا الله» ويدورون في حلقة مفرغة حول السيّد. وأمّا السيّد فكان يردد، ومعه كريم، بصوت متناغم مع الآخرين: «الله حي، الله حي..». وسرعان ما التحق بالحلقة الشيخ زوراب و رمضان وشيخو

وميرزا، ولما تدفق أهل القرية للالتحاق بحلقة الذكر، رفع السيد يمناه الى أعلى، في حين عانق كريم بيسراه وقال: «هيا ادخلوا الخيمة، كلكم اليوم ضيوف النبي محمد صلى الله عليه وسلم..».
لم ينتظر شيخو اشارة والده، بل أسرع الى أقرب خروف وذبحه تحت أقدام السيد وقبل أن يطرح رمضان الخروف الثاني أرضا كان شيخو قد ذبح خروفا آخر. وأما ميرزا فوَجه كلامه الى الشيخ زوراب بعد أن جرَ أحد الرجال لمساعدته: «وأما أنا فيجب أن أنصب الخيمة، لأن خيمة السيّد لا تكفي لهذا الشعب». قال الشيخ زوراب ساهما وهو بالكاد يصدّق ما يراه: «أنصب الخيمة يا ميرزا، أنصبها في مكان ملائم، فإنها ستبقى منصوبة هنا الى الابد..».

وعندما هبط الليل فجأة، وتحول كل شيء الى ظلام دامس، تم اعداد الطعام، وقبل أن يبدأوا بالاكل سمعوا حوافر خيول تقترب مسرعة، ولم تمض هنيهة إلاّ وظهر كل من رستم، قادر وعباس، وكانت اثار التعب والارتباك بادية عليهم. وراح كل من الشيخ زوراب وشيخو ورمضان يتبادلون النظرات، قال الشيخ زوراب دون اكتراث وهو يمد يده للأكل:

«يا للشياطين الثلاثة، انهم لا يتركوننا لوحدنا».

وقبل أن يتوجهوا الى كريم، أسر اليهم شيخو خبر شفائه، وطلب اليهم أن يقبلوا يد السيّد جواد قبل السلام على كريم بقبلة. وكان الاولاد الثلاثة لا يعرفون بالقصة، اذ أن الشيخ زوراب صرفهم مساء أمس مباشرة الى المطبخ وحال دون مرورهم بالخيمة. وعلموا بالموضوع حين استيقظوا هذا اليوم في وقت متأخر.

اختلى السيّد جواد بالشيخ زوراب وشيخو ورمضان في أحد أركان الخيمة وقال لهم بأن كريم يجب ان يبقى تحت رعايته أسبوعا كاملا، وأنه يجب أن يكون الى جانبه ليلا ونهارا، إذ أن الجنية (في) قد تغافلهم وتدخل رأسه مرة أخرى، وأكد أن الموضوع مع الجنية (في) هو من أسهل الحالات، إذ أن الشاب يكون مأخوذا بجمال الجنية التي تسكنه، وان عملية تخليص الشاب من الجنية غير معقدة. وأنه من حسن الحظ لم يتلق ضربة من الطنطل أو من الشيطان نفسه، الامر الذي يحتاج الى شد ايدي وأرجل المصاب بالسلاسل وضربه ضربا مبرحا. كانوا ينظرون اليه برهبة كما لو أنه ملك نازل من السماء. وأكد له الشيخ زوراب بأنه كان في البدء لا يرغب بالنزوح الى هذا المكان وبناء قرية بناء على رغبة الدولة، ولكنه الان سعيد جدا لقضاء بقية عمره على مقربة من حفيد النبي، وكان السيد جواد قد سمع بالقرار من أهل القرية الذين أبدوا ارتياحهم لمجئ الشيخ زوراب، ففرح لأن تكون المنطقة معمورة بعد أن كانت مقفرة قاحلة. وذكر أن هذا المدعو جهانگير هو الشيطان بنفسه، وأنه يحلب هؤلاء المساكين كأي بقرة بائسة وأنهم يكدحون ليلا ونهارا وعشاؤهم خبّاز. وخلال اليومين الاولين من وجودهم هناك عرفوا أشياء كثيرة.

كان جهانگير قد أقرض هؤلاء قبل أعوام كمية من الحنطة والشعير على الأخضر ولما كان

المحصول سيئا لعدة سنوات بسبب عدم هطول الامطار، ولأنهم كانوا لا يستطيعون تسديد الديون في مواعيدها المستحقة، فإن الارباح المتصاعدة كانت تتراكم، وهكذا أصبحوا العوبة بيد جهانگير، فنقلهم من منطقتهم الوعرة غير الصالحة للزراعة الواقعة وراء وادي كفران الى هذه المنطقة. ولما كان هؤلاء بالدرجة الاولى رعاة قليلي الخبرة بالزراعة فإنهم لم يستطيعوا استثمار هذه الاراضي الخصبة التي تتخللها الجداول المتفرعة من نهر روخانه.

كان رمضان يصب الشاي من ابريق خزفي أهداه جهانگير للشيخ زوراب وهو يراقب بإمعان السائل الاحمر المائل الى لون الحناء، أشر زوراب بيده الى الابريق ووجه كلامه الى كبير أهل القرية الذي كانوا يسمونه هابو، وبعد أن أمعن في رأسه الكبير الشبيه برأس بغل غير اليف، قال:

«أنظر يا هابو، هل ترى هذا الابريق؟»

هزّ هابو برأسه بالايجاب وهو يحكّ صدره المفتوح المغطى بالشعر الابيض الكثيف، وقال:

«نعم أراه»

«انه هدية أرسله لي جهانگير قبل ثلاثة أيام، وهذا السائل الحلو اللذيذ الذي يسمونه الشاي ارسله هو ايضا مع الابريق، هل تدري يا هابو بفلوس من أشترى جهانگير هذه الاشياء»..

أجاب هابو وهو يحك لحيته المشعثة:

«لا شك بفلوسه هو»..

قال زوراب وهو يداعب بسبابته رماد غليونه:

«لا يا هابو، انها ليست بفلوسه، أنها بفلوسكم أنتم وفلوس الآخرين الذين يأخذ منهم الربا والفائض الحرام».

ثم أجال عينيه في عيون رمضان وشيخو وميرزا وهو يقول كالمنتصر:

«هذا هو جهانگير، هذا الاحمق الذي يعتقد أنه بماله ودهائه يستطيع الضحك على ذقون الكل. انه لا يعرف بأن الفيل أقوى من البعير. على كل حال يا هابو، إن القدر قد جمعنا واياكم على هذه البقعة من الارض، ربما كان ذلك من حسن حظكم وحظنا، وهو على كل حال ليس من حسن حظ جهانگير».

وتوطدت العلاقة بين الطرفين، واتفقا أن يبقى على صلة بجهانكير على أن تتسم علاقاتهم به بالحذر، وتعهد الشيخ زوراب بدفع كل ديونهم حتى يتخلصوا نهائياً من جهانگير، وأما أهل القرية فاعتبروا الشيخ زوراب أباهم الروحي، وتعهدوا امام السيد جواد بالتعاون معه ومساعدته في كل شيء. وقرروا بالبدء ببناء القرية الجديدة، وحراثة الارض فورا بغية زرعها اعتبارا من

الخريف القادم. وأبدى السيّد جواد ارتياحه للوضع وبشرّهم بأنه حلم بجده الرسول وهو يرّش المنطقة كلها بالمياه، وفسّر الحلم بأنه علامة الخير والبركة. ثم قال وهو يمّسد بطنه:

«الله يعطيك العمر الطويل يا شيخ زوراب، لقد أشبعتنا حقا»..

كان السيد جواد لم يأكل اللحم منذ أشهر طويلة، وكان ذلك في أحد أشهر الشتاء عندما جاءته إمرأة عجوز بديك من قرية بعيدة وهي تطلب منه تعويذة لابنتها العاقر، وكان فعل مرق الديك مع حفنة الرز التي ضاعت في ثنايا القدر، في معدته الخاوية في ذلك اليوم الشتائي مثل السحر. وها أنه وأهل القرية منذ ثلاثة أيام في عيد. «بارك الله فيك يا شيخ زوراب، بارك الله فيك ألف مرة، وين كنت طيلة هذه الفترة كلّها.. مرق بلحم الغنم، خبز مخلوط حار، تمن، برغل، شاي، قهوة، تبغ.. الله يجثر ويزيد....».

عندما ذهب السيّد جواد مع كريم الى خيمته، وأنصرف أهل القرية الى بيوتهم، كان ميرزا قد غلبه النعاس في مكانه وأما الاولاد الثلاثة وسنجان فكانوا قد رقدوا في نهاية الخيمة في ركن تستره حصيرة خيش، وبقي كل من الشيخ زوراب ورمضان وشيخو. نظر رمضان بتساؤل الى وجهي زوراب وشيخو، وأبتسم بطريقته الساخرة المعهودة قائلا:

«أعتقد اننا لأول مرة منذ أسبوع لوحدنا، ماذا لو أعد شايا لهذا المناسبة؟»..

قام شيخو من مكانه كما لو أنه كان يتوقع منه مثل هذا الكلام:

«أنا سأعد الشاي، وأما أنت فتستطيع أن تبدأ بتعليقاتك التي حرمنا منها منذ أسبوع».

أضاف الشيخ زوراب وهو يتخذ وضعا مريحا بأتكائه على المخدة:

«ان الحركة غير المنقطعة في خيمتنا منذ ثلاثة أيام تتراءى لي كما لو أننا في دائرة القائممقام في مركز لسنجق. أنا لم أتعوّد على مثل هذه الحياة».

قال رمضان:

«وأما أنا وشيخو بك فقد أصبحنا مثل الفجر، لقد رأينا خلال أسبوع نصف الدنيا.».

عقب شيخو دون أن ينظر اليهما، اذ كان مشغولا بوضع الابريق على النار:

«ان من يربي لحية طويلة، يجب أن يدبّر لنفسه مشطا. إننا عندما اتفقنا منذ البداية أن نستلم الفرمان، وأن أحمل أنا لقب بك، ارتبطنا، سواء شئنا أم أبينا، بأمثال القائممقام واليوزباشي وخالنا جهانگير.. علينا أن نعرف كيف نتصرف بين هؤلاء»..

عقب رمضان بسخرية:

«ولماذا نسيت القولجي وكريبيت أفندي؟»

واصل شيخو وهو يرتب فناجين الشاي:

«ان الدنيا قد تغيرت، ويجب أن نتغيّر نحن أيضا».

«نعم يا بني يا شيخو بك، ان الدنيا قد تغيّرت حقا، فمن كان يتصور بأن هذه الخيمة ستنتقل من وراء جبل بازوخ الى وادي كفران ومن هناك الى هذه البقعة من الارض؟.. من كان يعتقد اننا سنتعامل مع جهانگير ونشرب الشاي؟. ان القدر اذ اوصلنا الى هذا المكان، فينبغي أن نجعله أجمل من وادي كفران. ان كل شيء يتراءى لي مثل الحلم، كم كنت أتمنى أن يرانا في هذا المكان جدنا الاكبر ناله گورگه»..

قال رمضان بتهكم:

«وهل تعتقد أنه كان يقبل أن تصل الخيمة الى هذا المكان؟»..

أشار الشيخ زوراب الى ميرزا الذي كان يشخر بصوت عال:

«أسأل الشيخ ميرزا صاحب الخيمة فالجواب عنده».

أعتدل رمضان في مكانه عندما جلب شيخو أواني الشاي، وقال:

«دع ميرزا وشأنه فهو متعب جدا، فقد شيّد لوحده طيلة قرية شيخو بك»،

قال الشيخ زوراب الذي جلس هو الآخر حين جاء الشاي:

«بئست قرية يبنيها ميرزا، ان كل ما يجيده هو فك ونصب الخيمة».

حين ارتشف رمضان الشاي، عاد اليه صفاء ذهنه:

«يا قوم، ان هناك مسألة تشغل بالي منذ وصولنا الى هنا، والان اسمحوا لي أن أبيّنها لكم، وثقوا انني لا أمزح في سؤالي»..

قال شيخو وهو يعرف جيدا أنه يريد أن يفتح باباً للتهكم، فهو منذ أسبوع لم تسنح له الفرصة كي يمزح:

«تكلم يا عمي رمضان، اننا الان لوحدنا وكل شيء مسموح».

«اقول ان هذا السيّد جواد الذي آمنت بقدراته الخارقة، لماذا لا يستفيد من هذه الامكانية لتدبير حاجاته الشخصية، فالرجل كما يبدو يعاني من الجوع، ويحاجة الى كساء وخف وفراش جيّد للنوم»..

قاطعه الشيخ زوراب:

«رمضان، قلنا أن كل شيء مسموح، أما أن تجعل السيّد جوادموضوعا للتهكم، فهذا غير مسموح. لا تجلب علينا غضب النبي».

أراد رمضان أن يقول شيئا، بيد أن شيخو قاطعة:

«ان الرجل اذا أرادَ فهو يستطيع أن يعيش في بحبوحة، ولكنه إذ ذاك سيفقد هذه المعجزة التي رأيناها بأم أعيننا».

٨

كان الطريق وعرا ضيقا تتخلله الصخور الناتئة ويطل على هاوية لا قرار لها، مخترقا حافة جبل عال يحيط به الظلام من كل جانب. وكان عليه فى بعض الاحيان أن يزحف. بلغ مكانا خيّل اليه انه قد بلغ نهاية الطريق فما عليه الاّ أن يخطو خطوة واحدة فيبدأ السهل. وهنا أضطر أن يزحف مرة أخرى متشبثا بآخر صخرة، فما أن مسك بها الاّ وتدحرجت جارفة أمامها عشرات الصخور وأعتقد أنه هو الآخر قد تدحرج مع الصخور، بيد أن تشبته بشجيرة بلوط أنقذه من السقوط. وكان عليه هذه المرة أن يجتاز نفقا طويلا في الجبل، وزحف بصعوبة وهو يكاد يختنق. كان النفق أحيانا يضيق، بحيث انه لا يستطيع مواصلة الزحف، ويفكر بالسيد العربي والشيخ البرزنجي وينادى عليهما بأعلى صوته:«يا شيخ البرزنجة» وأندفع بقوة مجتازا المنطقة الضيقة، وفجأة وجد نفسه في كهف الجنيّة المطلّ على نهر آوه سبي، وتنفس الصعداء كانت الجنية واقفة على شاطيء النهر بثوبها الابيض الطويل، وقد أنتشر شعرها الاشقر الذى يملع تحت ضوء القمر، على كتفيها، وهي تحدقّ في عينيه بحزن وعتاب. وقف في مكانه مبهوتا، متحجرا، مأخوذا، لا يدري كم بقي هكذا بلا حراك. كان صوت ما في داخله يقول له انه سيظل واقفا على هذه الحال الى الابد، وأنه خير له أن يسكت ولا يتكلم في حضرة هذه الجنية التي أهينت. أهينت..؟ لماذا؟.. من الذي أهانها؟.. وهل هناك في هذا العالم من يستطيع أن يهين هذه الجنية..؟ كانت تبدو مثل طيف ينبعث من النور. اقتربت منه ببطء وهي لا تزال تحدق في عينيه القلقتين. كانت علامات السخرية والعتاب والتساؤل بادية على وجهها الملائكي، قالت دون أن تزيح عينيها عن عينية :«لماذا يا كريم؟.. لماذا ذهبتم الى هذا السيّد الذى أراد أن يقتلني بمذوده..؟»

أجاب بصعوبة :«كنت لا أرغب الذهاب الى هناك، لقد أخذوني رغما عني..»

«أعرف ذلك يا كريم، أنك اذا اردت أن تحتفظ بي فأذهب الى الشيخ البرزنجي وكن درويشا...»

أراد يقول شيئا، بيد أنها أختفت بأسرع من لمح البصر. وأجال عينيه حواليه لعله يرى أثرا لها، ولكن عبثا. ووخزه الندم وصاح بلا إراده منه بصوت عال ممطوط :«في» رددت الجبال والوديان صوته بمختلف الطبقات الصوتية. وأستيقظ مذعورا وهو يتصبب عرقا. كانت الشمس لم تشرق بعد، بيد أن الضوء الاحمر الذي يغمر الافق الشرقي، كان ينبئ بشروقها في أية لحظة. أجال عينيه في أنحاء الخيمة، فلم يجد السيد وكانت زوجته مشغولة باعداد النار في الهواء الطلق قرب

حائط صغير بني لهذا العرض. بقي جالسا في فراشه وهو ما زال تحت تأثير الحلم. ترك الخيمة متوجها الى تل صغير يطل على بركة متفرعة من جدول بنعين، وبعد أن قضى حاجته في سفح التل، التف حوله قاصدا الجدول. كان السيّد يغتسل في مياه البركة الراكدة، وبعد أن غطس ثلاث مرات متبسملا، قال وهو يسرع الى ملابسه:

«الماى شويّة بارد يا كريم..»

«لا يا عمي سيد، الماى كثير بارد، ليش خاله شمسه ما يسوى ماى حار؟».

كان الماء في الحقيقة لم يكن باردا بالنسبة الى كريم، بيد أنه كان يخشى على صحة السيد، ولا سيما انه يرى جسده الهزيل لأول مرةً. وبعد أن ارتدى ثوبه اتجها الى الخيمة وهو يقول: «أنا جلدي مثل جلد الصل يا كريم، لا تخاف على عمّك».

كانا منذ أربعة أيام قد تعودا أن يستيقضا من النوم في مثل هذا الوقت وكان السيّد يسبقه في ذلك بعض الشيء. وبعد أن يشربا القهوة المرةً التي يعدها السيّد بنفسه يذهبان الى خيمة الشيخ زوراب حيث الفطور الجاهز في انتظارهما: أقراص خبر الصاج الحار، بيض مقلي، لبن وسمن. وأقتنع السيد أن الدماء قد عادت الى وجهه في هذه الايام الاربعة التي راح يبربع فيها بشكل لم يسبق له مثيل. وعندما أقتربا من الخيمة نفذت الى أنفه رائحة الخبز الساخن، لا يدري لماذا تذكر في هذه اللحظة جهانگير، وقال في نفسه: «يا سفيه يا جهانگير، أما كان بمقدور هؤلاء المساكين العراة أن يعيشوا مثل الشيخ زوراب وجماعته؟.. هل كتب على جبينهم أن يكدحوا لك أنت وحدك؟ ألا تخاف من الله؟..»

ورحبّ بهما الشيخ زوراب وشيخو ورمضان وميرزا وسنجان. وكانت الشمس قد بدأت ترسل شعاعاتها الذهبية الاولى من وراء مرتفعات وادي كفران. انتبه الشيخ زوراب الى ملامح السيّد الغاضبة فخشي أن يكون قلقا على وضع كريم، بيد أنه عندما حدقّ في ملامح هذا تبين له أن وضعه طبيعي جدا وأحسن من أي وقت مضى، ولذلك أقترب من السيد قائلا بملامح فيها تساؤل وخوف: «إن شاء الله خير ياسيد، أن على غير عادتك اليوم..».

ابتسم السيد قائلا وكأنه يريد أن يتدارك شيئا:

« كل شيء على ما يرام يا شيخ زوراب، سلامتك..».

وظل الشيخ زوراب يراقب ملامح وحركات السيد، وراحوا ينتظرون بدأه بالأكل. وبعد أن تبسمل لم يمد يده الى الأكل كالعادة، بل التفت الى الأعلى وقال بصوت ممطوط: «الله ينتقم منك يا جهانگير..» كانت الوجوه كلها جامدة وهي مشدودة الى وجه السيد الغاضب.. قال الشيخ زوراب بلهجة مطمئنة: «لا تخف يا سيدّ، ان الله سوف ينتقم منه». ومدّ السيد يده المعروقة الى قرصة

الخبز الدافئة وغمَسها في السمن. وتحولَ الجو المتوتر الى صمت الانشغال بالاكل.

كان أهل القرية قد أبدوا رغبتهم عند السيد منذ اليوم الاول بدعوة الشيخ زوراب وجماعته الى وليمة غداء، ولكن كانوا حائرين في أمرهم، اذ ليس لديهم أي شيء يقدمونه. الاغنام حسبها جهانگير بدقة، فلا يجوز أن ينقص منها رأس، ناهيك عن العجل الوحيد الذي لا يمكن مسَه. الشيء الوحيد الذى يمكن أن يقدمونه هو الدجاج وهذا ما لا يليق برجل مثل الشيخ زوراب. هذا ما كان يشغل بال السيِّد. يعرف أن زوراب يجهل كل شيء عن حياة هؤلاء الذين يلتقي بهم في خيمته، وهم بدورهم كانوا يلتزمون الصمت ولا ينطقون بأي شيء يتعلقّ بحياتهم الخاصة. وعندما أنتهوا من تناول الفطور، اتكأ السيد على مخدته وأشعل اللفافة التي ناولها أياه كريم. قال السيد بلهجة فيها قناعة ورضا: «الحمدلله، الحمد لله، أنا مرتاح جدا لوجودكم هنا ياشيخ زوراب، ولكني غير مرتاح لوضع جماعة بنعيز..».

ثم حدثَهم بالتفصيل عن كل شيء. وكان كريم يعرف بعض تفاصيل الحكاية، ولكنه بناء على طلب السيد لم يتفوه بأي شيء. وأما رمضان فكان قد زارهم عدة مرات بدون علم الشيخ زوراب. وكانوا قد حدَثوه عن همومهم أيضا كواحد من أقاربهم، وحلفَوه بأن لا يفاتح الشيح زوراب في هذا الموضوع.

أدار الشيخ زوراب عينيه في وجوه الجالسين، وعلامات الغضب بادية عليه، ثم توقف عند شيخو الذي كان مشغولا بصب الشاي: «شيخو بك، أنت بصفتك رئيسا لعشيرة وادي كفران هل لك سلطة على قرية بنعيز وعلى هؤلاء الناس من اولاد أعمامنا؟..».

قال شيخو بهدوء:

«حسب الفرمان الذي تسلمته من قائمقام السنجق، أستطيع أن أقول لك نعم».

«إذا كان جوابك نعم فكيف تفسر، بعد أن سمعت كل شيء وجود رئيسين في عشيرة واحدة؟ أو مختارين في قرية واحدة؟».

أطبق عليهم الصمت. وبدا لهم جميعا أن الشيخ زوراب لم يسبق له أن غضب بهذا الشكل.

خرق شيخو الصمت قائلا بلهجة صارمة:

«لعشيرتنا رئيس واحد فقط، وإذا ثمة مشكلة لأخواننا فاننا نستطيع أن نحلها بحضورهم».

ورأى رمضان أن الوقت حان كي يلقي ضوءا على بعض جوانب حياة أقاربه، فقال:

«الحقيقة، انني رأيت شيئا غريبا هنا في قرية بنعيز لم يسبق لي أن رأيت مثله في حياتي. هل سمعتم يا قوم بشيء اسمه الشقل؟».

قال الجميع بصوت واحد عدا السيّد «شقل؟».

هزّ رمضان رأسه باستنكار، «أجل، شقل..»

قال السيد بفخر وأمتعاض:

«أجل، أنا أعرفه، انه سكينة تقطع خبز الفقراء».

ولم يفهموا المعنى الحقيقي للشقل، إلاّ بعد أن شرحه رمضان بالتفصيل: انه ختم كبير بحجم الكلاش مصنوع من الخشب حفر عليه نقش يطمغ على كومة الحنطة من جميع الجوانب، وحامل هذا الختم شخص يدعى بـ«شحنة، يقوم بختم كل أكوام القمح والشعير ثم يسكن في كوخ قريب من المحصول بغية حراسته وويل لمن يمدّ يده الى كومة من هذه الاكوام. وأصحاب أكوام المحصول مسؤولون عن توفير الغذاء الجيّد يوميا لهذا الشحنة.

قال ميرزا هازاً رأسه:

«أنا لا أفهم أي شيء من هذا الكلام..»

أضاف الشيخ زوراب:

«سنسمع أشياء كثيرة أخرى يا ميرزا».

وأضاف رمضان مكملا كلامه: «ان صاحب الشقل هو جهانكير والشخص المدعو بـ«شحنه» هو من أزلامه. وصاحب المحصول لا يستطيع أن يمد يده الى محصوله الاّ بعد أن يستلم جهانكير حصته».

علّق ميرزا غاضبا وهو يحكّ بإنفعال ابطه:

«لقد قلت لكم مراراً أن هذا الانسان فاسق».

وأتفقوا على أن يدعوا هابو أبو راس البغل الى تناول طعام الغذاء معهم ووضع حل نهائي لمشكلة الشقل والشحنة، وإلاّ فان رئاسة شيخو تبقى مجرد كلام لا نفع له.

كان رستم وقادر وعباس يتناولون طعام الفطور مع سنجان وراء ستارة الخيش التي تعزل ركنهم عن فسحة الخيمة، ينصتون الى كلام الرجال و ينظرون الى بعضهم البعض، قال قادر:

«هذه المهنة تناسبني، طعام جيدّ ثلاث مرات يوميا مقابل لاشيء».

قالت سنجان وهي تصب الشاي:

«هذه مهمة الكسالى يا ابني، نحن فلاحون، انك يجب أن تكون فلاحا جيدا».

«أنا لا اريد أن اكون فلاحا يا ميمي «خالة»».

قال رستم بتهكم:

«كن اذن يوزباشي أو قولجي».

ثم أشرّ لهما بمتابعته. وتركوا الخيمة من الفتحة الخلفية. كانوا قد قرروا أن يكتشفوا كل المناطق المحيطة بالقرية ويصلوا الى نهر روخانه ويشربوا من مائه العذب الذي وجده رستم أحسن من ماء آوه سبي المائل الى الملوحة، ولكنهم عندما استمعوا الى حديث الرجال داهمهم الفضول للتعرف على ما يسمى بالشقل والشحنة. وفي مكان ما، مرتفع بعض الشي، كانت تتراءى لهم منارة السنجق فيتذكرون الايام التي كانت أشبه بأيام العيد ويفكرون بصديقهم رمزي.

«ترى ماذا يفعل الآن رزمي؟.. لاشك أن صاحبه عندما عرف بعودتنا الى أهلنا قد أنتقم منه».

قال ذلك قادر وهو يحلم بالاكلات التي تناولها هناك. علّق عباس:

«المهم، انه يعيش مثل الامراء».

قال رستم وهو يفكر بدفاتر الحسابات التي أراها إياه رمزي بتذمر:

«ولكنه يحسدنا على وضعنا».

مروّا بساحة البيادر، حيث أكوام القمح والشعير والتبن. وكان ثمة كوخ صغير يقع بين ثلاثة أكوام كبيرة من التبن، ولا يمكن للمرء رؤيتّه الاّ اذا اقترب منه خطوات. قال قادر كما لو أنه عثر على شيء:

«هذا هو كوخ الشحنة، يا له من ثعلب ماكر، لقد أخفى نفسه عن الانظار حتى لا يداهمه اللصوص.

وكان رستم مشغولا بالنقوش المطموغة على أكوام القمح بعناية. وراح كل من قادر وعباس يقلدانه في التدقيق دون أن يفهما شيئا عنها، قال قادر:

«أنها كلها متشابهة يا رستم».

وخزه عباس بمرفقة:

«دعه يفكر جيدا حتى يحل لنا الطلسم».

وبعد أن انحنى على النقوش عدة مرات، أعتدل رستم وقال.

«لقد حللت اللغز وأستطيع أن أقول لكما ما هو..».

نظرا اليه بدهشة وفضول وقالا بصوت واحد:

«رستم، لقد اصبحت فعلا ملا..»

ثم أضاف قادر:

«عندما يسمع زوراب بهذا الشيء فان خصيانه ستكبر، هيا قل لنا الآن ما معنى هذا النقش».

قال رستم بزهو وأمتعاض:

«لقد نقشوا اسم الله سبحانه وتعالى على الشقل».

تساءل قادر ببلادة:

«وهل يجوز ذلك؟ أليس هذا كفرا؟».

فكر رستم وهو يحيل نظراته في النقوش المطموغة بانتظام وأجاب بشرود:

لا أعتقد أن هذا العمل كفر. ان لوضع اسم الله على الشقل أسباب كثيرة منها اضفاء الخير والبركة على المحصول وتجنب شر عيون الحاسدين وخلق الخوف عند اللص الذي يرى النقش».

علّق قادر:

«اللص؟.. اذا اراد أن يسرق فهو لا يخاف أحدا».

قال عباس:

«اريد ان ارى الشحنة، فهل تأتيان معي ام تنتظران هنا؟».

«طبعا نحن ايضا نريد ان نراه، ولكننا يجب ان نمشي بخفة حتى لا يحس بنا، ومن المستحس ان نلتف حول هذا البيدر وننظر من خلال الكوة».

قال ذلك رستم بصوت خافت وهو يتقدمهما بخطوات طويلة وبطيئة.

وعندما بلغوا الجانب الثاني من البيدر أصبحوا وراء الكوخ مباشرة. وكان ثمة مدخلان وكوى صغيرة من الجانبين. همس قادر في اذن رستم:

«اعتقد ان هذا الخنزير نائم».

نهره رستم بإشارة من سبابته بأن يسكت وذعر عباس قافزا من مكانه عندما احتكت به قطة مرقطة أليفة، وعندما رأوها ترفع ذيلها وتقوس ظهرها بألفة بالغة، زال ارتباكهم. وظلوا متسمرين في أماكنهم هنيهة. وعندما خرقت القطة صمتهم بموائها ارتفع شخير عال من داخل الكوة، همس قادر مرة أخرى:

«الم اقل ان هذا الخنزير نائم؟ انه يحرس ليلا وينام في النار».

مدّوا رؤوسهم بحذر من المدخل الخلفي. كان الرجل عبارة عن كتلة هائلة من الشحم واللحم، يتقطع شخيره ويصدر اصواتا مختلفة تتزامن مع حركات بطنه المنتفخ. ويبدو احيانا كما لو انه

يكاد يختنق، كانت ثمة قريتان نصف ممتلئين، احداهما قرية سمن وأخرى للبن وكانت أواني الشاي والطعام مرصوفة بعناية واما بندقيته وحزامه وخفه ولفافه رأسه المشكي وكلاوه فقد كانت كلها موضوعة قرب رأسه بصورة مرتبة.

تسلل قادر بصورة لا ارادية وبخفة وتناول البندقية بكلتا يدية. نظر اليه رستم بأستغراب. وأما عباس فراح يجمع بخفة الحزام الطويل المتكون من القماش الملون و المشكي والكلاو والخف، وأما رستم فلم يفكر بأخذ أي شيء، ولكنه عندما وقع نظره على قطعة خشبية مستطيلة معلقة من قبضتها على جدار الكوخ، تناولها بسرعة. وانسحب الثلاثة بحذر واختفوا وراء البيادر ثم ابتعدوا عن المكان دون أن يراهم أحد. كانوا يسيرون بسرعة والصمت مطلق عليهم الى أن وصلوا التلال القريبة من نهر روخانه.

وجلسوا تحت جرف عال مطل على النهر، كان رستم قلقا وأما قادر وعباس فكانا ممتلئين زهوا وراحة. عرف قادر أن وضع رستم ليس على ما يرام، أخرج من تحت ابطه قرصة خبز قطعها نصفين، احتفظ بالنصف لنفسه والنصف الاخر وزعه عليهما. تناول عباس حصته، أما رستم فرفض دون أن يلتفت اليه. قال قادر وهو يحدق في وجه رستم من طرف عينه:

«أنت زعلان يارستم؟.. ما معنى هذا؟..».

التفت اليه وقال بغضب:

«قاله، انك تتصرف دائما بحماقة لا متناهية، انك ستجلب لنا ذات يوم بحماقاتك مشكلة لا تحمد عقباها. اما كان بإمكانك أن تسألني قبل أن تتناول البندقية؟».

ردّ قادر بهدوء ودون إن يأبه لغضب صاحبه:

«رستم انك ملا جيد وربما ستكون ذات يوم افنديا كبيرا، ولكنك احيانا تفكر مثل الطفل. هناك أوقات لا تتحمل الاستفسار، ولنفرض انني سألتك في تلك اللحظة الحرجة، فرفضت قيامي بهذا العمل، فهل تعتقد انني كنت أسمع كلامك؟».

كان عباس يلتزم عادة الصمت في مثل هذه الحالات، بيد أنه الآن وجد نفسه مجبرا على الكلام:

«رستم، اننا لانريد ان نخالفك، ولكن هل أنتبهت هذا اليوم جيدا الى كلام جدي وعمي شيخو؟ ان هذا المكان الذي نحن فيه هو جزء من وادي كفران ولهذا السبب ذهبنا الى السنجق. هل تعرف معنى وجود بندقية عند رجل يعيش داخل عشيرتنا دون أن نعرفه؟».

قال رستم بعد أن زال غضبه وأقتنع بكلام عباس الذي لم يعهد فيه مثل هذا الكلام من قبل:

«ولكن من يقول بأن جدنا سوف لا يغضب علينا لعملنا هذا؟».

ردَّ قادر:

«سواء غضب جدنا ام لم يغب، هذا شيء غير مهم، المهم اننا جردنا هذا الخنزير من سلاحه. اننا يجب أن ننتبه جيدا الى ما يقوله الجد والعم شيخو».

قال رستم بحيرة:

«والآن؟.. ماذا نصنع بهذه الأشياء؟».

أجاب قادر مبتسما وبلهجة المنتصر:

«وهل هذه مشكلة يارستم؟.. هناك الف حفرة في هذا الجرف. سنخفيها كلها في مكان أمين بحيث يكون من المستحيل ان تصلها يد انسان».

كان حصة رستم من الخبز مازالت بيد قادر، وعرف هذا أن وضعه الان قد تغيّر، فقد بدأت علامات الارتياح ترتسم على وجهه:

«رستم، هل تريد حصتك، وإلاّ سآكلها..».

مدّ رستم يده بسرعة وتناول الخبز دون أن يقول شيئا. وبعد أن شربوا الماء وغسلوا وجوههم وأرجلهم ساروا بمحاذاة الجرف الى أن وصلوا الى شق عميق طويل يتقدمه عمود هائل إتكأ على جانب الشق. وقفوا أمامه وهم يجيلون فيه نظراتهم.

وراحوا ينظرون الى بعضهم بارتياح. كان يمكن الوصول الى مدخل الشق من عدة أماكن وعرة. وكان كل واحد منهم يفكر في أحسن وأسهل طريق يؤدي الى المدخل. وبعد أن توزعوا على ثلاث نقاط استطاعوا نقل البندقية بأمان الى المدخل الذي كان يتوسطه عباس ثم لحقه رستم وقبل أن يصل قادر الى الهدف تدحرج الى الاسفل عدة مرات. كان الكهف من الداخل عميقا وعاليا توزعت على جوانبه حفر تحتوي على أعشاش قديمة. وكانت ثمة خفافيش كبيرة ركنت الى حفر صغيرة عالية في زوايا الكهف الداكنة. بعد أن اخفوا الأشياء في ركن مظلم قال قادر:

«والآن ليعثروا على هذه الأشياء».

بعد المناقشات الطويلة التي لم يساهم فيها كريم لشروده وانشغال خيالهِ بوادي كفران، أجمعوا على أن جهانگير بأعماله هذه انما هو كافر ولاتنطبق عليه صفات المسلم. وأكد ميرزا أكثر من مرةً على ضرورة قتله، وأما الشيخ زوراب فكان ينهره دوما بالكف عن مثل هذا الكلام وبأن الله لم يخول أحدا بقتل الآخرين وبأنه سينال عقابه في يوم الآخرة. ولما سكتوا نظر الشيخ زوراب ببشاشة الى كريم وقال:

«لقد تكلمنا كلنا عدا أبني احب ان اسمع رأيه ايضا».

كانت آثار الصرعة قد زالت نهائيا من وجه كريم، بيد أنه ما زال ساهما تبدو على ملامحه الكآبة، قال وهو يتذكر تفاصيل حلمه:

«أعتقد انكم قد أطلتم في الحديث حول جهانگير. اننا كلنا نعرفه جيدا، ونعرف كيف وصل الى هذا الحال. ان الرجل جشع، وجشعه غضب انزله عليه الله. اننا لا نستطيع ان ننقذ الرجل من جشعه وهذا ليس من واجبنا. واجبنا هو أن نخلص هؤلاء المساكين من قبضة جهانگير مهما كلفَ الأمر».

داهمته رغبة أن يحدثهم عن حلمه، ولكنه وجد أن الوقت غير مناسب، وقد تثير شكوى الجنية حساسية السيّد، فقال:

«اذا سمح لي عميَّ السيّد فأحب أن اذهب هذا اليوم أو غدا الى شيخ البرزنجة».

قال السيد بزهو:

«بارك الله فيك يا ابني.. هذا جيد ان تفكر في الشيخ، ولكن لا يجوز أن تسافر قبل أن يكمل الأسبوع، وبعد ذلك الله ويّاك وسلم لي كثيرا على الشيخ.. والآن لنرجع الى موضوع جهانگير».

اقترح رمضان أن يذهب لإستدعاء هابو الى الجلسة وأضاف ميرزا للاقتراح ضرورة جلب الشحنة أيضا، ولكنهم استنكروا جميعا النزول الى مستوى خادم ذليل لا هم له سوى حراسة المال الحرام. ولما لاحظ ميرزا أنهم يعاكسونه في كل شيء، انفعل وقال بعصبية:

«كل ما في الامر إنكم تخافون منه لأنه يملك بندقية. دعوني أنا أقوم بالمهمة، سأضع بندقيته في كس أمه».

ضحك الجميع، عدا السيد وراح ينظر الى الارض أمامه مشمئزا. قال رمضان بصوت خافت: «ستظل حمارا طول عمرك يا ميرزا..» وأما الشيخ زوراب فالتفت الى السيد مبتسما وواضعا يمناه على كتفه:

«هذا مام ميرزا لا يؤآخذ، خلّي بالك ياسيّد».

وأطبق عليهم الصمت لهنيهة. كان رمضان قد وقف استعداداً للذهاب الى هابو، بيد أن السيد أوعز اليه بالجلوس، أن هابو سيحضر في كل الاحوال لتناول قهوة الضحى. ولم يمض وقت قصير الاّ وظهر برأسه الكبير يرافقه واحد من أقاربه.

نظر الشيخ زوراب وشيخو الى بعضهما البعض، وفهم شيخو حالا ما يريده أبوه، لقد أن الاوان ليثبت شيخو بأنه جدير بلقب رئيس عشيرة وادي كفران. وهذا هو الامتحان الاول الذي سيحسم المعركة سواء أزاء جهانگير وألاعيبه أو تجاه الدولة المتمثلة في ادارة السنجق، فاما أن يفرض شيخو هيبته وسطوته أو يتحول الى خادم ذليل مثل هذا الشحنة. وهناك ينبغي القفز فوق الكثير

من الحواجز.

حواجز القرابة والتقاليد والخجل وضرورات الخبز والملح. وفكر شيخو:

لقد خدَمَنا جهانگير لعدة أيام ودبر لنا اللقاء مع القائممقام، بفضله تسلَمنا الفرمان، والآن يريد ثمن كل ذلك، يريدنا ان نسكت عن الحق ونشاركه في جريمة تناول ثمرات الربا الفاحشة. سندفع له ما بذمتنا. أطلق الشيخ سعلتين، فهم منهما شيخو أن الشايب يكاد يفقد صبره. قدّم لفافة لهابو وقال:

«لقد جئت في الوقت المناسب يا هابو، ولو تأخرت قليلا لجاءك العم رمضان».

توقف هابو من معالجة ايقاد النار من ولاعته التي كان يضربها بقوة على قطعة حجر الصوان وقال بلهجة فيها توجس:

«خير إن شاء الله».

قال شيخو بثقة وبصوت يبعث على التفاؤل:

«نحن لا نجلب سوى الخير يا هابو. لقد قررنا ان نحسم اليوم قضية جهانگير وشحنته وشقله. وينبغي عليكم أنتم ايضا اولاد أعمامنا أن تحددوا موقفكم من قرارانا».

قاطعة هابو كما لو أنه يريد أن يبعد عن نفسه تهمة:

«ولكننا قررنا إن نكون معكم حتى الموت يا شيخو بك».

قال شيخو بصرامة:

«دعني أكمل كلامي يا هابو، كنا نعتقد أنكم قد حدثتمونا عن كل مشاكلكم، ولكنكم أخفيتم علينا أشياء مهمة جدا، لماذا لم تحدثونا عن حكاية الشحنة والشقل؟».

ضحك هابو ببلاده وعلى وجهه المستطيل علائم الارتياح:

«ولكن هذا الموضوع مسألة شخصية بيننا وبين جهانگير، انه يطالبنا بديون، والدين دين الله، يجب أن يدفع. هل تريدنا يا شيخو بك أن نعصي على دين الله؟».

أنكم قد ارتبطتم بوادي كفران، ولذلك فان أي مشكلة من مشاكلكم هي جزء من مشاكل وادي كفران مع جهانگير».

امتص هابو من لفافته كمية من الدخان بإرتياح وقال بلهجة خائبة:

«هذا كلام حلو يا شيخو بك، ولكن ما فائدة الكلام الحلو. ان كل مصائبنا قد جاءت نتيجة ايماننا الساذج بكلام جهانگير الحلو. هذا أنا أمامك، تفضل انقذني من جهانگير».

«ان جهانگير هو حلقة القرابة فيما بيننا يا هابو، والقرابة هي القرابة، لا يمكن محوها،

والرجل، كما قال أخي كريم جشع، جشعه أدى به الى أن يأخذ الربا حتى من أقرب المقربين اليه، نحن لا نستطيع أن نخلصه من هذه العادة التي وضعته في صف الكفار، وأما واجبنا نحن فهو إزالة أي اثر من آثار جهانگير في وادي كفران».

ضحك هابو بسخرية وهو يهزّ رأسه بيأس:

«أنت لا تعرف سلطة جهانگير يا شيخويك، ان السنجق كله وراء، تفضل انقذني من هذا البلاء الذي يسمونه الشحنة، انه أتى على الاخضر واليابس في القرية. سأكون عبدك اذا أنقذتني منه، ولكنني أن احذرك منه يا شيخو بك فهو شرير لا يتحرك الاّ وأصبعه على زناد بندقيته».

هزّ شيخو رأسه وقال باستخفاف:

«لقد تعرفنا على الكثيرين من الاشرار يا هابو، انا لا أريد منكم شيئا سوى أن تعيشوا معنا بهدوء وسعادة، واما قضية جهانگير فأتكفل بها أنا».

اعتدل هابو في مكانه بعد أن اجتاحه الحماس وقال بلهجة مليئة بالثقة:

«هل استدعي الشحنة لحضور المجلس؟ ولكنه الان نائم، ولا يستيقظ الاّ بعد الظهر».

قال شيخو وهو يجيل نظره بين كل من أبية ورمضان:

«لا داعي لذلك يا هابو، ان مشكلتنا ليس مع هذا الشخص. ستحل الامور نفسها بنفسها».

وعندما حلّ وقت الغذاء همّ هابو بالنهوض قائلا:

«يجب أن أذهب، ويل لنا اذا تأخرنا في تحضير غذائه».

قال شيخو بلهجة قاطعة:

« أنت وصاحبك ستتناولان الغذاء عندنا اليوم، وأما شحنة فانه يجب أن يهيء طعامه اعتبارا من هذا اليوم بنفسه».

«لا يا شيخو بك أنا لا أستطيع منازلة هذا الرجل، انه سيهجم مثل الثور الهائج على القرية».

«أنت ستبقى هنا، والغذاء سنتكفل به نحن. لا داعي للخوف يا هابو».

أتخذ هابو مكانه مطمئنا:

«أمرنا لله».

عندما حان موعد الغذاء ظهر الاولاد الثلاثة، وكان التعب والجوع باديا عليهم، وكانوا قبل أن يدخلوا الخيمة يتوقعون حدوث أمر ما، ولكنهم حين وجدوا الرجال وهم منهمكون بإلتهام الثريد، عرفوا أن صاحبهم ما زال نائما. وراحوا ينظرون الى بعضهم البعض وهم يبتسمون. وجلسوا حول الصحن الكبير وهم يأكلون بشهية كبيرة. وكان الشاي جاهزا، فما أن دفعوا الصحون الفارغة جانبا، الاّ وحلت محلها أقداح الشاي.

وجه الشيخ زوراب كلامه الى هابو مستفسرا بإستغراب:

«هل يوجد عندكم في القرية مجنون يا هابو».

«مجنون؟.. كلا ياشيخ زوراب.. لماذا؟»

«من أين جاء هذا المجنون اذن؟»

وراح الكل ينظرون بدهشة الى مدخل الخيمة، وكان ثمة رجل بدين حاسر الرأس، حافي القدمين، بلا حزام، يقترب من الخيمة بخطى وئيدة، قال السيد بتشفي:

«هذا هو الشحنة مردان، لقد أنتقم منه الله وأصابه بالجنون».

أما هابو فقد أنعقد لسانه وهو عبثا يحاول النطق. وراح الاولاد الثلاثة يراقبون الوضع من ركنهم عن كثب. سلم الرجل على الجالسين، ثم وجه كلامه الى الشيخ زوراب بلهجة فيها توسل ورجاء:

«لقد هتكتم بي وسلبتم مني رجولتي، انني الآن كأي إمرأة ضعيفة لا حول لها ولا قوة، اعيدوا لي بندقيتي و أشيائي الاخرى، واعاهدكم بأني سأولي وجهي الى جهة مجهولة ولن أرجع الى هذه المنطقة الى الابد».

نظر الرجال بعضهم الى بعض بدهشة دون أن يعثروا على تفسير لما يروه، طلب منه شيخو أن يجلس ويحكي قصته بهدوء وعليه ان لا يكون وقحا بإتهام الناس بالسرقة، فالجالسون في المجلس كلهم من الاشراف، ثم أضاف:

«أم أن جنابك يريد أن يضحك على ذقوننا».

جلس الرجل بذلٍ قرب الأحذية، وقال:

«استغفر الله أن اضحك على ذقن أحد، لقد استيقظت من نومي قبل قليل فلم أجد حولي لا البندقية ولا أشيائي الاخرى، فذهبت الى هابو لأخبره بالأمر فقال لي زوجته انه هنا».

قال رمضان بتهكم:

«أهكذا تحافظ على بندقيتك يا ضرّاط؟».

وضحك الجميع. قال الرجل وهو يحاول كسب عطفهم بلهجته اليائسة:

«أجل يا مولاي، لقد ضرّطوني ومزقوا جحري».

أخفى الاولاد الثلاثة أنفسهم وراء ستارة الخيش وهم يكادون ينفجرون من الضحك، وواصل:

«يكفيني ما فعلوا بي...»

قال شيخو بلهجة حادة:

«ولماذا تعتقد باننا نحن فعلنا ذلك؟.. هل لك عداوة معنا».

«كلا يا مولاي استغفر الله، كنت أعتقد انكم ستساعدونني في محنتي».

قال شيخو بعد أن نادى على رستم بجلب الاكل له:

«لو كنت واحدا من ابناء العشيرة لساعدناك، وذهبنا الى آخر الدنيا لإستعادة حقّك، ولكنك من رجال خالنا جهانگير، ولذلك يجب ان يتكفل هو بالمهمة».

«هل تريدني أن اذهب الى جهانگير بهذه الوضعية؟.. هل تدرون ماذا سيفعل بي؟. انه سيقتلني ويجعلني طعاما للكلاب. انني استجدي حمايتكم، وأنا بحاجة الى ظلكم، سأبقى خادمكم المطيع ما دمت حيًا».

«وجهانگير؟.. أليست لك التزامات إزاءَهُ؟».

«كل ما في الامر هو إنني أعمل عنده مقابل لقمة الاكل وزوج كلاش في كل موسم والبندقية هي ملكي، انني أستطيع أن أعيش من فضلاتكم اذا وضعتموني تحت حماية العشيرة».

وضع رستم الصحن وقرصتي الخبز ورأس بصل أمامه، وراح يراقب وجهه المنتفخ وعينية الضيقتين تحت حاجبين كثيفين، وبعثت ملامح الاستكانة المرتسمة على وجهه الشفقة في أعماقه حتى كاد ان يقول: «اطمئن يا عمي ان مفقوداتك محفوظة في مكان امين» نظر الرجل الى رستم باستكانة وقال:

«أطال الله عمرك يابني..».

قال شيخو باعتزاز:

«كان وادي كفران دائما ملاذا لكل من يحتمي اليه، ولما كنت قد طلبت بأختيارك أن تكون واحدا من ابنائه وتموت من أجله، فان وادي كفران سيوفر لك العيش الكريم تحت ظهرانيه».

كان لم يبدأ بالاكل بعد، أنتظر أن ينهي شيخو كلامه، فما ان انهى هذا كلامه وطلب اليه البدء بالأكل، وأجهش بالبكاء، ثم تنفسّ الصعداء وراح يأكل. قال السيّد بصوت غير مسموع: «يطبك طوب يا ثور..»

أطبق الصمت على جو الخيمة الذي تشبعَ بدخان التبغ.

٩

«منذ اليوم الذي زارنا فيها اليوزباشي في بانشاخ وتم تسلَم الفرمان في السنجق، بدأت المشاكل تتوالى علينا. واليوم نحن أمام مشكلة جديدة، مشكلة الشحنة مردان الذي سرقوا بندقيته ومتاعه. انه أحتمى بوادي كفران فينبغي علينا إن نفي بوعدنا. إنني أخشى أن يكون عام اليوزباشي، عام سوء الطالع».

قال ذلك الشيخ زوراب بعد أن خرج الضيوف بفترة غير قصيرة من انتهائهم من تناول الغذاء وشرب الشاي. وأحتدم النقاش بين كل من الشيخ زوراب ورمضان وميرزا وشيخو في تفسير حكاية السرقة التي جرت بشكل غامض. وأجمع الكل أن السرقة انما قد حدثت في النهار خلال نوم مردان، اذ تبيَن أنه ينام عادة قبل شروق الشمس بفترة قصيرة، أي عندما يكون الظلام قد زال نهائيا. ويستيقظ في فترة تناول الغذاء عندما يكون الظل عموديا. وكان كريم صامتا كعادته، أما سنجان فكانت جالسة في الركن مع الاولاد، وعندما طلب اليها الشيخ زوراب أن تشاركم في المناقشة، قالت بأن مجمل العملية تبدو لها غريبة، فهي لم يسبق لها أن سمعت في حياتها بأن اللصوص الحقيقيين يسرقون في النهار وهي تعتقد أن هناك لعبة.

قال شيخو متنفسا الصعداء كما لو أنه حلّ لغزا غامضا:

«اعتقد ان كلام سنجان هو الصحيح، قد يكون صاحب اللعبة جهانگير نفسه حتى يشدد من خناق هؤلاء المساكين أكثر».

علق ميرزا:

«هو نفسه لا غير، إن هذا السفيه يريد أن يجعلنا نحن أيضاً فقراء مثل هؤلاء.

التفت الشيخ زوراب الى كريم وقال بعد أن ارتاح لكلام زوجته:

«كريم، ماذا تقول أنت؟..»

«أنا أؤيد كلام سنجان، وأما اذا كانت المسألة ليست لعبة، فأن السارق من ابناء القرية، يجب أن نحضر كل أبناء القرية رجالا ونساء وأطفالا وندقق معهم واحدا واحدا. ذات يوم كنت عند أحد أغوات بهدنان، كانت قد حصلت سرقة في إحدى مزارع الكروم. كان الاغا غاضبا جدا، جمع كل أبناء قراه وحلف أمامهم بطلاقه بأنه سيعثر على اللص، ولكن اذا تقدم اللص وأعترف بجرمه فانه سيعفيه، وسرعان ما خرج رجلان من بين الحشد وأعترفا بجرمهما. وبعد أن عفا عنهما

الاغا تكفّل بتعويض المتضرر من ماله الخاص».

أكتأ الشيخ زوراب على وسادته بارتياح وسحب نفسا من غليونه وقال:

«هذا هو الحل النهائي. سنقوم بهذا الاجراء هذا اليوم. وطالما إننا الآن لوحدنا ولا يوجد غريب فيما بيننا أحب أن أعرض عليكم مسألتين بدأتا تشغلان بالي منذ أيام».

والتفت الجميع اليه بفضول، وأما هو فلم يلبث أن عاد الى وضعه الاول ملقيا غليونه جانبا ومحتضنا والوسادة. وكان الكل يعرف أنه في مثل هذه الوضعية يبدي قراراته القاطعة:

«كما ترون أن مساحة وادي كفران قد تضاعفت، وأعتقد أن معظم المشاكل ستأتي من وادي كفران السهل، وأهم مشكة تصادفنا هي زراعة هذه المساحات الواسعة وبناء القرية، ولذلك أرى أن يقوم كريم بتدبير أمور وادي كفران الجبلي ويبقى شيخو هنا ويبدأ بالإشراف على بناء القرية وحراثة الاراضي. وأما بالنسبة لمن سيسكن ويعمل هنا، فسنستدعي أولاد أعمامنا وراء جبل بازوخ الذين يحرثون عبثا في الاراضي الكلسية».

وهنا اعتدل ميرزا في جلسته وأراد أن يقول شيئا، بيد أن زوراب لم يفسح له المجال حين واصل كلامه الذي وجهه اليه:

«وأنا أعتقد أن كلا من ميرزا ورمضان يستطيعهان اقناعهم بالعدول عن بيع النفط والعيش بين الصخور الكلسية الجرداء».

لم يتمكن ميرزا من ضبط نفسه، فقال بحماس:

«اننا سنرغمهم للمجيء الى هنا».

قال الشيخ زوراب دون ان يلتفت:

«مام ميرزا، نحن لا نرغم أحدا، انهم اذا جاءوا فمرحبا بهم، وان لم يجيئوا فليكن الله معهم. الرجال كثيرون في وادي كفران والحمد لله».

كان الاولاد الثلاثة قد تركوا الخيمة من المدخل الخلفي وراحوا يتشاورون فيما بينهم. كان رستم مرتبكا، وأما قادر وعباس فكانا كشأنهما ينظران الى رستم بدم بارد دون أن يفهما سبب ارتباكه. وقال له قادر انهم لم يرتكبوا أي عمل مشين حتى يخافوا، واذا كان هو خائفا من طرح الموضوع فانه هو الذي سيتحدث الى الرجال. أكد لهما رستم أنه لا يخاف، وأنه مقتنع بأن عملهم صحيح، لكنه مع ذلك يخشى أن تجري معاقبتهم بشكل من الاشكال. ضحك قادر وأبدى استغرابه لسذاجة رستم ثم أردف:

«اننا اذا فكرنا دائما في العقاب، فلا نستطيع أن نفعل أي شيء. ولنفرض انهم سيعاقبوننا،

فماذا تظن؟.. هل انهم سيقتلوننا بسبب هذا الضّراط كما قال الخال رمضان؟».

سكت رستم وأما عباس فلوى شفتية قائلا:

«انهم يجب أن يشكروننا على عملنا، والآن ماذا تنتظران؟.. انني أرى أن نذهب اليهم الآن حالا ونبلّغهم بالموضوع».

وراحوا يتبادلون النظرات بينهم، وقد ارتسمت على وجوههم معالم الرهبة والخوف والتساؤل... وتقدمهم رستم وهو يحسّ بشيء ثقيل يضغط على قلبه لم يشعر به من قبل. وعندما أصبحوا في منتصف فسحة الخيمة، نظر الكل اليهم، قالت سنجان وهي تنظر اليهم بأعتزاز:

«لقد وجد الاولاد بعض الوقت لمشاركة الرجال في المجلس».

قال رمضان:

«كدنا أن ننساكم من كثرة المشاكل يا أولاد. هل أطلعتم على وادي كفران السهل بشكل جيد».

أجاب قادر:

«كلايا خال رمضان، المنطقة واسعة جدا، نحتاج الى أيام أخرى».

كانوا ما زالوا واقفين، وكان رستم ينظر الى جده بأنتظار أن يستأذن لهم بالجلوس، وكان الشيخ زوراب مشتاقا للتحدث اليهم والاستمتاع بالجلوس معهم، ولكنه رأى أن حل مشكلة الشحنة حاليا أهم من ذلك، لذلك قال وهو يحز في قلبه:

«أنكم الآن تستطيعون مواصلة الاطلاع على المنطقة. ويمكنكم هذه المرة أن تعملوا جولة على خيولكم، وأما الدردشة فسنؤجلها الى وقت آخر، لأننا الآن مشغولون ببعض المشاكل!..».

قال رستم وهو يفرك يديه ببعضهما:

«بابا.. اننا يجب أن نجلس معكم. نريد أن نبحث معكم المشكلة التي أنتم بصددها الآن».

تبادل الرجال النظرات فيما بينهم، وكانت علامات الاعتزاز بادية على وجه كريم. وأما الشيخ زوراب فكان ينظر بجد الى ملامح رستم المرتبكة، وأحسنّ بفطرته بوجود شيء ما، بيد أن خوفا غريزياً تسرب الى أعصابه، قال:

«اجلسوا اذن، وهات ما عندك يا رستم..»

أحسن رستم في قرارة نفسه أنه قد تجاوز حاجز الخوف، قال بهدوء:

«نريد أن نتحدث في موضوع الشحنة، اننا أخذنا بندقيته ومتاعه، ولذلك لا داعي أن تشغلوا رأسكم في هذا الموضوع».

قال رمضان بصورة لا ارادية:

«الآن ليس وقت المزاح يا رستم، نحن مشغولون بمشكلة حقيقة».

تكلم قادر بسرعة:

«يا خالي رمضان، لا نمزح، والاشياء كلها أخفيناها في مكانٍ أمين».

أرتسمت علائم الدهشة على الوجوه وهي بين مكذب ومصدق. وأطبق عليهم الصمت وهم ينظرون الى بعضهم البعض بحيرة وتعجب. تناول الشيخ زوراب غليونه وتسائل:

«أنتم ثلاثتكم سطوتم على بندقية ومتاع الشحنة مردان؟».

أجاب رستم:

«نعم بابا، نحن ثلاثتنا».

واصل استفساره وعلامات الدهشة ما زالت مرتسمة على وجهه:

«ولماذا فعلتم ذلك؟».

«لقد زارنا كل ابناء القرية ورحبوا بنا، وأما هذا الرجل فلم يزرنا، وعندما سمعنا منكم انه يعامل اهل القرية بشراسة، خفنا أن يستعمل بندقيته ضدنا ايضا».

هزّ الشيخ زوراب رأسه، وأما شيخو ورمضان فكانا يتبادلان النظرات ويبتسمان، يشاركهما في ذلك كريم. نظر الشيخ زوراب الى سنجان ثمَ مرر عينية عليهم الى أن استقر عند كريم:

«هؤلاء أحفاء ناله گورگه».

ثم التفت باعتزاز إلى الاولاد وواصل: «لقد اصبحتم رجالا ترفعون الرأس، انني فخور بكم يا أولادي».

قام شيخو من مكانه بعد أن صب ثلاثة أقد ام شاي، وراح يوزعها عليهم ثم قبلهم واحد واحدا من رؤوسهم قائلا:

«سوف نشارككم ثلاثتكم في كل صغيرة وكبيرة من أمور العشيرة». وراحت التعليقات تتوالى. وأما الثلاثة فقد وقعوا تحت تأثير حالة غريبة لم يعهدوا بها من قبل. وأول ما أحسوا به واقتنعوا به قناعة تامة هو أنهم قد اصبحوا رجالا حقيقيين وأنهم لم يعودوا اولاداً.. قالت سنجان:

«سأطبخ لكم اليوم طبخة لم تأكلوها في حياتكم يا أولاد».

قال قادر باحتجاج وهو يحك رأسه الكبير:

«نحن لم نعد اولادا يا ميمي»...

علّق رمضان بود:

«صحيح يا قادر، لقد اصبحتم فعلا رجالا...».

أمتص الشيخ زوراب كمية من الدخان من غليونه، كانت علائم البهجة بادية على وجهه، قال وهو يكاد يطير من فرط السعادة:

«لقد حلّ لنا رجالنا الجدد مشكلة حقيقية، وبهذا نكون قد أنتهينا من هذا الموضوع».

واصلوا مناقشة تفاصيل بناء القرية الجديدة، وكيفية تقسيم الاراضي والمزروعات التي ان تنبت هنا بصورة جيدة، وقرروا بالاجماع أنهم لا يستطيعون أن يحددوا نوعية الارض ومدى اعتمادها على الارواء والمطر ما لم يفحصوا الارض مباشرة والتعاون مع أهل القرية. وعندما بحثوا موضوع العلاقة بالسنجق نبههم كريم الى مسألة مهمة، ألا وهي المحافظة على الحذر تجاه السلطة وعدم الانخداع بالكلام المعسول سواء لليوزباشي أو القائمقام، وأن الاولاد البالغين يجب أن يبقوا في وادي كفران الجبلي. أيّد الشيخ زوراب كلام كريم وأكد بدوره على ضرورة إخفاء المحاصيل فورا في حفر تحت الارض بعيدة عن القرية، لأن منطقتهم قريبة من الطريق العام الذي يربط كردستان ببغداد، وان قطعان الجندرمة اذا مرت من هنا فانها ستأتي على الاخضر واليابس. ورأى ميرزا أن الخيمة يجب أن تعاد الى وادي كفران الجبلي بعد الانتهاء من بناء القرية. ردّ رمضان:

«الخيمة ستبقى هنا يا ميرزا، وأما اذا كنت تريد العودة الى بانشاخ فهذه مسألة تهمك، ثم انك لست صاحب الخيمة الوحيدة، ان سنجان لها أيضا حصة في الخيمة».

«أنت يا رمضان تخلط دائما في كلامك. متى قلت بان الخيمة ملكي أنا وحدي، انها ملك وادي كفران».

قال رمضان بخبث وهو يريد إثارته:

«أنت توحي دائما للآخرين بانك أنت صاحب الخيمة الوحيد».

قال ميرزا وهو بالكاد يخرج الكلمات من فمه لشدة انفعاله:

«لعنة الله على الكذاب».

قال كريم وهو يقوم من مكانه:

«ياعمي ميرزا ان الخيمة هي ملكك أنت وحدك، كل ما في الامر هو أن الخال رمضان يحسدك على هذا الملك، والآن، ألا تريدون أن تتمشوا قليلا؟..».

ثم توسط الثلاثة واضعا يديه على كتفي رستم وقادر وواصل:

«والآن أريد أن اعرف منكم بالتفصيل كيف عريتم هذا الخنزير...».

همس قادر في اذن رستم:

«الم أقل لك أننا كبّرنا خصيان جدنا؟».

أختلى شيخو بالشحنة مردان في متأخر من الليل في كوخه بين البيادر وسلمه متاعه قائلا:

«بندقيتك رديئة جدا يا مردان، يه ك تير (ابو الطلقة الواحيدة) من النوع القديم، لا تقتل حتى دجاجة، يمكنك أن تستعملها كعصا».

قبل مردان يد شيخو وأحتضن البندقية دون أن يصدق عينة وهو يقول:

«سأكون خادمكم المطيع الى الابد يا شيخو بك، ما عليك سوى أن تأمر، سأنزل لك حتى الطير من السماء».

«هل تهدفً جيدا».

«إذا أحببت، فستذهب غدا الى الصيد، سترى بأم عينيك كيف سأستهدف الغزال وهو يجري مثل الطلقة».

«بهذه البندقية؟».

ضرب بكفه الضخمة بقوة على أخمص البندقية، قائلا:

«بهذه البندقية يا شيخو بك».

قال شيخو وهو يتناول قدح الشاي من يد مردان:

«أنظر يا مردان، لم تعد اعتبارا من هذا اليوم شحنة، وأنتهت علاقتك نهائيا بجهانكير، وانني منذ اللحظة التي رأيتك فيها أحسست بالميل اليك، سأعطيك بندقية جيدة سي تير (ابو الطلقات الثلاث) روسية من النوع الطويل، ستكون من الآن فصاعدا مرافقي الخاص، سآخذك معي أينما ذهبت، وستعيش معنا كأي واحد منا».

قبّل يد شيخو مرّة أخرى، قائلا:

«لا أعرف كيف أبرر ثقتك بي يا بك».

«سأل شيخو وهو يحدق عينيه الضيقتين اللتين تتراقص عليهما الظلال التي تحركها ذبالة اللمبة الزيتية:

«هل قتلت أحد يا مردان؟».

أجاب بلهجة جدية وبريئة:

كلا يا شيخو بك، لماذا تطرح علي هذا السؤال؟».

أجاب شيخو بلهجة تبعث على الثقة:

«فقط كي أعرف ما اذا كان لك عدواء.

أكد بثقة:

«كلا ياشيخو بك، ربما سيتحول جهانگير الى عدو لي».

«عدواة جهانگير ليست مشكلة. هل تتقن صنعة ما عدا حراسة المحصولات؟».

أطلق ضحكة، وبدا كما لو أنه طفل كبير:

«انني بطبعي كسول لا أحب القيام بالحصاد والحراثة، ولكنني اذا اضطررت فسأفعل ذلك، كما أستطيع تصليح كل أنواع البنادق والمسدسات».

«هذا شيء عظيم».

ثم نظر الى الارض وأردف قائلا بخجل:

«ولا أريد أن أضم عليك بأنني كنت قبل عملي الأخير عند جهانگير، لصا محترفا».

قال شيخو دون أن يتفاجأ بذلك:

«أنت من رجال الليل اذن».

هزّ رأسه بالايجاب وبأعتزاز وهو ينظر الى الارض..

دقق شيخو في ملامحه حتى يستطلع أثر سؤاله الجديد:

«والآن؟.. هل تقوم بذلك اذا إقتضى الامر؟».

أنطبعت على وجهه ابتسامة طفولية:

«انني احلم بذلك، إنها أمنية»..

تنفس شيخو الصعداء ثم أتكأ على الجدار وقدم لفافة لصاحبه، وبعد أن مدّ رجليه قال:

«مردان، اننا قد أصبحنا صديقين، هل تعطيني كلام شرف أنك لن تخونني؟».

قال مردان وهو يحاول القيام من مكانه:

«اذا لديك القرآن الكريم في الخيمة فهيا لنذهب الى هناك حتى أحلف لك».

«سأسكب دمي سبيل اي واحد منكم».

«لا داعي أن نذهب الى هناك، ان ثقتي عالية بك. أنظر مردان، أنت رجل مجربٌ ورأيت بنفسك ما فعل بك الاولاد خلال غفوتك. اننا هنا في هذه الارض السهلة أشبه برجل مكشوف المؤخرة، حتى الطفل أن يبعصنا من الحلف، اننا بحاجة الى السلاح، السلاح الموجود حاليا في حوزتنا

قليل بالمقارنة مع الاراضي الجديدة التي أمتلكتنا إياها الدولة، الدولة تدعي بأنها هي ستحمينا، ولكن من تحمينا منها هي اذا تغيّر مزاجها وأحتاجت المحصولات والرجال؟..».

بدأ مردان يفكر بجد ويحك رأسه، قال هازاً أياه:

«كلا يا شيخو بك، ان الدولة لا يمكن الاعتماد عليها، حتى انها اذا حولّت نفسها الى جسر من الذهب فلا تعبره. هناك طريقان للحصول على السلاح، اما تشتريه بالنقود، أو تسرقه من ثكنات الجندرمة».

تحسس بندقيته بأنامله الخشنة وواصل: «نعم، السلاح ضروري في هذه المنطقة، انك اذا لم تحرس مزروعاتك بالبندقية، فانها ستتحول الى مراعي لقطعان الغنم..».

بعد فترة صمت قصيرة قال شيخو:

«ما هور رأيك بأهل بنعيز؟.. هل هم سعداء فعلا لوجودنا هنا كما أظهروا؟».

أطفأ مردان لفافته وصب شايا آخر لضيفه، وأجاب:

«شيخو بك، ان هؤلاء بسطاء وسذج، انهم سعداء لوجودكم هنا، لأنهم بحاجة الى من يحتمون به. وهم الآن متعلقون بكم أكثر لأنكم أنقذتموهم من جهانگير، ولكنهم بطبيعتهم متشككين، ومن الصعوبة أن يمنحوا ثقتهم المطلقة لواحد من خارج قبيلتهم».

قاطعه شيخو:

«اننا يجب ان نوفر لهم الثقة المطلقة».

ضحك بطريقته الطفولية وقال بشيء من الخجل:

«هذه ليست مشكلة مولاي، لهابو أخت جميلة لم تبلغ الخمسين مات زوجها قبل أعوام. أطلبوا يدها لأحد شبابكم وينتهي الامر».

فكّر شيخو فورا برمضان وراح يحدّق في الفراغ كما لو أنه يفكر في أمر وجد له حلا، وأنطبعت على وجهة علائم الارتياح وهو يبتسم بوداعه:

«مردان، انك انسان رائع أنا بحاجة اليك فعلا. فكرتك صحيحة».

«كل ما اتمناه هو أكون موضع ثقتكم».

وعندما اراد شيخو ان يودعه، قال مردان بخجل:

«لست فضوليا بطبعي لااريد أن أتدخل في شؤونكم، ولكن اذا سمحت لي أن أعرف قضية حسم ديون جماعة بنعيز مع جهانگير، لأنهم سألوني انا عدة مرات عن هذا الموضوع، وبصراحة انهم ما زالوا خائفين من جهانگير».

طبائعهم أو أخلاقهم، ورأى أن فقدان صداقة جهانگير لا يجلب الخير، بل بالعكس، انه يستطيع خلق المتاعب التي هم في غني عنها، وان دواء جهانگير هو النقود. وهو يملك من الذهب ما يكفيهم، فما قيمة الذهب اذا لم يستعمل في هذه الحالات؟.. وأبدى رمضان استعداده للذهاب اليه فورا، واقترحوا ان يذهب كريم معه حتى يغير الجو، ولكن كريم رفض ذلك بصورة قاطعة بحجة ضرورة سفره الى الشيخ، وحين الحَ عليه شيخو، أضطر أن يروي لهم ما ترآءى له في المنام. وتم الاتفاق على أن يستغل فرصة وجوده هناك للّقاء بالقائممقام لتوضيح بعض التفصيلات.

وعندما اتفقوا على يوم العودة الى وادي كفران الجبلي، اختلطت الامور بالنسبة الى ميرزا، فقال:

«الم نتفق بأننا سنبقى هنا الى الابد؟».

وجد رمضان أن المناسبة مواتية للضحك على ذقنه:

«ميرزا، أعتقد أنك قد كبرت أو بحاجة الى امرأة، لأن عقلك لا يشتغل هذه الايام، ماذا نفعل معك حتى يعمل رأسك؟».

أجاب ميرزا بلهجة فيها أسى ولوم:

«شيخو بك دبّر أمرك انت، والآن تضحك عليَّ».

تدخل شيخو قائلا بجد:

«مام ميرزا اذا كنت فعلا بحاجة الى امرأة فان هناك ارملة أخرى. ان جماعة بنعيز قد عرضوها علينا برحابة صدر».

علق رمضان:

«ماذا تريد يا ميرزا؟».

تنحنح ميرزا في مكانه وراح يمسد لحيته بانفعال، وقبل ان يتكلم بادر الشيخ زوراب معلقا:

«انطق يا ميرزا، يبدو أن الخيمة بدأت تجلب لك الخير».

«أنا لا أصدقكم، انتم لا همَّ لكم سوى شدّ المقالب».

ولما حلف شيخو بطلاقه، صدَّق كلامه. فقال فرحا كطفل:

«يا ابن أخي، يا شيخو بك، يا رئيس العشيرة، لقد أثبت بأنك فعلا أب العشيرة الثاني بعد والدك».

قام الشيخ زوراب من مكانه متوجها الى خارج الخيمة قائلا:

«لقد تم حل معضلة الخيمة، سيبقى ميرزا هنا مع عروسته ريثما نرجع مع الآخرين، بهذا يكون هو وكيل شيخو بك».

علَق رمضان:

«يعني اننا يجب أن نناديه بميرزا آغا».

قال الشيخ زوراب وهو يشدّ حزامه ويعدل من هيأته:

«بالتأكيد يا رمضان».

قام شيخو هو الآخر من مكانه قائلا:

«مادامت الأمور قد وصلت الى هذه الحال، فلماذا التأجيل، هيّا لنذهب الى مضيف هابو ونطلب يد المرأة الثانية لميرزا آغا».

نظر كريم الى سنجان التي تفاجأت بالقرار وقال مبتسما:

«يظهر أن الامور تسير بسرعة غريبة هنا، اذا كانت المسألة جادة فينبغي أن تأتين أنت ايضاً».

قالت سنجان فرحة:

«المسألة جادةً، سآتي معكم».

وتوجّه الكل الى أكواخ جماعة هابو، أما كريم فأسرع الى خيمة السيّد ليستدعيه الى مضيف هابو.

١٠

أراد شيخو أن يحطم الشقل أو يلقي به في النهر حتى يتخلص من كل أثر من آثار جهانگير، بيد أن مردان نصحه أن لا يفعل ذلك، ذات يوم لا بد أن يحتاج لهذا الشيء، إذ أن كل عشيرة لها شكل من أشكال الارتباط بالدولة لا بد أن تملك هذا الشيء، ثم أن الاسم الكريم لله عز وجل منقوش عليه فلا يجوز تحطيم أو افناء أي شيء يحمل اسم الله. وكان شيخو يعرف جيدا أن مردان له خبرات ومعارف كثيرة كسبها من تنقلاته الكثيرة بين العشائر المختلفة، فأراد أن يتعلم منه بصورة غير مباشرة، وذلك بإثارة مختلف الاسئلة والقضايا التي كانت تدور في رأسه، كانت اجابات مردان الذكية تعجبه. وحين سأله مرة أخرى عن كيفية الحصول على السلاح، كرر مردان نفس جوابه السابق، اما بواسطة السطو على معسكر من معسكرات الجندرمة أو بواسطة الشراء. رفض شيخو الاسلوب الأول ليس خوفا بل لأنهم في الوقت الحاضر في وضع لا يساعدهم على ذلك، وكان رمضان هو الآخر حائرا في كيفية الحصول على السلاح عن طريق الشراء. لقد وضع الشيخ زوراب كمية محترمة من الليرات الذهبية تحت تصرفهما.

كان مردان اذا حكّ رأسه فمعنى ذلك أن الجواب سيأتي حالا. كانوا على ظهور خيولهم وهم في طريقهم الى جهانگير. التفت مردان الى صاحبيه قائلا:

«اذا كانت النقود موجودة فان السلاح سيأتينا بنفسه، اننا مثلا نستطيع أن نشتريه من أفراد الجندرمة أنفسهم، أو من عرب حويجة وجهانگير نفسه يستطيع أن يدبر لكم ما تحتاجونه من السلاح».

نظر شيخو ورمضان الى بعضهما باستغراب، تساءل شيخو:

«جهانگير ايضاً؟».

أرتسمت ابتسامة عريضة على وجهه الطفولي وقال:

«يا شيخو بك ان جهانگير يتاجر بكل شيء. إنكم يجب أن تمسكوا به بكلتا يديكم. وعلى فكرة فإنه يحب الذهب بشكل غريب».

هزّ رمضان رأسه، وقال كمن يتحدث مع نفسه:

«ومن لا يحب الذهب؟».

ثم فكر بالشيخ زوراب.. ألا يحب هو الآخر الذهب؟.. وإلاّ فلماذا أدخَره ولا يزال يقتّر في صرفه؟

ولا يخرجه الى النور إلاّ في الحالات التي يجدها ضرورية جدا؟.. انه لم يتعب في الحصول عليه ولم يجمعه من عرق جبينه، بل ورثه من إبيه الذي لا شك ورثه هو الآخر من أبيه، وقد يعود الإرث كله الى ناله گورگه المعروف ببخله. وذات يوم عندما كان والد الشيخ زوراب راقدا في فراش الموت، وكان الشيخ زوراب اذ ذاك لم يبلغ الثلاثين بعد، قال له: «زوراب، هناك في الغرفة المقابلة لغرفة سكن العائلة كوةً مخيفة في الجدار تقع وراء اللمبة الزيتية مباشرة، هناك أخفيت داخل صرةٍ كمية من الليرات الذهبية.. لقد ورثناها من أبي، انها أمانة بيدك لا تصرفها الاّ في الحالات الضرورية..». ومات الاب قبل أن يشرح لزوراب ما هو المقصود بالحالات الضرورية؟.. وظل أياما وأشهر يفكر في هذه الحالات دون أن يدرك كنهها.. وقال له الملاّ ذات يوم أن الحج حالة ضرورية، فرد الشيخ زوراب، اذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يذهب والده وجده الى الحج؟.. بيد أن الايام علمّت الشيخ زوراب ما هي الحالة الضرورية، وقالت له أمه ذات مرة أنها لاتعرف ما هو المقصود بالحالة الضرورية، ولكنها تعرف أن أباه قد مدَّ يده مرتين لليرات، اذ صرف في كل مرةً ليرة واحدة فقط، مرة جاءت مجموعة من الجندرمة الشرسين وراحو يطلقون النار على كل شيء ثم القوا القبض على ثلاثة فتيان وأوثقوا ايديهم بالحبال بغية أخذهم الي الجيش، اذ ذاك هرع زوراب الى مسؤولهم وناوله بخفية ليرة ذهبية واحدة، وما لبث أن صاح المسؤول على رجاله بفك وثاق الفتيان وترك القرية، مؤكد ان المبحوث عنهم هم ليسوا هؤلاء. وأما الحالة الثانية فاشترى فيها القمح والشعير، اذ لم يستطيعوا أن يحصلوا في تلك السنة حتى على حبّة واحدة، وأما الشيخ زوراب نفسه فلم يمد يدةً الى الليرات سوى مرةً واحدة عندما شعر بالخطر على شباب وادي كفران، اذ أن مجمل قصة الفرمان بدا له مبيتة لسوق الشباب الى الجيش. وها انه مرة أخرى يمد يده الى الليرات لصرفها على شراء السلاح، فما فائدة الذهب لم يستر مؤخرته المكشوفة في كفران السهل؟.. ومن يدري؟.. فلعلهم منحوهم هذه الاراضي السهلة الواسعة كي يخرجوهم من بين جبال ووديان وادي كفران التي أحتموا بها منذ الازل، دون أن تستطيع يد الدولة أن تمتد اليهم.

عندما أصرت سنجان على ضرورة دراسة رستم في كركوك، رأى الشيخ زوراب أنها ليست حالة ضرورية، بيد أن ملابس اليوزباشي العسكرية قد أعجب سنجان فقررت أن تصرف من مالها الخاص على دراسته، ووافق كل من شيخو و كريم أيضا على ضرورة الدراسة بعد أن رأوا شخصا مثل جهانگير وقد أرسل أبنه للدراسة ويطمح أن يواصل دراسته حتى في مركز الولاية، فلماذا يبخلون هم على ابنهم. وكانت حجة الشيخ زوراب هي ليست نفقات الدراسة، بل لأنه يخشى بان الولد سيفسد في المدينة، وانهم في الاساس فلاحون لا يعرفون سوى مهنة الفلاحة والرعي، وليس لهم أي شأن بكل ما يتعلق بالمدينة. بيد شيخو قد أقنعه بأن العشيرة تحتاج الى ملا من

أبناء جلدته، يعرف القراءة والكتابة، فالدنيا قد تغيرت وان تلك المسألة قد أصبحت ضرورية بعد أن توسعَت أراضي وادي كفران.

وعندما بلَغ شيخو جيهانكير بأنهم إنما جاءوا كي يسددوا ديون جماعة هابو، ويقضوا بسرعة بعض الحاجيات الاخرى في السنجق، استغرب الاخير وأكد مرارا وتكرارا بأنه من المستحيل أن يستلم أي شيء مقابل الديون، بيد أن شيخو قال في الاخير بأن المبلغ الذي جلبه له انما تسلمه من يد هابو بنفسه، فهو يعتقد خطأً بان المال يعود الى الشيخ زوراب، اذ ذاك قهقة جهانكير قائلا:

«هل تريد أن تضحك عليّ يا شيخو بك؟.. انني أعرف أقاربي جيدا، إن هابو مثلا لا يملك حتى قملة..».

أخرج شيخو حفنة من الليرات الذهبية بمختلف الاحجام وسحب منها ثلاث بأحجام مختلفة، وقال:

«الدين دين الله يا خالي جهانكير، كان هابو لا يملك قبل قملة واحدة، وأما الآن فان الله قد أرسل له ذهبا، ويريد الرجل الآن أن يسدد دينه، فلماذا ترفض قبول الدين؟».

انطبعت علامات التساؤل على وجه جهانكير وعيناه مشدودتان الى الليرات وهو يقول:

«عجيب، ولكن من أين له هذا الذهب؟».

علق رمضان بتهكم:

«يا ابن خالي جهانكير، حين يعثر الفقير على شيء فيقال له من أين لك هذا، وأما اذا عثر الغني على شيء فلا يقال له من أين لك هذا، بل يقال له مبروك يافلان.. ان هذا البلغ الموجود تحت يدك هي ملك هابو الخالص، انه جزء يسير من المهر الذي دفعناه مقابل الزواج من اثنتين من نسائهم».قفز جهانكير من مكانه فرحا وراح يعانق كلا من رمضان وشيخو، وقال وهو يتسلم الليرات:

«حسنا فعلتم بهذين الزواجين، لقد تعمقَت أواصر القرابة بيننا، ولا يمكن للعدو أن يمد بيننا حتى واحدة، بهذه المناسبة فانني لن ارفض الليرات».

قال شيخو:

«هل تلطلب مردان شيئا يا خالي جهانكير؟.. اننا، أنت ونحن أخوة ولكن لكل واحد منا كيس نقوده الخاص به، والدين دين الله، يجب أن يدفع».

«كلا يا شيخو بك، لا أطلبه أي شيء».

نظر شيخو الى رمضان الذي كان مشغولا بقدح الشاي، فتذكر هذا الدور المناط له في الكلام:

«هل رأيت يا جهانگير كيف حققنا وعدنا بزيارتك؟.. كنا قبل ايام قلائل عندك، لقد زرناك قبل أن تردنا بالزيارة».

قاطعة جهانگير بفرح حقيقي:

«ثقوا أن هذا البيت هو بيتكم، ان اسعد لحظات حياتي هي عندما تكونون أنتم بالقرب مني. أنتم تاج رأسي».

قال رمضان بلهجة جادةً:

«اننا في هذه المرةً نحتاجك فعلا، لقد أطلعنا جميعا، أنا والشيخ زوراب وميرزا وشيخو بك وكريم على المنطقة بشكل جيد. لقد رأينا الحدود ومررنا بكل شبر، انها منطقة سهلية تشبه راحة اليد، تحيط بنا ثلاث عشائر تركمانية، عربية، كردية لا تعرف عن طبائعهم وأمورهم الاّ النزر اليسير. وان هذه العشائر الثلاث كانت تستعمل هذه المنطقة كمراعي مشاعة. اننا اذا عمّرنا هذه الاراضي الخصبة غدا فيجب أن نحافظ عليها كي لا تتحول الى مراعي مشاعة لأولئك، نحن نعتقد، وأعتقد انك ستوافقنا في رأينا، بأن حراسة هذه الاراضي الشاسعة لا تتم بالكلاب حسب».

فكر جهانگير بأكوام القمح والشعير الجديدة التي ستأتيه هذه المرةً، كان يحدق في الاراضي في الارض وعلامات التفكير الجدي بادية عليه:

«أنتم بحاجة الى السلاح اذن»..

هزّ شيخو رأسه بالايجاب قائلا:

«بدون السلاح لا نستطيع أن نبني هناك كوخا واحدا، ولا أن نزرع حبة واحدة من القمح.. نريدك فقط أن تدبر لنا أنت الأمر، والنقود لا تفكر فيها، لدينا منها ما فيها الكفاية».

قال جهانگير متباهيا:

«سأتحول بنفسي الى سلاح لكم، وسأدبره لكم حتى لو كان تحت الارض».

تبادل شيخو ورمضان ومردان النظرات فيما بينهم بارتياح.

قال جهانگير وهو يصب الشاي في الاقداح الفارغة التي غسلها بعناية كما لو انه يجري حوار مع نفسه:

«لو تعلمون كم أنا سعيد بكم». وبعد أن وزع أقداح الشاي قال ملتفتاً الى شيخو وهو يؤشر بيده اليمنى الى مردان:

«وهذا اللص القديم مهرب الاسلحة والتبغ؟.. ألم يلمح لكم بشيء»؟

قال شيخو:

«الحقيقة لولاه لما جئناك».

نظر جهانگير باعتزاز الى مردان وقال:

«أنت ابن أبوك يا مردان».

وبعد أن اطبقت عليهم فترة صمت، التمعت فكرة في ذهن جهانگير مبعثها عدة أسباب كامنة في داخله وقال:

«هناك طريقة للحصول على السلاح مقابل لا شيء».

قاطعه رمضان مستفسراً بشك:

«مقابل لا شيء»؟

«نعم، مقابل لا شيء، كل ما في الامر هو أنكم تسجلون أسماء شباب القرية كأفراد (جتة) تابعة للدولة، وانني استطيع أن أتكفل بذلك أمام القائمقام».

أستفسر شيخو باستهجان:

«هل العشائر الثلاث المجاورة لنا سجلت نفسها ضمن هذه التشكيلية»؟

أجاب جهانگير:

(لا، لا أعتقد ذلك، ثم أن الدولة لا تقبل كل عشيرة، انها يجب أن تتأكد من ولاء العشيرة التام».

فرك شيخو لحيته الخفيفة وقال بلهجة اعتذار:

«قد يكون اقتراحك وجيها، ولكنه لا يفيدنا. ان لنا ظروفنا الخاصة التي يجب أن نراعيها».

اتكأ رمضان على وسادته بعد أن أشعل لفافة وقال بتهكم:

«يا ابن خالي جهانگير، ان ثقتك أنت عالية جدا بالدولة، وأما نحن فلا نملك هذه الثقة. اننا أستطعنا حتى الآن وبشق النفس أن نخفي عن أعين الدولة عدد الشباب الموجودين في وادي كفران، وأنت تريد منا أن نقدم لهم قائمة باسماء فتياننا حتى يتمكنوا أن يقودونا متى ما شاءوا مثل الخرفان».

أجاب جهانگير بخبرة تاجر:

«أنتم تعرفون مصلحتكم أحسن من غيركم، اذن سنشتري السلاح بالنقود».

وتم الاتفاق على ان يقوم مردان بالتعاون مع جهانگير بالاشراف على شراء الاسلحة ونقلها في أسرع وقت ممكن. وعندما أنتهوا من هذا الحديث جاء رمزي رستم وقادر وعباس، وقال أنه يفتقدهم ويفكر فيهم منذ اليوم الذي غادروهم فيه، وسرَّ اليه شيخو خبر موافقتهم على دراسة

رستم في كركوك، وأن عليه أن يهتم به. وكان ذلك بالنسبة لرمزي مفاجأة مفرحة، وراح يشرح لهم أهمية الدراسة وفوائدها. وأقترح شيخو على جهانگير بالموافقة على سفر رمزي معهم، فان الاولاد في وادي كفران مشتاقون اليه، وهم يذكرونه دائماً وإذا جاء الان معهم سيكون مفآجأة مفرحة لهم، ثم أن رستم قبل بدئه بالدراسة يحتاج الى بعض المعلومات الاولية التي سيلقنها له رمزي. رحب رمزي بالفكرة وراح يطرب لها وهو ينظر بعين الرجاء الى ابيه. وكان جهانگير قد لاحظ في المدةً الاخيرة ان ابنه يخطأ في الحسابات وينفعل لأتفه سبب، فسأله ما اذا كان يرغب في الزواج، فرفض رمزي قاطعاً بأنه لا يربط نفسه حالياً بالزواج مؤكداً على رغبته الملحة على مواصلة الدراسة في مركز ولاية الموصل، وحين الحّ عليه أبوه لمعرفة سبب وضعه غير الطبيعي أجاب أنه قد ملّ من العمل في الخان وانه لا يطيق رؤية دفاتر الحسابات وهو بحاجة الى الراحة ولو لفترة قصيرة. وراح رمزي يحاول اقناعهم بضرورة اطلاع رستم على بعض المبادىء الضرورية التي يستطيع هو ان يعلمها اياه، والاّ فانه سيعاني صعوبات كثيرة في البداية كما عاناها هو. ورأى جهانگير ان فكرة ذهاب ابنه الى وادي كفران والتعرف على أقاربه عن كثب ليست سيئه، فقال وهو يتململ في مكانه:

«الحقيقة انني بحاجة الى رمزي في الخان، لأن الاشغال كثيرة، ولكنني مع ذلك أحب أن يتعرف على اولاد عمومته. انه ابن عشيرة، يحن الى أقاربه كثيراً»!.

وعندما أبدى شيخو رغبته بزيارة كل من القائممقام واليوزباشي بسرعة، التفت جهانگير الى رمزي وطلب اليه ان يذهب لتجهيز نفسه بالحاجيات الضرورية للسفر، وعندما اصبح ابنه خارج المضيف، أقترب منهما وهو يقول بصوت خافت:

«لقد أستدعي القائممقام واليوزباشي الى مركز الولاية، وقد سافرا قبل يومين. يقال أن هناك اضطرابات في استانبول وبعض المدن الاخرى مثل ديار بكر والشام، الله يسترنا».

وبعد أن سحب كمية من الدخان، تحسر وقال:

«ليبق هذا الكلام فيما بيننا»..

قال رمضان وعلامات التفكير الجدي بادية على وجهه:

«انني أخشى ان لا يجلب لنا هذا الفرمان سوى المصائب..».

قال شيخو بشيء من اللاابالية:

«المبلل لا يخاف المطر، اننا عندما استلمنا الفرمان، ودخل اسم وادي كفران في سجلات الدولة، أعلنا توقعً كل مفآجأة، كل ما في الأمر هو اننا نحتاج الى السلاح، وليكن بعد ذلك ما يكون».

قال جهانكير مطمئنا:

«إن شاء الله لا يحدث أي مكروه، أنتم كعشائر أموركم ماشيه، ان الدولة هي نفسها تتفادى احيانا شركم، ولكننا نحن ابناء المدن ستسوء امورنا اذا حدثت الفتن والاضطرابات»..

لم تُجْدِ الحاحات جهانكير في إقناعهم بالبقاء على الاقل ليلة واحدة عنده، اذ اصروا على السفر، لأن هناك أشغال كثيرة بأنتظارهم.

١١

بارك السيد زواج كل من رمضان و ميرزا واستبشر لهما ولكل وادي كفران الخير و البركة، وسرَّ اليهم أنه رأى النبي محمد صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يمتطي صهوة براقه الذي نشر جناحيه فوق وادي كفران، وراح السيد يغمض عينيه وهو يردد: «فأل حسن، فأل حسن..» وفي ذلك اليوم تحولت القرية الى ساحة للفرح الحقيقي، حيث نصبت القدور الضخمة في الهواء الطلق وأبت سنجان إلا أن يشارك الكل رجالا ونساء في الدبكة (رەشبەلەك) المختلطة. وأبدى الشيخ زوراب مهارته الفائقة في الغناء و الرقص والعزف على الشبابة. كان ذلك هو آخر يوم لوجودهم هناك. وقبل مغيب الشمس وصل شيخو ورمضان ورمزي وراح أهل القرية يطلقون الرصاص في الهواء.

كان قرص الشمس القاني يجثم على مرتفع مطل على نهر روخانه المنحدر جنوبيا، وهو يسبغ على حوافي الافق الوانا بنفسجية متداخلة تارة تختلط باللون البرتقالي الوهاج، وأخرى بالازرق الفاتح الذي لا يلبث أن يتحول الى أرجواني داكن ينتشر بسرعة على الافق الذي التهم القرص الذي أخذ معه الضوء الذهبي الذي كان يغمر رؤوس الاكواخ وأشجار الصفصاف والتوت القليلة المتناثرة على جانبي الجدول. وعندما بدأت ضلال المساء تنشر العتمة فوق القرية، بدأت ظلال المساء تنشر العتمة فوق القرية، بدأت السنة النار المتصاعدة على جوانب القدور تبدو أكثر قوة.

كان كريم هو الوحيد الذي لم يستطع الانطلاق كالاخرين، واظهار سعادته مثلهم، رغم أنه كان سعيداً جداً، وكان مبعث سعادته ليس زواج رمضان وميرزا الذي شبهه بصحراء قاحلة لايمكن أن تثمر مهما سلطت عليها المياه، بل لأنهم سيتركون هذاالمكان في فجر اليوم الثاني الى وادي كفران الجبلي الذي راح اليه كما لو انه انقطع عنه لفتره طويلة. كان قد استند على جدار قديم لمخزن تبن متروك وهو يراقب الافق الغربي الذي كان يقاوم ستائر الظلام الهابطة بسرعة، عبثا. وعندما بزغ القمر من الجانب الثاني باهتا برونزياً يجتاز مسالك الظلام بصعوبة، تذكر آوه سبي، وتمنى لو كان الان واقفا امام كهف الجنية يتمتع بسحر جمالها، وفجأة تسرب همس دافئ الى أذنيه وهو يقول:

«بماذا تفكر يا كريم؟ ألا تكفي هذه الافراح بادخال البهجة الى قلبك؟»

ثم أحس بيد تضرب بخفة على كتفه. التفت الى مصدر الهمس بصورة لا ارادية قائلا:

«من أنت؟»

كانت ثمه امرأة واقفة وراء الجدار، مدت يدها ووضعتها برقة على فمه هامسة:

«هسس، لا ترفع صوتك يا كريم، تعال لنبتعد عن هذا المكان. تسرب الصوت الدافي مثل السحر في أعصابه، وأما دفء يدها الطرية فأنتشر في دمائه، وأنقاد لها دون أن يأت بأى حركة، ولما أصبح في الجانب الثاني من الجدار، أراد أن يقف، ولكنها جرته من يده بسرعة الى أن أختفيا وراء البيادر».

لم يسبق لكريم أن مرّ بمثل هذه الحالة، ولذلك بقي لفترة باهتا يدقق في ملامح الشابه التي قدرها في العشرين. وتحت ضوء القمر المطل عليهما أنشدت عيناه بعينيها الواسعتين السوادوين اللتين كانتا تحدقان فيه بقلق ووجل. وكانت يداها قد أطبقتا على يده اليسرى بقوة وانفعال. مد يده اليمنى الى رأسها فأزاح المنديل الابيض المائل الذي سقط على كتفها، وظهر شعرها الاسود الذي ينتهي بجدائل طويلة. وظهر جانب من عنقها، هزت رغبة عنيفة كيان كريم، فأراد أن يلثمها و يعانقها بيد أن واعزا ما من داخله منعه من ذلك، فامتدت يده بدلا من ذلك، وبصورة لا ارادية الى شفتيها الممتلئتين اللتين راح يمرر عليها رؤوس أصابعه، وكانت أنفاس الفتاة و تنهداتها تختلط بدقات قلبه التي يكاد يسمعها، لا يدري كم بقي على هذه الحالة. وكان القمر يزداد لمعانا وقوة. ولما عرف كريم أن هذه المرأة الواقفة أمامه هي ليست الجنية في، سألها بصوت خافت:

«أنت، من أنت؟.. وماذا تريدين مني»..

أجابت بخجل و بلهجة مليئة بمشاعر الذنب:

«لايهم من أنا، ولكنني أمرأة تراقبك منذ أسبوع».

قال بلهجة مشوبة بالخوف وهو ما زال يحدق فيها مأخوذا:

«قولي لي من أنت؟.. هل تعرفين ماذا سيحصل اذا عرفوا بنا؟»

أنطبعت على وجهها ابتسامة مشرقة، فبدت اسنانها البيضاء وهي تلمع كالبلور فقالت بتحد:

«من له مثل هذا الوجه، يستحيل أن يكون جبانا».

أغمضت عينيها واضعة رأسها على صدره وراحت تبكي بصمت. كان الظلام قد أطبق على كل شيئ، وكانت صيحات الاطفال تختلط بانغام الشبابة المرافقة للاغاني التي تصاحب الدبكة. وفي السماء كانت النجوم تزداد لمعانا. احاط بكفيه رأسها رافعا اياه برفق ثم أطبقهما على وجنتيها الملتهبتين وهو يحدق في عينيها المملوءَتين بالدموع، قالت بلهجة طفولية:

« أنت قلبك يريد أمرأة أخرى، لذلك جلبوك الى السيد. الذنب ليس ذنبك اذا كان قلبك صخرا».

ضحك مطوقا اياها بقوة هائلة قائلا:

«قلبي ليس صحرا، انني أكاد احترق، ولكنني يجب أن أعرف من أنت؟.. هل أنت ابنة هابو».

أجابت باستسلام:

«أنا زوجة هابو».

ضغطت على يده بقوة وجرته قائلة:

«هيا لنذهب الى كوخ الشحنة مردان. انه من حسن حظنا لم يرجع اليوم من السنجق»

استسلم لها كالمأخوذ وقد تسمر من جوابها: «زوجة هابو..» وراح يردد في نفسه: «زوجة هابو..؟. هابو هذا الرأس البغلي، ألم يجد امرأة غير هذه كي يرفسها بحوافره؟»

كان ضوء القمر يتسرب من خلال الفتحة الخليفة ويسقط على نهديها النافرين. دفن كريم رأسه بينهما وكانت هي تعصر بيديها رقبته متأوهة. وحين احرقته الرغبة جلس كي يفك حزامه، فوقعت عيناه على ساقيها البضين، فارتمى عليها وهو يلثم شفتيها ويغرس أنامل يديه في لحمها، وأما هي فطوقته بساعديها عاصرة إياه بعنف كما لو أنها تريد أن تدفنه في أحشائها.

ومرت لحظات تلاشيا خلالها عن العالم، وعندما عادا اليه من جديد، كان كل شيء قد تغير في داخلهما، بيد أنهما ظلا ملتصقين ببعضهما بقوة، تتداخل أنفاسهما وهما في حالة همود، دون أن يحسا بالوقت، ثم ما لبثا أن بدءا باللثم و العناق، وأعادا الكرة مرة أخرى، ولكن أكثر عنفا و ضراوة، وأحست هي في داخلها انها حقا امرأة. وأما هو فكانت الاحاسيس المختلفة تضطرب في رأسه وقلبه اللذين شعر بهما خفيفين لا وزن لهما، وزفر بعمق أحس به يفرغه من كل همومه.

قالت له:

«هل تفكر في امرأة أخرى؟»

أحباب بتهكم:

«نعم»..

«زوجتك؟»

«كلا.. لم أحبها قط».

«اذن عشيقتك».

«كلا»..

قبلته من عنقه وهي تمرر أناملها بين ثنايا لحيته الخفيفة:

«من اذن قل لي».

قال كمن يتكلم في الحلم:

«في الجنية (في)».

قالت كاتمة ضحكتها بيدها وهي تضغط على صدره بنديها:

«هكذا اذن، سحرتك أنت ايضا هذه اللعينة التي جننت رجالنا.. ولكن لا بأس فقد أخرجها السيد من رأسك فعليها أن تبحث عن رجل آخر.

قال وهو يداعب وجهها بأنامله:

«ولكنها قبل أن ترحل، حلت محلها جنية أخرى».

آه، لو كنت قد رأيتِ هذه الجنية من قبل يا كريم، لو كنت قد رأيتها قبل أن يغتصبها هذا البغل الذي وقف بحوافره الاربعة أمام باب أبيها و لعابه يسيل مثل لعاب كلب جائع أمام قطعة لحم، وهو يرعد ويزبد و يحفر الارض بحوافره، فاما هذه الفتاة أو الموت، ولم تلن الرجل، ألا بعد أن لوح له بالمال و بأبنته، وحين رأى الاب ابنة هابو سال لعابه هو الاخر، فتم الزواج على طريقة امرأة بإمرأة (ژن به ژن).

«هل تعتقد انني فعلا جميلة مثل جنية؟»

«انت اجمل، ان الجنية باردة، لا يمكن للانسان أن يعانقها مثلك أنت».

سألته بفضول وهي تلثم يده:

«هل مسكت بها؟.. أم أنسلت كشأنها مع كل الرجال؟»

«لا أردي ما اذا كنت قد مسكتها أم أنسلت، كل ما في الامر أنها كانت أمامي دائما. ان وضعها يختلف لا أستطيع شرحها، وأرجو أن ننسى هذا الموضوع قولي لي أسمك».

«اسمي فاطمة، هل ستتذكرني غدا في مثل هذا الوقت».

كان قد توسد صدرها، رفع رأسه وهو ينظر في وجهها الذي انطبعت عليه علامات الحيرة و قال:

«فاطمة، لقد نزلت على قلبي مثل السهم ومن الصعوبة أن أنتزعك منه، والان يجب أن نرجع الى الى الحشد والا فإنهم سيشكون في أمرنا».

عانقته بقوة:

«كريم، هل سنلتقي مرة أخرى؟»

قال بلهجة واثقة:

«سنلتقي حتى ولو في آخر الدنيا».

وسلكا اتجاهين مختلفين الى ساحه العرس.. هي ذهبت الى البيت وعادت منه حاملة حزمة من الحطب وزعتها على كوانين القدور، أما هو فعاد الى مكانه القديم وأستند على نفس جدار مخزن التبن المتروك، يراقب الدبكة من بعيد.

كانت سنجان جالسة في خيمة العروسين تتبادل معهما أطراف الحديث عندما دخلت عليهن فاطمة وهي تكاد تطير من الفرح. جاءت الى سنجان وأخبرتها بأن الاكل سيكون جاهزا بعد قليل، وبعد أن طلبت اليها هذه أن لا تستعجل في تقديم الاكل حتى يجوع الكل بشكل جيد، استفسرت منها ما اذا كان الكل فرحين و يرقصون. اقتربت منها فاطمة و قالت بصوت خافت:

«الا كريم، يبدو أنه لا ينسجم مع الاخرين».

مسكت سنجان يد فاطمة وقفزت من مكانها قائلة:

«هيا بنا اليه».

وجرتاه بقوة، الى ان رضخ لهما، وعندما أصبحوا في منتصف دائرة الدبكة هرعت عدّة فتيات لجره الى الرقص، بيد أن فاطمة كانت أسرع، فشبكت يدها بيده، وأما من الجانب الاخر فكانت سنجان قد شبكت يدها بيده واستمرت الحلقة بالرقص والدوران بحماس أكثر. وبعد عدة دورات شعر كريم أن الحركة بطيئة ومملة، وان كلمات المغني خالية من الحب و الحرارة، ضغط برفق على باطن يد فاطمة ملتفتا اليها، وعندما التفتت اليه، قال بصوت خافت:

«الان سأغني أنا، ولكن لك وحدك».

وعندما أصبح جنب عازف الشبابة، أراد المغني أن يترك الساحة، بيد أن كريم منعه من ذلك ماسكا يده و مؤشرا له بمرافقته في الغناء. وراح يصفق بإيقاعات راقصة سريعة تتناغم مع كلمات أغنيه:

ايتها الطويلة، ذات العينين الجميلتين،

لا تكسري جناحي

ايتها الناعمة مثل الحرير

لا تكسري جناحي

ايتها الحلوة مثل العسل

لا تكسري جناحي

وكان المغني الاخر يصفق بنفس الايقاع و يرقص مرددا: «لاتكسري جناحي» ثم راح الكل بما

فيهم الجالسون في الخيمة يرددون نفس اللازمة..

ايتها الجميلة مثل القمر

لا تكسري جناحي

ايتها الشامخة مثل الجبل

لا تكسري جناحي

ايتها الشاهقة مثل القمم

لا تكسري جناحي

ايتها الرفيعة مثل السرو

لا تكسري جناحي

ايتها المتهادية مثل الغزال

لا تكسري جناحي

كانت الحلقة تدور بسرعة وهي تارة تضيق وأخرى تتوسع في حركة منتظمة واحدة، وعندما كانت تضيق، تنحني الهامات حتى تكاد الوجوه تمس الارض.

كان رمزي جالسا الى جانب الشيخ زوراب وقد ارتسمت على وجهه علامات الخجل والدهشة، بيد أنه في أعماقه كان سعيدا يلمؤه احساس بالاطمئنان والراحة، قال زوراب وهو يراقب بفرح ابنه كريم:

«انظر يا رمزي كيف يرقصون، انك يجب ان تتعلم هذه الاشياء.. ممن اكتسبت هذا الخجل؟.. ان اباك لم يعرف الخجل ابدا».

أجاب رمزي وهو يحاول التغلب على خجله:

«لقد اتفقنا أنا ورستم أن أرقص في الدورة القادمة، عندما يكون الرقص خفيفا».

وكان السيد منشرحا على غير عادته، ومما زاده في فرحه الانطلاق المفاجئ لكريم:

«شوف، شوف، يا شيخ زوراب كيف يرقص كريم».

ثم اقترب منه هامسا في اذنه: «لقد ولت الجنية الى الابد، انها لن ترجع». وقال الشيخ زوراب برجاء:

«إن شاء الله يا سيد، كرامتك من كرامة النبي».

وفي الوقت الذي انشغل الجميع بتناول طعام العشاء، و خيم السكون على القرية، كانت العروستان تغتسلان في البركة المتفرعة من جدول بنعيز ترافقها سنجان وفاطمة، وكانت هذه تحسن في اعماقها أنها هي العروسة ترافقهما الحقيقية، فتعرت هي الاخرى و القت بنفسها في

البركة وهي تحث سنجان بأن تخذو حذوها:

«انهم مشغولون بالاكل يا خالة سنجان لا أحد يزعجنا هنا، ان البركة مقدسة، يغتسل فيها السيد حتى في الشتاء القارس».

ثم خرجت الى ضفة البركة وراحت تفرك ظهر احدى العروستين بليفة، كان جسمها يلمع في ضوء القمر الذي يغمر الكون بلونه الحليبي. وفي الوقت الذي شعرت فيه سنجان بالأسى لكون هذه المرأة اليافعة زوجة لهابو البغل، أحست بوخزات العرق تحت ابطيها وبين فخذيها و بحاجتها الى ماء ينعشها. فألقت هي الاخرى بنفسها في الماء. وقبل أن تأتي فاطمة لتفرك لها ظهرها أحست باثار اللقاء بكريم، تنهدت بعمق ثم انتقل بها خيالها الى عالم آخر، فظلت جامدة في مكانها كما لو أنها تمثال من الرخام. ونادت سنجان:

«فاطمة، ما بالك ساهمة، أنا ما زلت أنتظرك»..

وعندما راحت فاطمة تفرك ظهرك برفق، همست سنجان في أذنها كما لو أنها قرأت أفكارها:

«عليك بالصبر، ان هذا البغل لا يعيش الى الابد».

عانقتها فاطمة ثم راحت تلثم يدها وهي تذرف الدموع.

بعد الانتهاء من تناول طعام العشاء و شرب الشاي بفترة وجيزة أبلغت سنجان الشيخ زوراب بأن العروستين جاهزتان، فتوجه الرجل الى البركة، ولم يبق في الخيمة سوى رستم ورمزي و قادر و عباس، وكان الاخيران قد اتفقا فيما بينهما على القيام بعمل، وأرادا أن لا يبلغا به رستم و ذلك لإنشغاله بضيفهم رمزي، بيد أن قادر رأى انه من غير الصحيح عدم مشاركتهما رغم اعتقاد عباس بأنه من المستحيل على رمزي أن يشترك معهما. وعندما فاتح قادر رستم ارتاح هذا للفكرة وأكد على رغبته الملحة، واستفسر قادر ما اذا كان من الصحيح دعوة رمزي لمثل هذا العمل، فأجابه رستم:

«لم لا؟.. أليس هو انسان مثلنا؟»

ارتاح رمزي لفكرة أن يتمشوا قليلا خارج القرية ولا سيما لأنه قد أكل كثيرا ودون أن يعرف شيئا عن الخطة التي وضعها الثلاثة، وعندما أقتربوا من البيادر قال رستم:

«سنذهب الان الى زريبة حمير عائدة لهابو، وسيختار كل واحد منا حمارة وينشغل بها، أنت يمكنك أن تختار أصغر الحمير عمرا».

لم يتفاجأ رستم لجواب رمزي، وأما قادر و عباس فقد تفاجآ حين سمعا رمزي وهو يقول بنبرة فيها شبق:

«ولكن لم يسبق لي أن قمت بمثل هذا الشيء من قبل».

رد قادر فورا بلهجة خبيرة:

«سنعلمك يا رمزي».

كانت الزريبة عبارة عن جدار منخفض بباب خشبي واطيء ينتصب مقابلة كوخ صغير مبني بالطين و أغصان الشجر كأمتداد للفناء الواسع لهابو. عندما عبروا الجدار توجهت الحمير نحوهم. جر عباس حماره الى الركن وقبل أن يمد يده الى مؤخرتها، رفعت ذيلها وارحت تتبول. قال رستم وهو يجر حمارة صغيرة:

«خذ هذه يا رمزي، مسد مؤخرتها برفق وقف بعيدا بعض الشيء لأنها قد ترفس، ولكن لاتخف من هذه أنها متدربة».

وأطبق الصمت على الثلاثة، كان كل واحد منهم قد أطبق على حماره دون أن يأبه بشيء آخر.

وبعد هنيهة أعادوا العملية مرة أخرى. وبصمت وبخطوات بطيئة ساروا باتجاه الخيمة. وكان القمر يلمع بقوة، وتبدو الاشياء واضحة، ولكن متلفعة بظلال قاتمة يؤطرها لون الحليب الذي يزيد في سكون الليل الموشح بالنجوم المتلألئه. كان كل شيء موحشا ساكنا. ومن بعيد كان الرجال القادمون من البركة يبدون مثل الاشباح.

١٢

كان الشفق القرمزي قد شق ظلمات الافق الشرقي، عندما بدأت الحركة تدب في الخيمة. وكان رمضان قد سبق ميرزا في بلوغ البركة، وقبل أن يغطس للمرة الثالثة، لمح ميرزا قادما منشرحا كغير عادته. توقف قليلا في منتصف البركة حيث الماء يصل الى صرته، وهو يضحك و يدقق في ملامح صاحبه، قال:

«كيرزل (يا أبا المطرقة الكبيرة) يبدو عليك الجنب، كم مرة فعلت؟».

أجاب بزهو مؤشرا باصبعيه:

«مرتين».

قال رمضان ساخرا وهو يخرج من الماء:

«فقط مرتين؟»..

لم ينطق ميرزا، بل ظل واقفا بانتظار أن ينصرف، ولكن هذا بقي جامداً في مكانه بعد أن انتهى من ارتداء ملابسة وكأنه ينتظر شيئا. قال ميرزا:

« ألا تريد أن تذهب؟»..

« كلا، أريد أن أتأكد ما اذا كنت قد ضاجعتها أم لا؟».

« الا تصدق كلامي؟».

« كلا، لا أصدق كلامك. أريد أن أرى سلاحك قبل دخولك الماء وبعد ذلك أتأكد ما اذا كنت قد ضاجعتها أم لا؟»، أم أنك تخجل هذا اليوم مني؟.. الا نسبح دائما في آوه سبي معاً؟».

نزع ميرزا ملابسه بسرعة، فظهر جسمه الهزيل الذي يتوسطه سلاحه الكبير المتدلي الى ركبته، وقال:

«تفضل افحص، وتأكد».

علّق رمضان كشأنه دائما عندما يسبحان:

«سبحان الله يا ابن عمي ميرزا، هذا ليس سلاح بشر، انه سلاح حمار».

نزل ميرزا الى البركة دون أن يعبأ بكلامه، ناسيا لفافة رأسه التي أنتشر تحتها شعره المستلقي على كتفيه، نبهه رمضان قائلا:

«الجمداني يا ميرزا».

نزع اللفافة والقي بها الى الضفة قائلا:

«لم تقل لي رأيك، هل صدقتني أم لا؟».

كان رمضان قد جلس القرفصاء على مرتفع يطل على البركة منشغلا بلف سيكارة، أجاب دون أن يرفع رأسه:

«طبعا صدقت كلامك. ولكنني لا استطيع أن أجزم أنك فعلت مرتين، المهم أن سلاحك لم يخنك».

قال ميرزا وهو يغسل أدواته ومؤخرته:

«وأنت؟ كيف كان وضعك؟».

«احسن منك، ثلاث مرات»..

«دعي».

«اسألها ان شئت، كبر الحجم ليس كل شيء في الأمر».

عندما عادا الى الخيمة، سأل ميرزا للمرة العاشرة ما اذا كان بقاؤه وبقاء الخيمة هنا ضروريان، أجاب الشيخ زوراب بانفعال وهو يشد حمل بغل:

«لقد قلت ألف مرة أن الخيمة ستبقى هنا، وأما اذا كنت تريد السفر معنا فهيا».

قال ميرزا بأنفة وهو ينصرف:

«لن أترك الخيمة لوحدها، سأبقى هنا».

وكان كريم قد انتهى من شد أحمال البغال التي كلف بها ولما سمع الكلام الذي دار بين أبيه وميرزا تقدم من الاخير قائلا:

« لولا قراري بالسفر لزيارة شيخ البرزنجة، لبقيت الى جانبك يا عمي ميرزا، ولكنني سأرجع اليك قريبا».

كانت فاطمة تساعد سنجان في تهيئة الفطور، فسمعت كلام كريم الذي تعمد في رفع صوته، فالتقت عيناهما وتجمدوا لهنيهة، وردد كريم مرة أخرى بنفس النبرة العالية:

«قسما بالله سأرجع الى هنا قريبا يا عمي ميرزا».

وقالت سنجان كما لو أنها تحدث نفسها: «طبعا يا عزيزي كريم، يجب أن تزور صديقك السيد دائما..» تنهدت فاطمة وتنفست الصعداء، وأما ميرزا فكان قد ترك الخيمة لعدم وجود شيء يشغل به.

وعندما انتهى الرجال من شدّ الاحمال و تعليف الخيول و البغال، كانت سنجان و فاطمة قد

أنتهيت من عمل كومة من أقراص خبز الصاج و إعداد الشاي. وكانت سحابة من الدخان المشبع برائحة الخبز وروث البهائم المحروق، ترتفع فوق الخيمة التي بدأت أضواء الشفق الحمراء والاجوانية تغمر فسحتها. كانت علائم الحزن بادية على وجوه السيد وهابو و فاطمة، وقال السيد:

«هذا اليوم يشبه يوم عيد، إن شاء الله ترجعون بسلامة».

ولأول مرة تتناول جماعة هابو وجماعة الشيخ زوراب طعام الفطور بصورة مشتركة، قال هابو وهو يغمس لفة من الخبز الحار في الزبد الابيض الطري:

«لقد اختلطت دماؤنا وأصبحنا جماعة واحدة».

حين انتهوا من تبادل تحيات الوداع و العناقات الحارة، خيّم عليهم صمت مطبق، وظلوا واقفين في أماكنهم يراقبون القافلة التي كانت تتضاءل ببطء الى ان تلاشت وراء ظلال التلول البرتقالية التي تسيّج الافق الشرقي الغارق في الوان الشفق الزاهية.

وتفرق الكل دون أن يأتي أحد بكلمة. وأمام موقد النار التي زالت متوهجة كانت فاطمة تمسح دموعها.

عندما أطلوا على وادي كفران من على الجبل المنحدر الى النهر مباشرة، كانت الشمس قد ارتفعت فوق جبل قاجر. وكان نهر آوه سبي يشق الشِعْب الجبلي الغارق في ضباب الصباح الازرق ويلتوي مثل ثعبان أسطوري محتضنا أديم الوادي الطويل الذي انحدر جنوبيا. وكانت مجاميع من طيور القبج و البط البري تتقافز و ترفرق بأجنحتها الزاهية على ضفتي النهر مصدراً خليطا من الغناء الذي تردده شعاب الوادي ووهاده.

كانت سلسلة من الجبال الجرداء المتداخلة، أشبه بجدران موازية لبعضها البعض تحد بينهما وبين الوادي، وتبدو للغريب كما لو أنه من المستحيل الوصول اليه. وانبهر رمزي للمنظر، وقال كالمأخوذ:

«ما أجمل وادي كفران، ولكن كيف سنقطع هذه الجدران من الجبال؟».

قال قادر متباهيا:

«اننا نجتاز هذه الجبال طرق خاصة لا يعرفها غيرنا».

أضاف رستم:

«بعد قليل سنصل النهر».

قال رمزي وهو يجيل نظراته من على ظهر حصانه في ارجاء الوادي بانبهار:

«هل هناك أسماك في النهر»؟

أجاب رستم:

«كثيرا جدا، لا تحصى.. لماذا؟»

قال رمزي فرحا:

«لقد جلبت معي شصا، سنذهب اذن الى صيد السمك». نظر كل من قادر وعباس باستغراب، وأما رستم فتساءل:

«تخرج السمك من الماء؟.. وماذا سنفعل به؟»

«سنشوية ونأكله».

تبادل الثلاثة النظرات فيما بينهم، وكان حصان الشيخ زوراب يخب بالقرب منهم فسمع كلامهم، قال وهو يكبح زمام حصانه الذي أراد أن يسبقهم:

«انه لذيذ جدا، لقد أكلته مرة واحدة في حياتي عندما كنت في الجيش، ولكن عظامه لعينة ينبغي الحذر منها».

وأندفع حصانه بسرعة فسبقهم.

علق قادر: «لا شك هناك أشياء كثيرة أخرى يخفيها علينا جدي زوراب انه يعرف كل شيء..»

وبدأت الخيول و البغال تسلك المسالك الضيقة التي تنحدر الى عمق الوادي وهي تسير وراء بعضها البعض في خط متعرج طويل.

أدرك الشيخ زوراب و رمضان أن الملا لا يرتاح لوجود رمزي رغم إنه كان يحاول إخفاء ذلك الشعور. وأعترف رستم نفسه بأن الملا بالمقارنة مع رمزي لا شيء. وأستغرب الشيخ زوراب أن يكون لرجل مثل جهانگير ابنا ذكيا يجادل الملا و يخطؤه في كثير من المسائل. وكان كل هم سنجان أن يكون رستم مثل رمزي، هذا الشاب الهادئ الوسيم الذي لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره، والذي يتكلم بطريقة أخرى لم يعهدوا بها من قبل. ومنذ اليوم الذي وصل فيه رمزي الى وادي كفران تبين لهم كم جاهل هذا الملا الذي يصلون وراءه و يعتبرون كل كلمة يقولها قانونا لا يجوز تغييره. تحسر رمضان لعدم وجود ميرزا الذي كان لا شك سيلطف جو النقاش المتوتر بتعليقاته الغبية، بيد أن ميرزا الان مشغول بزوجته التي هبطت عليه من السماء، وأعادت اليه شبابه.

ومما إسترعى انتباه الكل وزاد من قيمة رمزي هو قوله الحقائق عن ماضي ومستقبل كل فرد عن طريق قراءة الكف، ورغم تأكيدات الملا بأن الغيب لايعرفه الا الله، كان رمزي يثبت عكس ذلك ويقول: «ان الله قد أعطانا العقل، واننا يجب ان نستعمل هذا العقل لنصل الى الحقائق».

وسأل رمزي الملا ما اذا كان يعرف أن يفسر الاحلام، أو ما اذا كان يعرف شيئا عن تحضير الارواح. وكان جواب الملا، كلا: «ان هذا كله يدخل ضمن السحر الذي حرمه الدين».

وكان رمضان يتعمد في اثارة الاسئلة التي كانت تحضره خلال احتدام الجدال، فسأل ذات مرة:

« الى أين تذهب الشمس بعد المغيب؟».

تململ الملا ونظر بعينيه القلقتين الى رمزي:

«هل تريد أن تجيبه أنت».

«كلا، اريد أن اسمع جوابك أنت»..

أجاب الملا معتقدا كعادته أن رمزي سيؤيده هذه المرة بلا شك:

«هناك حوت هائل يعيش في بحر الظلمات الواقع تحت الارض، يقوم هذا الحوت بابتلاع الشمس في كل يوم، ثم يلفضها كي يبدأ نهار آخر».

وانتظر الكل بفضول جواب رمزي:

«لا ياملا، هذا الكلام غير منطقي. ان الارض هي اشبه بكرة معلقة في الفضاء، تدور حول الشمس، وكل دورة تشكل سنة».

ردّ الملا وكأنه عثر على جواب مفحم:

«صحيح، ان الارض هي اشبه بكرة، ولكنها غير معلقة في الفضاء. انها تقف على قرن ثور و الشمس هي التي تدور حولها».

نظر رمضان الى كل من الشيخ زوراب وشيخو وقد ارتسمت على وجهه علائم التهكم:

«حرنا في أمركم يا رجال الدين، واحدكم يقول بأن الارض تدور حول الشمس وآخر يقول بأن الشمس هي التي تدور حول الارض. كيف نعرف الحقيقة من كلامكم؟».

ورأى رمزي أن هذه النقاشات تدخلهم في حلقة مفرغة لا تنتهي، وأن الملا لايقتنع أو لا يريد أن يقتنع بكل ما يقوله هو، بل يظل متمسكا برأيه ومتهما أياه بالزندقة والفساد، الامر الذي كان يزيد في اصرار الشيخ زوراب بعدم تأييد ارسال رستم للدراسة. ولكنه مع ذلك كان يعرف، أنه، رغم ميله لعدم دراسة رستم، فإن وجود رجل عالم في العشيرة مسأله ضرورية، ولا سيما أن سنجان ورمضان وشيخو قد اقتنعوا قناعة تامة بأن الوضع الجديد يحتم عليهم بفتح أعينهم على العالم.

في اليوم الذي ذهبوا فيه لصيد السمك، كانت هناك اسئلة كثيرة تدور في رأس رستم، اذ أن النقاشات الكثيرة بين رمزي والملا قد جعلته يضرب أخماسا بأسداس، وكان يعتقد أن رمزي يستطيع الإجابة على كل شيء، ومما جعله بأن يمنحة ثقته المطلقة هو اسكاته الملا بشكل جعل

الكل يتندرون به حتى أن رمضان قال له بكل صراحة و بتهكم بأن ينزع الجبة و العمامة وأن ينصرف أما للفلاحة أو للرعي.

كان شغل رستم الشاغل هو سر النجوم والقمر والشمس وعالم الارواح الذي يبدأ في الليل، اذ هما يسيران جنبا الى جنب بموازاة شاطيء النهر ومن ورائهما قادر و عباس على بعد خطوات، بحثاً عن مكان عميق صالح لصيد السمك، توقف رستم فجأة وقال وهو يؤشر بيده الى كهف على النهر مباشرة:

«هذا هو المكان الذي حدثتك عنه».

توقف رمزي هو الآخر وهو يبسمل ويقرأ بعض الآيات القرآنية. وعندما أصبح كل من عباس و قادر قريبهما قال الاخير بنبرة فيها خوف:

«في هذ المكان ضرب الجن عمي كريم».

قال عباس دون ان يبدو عليه أي أثر للخوف:

«هيا لندخل الكهف»

ولما اراد التحرك باتجاهه، مسكه قادر:

«هل أنت مجنون يا عه به؟ الا تعرف بأن جدي زوراب قد منعنا من دخول الكهف؟».

علّق رستم آملا أن يحل رمزي المشكلة:

«صحيح، انه قد منعنا من الاقتراب منه ليلا»..

أطبق عليهم الصمت وهم يحدقون في عيني رمزي الذي كان لا يزال يردد آيات قرآنية بصوت خافت غير مسموع، قال بعد هنيهة وهو يسير باتجاه الكهف:

«لقد تلوت آية الكرسي، والان نستطيع دخول الكهف».

قال رستم:

«ولكنني لا أعرف هذه الآية»..

علّق رمزي دون ان يزيح عينيه عن الكهف:

«ستتعلمها فيما بعد، إنها تحمي من كل شر».

عندما بلغوا المدخل راحوا يجيلون نظراتهم في أرجائه. كانت ثمة زاوية مظلمة تبدو مثل نفق عميق، أراد رمزي ان يخطو خطوة أخرى، بيد أنه لمح بريقا صادرا من أعماق النفق المظلم يشبه نجمة بعيدة ثم ما لبث أن تحول البريق الى أربع نجوم تلمع بقوة. توقف جامدا مبهورا في مكانه. ونشر ساعديه حائلا دون تقدم الاخرين. قفز قادر و عباس تاركين الكهف وهما ينظران الى

بعضهما البعض بفزع، قال قادر متلعثما وهو يتنفس بصعوبة:

«هل رأيت؟».

هزّ عباس رأسه بالايجاب دون أن ينطق.

وأما رمزي ورستم فراحا يتقهقران بخطوات وئيدة وهما يتلوان الايات القرآنية، وقد شدّت عيونهما الى النجوم الاربع التي كانت تلمع في ظلام النفق الدامس، وابتعدوا عن المكان بسرعة وهم يلتفتون بين فينة وأخرى الى الوراء.

و بالقرب من صخرة مصطبية ينطح نصفها المياه، تحيطها نباتات عرق السوس، جلسوا يغسلون وجوهم ويشربون الماء. أخرج قادر قرصة خبز، وبعد أن قسمها الى أربعة أقسام متساوية وزعها عليهم. وراح كل واحد يلتهم حصته دون أن ينبس ببنت شفة. كانوا ينظرون الى رمزي الذي ظلّ محدقا في الفراغ و ينتظرون منه أن يقول شيئا. قال بشرود:

«لو كان صديقي صائب هنا لتصرف بشكل آخر».

«صائب؟..من هو صائب؟».

«ستتعرف عليه حين تأتي للدراسة الى كركوك».

ابتسم رمزي بإستخفاف دون أن يزيح الشاردتين عن الفراغ:

«هه، انه يستطيع أن يضعني في جيبه»..

قال رستم وهو ما زال ذاهلا:

«وهل تعتقد أنه كان يستطيع أن يفسر لنا سر هذه الشعاعات؟».

«ربما.. على كل حال، ان هذا الكهف مسكون، كان ينبغي أن نتمسك بكلام الجد زوراب و لاندخله.. أرجو أن لا نكون قد أزعجنا ساكنيه».

حكّ قادر رأسه بعد أن أمال لفافة رأسه جانبا وقال كما لو أنه يحدث نفسه:

«جدي زوراب يعرف كل شيء، ولكننا لا نفهمه إحيانا».

قال عباس محاولا تبرير تصرفه:

«ولكننا لم نحدث أي ضجة حتى يزغل علينا الجن».

كان رستم يرسم بعود رفيع خطوطا متوازية على رمل الشاطيء بحركات منفعلة، مرة سريعة وأخرى بطئية، قال دون أن يرفع رأسه:

«ان ماتعلمته يا رمزي هو أن الانسان حين يبسمل ويردد الآيات الكريمة، فإن الارواح تختفي،

ولكن هذه الارواح التي رأيتها ظلّت تتحدانا دون أن تزول».

هزّ رمزي رأسه ساهما وقال:

«هذا ما أفكر فيه هذه اللحظة. يقول صديقي صائب ان هناك نوع من الجن لا تفيد معه البسملة والايات القرآنية، بل هناك أدعية خاصة لا يعرفها الا الضالعون في السحر»..

قال عباس وعيناه تلمعان بتحد و فضول:

«وماذا سيحصل الان اذا رجعنا اليهم و هجمنا عليهم بخناجرنا؟».

ضحك رمزي وقال:

«لو كان الامر بهذه السهولة لقضى الانسان على الجن وأزاله نهائيا من الوجود. أنظر هذا الماء، هل تستطيع أن تعطنعهُ بخنجرك؟.. وهذا الهواء الذي نتنفسه والذي يتحول أحيانا الى رياح عاتية، هل تستطيع أن تجرحة أو تقضي عليه ليس بخنجرك، بل بنيران البنادق؟».

«هيا يا عهبه، اذهب وأقضي عليهم بخنجرك، حتى نرى حالك فيما بعد».

«ماذا سيفعلون بي باعتقادك؟».

أجاب رستم:

«سيفعلون بك مثل ما فعلوا بأبي، اذ ذاك يجب أن نذهب مرة أخرى الى السيد، ثم إن أحداً لم يمسك يدك، هيا تفضل هذا هو الكهف أمامك».

كانت الشمس تجنح الى المغيب، وكان ضوءُها الذهبي الذي يغمر الوادي قد خفّت حدته، ألقى رستم بالعود في النهر وقال كمن تذكر شيئا مهما:

«لقد نسينا صيد السمك، ان الجدة سنجان والجد زوراب ينتظران منا السمك لعشاء هذا اليوم».

قام رمزي من مكانه وأخرج من جيب سترته القصيرة شصا مربوطا بخيط، وجه كلامه الى قادر قائلا:

«أعطني قليلا من الخبز»:

وراح قادر يبحث في زوايا جيوبه وعبه بحثاً عن الخبز، ثم نظر ببلاده في وجه رمزي قائلا:

«لقد أكلنا الخبز».

علق رستم باستخفاف:

«يبدو اننا سنشبع هذا اليوم من لحم السمك»..

قال عباس:

«اذا رجعنا هذا اليوم الى البيت بدون السمك، فسنتحول الى مهزلة. سيجننا عمي رمضان بتعليقاته».

قال رمزي:

أجاب قادر وهو يناوله كرة بحجم قبضة فرحا:

«كلا، لقد نسيتها».

«الحمد لله».

قال ذلك رمزي وهو يرمي قطعاً من العجين في النهر، تجمعت حولها كمية كبيرة من الاسماك بمختلف الاحجام وهي تتقافر وتتسابق فيما بينها على التقاط نتف العجين. وكان الثلاثة ينظرون باستغراب ودهشة وحيرة الى الاسماك التي تجمعت بشكل لم يسبق لهم أن عهدوا بها من قبل. أراد قادر أن يقول شيئا، بيد أن رمزي لكزه بمرفقه هامسا:

« هسسسسسس، لا تنفر الاسماك».

ثم فرك قطعة صغيرة من العجين وراح يكورها بين سبابته وابهامه مشبكا اياها على شوكة الشص، والقى بها بعيدا في منتصف الحوض العميق الساكن، بينما لف نهاية الخيط على سبابته، وراح يراقب الخيط في مكان التماس بالماء. مرّت هنيهة صمت قطعوا فيه أنفاسهم و عيونهم مشدودة الى الخيط. تحرك الخيط وراح يتوتر. وكان قادر يتوتر هو الاخر مع الخيط. سحب رمزي الخيط ببطء وبيد خبيرة و توتر الخيط فأحس به ثقيلا، قال بصوت خافت:

« انها سمكة كبيرة جدا».

ثم راح يسحب الخيط بقوة و سرعة، وأنبهروا عندما وقعت عيونهم على سلحفاة كبيرة مضطربة، راحت تضرب الفراغ بأطرافها القصيرة، قال رمزي ضاحكا وهو يمسك بالسلحفاة محاولا اخراج الشص:

«هذا يحصل معي دائما».

وحين حررها من الشص والقى بها في الماء واصل:

«اذا رجعت الينا مرة أخرى، فستبقين في اليابسة الى الابد».

لم تعد السلحفاة. وفي فترة قصيرة جدا أصطاد كمية من الاسماك الكبيرة، اذ انه كان يعيد الاسماك الصغير الى النهر، قائلا:

«سنرجع اليك في العام القادم».

قطع رمزي عدة أغصان من شجرة صفصاف قريبة وبعد ان عرّاها من أوراقها، ترك عدة أوراق

في نهاياتها، ثم أخذ يمرر رأس الغصن بغلاصم السمكة مخرجا أياه من فوهتها. وكانت السمكة تنزلق الى النهاية حيث تمسك بها الاوراق.

كان الثلاثة يراقبون حركات يد رمزي بإنتباه و ينظرون الى بعضهم البعض بعيون فيها تساؤل ومرح وفضول. وكانت الكلمات التي يريدون النطق بها كثيرة، بيد أنهم فضّلوا الصمت على الكلام، إذ أنهم في دواخلهم كانوا عبثا يبحثون عن كلمات يعبرون بها عن تقديرهم لرمزي. وحين أراد رمزي أن يخفي الشص في جيب سترته، قال له رستم:

«هل تسمح لي يا رمزي أن أنظر في هذا الشيء الذي يسمونه الشص؟».

وفي طريق العودة، بعد مسيرة قصيرة من الصمت، قال رستم:

«اننا لم نذبح الاسماك يا رمزي، وبذلك تعتبر فطائس تحرّم الشريعة أكل لحومها».

ابتسم رمزي وهو يطمئنه:

«لا يا رستم هذا القانون لا ينطبق على الحيوانات العائشة في الماء. لقد قال الله تعالى في كتابه الكريم: «أُحل لكم صَيْدُ البحر و طعامه متاع لكم وللسيارة».

قال رستم وهو يحس بضآلته أمام رمزي:

«لو تعلمت جزءا يسيرا مما تعرفة يا رمزي:

«ستتعلم كل شيء يا رستم، عليك بالصبر. حين ستقارنني بزملائي الاخرين الذين يكبرونني في المدرسة، سترى انني لا شيء».

علَق قادر:

«اذا كنت لا شيء يا رزمي فماذا نحن؟».

١٣

قضى مردان ليلته عند جهانگير بعد أن عاد شيخو و رمضان وبصحبتهما رمزي الى وادي كفران. وكانت علامات الفرح والانطلاق بادية على كل حركة من حركات جهانگير. كان مردان يعرف أن مبعث هذا الانطلاق هو قطع الذهب التي تسلمها من شيخو. بعد أن تناولا عشاءاً دسما بقيا الى وقت متأخر يتبادلان أطراف الأحاديث الطويلة. وأكد جهانگير مرارا و تكرارا اعتزازه بالشيخ زوراب وعشيرته و بأنه سيعمل المستحيل من أجل الحصول على نوعيات جيدة من السلاح والعتاد، بأنه سعيد جدا لموافقة الشيخ زوراب على الانتقال الى قرية بنعيز رغم وجود مخاطر جدية من قبل عشيرة البابائيين التي راحت تنشر الرعب في المنطقة. وأراد جهانگير أن يثبت له بأن علاقته مع عشيرة وادي كفران تتمتع بخصوصية معينة، فهو بالاضافة الى كونه من أقارب العشيرة المقربين، يعتبر صديقا قديما للشيخ زوراب نفسه فلهما ذكريات مشتركة تعود الى ايام الشباب، بيد أن الايام فرقتّهم، وظل الشيخ زوراب مع ابناء عشيرته معتصمين في جبالهم لا يسمحون بأيجاد أى احتكاك أو علاقة مع الدولة ولم يرسلوا حتى الآن نفرا واحد الى الجيش، ولذلك كانوا دوما هدفا لحملات الجندرمة. وكانت العشائر الاخرى المجاورة تحترمهم وتساعدهم في الاوقات العصبية، ثم راح جهانگير يتباهى بأن والد اليوزباشي كان ايضا صديقهم، وأنه لعب دورا كبيرا في اقناع القائممقام واليوزباشي في قصة الفرمان. وكان مردان يعرف جيدا لماذا يخصّه جهانگير بهذه الاحاديث، فقال:

«يا خالي جهانگير، أنت تعرفني جيدا، انني حين ابدي اخلاصي لأحد فمعنى ذلك انني مستعد كي أضحى بحياتي في سبيله».

ثم أشار الى بندقيته الجديدة التي أهداها اياه شيخو:

«ان اخلاصي لشيخو بك ليس لأنه أشتراني بهذه البندقية، بل لأنه زآرني في كوخي بنفسه وعاملني معاملة لم أعهد بها من قبل، رغم أن موقفي أنا كان أشبه بموقف من يُمْسك به خلال مجامعة الحمار، ودون أن يعرف بأنني من أقاربك في تلك اللحظة منحته ثقتي».

تنفس جهانگير الصعداء:

«أنت لم تخيّب ظني أبا يا مردان، فأنت تعرف مع من تتعامل. وثق ان هؤلاء، اذا حلّت بك مصيبة فأنهم لا مانع لديهم أن يضحّوا بكل العشيرة من أجلك، لأنك الآن قد أصبحت واحد منهم».

هزّ مردان رأسه بفخر وقال وهو يؤشر بيده الى عبه:

«أنني أعرف جيدا مع من أتعامل يا خالي، هل هناك في هذه الايام من يأتمن على شخص غريب ويسلمه حفنة من الليرات الذهبية»؟

أرتسمت علامات الدهشة على وجه جهانگير ومسك خصلة من شعره المسترسل على كتفه بتوتر قائلا بصوت غريب:

«ثق يا مردان، انني الآن أحس بالخجل في داخلي لجشعي أنا، كيف يمكن للانسان أن ينقي ذاته ليكون مثل. هؤلاء؟ ان ألسنتنا تلهج يوميا ألف مرة باسم الله ورسوله، ولكن نفوسنا تبقى غير نظيفة.»

سحب مردان كمية من الدخان وصب بقية الشاي في جوفه وقال:

«يا خالي جهانگير، أنا رأيت وعشت الكثير من الاشياء، لا تزعل اذا قلت لك بان البشر مثل المعادن. الحديد مهما عاملته فانه لا بد أن يصدأ ذات يوم. أنا مثلا لا استطيع أن اكون الاّ لصا أوخادما، واذا سرقت، والله يعلم، لا أسرق الاّ من انسان ظالم، وان اصبحت خادما، فأكون مخلصا، هذا هو جوهري وقد خلقني الله هكذا. أنت مثلا لا تشبع من جمع المال، هكذا خلقك الله».

«كلامك ذهب يا مردان، لقد مضت علينا فترة طويلة دون أن نسهر و نتكلم في مثل هذه الشؤون. نحن بحاجة الى مثل هذه السهرات».

«الذنب ليس ذنبي أنا، أنت الذي لا وقت لك، لإنشغالك المستمر بمجالسة القائممقام واليوزباشي وكريبت أفندي والقولجي وما الى ذلك من هؤلاء الديدان».

«أنهم فعلا ديدان يا مردان، وهل تعتقد انها تشبع، انها دائما تريد المزيد ولا تشبع».

أعتدل مردان في مكانه بعد أن عدّل من وضع بندقيته التي داعبها برفق:

«هل تسمح لي أن أسألك سؤالا واحدا يا خالي»؟

أجاب وهو يصب له قدحا من الشاي:

«تفضل أسأل».

«اذا حلّت بك مصيبة لا سمح الله، وفقدت مالك، فهل يساعدك هؤلاء»؟

ضحك جهانگير بأسى:

«مساعدة من هؤلاء؟.. انهم اذ ذاك سيديرون ظهورهم لي، وربما سيشبعونني ركلا.».

«لماذا تركض وراءهم أذن؟ أنت لست بحاجة اليهم».

اتكأ جهانگير على وسادته متخذا وضعا مريحا وبدا عليه الارتياح من سير الحديث وقال:

«أنت قلت قبل ان الناس مثل المعادن، وكما أنك لاتستطيع الاّ أن تكون لصا جيدا أو خادما مطيعا، كذلك أنا لا أستطيع الاّ أن أكون تاجرا ينشغل بالبيع و الشراء، ولذلك فانا بحاجة الى هؤلاء، وهؤلاء هم بالنسبة لي ليسوا أشخاصاً معينين، بل ادوات تمثل ارادة السلطة، فمثلا اذا تم نقل القائممقام واليوزباشي الى مكان آخر فهما بالنسبة لي سينتهيان، وسأبدا بايجاد العلاقة مع الشخصين الآخرين الذين سيعينان مكانهما. انني أعطيهم اللحم وأدق بالعظم على جباههم».

دمدم مردان هازاً رأسه:

« يا خالي العزيز يبدو أن أمورنا ليست بايدينا، هكذا خلقنا».

كانت علائم النعاس قد بدأت تبدو على وجه جهانگير، قال متثائبا:

«صحيح، هكذا خلقنا يا مردان، أمورنا ليست بأيدينا».

كان كل واحد منهما قد تمدد على فراشه المتكون من لباد سميك مفروش بمحاذاة الجدار، بحيث أصبحا قبالة بعضهما البعض. ولاحظ مردان أن صاحبه قد بدأ يتنفس برتابة ثم سرعان ما راح يرسل أمواجا متنوعة من الشخير. وراح مردان يحدق في ملامح وجه جهانگير الذي بدا له بريئا أشبه بوجه طفل، معدما كدرويش لا يملك سوى أسماله. كانت خصلات شعره قد توزعت على مخدة الريش الاسطوانية، وأما لحيته البيضاء الخفيفة المشعثة التي تحيط بفمه المفتوح فتبعث على الشفقة، كان هو لم يزل يقظا. أحس بشعور غريب من العطف تجاه جهانگير الذي وجد وجهه يختلف كليا عما هو عليه في اليقظة. كان متعلقا بجهانگير منذ الصغر، فعندما قتل ابوه في احدى المنازعات العشائرية، راح يتجول معه في القرى ويشاركه في بيع الخردوات التي يزودهم بها عزرا، ولما أحس مردان أن الناس يحتقرونهما، ويتصورونهما يهوديين، لذلك تركه وعمل راعيا عند أحد الفلاحين الاغنياء ثم خادما عند كبير عشيرة البابائية، ولكنه كان اثناء ذلك يزور جهانگير باستمرار في كوخه الذي بناه في ضاحية السنجق. أما أمه فقد أنقطع عنها نهائيا عندما تزوجت من رجل من غير عشيرته. وعندما ترك جهانگير بيع الخردوات في القرى ووسعَ كوخه واستقر في السنجق، أبدى مردان استعداده للبقاء الى جانبه ومشاركته في عمله الجديد في الخان الذي أستأجره لبيع وشراء الحبوب والمحصولات الصيفية مثل الرقي والبطيخ والطماطة والخيار... كان رمزي اذ ذاك طفلا يحبو بين أكوام الحبوب والبطيخ في الخان. وكان الفلاحون يتقاطرون الى الخان، المكان الوحيد في كل المنطقة، لبيع وشراء الحبوب، ولا سيما في سنوات المحصول الجيد. وكان جهانگير يضع الاسعار كما يشاء. وأتفق مع صاحب الخان ببناء غرف صغيرة فيه لمبيت الفلاحين القادمين من الاماكن البعيدة. وتحول الخان بمرور الزمن الى فندق وسوق ليس لبيع وشراء الحبوب والفواكه حسب، بل مركزا للتجارة بالخيول

والبغال والاغنام والسمن والصوف. وأصبح جهانگير أغنى رجل في المنطقة، بيد أن الغريب في الأمر أنه ظل على نفس وضعه القديم دون أن يصيبه الغرور، وهذا ما جعل مردان أن يبقى عنده، الاّ أن جشعه الذي لا يعرف الحدود واستغلاله حتى لأقرب المقربين اليه، جعل مردان أن يدخل معه في مشاجرات كلامية كثيرة وقد أراد عدة مرات أن يتركه ويذهب الى مكان آخر بعيد، بيد أن حاجته اليه، وكذلك توسلات جهانگير كانت تضطره في كل مرّة أن يعدل عن فكرته، ولذلك لم يجد شيخو صعوبة في كسبه عندما عرض عليه العمل بمعيته.

وها أنه يستقل نهائيا عن جهانگير، هذا الطفل البرئ أو الدرويش المعدم الذي يتحدث الناس عن أمواله الخيالية، انه في كل مكان. اذا احتاج والي دياربكر سيفا عربيا فبإمكان جهانگير تحقيق طلبه في ايام معدودات، واذا اشتهى وآلي الموصل تمر الحلاوي اللذيذ في أي يوم من أيام السنة فبإمكان جهانگير أن يدبره له، إذا اراد القائممقام تبغ خوشناو أو تبغ تاواس فما عليه الاّ أن يلمح بإشارة لجهانگير. لقد مدّ جهانگير خلال العشرين السنة الماضية ذراعه الى كل زاوية في المنطقة، عدا زاوية واحدة لم يستطع بلوغها الا وهي وادي كفران.

تحسس مردان بأنامله قوري الشاي الذي دفن الى نصفه في رماد الجمر الذي ما زال محتفظا بوهجه، ولما أحس به ساخنا صبّ قدحا من الشاي ثم تناول نصف قرصة من الخبز الابيض من السفرة الموضوعة على طبق من الخيش، وراح يمضغه برفق دافعا اياه الى جوفه برشفات من الشاي، لا يدري لماذا ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة وهو يحدق في وجه جهانگير البرئ، وقال كما لو أنه يحدثه في اليقظة:

«ها أن ذراعك قد طال وادي كفران ايضا يا خالي، فماذا تريد بعد؟.. لقد علمتهم على شرب الشاي وإخراج الليرات الذهبية الى النور بعد أن كانت مدفونة في الظلام، لقد حققت ما كنت تحلم به منذ عشرين عاما، اليوم زارك شيخو بك ورمضان وغداً سيزورك الشيخ زوراب بنفسه، فهل هذه هي نهاية طعمك يا خالي؟»

وبعد أن أتى على الخبز وشرب قدحين من الشاي شعر بالخدر في أحشائه، فاتكأ على وسادته وهو ينظر الى السقف المصنوع من أوراق الشجر والاغصان والجذوع التي اسودتّ بفعل دخان الموقد. وتذكر كوخه، ثم التفت مرةً أخرى الى وجه جهانگير الذي كان لا يزال بريئا..

لو لم تكن جشعا، لكنت انسانا آخر يا خالي. كانت حجتك دوما هي أن تجعل رمزي سعيدا، وتوفر له كل المستلزمات كي يكون قائممقاما أو ضابطا كبيرا، ولكن رمزي كما يبدو لا يريد أن يكون لا هذا ولا ذاك، انه هو نفسه لا يدري ماذا يريد، ولا شك أنه سيتيّه المشيتين، فهو ليست له أي رغبة في أن يكون تاجرا، وهو يكره كل ما له صلة بالتجارة والمال ويرى أن هؤلاء الموظفين هم بنات آوى، نعم هكذا كان يتكلم رمزي معه حين كانا يعملان معا في الخان.. لا، لا، يا خالي

جهانگير، ان رمزي خلق من طينة أخرى، وان لم نمت فسنرى ما يكون.. وفكّر في شيخو..

شيخو ابن الشيخ زوراب الذي ظل حتى هذه اللحظة لا يعترف بجهانگير وجاهه ونفوذه في السنجق، شيخو، هذا الذي افحم جهانگير بليراته الذهبية، هذا المعروف بجرأته اللامتناهية وتحديه لكل ما يتعلق بالسلطة والدولة، هذا الذي لم يقدم حتى هذه اللحظة نفرا واحدا من ابناء عشيرته للعمل في صفوف الجيش، شيخو، الرئيس الرسمي لعشيرة وادي كفران الذي أغرق القائممقام وحاشيته بالهدايا، شيخو، الذي لم ينحن أمام القائممقام كرؤساء العشائر الآخرين، الذين جاءوا اليه فيما بعد وهم لا يستطيعون التحديق في عينيه الصقريتين خجلا وهو يقول لهم مرفوع القامة: «ماذا دهاكم؟.. منذ متى وأنتم تنحنون أمام غرباء لا تعرفونهم يا أغوات گرميان؟».. شيخو، هذا الذي أعتصم في وادي كفران مثل الاسد، ولم يتركه الاّ بارادته، شيخو هذا الذي لم يقترب من أراضيه أي فرد من أفراد العشائر الاخرى سواء من العرب أو التركمان أو الاكراد، شيخو هذا يأتي اليك يا مردان بملء ارادته في كوخك الحقير ويهديك بندقية سي تير جديدة مع كومة من الخراطيش ويطلب منك أن تكون مخلصا له وتساعده في تدبير السلاح حتى يدافع به عن عشيرته، يا مردان؟.. من أنت يا مردان كي يأتي اليك شيخو بهذا الشكل؟..

وقفز من مكانه كما لو أنه صحى من حلم، جلس فاركا عينيه وهو يبتسم وقد ملأه الاعتزاز والفخر بشكل لم يسبق له مثيل، وقال كما لو انه يحدث شخصا:

«سأهزّ لك الارض هزاً يا شيخو بك، وسيتحول كل جزء من كياني الى سلاح لك يا حبيبي، سأبرر ثقتك بي، وسترى مع أي رجل تحالفت».

لقد تعود ان يسهر ليلا وينام في النهار كأي بوم، وأجتاحته رغبة في القيام بأي عمل تحت جنح الليل. وكانت بندقيته الجديدة تغريه للقيام بمغامرة وأي مغامرة. وفكر في كيفية تدبير السلاح لشيخو الذي منحه ثقته المطلقة. ومرت في ذهنه عشرات الافكار والخطط لتدبير ذلك بدون الشراء، بيد أن شيخو أصرّ بأنه يأبى إلاّ أن يشتريه بالمال. وفجأة قدحت في ذهنه فكرة، وقام من مكانه بحركة لا ارادية. لف وسطه بحزامه الطويل عدة لفّات، ثم لف رأسه بالمشكي البنفسجي الداكن وتنكّب البندقية. وقف هنيهة ينظر في جهانگير الغارق في النوم، وقال بصوت خافت:

«خالي جهانگير»..

كان جهانگير غارقا في نومه العميق، والليل لم ينتصف بعد، والقمر يغمر كل شيء بشعاعه الفضي. وكان متأكدا أن صاحبه مراد جاووش ما زال الآن ساهرا سواء في مركز الشرطة أو في بيته، فهو كمسؤول أول عن الأمن، ولا سيما في الليل لابد أن يسهر مثله طيلة الليل أو الجزء الاكبر منه للاشراف على كل شيء بنفسه، والاّ من يدري، فالهجمات المستمرة التي يقوم بها اللصوص

وابناء العشائر على مراكز الشرطة والمخافر وحتى وحدات الجندرمة قد تكون مدبرة بالاتفاق مع أفراد الشرطة أو الجندرمة أنفسهم. كم من مرةَ أعترف تحت التعذيب هذا أو ذاك من اللصوص بأنه كان قد اتفق مع هذا أو ذاك من أفراد الشرطة، واذ ذاك تختلط الامور ويضيع رأس الخيط، فلا يعرف البرئ من المذنب. ثم أن الامور اذا جرت تحت اشرافه هو شخصيا تكون نهايات الخطوط كلها بيده، واذ يعرف كيف يوجهها ويستفيد منها، هو الثعلب القديم والمسلكي الاساس الذي مضى عليه اكثر من عشرين عاما والذي يعرف كل شبر في المنطقة. وتوطدت علاقتهما منذ أن كان يعمل في الخان، اذ أن مراد جاووش هو أحد الضيوف المزمنين والمدللين في مجالس جهانگير. وكان قد أبلغ مردان عدة مرات انه اذا احتاج السلاح لأحد من أصدقائه أو من معارفه من الذين لا خوف عليهم من التمرد على الحكومة، فانه يستطيع أن يوفر له ذلك، اذ ان هناك اسلحة كثيرة صادروها خلال المعارك التي تحدث عادة بين العشائر المختلفة، ولكن ينبغي أن يبقى ذلك سرا فيما بينهما فقط.

قال مردان في سره وهو يفكر كيفية تدبير هدية بسيطة لمراد جاووش، لأنه لم يعتد على زيارته بيد فارغة: «سيبقي ذلك سرا فيما بيننا يا مراد جاووش، حتى الجهة التي تريد السلاح سأخفيها عليك...».

أدار عينيه في أرجاء الحوش الواسع الغارق في ضوء القمر. كانت الاغنام المتلاصقة ببعضها البعض غيمة هابطة من السماء، وفي نهاية الفناء ربطت الخيول والبغال. وكان ثمة سور واطئ يعزل المضيف عن الحوش، جثم عليه خط طويل من الدجاج. وقع نظره على دجاجة سمينة حجزت لنفسها مكان يعادل مكان فروجين. انحنى وراء السياج ومدَّ يده بخفة ماسكا بها من عنقها، قاطعا عليها طريق أي محاولة لأحداث ضجيج لا داعي له في مثل هذا الوقت المتأخر. وقال في نفسه: «هذه مزةٌ جيدة لا يستغني عنها مراد جاووش الذي يقول دائما: ان العرق يخدش البلعوم بدون المزةَ، وأحسن مزةَ هي الدجاجة المحمَّرة، لدجاجات جهانگير طعم خاص لا يضاهيه طعم أي دجاج في العالم..».

قبل أن تسأله الدورية الى أين هو ذاهب، بادر هو فسألها ما اذا كان مراد جاووش يسهر في البيت أم في المركز هذه الليلة فأعلموه أنه يسهر مع كريبيت أفندي في المركز. حين وقعت عيونهما عليه، وهو يمسك بالدجاجة بصورة قطعت عليها كل نأمة، غرقاً في الضحك وكان قد استبد بهما السكر.

قال مراد جاووش وهو يقوم من مكانه ليعانق مردان:

«كيف عرفت يا مردان بأن مزتنا قد أنتهت؟»

ثم وجهَ كلامه الى كريبيت أفندي: «هذا مردان يا كريبيت أفندي، انه لص يستطيع أن ينزع الكحل

من العين، ولكنه لا يسرق، واذا سرق فانما سرقة بريئة يجلبها لنا حتى نصنع منها مزةً».

ولاحظ مردان من الاطباق والصحون الفارغة أن المزةَ قد انتهت فعلا، وقبل أن يسحب خنجره من وسطه ليذبح الدجاجة، مدّ مراد جاووش يديه الكبيرتين، بعد أن انحنى بجسمه الضخم ومسك الدجاجة التي راحت تخفق بجناحيها، قال وهو يطلق سراحها:

«لا شك انك قمت بفعلة شنعاء ايتها الدجاجة، والاّ لما القى عليك مردان القبض». قال كريبيت وهو يصب العرق في وعاء فخاري دفعه الى مردان:

«فعلتها الشنعاء هي أنها سمينة».

وراحت الدجاجة تبحث عما تقتات به في ضوء الفانوس...

قال مردان وهو ممسك بخنجره:

«هل اذبحها أم تريد أن تحتفظ بها؟»

«اني اشم منها رائحة جهانكير.. كيف يمكن للمرء أن يحتفظ بمثل هذا الشيء؟»

وبعد أن فصل مردان رأسها، رآحت تتقافز في مكانها، وأشرّ مراد جاووش الى الشرطي الشاب الذي يخدمهما بالاسراع في طبخ الدجاجة وجلب ما يمكن جلبه من المزةً. رفع مراد جاووش وكريبيت كأسيهما وهما ينظران الى مردان بأنتظار أن يرفع هو الآخر كأسه، بيد أن هذا نظر بشيء من الخجل الى وجه مراد جاووش كما لو أنه يرجو أن يعفيه من الشرب. كان بين آونة وأخرى حين لا يجد مراد جاووش من ينادمه السكر يدعو مردان الى مجلسه. وقبل أن يصاب جهانكير بآلام حادة في معدته كانا يشربان بصورة منتظمة. قال مراد جاووش بلهجة آمرة:

«أشرب يا مردان، ان كريبيت افندي ليس غريبا، انه من أعزّ أصدقائي».

رفع مردان هو الآخر كأسه فارغا أياها في جوفه ثم راحوا يعالجون الخدش في بلاعيمهم بحبات الفول المسلوق الكبيرة. وعندما أراد كريبيت أفندي أن يفتح زجاجة أخرى، أشرّ اليه مراد جاووش بالاكتفاء من الشرب هذه الليلة، وعقب قائلا أن درجة السكر يجب أن تقف عند المرحلة الاسدية والاّ فانها اذا وصلت الى درجة الخروفية، فان أتفه لص يستطيع أن يفعل بهم ما يفله الذئب بالخروف. كان بيت مراد جاووش ملاصقا بالمركز ويقع وراءه مباشرة، وكانت ثمة فتحة يجري من خلالها تمرير الصحون والاواني، وعندما أنتهوا من الشرب، جلب الشرطي الشاب صحنا كبيرا يحتوي على ثريد الخبز المشبع بالمرق يتوسطه رأس خروف تحيط به الاطراف، يتصاعد منه بخار معبّق بأريج التوابل المشهية. وشعر مردان بلعابه يرطب لسانه وقال:

«لو أدري أن مثل هذا الطعام موجود، لما ذبحت الدجاجة».

مد مراد جاووش يده الى اذن الخروف قائلا:

«لا يا مردان، بالعكس، ان الدجاجة اذا لم تذبح فانها ستضعف».

عندما ذهب كريبت، طلب مراد جاووش من الشرطي أن يذهب هو الاخر الى بيته، على أن يثبت وجوده في المركز قبل العاشرة صباحا. وعرف أن مجئ مردان اليه في هذا الوقت ليس بدون سبب، وضع أمامه قدح الشاي وقال:

«هيا تكلم الآن يا مردان، هل يحتاج جهانگير شيئا معينا؟»

وحين بلغه مردان بأن زيارته ليست لها علاقة بجهانگير، انما جاء كي يشتري منه ما لا يقل عن عشر بنادق نقدا، وضع مراد جاووش قدح الشاي على المائدة، وقال:

«هل تمزح معي يا مردان؟»

«كلا يا مراد بك، أنا لا امزح معك، أنا فعلا اريد السلاح»..

قال مراد جاووش وقد زالت علائم السكر من وجهه المنتفخ الاحمر:

«لقد طار الخمر من رأسي يا مردان، قل لي هل تريد أن تشكل بهذا العدد من السلاح سرية من الجتة؟.. وضد من تريد أن تنتفض؟.. عشر بنادق في أمرتك أنت؟.. هذا يعني أنك ستحتل كل المنطقة».

قال وهو يعدل من جلسته على الكرسي الخشبي وقد أنطبعت على وجهه ابتسامة طفولية مرحة:

« يا مراد بك، أنا لا أريد أن اشكل سرية ولا اريد أن احتل أي منطقة، ولماذا أحتل المنطقة؟.. انك اذا سجلتها كلها باسمي والله يعلم سأرفضها. لقد قلت لي أكثر من مرةً بأنك تملك فائضا من السلاح المصادر ولك رغبة في بيعه لأبن حلال، وها أن ابن الحلال جالس معك، فاذا وصلت الامور الى هذه الدرجة بحيث بدأت تشك بي أنا، فأنا اسحب كلامي.».

«أنا قلت لك يا مردان بأنني أستطيع أن ازودك بقطعة أو قطعتين، ولكن ليس بترسانة».

«اذا كانت عشر بنادق تشكل في نظرك ترسانة، وعليَّ أن أحصل عليها سواء من عندك أو من غيرك».

رأى مراد جاووش أن مردان يتكلم بكل جد، فأستفسر بفضول:

«ومن أين لك النقود؟» قال مردان بزهو:

«سأدفع بالذهب الخالص»..

أبتسم مراد جاووش وسحب من علبة أنيقة سيكارتين، قدم احداها لمردان وبعد أن أشعلهما بولاعة وسحب كمية من الدخان من سيكارته قال بارتياح مازحا وهو يضع ساقا على ساق:

«هل قتلت يهوديا يا مردان؟»

قال مردان هو الآخر مازحا:

«هل أبدو قاتلا؟»

«كلا، كلا يا مردان.. انني استطيع أن ادبر لك ما تحتاجه من السلاح والعتاد، ولكن يجب أن أعرف أين ينتهي المطاف بهذه الاسلحة».

«هل من الضروري معرفة ذلك؟»

هزّ مراد جاووش رأسه بأصرار وأجاب:

«ضروري جدا، يجب أن أعرف ذلك لنفسي فقط»

«أريده للشيخ زوراب».

قال وقد داهمته المفاجأة:

«ولماذا تخفي ذلك علي؟.. أنا لا مانع لديَ أن يمتلك الشيخ زوراب هذه الكمية. انه يستحق أكثر من ذلك، ولكن هل كلفك هو لمفاتحتي؟»

قال مردان وهو ينفي ذلك بصورة قاطعة:

«أعوذ بالله، لا أحد يعرف انني فاتحتك بهذا الموضوع، سوى الله وحده فوق رؤوسنا».

علق مراد جاووش وهو يتنفس الصعداء:

«هكذا هو الصحيح، السر الصحيح هو ما يبقى بين أثنين فقط».

قام مراد جاووش من مكانه ببطء وتوجه بخطوات متعثرة الى أحدى الزوايا، وبعد أن قضى حاجته عاد وقال واقفا:

«مردان، ان الشيخ زوراب يحتاج فعلا الى السلاح، أنا في الحقيقة لا أدري ما اذا كان القائمقام يقصد مصلحتهم بمنحهم الاراضي المتاخمة لبنعين، أم أنه ورطهم؟.. هناك اضطرابات في مناطق دياربكر، ولقد أستدعى الوالي كل من القائمقام واليوزباشي. وجرت عدة اعتقالات في كركوك».

لاحظ أن علائم الخوف والقلق بادية على وجه مراد جاووش فقال مطمئنا أياه:

«نارهم تأكل حطبهم. انك اذا أحسست بأي خطر فأبواب وادي كفران مفتوحة أمامك».

«أنا لا أخاف شخصيا من أي شيء، ولكن الاضطرابات لا تؤدي الاّ الى الدمار والعداوات، وهناك فئات تستغل هذه الاشياء كي تسرق وتعتدي، وهذه كلها تخلق لنا المتاعب، واذ ذاك نتحسر على النوم في البيت أو التمتع بمثل هذه الجلسة، فمثلا انني منذ اليوم الذي سافر فيه القائمقام واليوزباشي يجب أن أنام في المركز».

عندما عاد مردان الى المضيف، كان جهانگير لا يزال نائما، وكان مكان الدجاجة المفقودة قد أحتل من قبل دجاجة أخرى. تمدد في فراشه بارتياح تغمره نشوة نصر لم يعهدها من قبل. وكان بوده لو يطير الان الى شيخو ويسر اليه الخبر المفرح. عشر بنادق روسية وهولندية ومسدس وبلي. أحس بالنعاس، أدار قرص الفتيلة مخففا لهب اللمبة الزيتية ثم نفخ فيها وأستسلم للنوم.



١٤

كانت الشمس لم تختف بعد، حين لمح شيخو من بعيد نقطتين سوداوين احداهما أكبر وهما تتحركان بإتجاه قرية بانشاخ، قال موجها كلامه الى أخيه كريم الذي كان واقفا على مبعدة خطوات منه، وهو لا يزال يدقق النظر في النقطتين اللتين كانتا تقتربان ببطء:

«كريم، أنت عيونك أقوى، هل تستطيع تشخيص هذين القادمين الينا؟..»

كان شعاع شمس الغروب الساقط مباشرة على العين تعرقل تشخيص النقطتين اللتين كانتا تتحركان في الجانب الايمن من القرص الاصفر الغارق في لجة من اللون الاحمر القاني، رفع كريم يده حاجبا الضوء الساقط على عينه، وقال:

«هذا مردان».

«الآخر بغل. ويبدو أنه يحمل حملا ثقيلا..»

قال شيخو بإستغراب:

«حملا ثقيلا؟.. ماذا تراه جلب لنا؟»

أجاب كريم ساخرا:

«ربما مدفعا».

لم يتكلم شيخو، وكان يعرف أن كريم لا يثق بأحد من خارج العشيرة. وكان كل من الشيخ زوراب ورمضان مشغولين بجبر رجل مكسورة لشاة في الحوش عندما أخبرتهما سنجان بوصول مردان. قال الشيخ زوراب وهو يشدّ حزمة القصب المجدولة والمبطنة بالعجين وصفار البيض حول المنطقة المكسورة من الرجل التي مسكها رمضان بقوة:

«إن شاء الله خير».

أضاف رمضان وهو يمسك بقوة بالشاة:

«يبدو أن هذا الذي حسبناه ضراطا يريد أن يثبت لنا عكس ذلك..»

عندما أنتهى الشيخ زوراب من الشد ضرب على مؤخرة الشاة التي تحررت من قبضتي رمضان، وقال:

«لو لم تكوني أنثى لكان مصيرك القدر».

ثم قاما من مكانيهما متوجهين الى حيث شيخو وكريم. وظل الجميع واقفين أمام البوابة. وكانت الارض قد رشتَ بالماء وفرشت في خطين موازيين للجدار بالسجاد والكليم كالعادة، يتوسطهما موقد الشاي. كانوا ينظرون بفضول واستطلاع الى ملامح مردان المنشرحة، والابتسامة الطفولية لا تفارق وجهه المدور الممتلئ. قفز من على ظهر حصانه المتصبب عرقا، وكان أثر حر الظهيرة ما زال باديا عليه رغم الهواء المنعش المتصاعد من أعماق الوادي.

تقدم منه شيخو قائلا بفضول:

«حملك يثير الانتباه يا مردان».

أجاب بزهو:

«لقد جلبت لك ما كلفتني به، ولكن أرجو أن لا يعرف رمزي والاولاد بمحتوى الحمل». عانقه شيخو بقوة وهو يكاد لا يصدق ما سمعه، وقال:

«هكذا بسرعة يا ابن أبي؟»

«الامور يجب أن تسير بسرعة يا شيخو بك».

أمسك شيخو بزمام الحصان والبغل وأخذهما بسرعة الى الحوش. ونظر كل من الشيخ زوراب ورمضان الى بعضهما البعض بإستغراب ثم التفتا في آن واحد الى حمل البغل الذي اجتاز البوابة خببا. وراحوا يعانقونه بحرارة. وبعد أن أفرغ مردان طاسة اللبن الكبيرة التي قدمها له كريم في جوفه تنفس بإرتياح وقال وهو يشم الفراغ:

«هل هنا عندكم في القرية من يأكل السمك؟»

ضحكوا بعد أن كانوا ساهمين وهم بين مصدق ومكذب لمحتوى الحمل الذي صعقهم، قال الشيخ زوراب مازحا وهو منشرح الأسارير:

«لقد علمنا جهانگير على شرب الشاي، وها هو أبنه رمزي، صديقك يريد أن يعلمنًا أكل السمك. وهو يقوم بعملية الطبخ بنفسه مع الاولاد».

علَق كريم بودّ بعد أن غير رأيه حول مردان:

«لا تخف مردان، هناك طبخة أخرى اعتيادية. اننا سنتذوق السمك هذا اليوم، لنر ما اذا كنا نستطيع استساغته».

«أنا محظوظ اذن، وصلت في اللحظة المناسبة. لقد علمنّي جهانگير منذ الصغر على أكل السمك».

قال رمضان:

«ان لم نمت فسنتعلم أشياء كثيرة أخرى».

قال رمزي وهو ينتهي من قلي آخر سمكة:

«انك يجب أن تتعلم كل أنواع الطبخ قبل بدئك بالدراسة عندنا يا رستم والاّ ستموت جوعا».

قالت سنجان وهي تنظر الى كومة السمك المقلي بتقزز:

«هذه ليست أكلتي، من لم يتعلم على الاكل بالملعقة منذ الصغر، يمدها الى أنفه».

قال رمزي وهو يؤشر الى سمكة كبيرة محمرّة:

«يا خالتي، ذوقيها مرة واحد على الاقل، انها مذكورة في القرآن».

هزهت رأسها بالنفي:

«لا يا ابني، انها ليست أكلتي».

وقبل أن ينقلوا الاطباق الى الرجال، أتى قادر على سمكتين. أما عباس فكان حذرا جدا من العظام، رغم أن رمزي قد طمأنهم بأنه قد قلّي السمك الى درجة أنه يمكن طحن العظام ايضا.

وأكل مردان بشهية مؤكدا بأن السمك انما يتناوله الموظفون الكبار والآثرياء، وأما رمزي فقال أن النبي العربي صلى الله عليه وسلم كان يأكل السمك ويوصي بأكله، ولا سيما من قبل الرجال.

هز رمضان رأسه وهو ينظر بحذر الى رأس السمكة ويردد:

«ولا سيما من قبل الرجال، ان لك اذن مفعول البصل».

ونبهه رمزي بأنه اذا أراد أن يأكل الرأس، فعليه أن يتجنب الخياشيم. وأستفسر رمضان ما اذا كان هذا الجزء حراما مثلما عليه الأمر بالنسبة الى الضبع الذي يؤكل نصفه ويرمي بالنصف الآخر. وقبل أن يجيب رمزي، طلب الشيخ زوراب من رمضان أن يأكل ويسكت ويترك الولد هو الآخر يتناول عشاءه بدون ازعاج. وبدا على وجهي كل من الشيخ زوراب وشيخو أنهما استطابا الطبخة. وأما كريم فكان يأكل، ولكن ليس بإعجاب. ورداً على ما قاله الشيخ زوراب أكد رمزي بأنه لا ينزعج من الأسئلة، وأصر بأن الضبع كله حرام ولا يجوز أكل أي جزء منه.

لم يتكلم رمضان، ولكنهم عندما انتهوا من تناول العشاء وغسلوا أيديهم بالصابون بناء على طلب رمزي، ذلك أن رائحة السمك لا تزول الاّ بالصابون، اتكأ رمضان على وسادته بعد ان اشعل لفافة، قال:

«يا ابني رمزي، سواء أكان الضبع حلالا أم حراما فاننا قد مرّ بنا زمان كنا لا نعرف فيه غير لحم الضبع والثعلب، لقد جربنًا كل أنواع اللحوم عدا لحم الذئب، يمكنك أن تسأل والدك».

قال مردان وكأنه يذكره بشيء مهم:

«والدعلج؟»

«هذا لحمه دواء». أجاب رمضان:

قال الشيخ زوراب:

«انني يجب أن أمدح رمزي، كنت لا أعرف أن آوه سبي يحتوي على مثل هذا السمك اللذيذ. مثل هذا الطعم ذقته مرة واحدة في حياتي عندما كنت شابا لم أتجاوز العشرين. وكنت اذ ذاك في طريقي الى دلتاوه لبيع التبغ وشراء التمر بثمنه. وفي الطريق أنتهى طعامي وبقيت نهارا كاملا بدون طعام. وكانت الثعالب التي تتراءى من بعيد، صعبة المنال، ثم أنها كانت أسرع من اطلاقاتي الرديئة..»

قطع الشيخ زوراب حديثه هنيهة كما لو أنه يريد أن يتذكر بقية القصة، منشغلا بتنظيف غليونه وتعبئته بالتبغ وسعل. في هذه اللحظة أراد عباس أن يقول شيئا في أذن رستم، بيد أن قادر لكزه بمرفقه أن يسكت ويستمع الى قصة جده. وواصل الشيخ زوراب:

«تصورت انني سأهلك من الجوع في تلك الصحراء اللانهائية التي يسمونها الفرقة، ولكنني عندما تذكرت قصة جدنا ناله گورگه الذي قطع نصف تلك المناطق حاملا حمل حماره المتخاذل على ظهره، خجلت من نفسي، وواصلت سيري محاولا نسيان الجوع الذي كان ينهش معدتي. أنكم لا تستطيعون أن تتصوروا الجوع الحقيقي، انه أشرس من الذئب. كنت في ذلك اليوم مستعدا أن آكل أي شيء. وعندما غابت الشمس بدأت أتفاءل، فمعظم الحيوانات تظهر عادة في الليل، ولكن كان ينبغي عليَّ أن انتبه وأحصل على صيدي قبل حلول الظلام. وإذ أبحث بعيوني في كل إتجاه وقع نظري على ضب كبير وسمين بحجم هرّة. القيت نفسي من على ظهر بغلي كما لو انني عثرت على ذهب. كنت قد سمعت من بدوي صديق لي كان يشتري مني التبغ، بأن العرب يأكلون الضب، وأن لحمه لذيذ وهو سهل الصيد...».

سكت الشيخ زوراب مرةً أخرى كعادته حين يروي مثل هذه القصص. وكانت العيون كلها مشدودة اليه، منتظرة بلهفة ما سيأتي. وكان رمزي قد قطّب حاجبيه، يحدق في عيني الشيخ زوراب، وواصل:

«تقربت منه بحذر، ومسكته بخفة من رقبته. ولم يأت المسكين بأي حركة وبجرّة واحدة بخنجري فصلت رأسه من جسده ثم سلخته وأبعدت أحشاءه الداخلية القليلة. كان لحمه أحمر فاتحا يغطيه الشحم في بعض أجزائه. وعندما بدأت بشويه على النار تصاعدت رائحة أسالت اللعاب في فمي. ما زلت أتذكر تلك الرائحة النفاذة. وتهالكت على اللحم كمن لم يذق في حياته لحما. لقد كان لذيذا جدا. والحق يقال كان سمك رمزي ألذ».

وأحس رمزي بالسعادة تغمره، ولكنه ظلّ ساكتا ومندهشا لما سمعه بخصوص لحوم الحيوانات الوحشية، وأختلطت عليه أمور الحلال والحرام، لقد حدثه أبوه ذات مرّة بأن بعض العشائر الكردية تأكل لحوم الدببة، ولما سأله عن مكان هذه العشائر، قال إنها تسكن في زاوية بعيدة من كردستان بين الجبال الوعرة التي لا يصلها حتى الشياطين.

قال مردان موجها كلامه الى رمزي:

«هل رأيت يا إبن خالي؟.. هنا ترى العجائب. كم مرّة قلت لك ينبغي عليك أن تزور أقاربك في الريف وتريح نفسك من حسابات الخان؟».

حين استعرض مردان البنادق واحدة تلو الاخرى أمام أنظار كل من الشيخ زوراب ورمضان وشيخو وكريم، ظلوا يراقبون حركات يديه السريعة بدهشة وهو يشرح لهم كيفية استعمالها. وكانت العشيرة كلها تملك خمس بنادق فقط، تركوا واحدة منها عند ميرزا. وكانت كلها لا تعادل، كما قال الشيخ زوراب، بندقية واحدة من هذه التي جلبها مردان. وأحس مردان، ولا سيما في تلك اللحظات التي أراهم فيها المسدس الويلي، بزهو لم يعهده من قبل. وأتفقوا فيما بينهم على أن يحمل شيخو المسدس. ومما زاد في استغرابهم انه اشترى كل هذا السلاح بنصف كمية الذهب. وعندما أراد إرجاع البقية، طلب منه الشيخ زوراب أن يحتفظ بها عنده، ليشتري بها السلاح عند توفره، اذ أن اخبار الاضطرابات لا تبشر بالخير. كما وقرروا أن يخرج مردان غدا مع الاولاد ويعلمهم على استعمال السلاح.

كان كل منهم قد تنكب بندقيته مزهوا كما لو أنه يملك الدنيا، عندما انحدروا الى الوادي. وكان مردان ينظر حواليه مستطلعا، وأخبرهم أنه سبق أن جاء الى وادي كفران عندما كان صغيرا بصحبة خاله جهانگير، وأنه يتذكر بعض المناطق كالحلم، ثم راح يبحث عن مكان ملائم لإستعمال السلاح وضرب الاهداف. وكان الاولاد قد أتفقوا فيما بينهم على أن يستدرجوه الى مكان الكهف فمفاتحته بقصة الشعاعات الاربعة، وأتخذ رمزي على عاتقه مهمة المفاتحة. وساروا بمحاذاة الشاطئ شمالا. وكانت الشمس قد ارتفعت شبرين فوق جبل بازوخ، قال مردان وهو يرى من بعيد مجاميع البط وبعض الغزلان في الجانب الثاني من النهر:

«أمس، كان عشاؤنا السمك، واليوم سنرجع إمّا بكمية محترمة من البط أو بغزال».

قال رمزي مستجيبا لنظرات رستم وقادر التي كانت تحثه للمبادرة بالكلام:

«كاكه مردان، عندنا مشكلة، اذا لم نحلها لا نستطيع القيام بأي عمل آخر».

توقف مردان بصورة لا ارادية مستفسرا بدهشة:

«مشكلة؟..»

«لقد رأينا يوم أمس أوراحا في وضح النهار. ولم تتلاش رغم آية الكرسي والآيات الاخرى التي رددناها، بل ظلتّ تحدق فينا. هل يمكنك أن تساعدنا في دخول الكهف مرة أخرى؟»

كان مردان يكرر دائما أمام رمزي حين كانا يعملان معا في الخان، أنه لم ير في حياته جنا أو شبحا وأنه يتمنى أن يرى مثل هذا الشيء حتى يهجم عليه ويمسه بيديه. ردد مردان:

«أرواح داخل الكهف.. وكيف كان منظرها؟»

«كانت تلمع في الظلام.. اربعة اشعاعات تشبه النجوم».

وأيد الثلاثة كلام رمزي مكررين، أنهم ايضا رأوها.

وحين بلغوا الكهف، وقف الاولاد وهم ينظرون بوجل الى البوابة الصخرية المحفورة في أسفل الجرف المائل، أشار مردان بيده: «هنا في هذا الكهف؟» أجابوا كلهم بنعم، قال وهو يصعد الطريق الصخري المؤدي الى الكهف:

«أبقوا أنتم هنا، سأدخل وحدي..»

قال رمزي مفتخرا بصاحبه:

«ان مردان عفريت أصلي لا يعرف الخوف».

علق قادر وهو يتابع بقلق مردان:

«ولكنني أستغرب منك يا رزمي، انك في السنجق دخلت المزار ليلا دون أن يرف لك جفن».

«إن ما أدخل الرعب في قلبي هو انني قرأت آية الكرسي دون جدوى، علما أن جملة واحدة من هذه الآية كفيلة بطرد أي عفريت مهما كان..»

خرج مردان بعد هنيهة وهو يمسك ببندقيته من وسطها بيده اليمنى، وقال ضاحكا:

«انها ليست أربعة يا أصدقائي، انها ستة...»

كانوا قد جمدوا في أماكنهم وهم ينظرون الى مردان بإستغراب ثم راحوا يتبادلون النظرات بتساؤل. جمع مردان كمية من الشوك والعشب اليابس، وطلب منهم أن يفعلوا مثله، وأن يأتوا اليه حيث البوابة. وعندما جمعوا كومة من القش والحطب اليابس، راحوا ينظرون اليه بإنتظار ما سيفعله. أجال مردان عينيه الضيقتين تحت حاجبيه الكثيفين في وجوههم القلقة، وإبتسامته الطفولية ما زالت مطبوعة على قسمات وجهه المنتفخ المدور ثم توقفت عيناه عند رمزي قائلا:

«لنر من الذي يستطيع أن يخرج هذه الارواح من مكامنها في الكهف، أنت درست عند الملاّ وتعلمت السحر، وأنا لم أدرس ولا استطيع فك كلمة واحدة من أي كتاب..»

«أنا أقر بأنني الآن مكتوف اليدين، لا أستطيع عمل أي شيء».

«وهل سنرآها نحن؟»

هزّ مردان رأسه بالايجاب:

«طبعا سنراها كلنا».

وسرت قشعريرة في نفوسهم وكل واحد منهم يرسم في ذهنه صورة معينة لما سيأتي، وهم يراقبون بأهتمام وصمت مردان الذي أخرج من جيبه ولاعة، وبعد أن أشعلها راح يضرم النار في العشب، وعندما تصاعد اللهب أطفأه قائلا:

«أنا لا أريد اللهب، بل أريد الدخان، ان هذه الارواح سأخرجها بواسطة الدخان».

أراد رمزي أن يقول شيئا، بيد أنه فضل الصمت وهو يتذكر صديقه صائب الذي قال له أن دخان البخور عامل أساس في السحر، ويبدوا أن هذا اللعين مردان يعرف السحر أيضا، ولكنه أخفاه عليه طيلة هذه الفترة. وعندما تكاثف الدخان طلب اليهم مردان أن يقفوا جانبا حتى تخرج الارواح بلا تردد، وأن لا يقوموا بأي ضجيج أو حركة، وأمتلأ الكهف بالدخان دون أن يخرج أي شيء. تساءل رستم ما اذا كان الانتظار سيطول، أجاب مردان بصوت خافت رافعا ابهامه الى فمه:

«هس.. انها في طريقها لترك الكهف».

وفجأة خرجت ثلاثة ثعالب صغيرة، وهي تركض وراء بعضها البعض مذعورة تائهة.

وقهقة مردان صائحا:

«هذه هي الارواح الثلاثة، هيّا أمسكوها».

وأختلطت قهقهته بقهقهات الاخرين وهم يركضون وراء الثعالب التي لم تقو أعوادها بعد، وهي تتدحرج وتتعثر.. ومسكوها بدون صعوبة. وبعد أن أطفأوا النار وتلاشى الدخان من الكهف أعادوا أثنين الى مكانيهما، اذ أصر قادر على أخذ الثالث معه، ونصحه مردان بتغذيته بالحليب والاّ أنه سيموت.

وفي مكان قريب من الكهف بدأ مردان يشرح لهم بالتفصيل كيفية استعمال البندقية وصيانتها، ثم وضع لكل منهم هدفا يبعد حوالي ثلاثين خطوة، وأطلق كل واحد أطلاقة واحدة في ذلك اليوم، على أن يطلق كل واحد في المرة القادمة اطلاقتين. رستم وقادر أصابا الهدف بشكل أرتاح له مردان في حين أخطأ كل من رمزي وعباس، وكان السبب هو أنهما تنفسا خلال الضغط على الزناد. ثم وقف مردان مبعدا بين ساقيه، ممسكا بالبندقية بقوة ومثبتا الأخمص بكتفه الايمن، يستهدف شيئا ما وهو يقول:

«هكذا يجب مسك البندقية في حالة الوقوف، وهي أصعب من حالة الانبطاح التي قمتم بها اليوم، في المرةً القادمة ستستهدفون بهذه الحالة، والآن هل ترون ذلك الكركي الواقف على الجانب الثاني من النهر؟»

ونظروا الى الاتجاه الذي اشار اليه، كانت ثمة نقطة بيضاء تكاد لا ترى. دمدم قادر مع نفسه: «انها بعيدة جدا..».

«لنر ما اذا كنت استطيع جعله عشاءنا هذا اليوم».

كانوا ينظرون اليه بأنتباه واضعين أصابعهم في آذانهم، الاّ قادر الذي فتح فاه بدهشة وفضول. وضغط على الزناد، ودوى الصوت في ارجاء الوادي، عاليا ممطوطا. وخفق الكركي بجناحيه عدة مرات ثم تهاوى دون أن يأتي بحركة. وعبروا النهر الى الجانب الثاني. وكانت مجاميع البط والقطا التي نفرتها الاطلاقة ما زالت تطير مذعورة فوق النهر. حين رفعه مردان بعد ذبحه، وزنه بيده عدةً مرات وقال:

«انه يكفي لعشائنا هذا اليوم».

كانت الشمس تتوهج وترسل أشعتها القوية الى ارجاء الوادي لتبعث فيها الحرارة التي راحت تلسع أجسادهم، وبدأت الظلال تتلاشى ليحل محلها الضوء الذهبي القوى والساطع. وكانوا قد قرروا أن يصعدوا الجرف في الجانب الثاني لزيادة قرية كريم، بيد أن القيظ الذي راح يهبط بسرعة، ساقهم الى البيت.

وكان كريم الذي يصرّ على الذهاب لوحده الى شيخ البرزنجة، على أن يزور في طريقه أقاربهم وراء جبل بازوخ في (بنار كل)، وأستدعاء بعض العوائل للهجرة الى وادي كفران، قد أقتنع بمصاحبة مردان له بعد أن رأى بأم عينيه مأثرته. وعندما بلّغ شيخو مردان بقرارهم، أبتهج له كثيرا، وأخبرهم بأنه هو نفسه من أحد دراويش الشيخ المخلصين، وأنه يزوره على الاقل مرتين في السنة. وتم الاتفاق على السفر في اليوم الثاني.

١٥

تركا قرية بانشاخ فجرا، وعندما بلغا نهاية جبل بازوخ بعد أن قطعا الطريق الحصوي الضيق الوعر بصعوبة، ترجلا تاركين الحصانين المتعبين يأخذان قسطا من الراحة. وكانت الشمس قد أشرقت غامرة وادي (خورنەومزان) الاخضر الغارق في لجة من الضباب الازرق بشعاعها الذهبي. ومن بعيد على جانبي قاجر، كانت القرى الصغيرة المتناثرة تبدو ضئيلة. باهتة، تتصاعد منها أعمدة الدخان التي تتلاشى في زرقة الافق الموشح بسلاسل متداخلة من الجبال المنخفضة التى تنتهي عند قدم جبل بعيد عال يكاد لا يرى منه سوى قمته المكللة بالبياض الناصع الملتمع تحت الشمش.

تناول مردان اللفافة من يد كريم وهو ما زال ينظر بذهول الى الافق البعيد. ودون أن يشعلها، راح يدمدم بمقطع من قتار الله ويسي، وكريم يستمع اليه بلهفة وهو يمتص الدخان من لفافته بدون انقطاع:

أيه، عزيزتي يا ربيع عمري
ريحان، حين ألفظ اسمك
تغني الطيور ويعبق الكون بأريجك
لماذا الهجر؟
ألأني أطلقت شعري
وحملت عصا الدروشة من أجل عينيك؟
أم لأني أبكيك مع كل شروق وغروب؟
أيه، عزيزتي، لا تكوني قاسية القلب
تعالي، لأتمتع بنظرة واحدة منك
ثم انصرفي...

التفت الى كريم الشارد مبتسما بطريقته المعهودة، وهو يشعل اللفافة، ثم سحب منها كمية من الدخان قائلا:

«كريم آغا، يا أميري، يبدو لي من نظراتك أنك عاشق، حدثني عن هموم قلبك فأنا صديقك الحميم».

أجاب كريم وقد ارتسمت على وجهه علائم الكآبة:

«العاشق الحقيقي هو من له هذا الصوت الجميل الذي يحرق القلب كالجمر».

انطبعت مسحة من الخجل على وجه مردان:

«أنت شاعر يا كريم آغا، ويقال عني بأنني ايضا شاعر، فإذا اجتمع شاعران فإنهما سيحرقان الكون بنيران حبهما.

«مردان، انك لا يمكنك أن تتصور كم أنا سعيد بوجودك معنا، كنت في البداية امقتك، قل لي لماذا لم تتزوج؟... انك الان قد تجاوزت الخمسين».

ضحك مردان وهو يمضغ قطعة من الخبز:

«أنا لم اتجاوز الاربعين، الزمن هو الذي شيبني، وأما لماذا لم أتزوج فهذا هو سوء الحظ».

سكت مردان وقد بدت علية علائم حزن مفاجيء لا يناسب وجهه المرح وقال:

«ألا نواصل سيرنا؟».

قفز كريم على ظهر حصانه مضيفا:

«سنواصل سيرنا، ولكن أحب أن اعرف سبب سوء حظك، هيا حدثني».

وواصلا سيرهما ببطء وهما ينحدران الى الجانب الثاني من الجبل:

«ماذا أحدثك يا كريم آغا يا أميري... حكايتي قصيرة جدا، أحببت ابنة فلاح غني كنت أشتغل عنده راعيا. وكانت كل سعادتي هي أن أراها فقط وعندما تزوجت وتركت بيت أبيها، تركتهم أنا ايضا».

«وهي؟... ألم تبادلك الحب؟».

«الحب؟... أي حب يا كريم آغا؟... كانت هي تناديني بعمي... أليس هذا سوء حظ».

«الذنب هو ذنبك أنت، كان ينبغي عليك أن تستدرجها وتعلمها فنون الحب».

«كلا يا كريم أغا، مثل هذا الشيء كان مستحيلا بالنسبة لي. كان كل مطلبي هو أن اراها فقط ليس أكثر، ثم أن الانسان لا يجوز أن يخون ولي نعمته، هذا بالاضافة الى انني مخلوق قبيح لا تستطيع أي امرأة استساغته».

«إذا كنت هكذا تفكر فإنك ستظل تحلم بالمرأة طول عمرك دون أن تلمسها... هل هابو، هذا البغل العجوز أجمل منك؟»

ضحك مردان بصوت عال قائلا:

«الفرق بيني وبين هابو هو أنه بغل وأنا انسان. أنت لا تدري بأي اسلوب أعوج حصل على هذه

المرأة المسكينة التي تشبه الغزال، ان ما عمله هذا الرجل الاحمق هو كفر، وسوف ينال جزاءه ذات يوم جراء عمله الشنيع».

تنهد كريم، وتنفس الصعداء عندما جاء ذكر فاطمة، وأطبق عليهما الصمت الذي كان لا يخرقه سوى الحوافر المرتطمة بالصخور الكلسية التي نحتتها عوامل الزمن. قطع كريم الصمت مستجويا صاحبه لمعرفة المزيد عن فاطمة:

«ولكنني لاحظت من مجمل تصرف زوجته أنها سعيدة معه، ماذا تريد المرأة؟ يكفي أن لها رجلا، وأي رجل»...

«لا يا كريم آغا انها ليست سعيدة، انها تبكي دائما وتندب حظها السيء، وتذوب مثل شمعة».

وسكتا، وبعد فترة غير قصيرة في الطريق الموازي لامتداد الجبل، انحدرا الى عمق الوادي، وكان كريم في المقدمة، ثم اجتازا طريقا يلتوي صاعدا الى جبل آخر أقل انخفاضا، أشر كريم الى الجهة اليسرى من الجبل قائلا:

«وراء هذا الجبل تقع قرية أقاربنا».

وعندما أصبحا فوق الجبل بدت لهم منطقة سهلية واسعة تخللها وديان وسلاسل لا تحصى من المرتفعات، أكد مردان بأنه لم يسبق له أن رأى هذه المناطق، كبح كريم زمام حصانه ووقف في أعلى مكان فوق الجبل، قال وهو يؤشر بيده:

«هل ترى ذلك الجبل، هناك من وراء ذلك النتوء البارز مثل الانف تشرق الشمس ووراء ذلك النتوء يقع جبل لا يمكن رؤيته من هنا، ينبع منه نهر آوه سبي، انه يتدفق من فتحة هائلة في الجبل أبيض مثل الحليب ويظل يحتفظ بلونه مسافة غير قصيرة الى أن يتلاشى. وأما هذه المنطقة المتموجة الممتدة أمامنا فيسمونها (هەردى زمنكه)».

هزَّ مردان رأسه ودمدم كما لو أنه يحدث نفسه: «هذه الدنيا واسعة جداً».

«وهناك وراء ذلك الجبل البعيد الازرق تقع منطقة قرهداغ، حيث يمكن للمرء التوجة الى ايران، وأما ذلك الجبل العالي المغطى بالثلوج فهو جبل پيره مكرون».

«لا بد أن الجبل جبار لا يمكن إجتيازهُ، والغريب أنه يرى من كل مكان».

وواصل كريم تعريفه بالمنطقة، وهو يسمّي كل جبل ووادي بدءاً من أبعد منطقة الى أقرب تل. ثم أشر الى الوادي الضيق الذي يخترقه نهر صغير تحت سفح الجبل قائلا:

«وهذا هو آو باريك».

وبعد مسيرة قصيرة مروا ببركة صغيرة فيها سائل أسود وقبل أن يبادر كريم بالكلام، قال

مردان وهو ينظر الى ينبوع يتدفق منه نفس السائل ليصب في البركة، باستغراب:

«وهذا؟... ما هذا الشيء؟».

دار كريم بحصانه حول البركة ووقف يتأمل الينبوع وقال:

«هذا نفط يا مردان، أليس أمره محيّر سبحانه وتعالى؟».

ردد مردان وهو يحدق بأنتباه الى السائل الاسود الذي ذكّره بالدبس الذي كان يأكله عند جهانگير، وكان يسيل ببطء خارقا الجدول الملتوي بين الصخور الارض الصلبة المغطاة بالحصو:

«سبحان الله، سبحان الله... هذا هو اذن النفط الاسود»... «ان أقاربي يغرفون من هذا السائل ويبيعونه في الشتاء وهذا ما يزعج والدي، لقد طلبنا منهم مرارا وتكرار أن يتركوا هذا العمل ويأتوا الينا في وادي كفران ولكن بدون جدوى، ولنر ما اذا نستطيع أن نكسب منهم هذه المرة عدة عوائل».

«ولكن كيف يمكن للمرء أن يعيش بين هذه الصخور، هل عندهم أرض صالحة للزراعة؟» أجاب كريم وهو يؤشر الى قطع صغيرة متناثرة هنا وهناك تتخللها الصخور والاحجار الجرانيتية الملساء:

«شبر هنا، حتى البغل يفطس حين يحرث عدّة خطوات». ووصلوا القرية التكونة من عدة بيوت واطئة تتخللها أشجار التوت والبلوط والصفصاف وهي تطل على واد عميق نبتت فية بشكل كثيف أشجار التين والكمثرى والعرموط تحيطها من الجانبين حقول ضيقة تتخللها عرائش الكروم وبعض المخضرات. وكان ثمة بيت أكبر من البيوت الاخرى، ببوابة كبيرة أمامها فسحة تنتهي بالجرف المنحدر، أشر كريم الى البيت قائلا:

«في هذا البيت كان يسكن عمي ميرزا، وخيمته كانت تنتصب عادة على تلك الفسحة، يقال أن أجدادنا كانوا يسكنون منذ الازل في هذه القرية والقرية التي تقع مباشرة وراء جبل قاجر».

«سبحان الله، لقد قطعت الخيمة مسافة طويلة جدا»...

وقبل أن يقتربا من البوابة الكبيرة بدأت كلاب ضخمة بالتجمع والعواء. وخرج أولاد أعمامه بأسمالهم البالية، وأبدانهم الهزيلة. كانت الشمس قد بلغت كبد السماء، ورغم أشعتها اللاسعة، فإن الهواء كان منعشا. وأحتشدوا في المضيف الذي كان يتخذه فيما مضى دائما له، وكانت ثلاثة أسماء تتردد على الالسنة وهي تستفسر عن الصحة والاحوال: الشيخ زوراب وميرزا وسنجان وبين آونة وأخرى كان يتردد اسم شيخو. كان الآخ الذي يلي ميرزا هو كبير القرية، قال بعد ان أمر أحد الاولاد بذبح عنزة:

«أن اولاد اعمامي لا يزوروننا الا إذا أرادوا أن يأخذوا أحد رجالنا أو نسائنا، جاء شيخو وأخذ سنجان ثم جاء الشيخ زوراب واخذ اخي ميرزا، ولنر من الذي سيأخذونه هذه المرة».

وكان هذا يعتقد في قرارة نفسه ان كريم انما جاء ليخطب فتاة من عندهم لأحد الاولاد، بيد أن كريم قطع سلسلة أفكاره التي كانت تدور حول أمور الزواج قائلا وهو يضحك:

«يا ابن عمي، لقد جئنا هذه المرة نأخذكم كلكم صغارا وكبارا، انكم ستجربون بين هذه الصخور الجرداء. ان وادي كفران كله في انتظاركم».

وقهقه ابن العم الذي يشبه أخاه ميرزا الى حد كبير معتقدا أن كريم يمزح معه، وقال:

«حسنا، سننتقل كلنا الى وادي كفران، ولكن هل جلبتم معكم بغالا كافية لنقل بيوتنا بجدرانها وسقوفها الى هناك؟».

أجاب كريم بجد:

«يا ابن عمي حمه غريب، لقد أرسلني والدي لأتكلم معكم بهذا الخصوص، اننا نحتاجكم، ونريد منكم أن تتخلصوا من هذا الوضع الذي تعيشونه». قاطعه حمه غريب بقهقهة مجيلا عينيه في عيون الجالسين:

«ماذا قلت؟... ألم أقل ان ابن عمي جاء كي يأخذ؟... تصوروا يريد أن يأخذنا كلنا، حتى ينشر المجاعة في وادي كفران... لا يا ابن عمي، ابقوا أنتم في وادي كفران ونحن نبقى بين صخورنا، اننا لا نسطيع أن نستغني عن مراعينا وماعزنا»...

«يا ابن عمي حمه غريب، ان وادي كفران يكفي لخمسين قرية أخرى، ولدينا مراعي تكفي لعشرات القطعان فلماذا الإصرار على بيع النفط مثل اليهود؟ ان كل العشائر الاخرى تعيّرنا على هذا العمل».

أطبق عليهم الصمت، وكان حمه غريب تارة ينظر الى الارض، وأخرى الى البندقيتين الجديدتين الموضوعتين على الارض، ثم راح يدقق في ملابسهما الجديدة وشدتي الرأس الانيقتين، ودون أن يسأل من هو هذا الغريب، عرف أنه خادم، قال وهو ينظر الى الارض:

«هذا كله عمل سنجان، انها تحن الينا وتريد أن تأخذنا كلنا الى هناك كي نكون الى جانبها».

ثم رفع رأسه فجأة وواصل:

«وأخي ميرزا؟... ماذا يقول هو؟»...

«لو تدري الان أين هو عمي ميرزا... ان الامور كلها تغيرت منذ شهر. ان حدود وادي كفران الان ليست هي جبل الامام علي أو مرتفعات خضر ولي، بل امتدت الى نهر روخانه. الخيمة الان

منصوبة في قرية بنعيز وعمي ميرزا هناك».

سكت كريم هنيهة ثم ابتسم مواصلا: «لقد وجدنا له أرملة طيبة من بنعيز، وهو سعيد بها جدا...» قطَب حمه غريب حاجبيه ونظر بتساؤل الى محدثه:

«يا ابن عمي كريم، لماذا تمزح معي؟»...

«أنا لا أمزح معك يمكنك أن تأتي معنا وترى كل شيء بنفسك»...

«أخي ميرزا تزَوج؟».

«وعمي رمضان أيضا».

«إنتم في بحبوحة اذن يا ابن عمي كريم».

«ونريدكم أن تشاركونا فيها. أنكم تستطيعون أن تختاروا أي بقعة تعجبكم».

«سننتقل اليكم، لا بأس، ولكن أرض الاجداد لا نفرغها نهائيا، يجب أن نترك هنا أساساً».

وأكد كريم بأنهم هم أنفسهم لا يريدون أن تفرغ قرية الاجداد، بل ينبغي أن تبقى هناك عدة عوائل، ذلك ان الحاجة الى المراعي والنفط قد تكون ذات يوم ضرورية. وأستفسر كريم ما اذا كانت محصولاتهم جيدة هذا العام، وتبين أنها تلفت بسبب سقوط الحالوب بكميات كبيرة، ولما قال حمه غريب بأنهم سيضطرون لشراء الحبوب، وذلك ببيع الماعز والاغنام، أكد كريم أنه لا داعي لذلك، اذ أن أكوام الحبوب بسبب كثرتها ما زالت لم ترفع بعد من الارض، ثم ذكر لهم بأنهم في الايام القليلة القادمة سيبدأون ببناء قرية بالقرب من جدول بنعيز يسمونها قرية زوراب، ويجب أن ينتهي كل شيء في الخريف قبل سقوط المطر، ولذلك فإنهم بسبب هذه الاشغال الكثرة، ولكثرة الاراضي الجديدة التي استملكوها بحاجة مآسة اليهم. وبعد أن وزع كريم بعض الهدايا مثل الشاي والسكر والصابون والقماش، شرح لهم كيفية اعداد الشاي الذي يجب ان يشرب بعد الاكل ثم قال مزهوا: «يا ابن عمي أنكم حين تأتون الينا سترون كل شيء بعيونكم، ان وادي كفران يحمل الان أسمين: وادي كفران الجبلي و وادي كفران السهل».

قال حمه غريب وهو يجيل عينيه بين البندقيتين:

«وهل ستدبرون لنا أيضا مثل هذه البنادق».

«بل وأحسن منها».

وقهقه حمه غريب ببلاهة قائلا:

«سيجمع شملنا من جديد وستفرح سنجان، تصوروا أخي ميرزا قد تزوج... أطال الله عمرك يا شيخ زوراب، انك تستحق الثناء حقا، لو كان ناله گورگه حيا لأفتخر بك، ولاشك أنه الان سعيد

في قبره. آه، لوكان بأمكاني لأخذت ينبوع النفط معي الى وادي كفران»...

«المسافة كلها نصف نهار يا ابن عمي حمه غريب، سأعطيك حصانا وبندقية، اذ ذاك تستطيع أن تزور نبعك متى ما شئت».

التقط حمة غريب ملبسا وراح يمصة كطفل وهو يضحك فرحا ويداعب بأنامله الخشنة ورق الشاي الاسود وقال:

«ابن عمي كريم، كيف وصل هؤلاء البنعيزيون الى هناك؟».

«وصلوا الى هناك لأنهم كانوا يبحثون عن أرض صالحة للزراعة؟».

«اننا اذن اصبحنا أقارب معهم».

«طبعا يا ابن عمي، لقد اختلطت دماؤنا».

وقهقة حمه غريب فجأة رافعا مؤخرته بحركة هستيرية:

«يا قوم، ان زوجة أخي من عشيرة بنعيز، هل كان هذا يخطر ببالكم؟

وصمت غارقا في تفكير عميق ثم سأل بجد:

«هل هناك في بنعيز جبال أيضا؟

«كلا انها أرض سهلة ومنبسطة مثل راحة اليد، ولكنها خصبة، ويمكن ارواء الارض من مياه النهر اذا لم تهطل الامطار».

«سبحان الله، أرض سهلة بلا جبال وتروى بمياه النهر. الله يخلق العجائب. وهل الان أخي ميرزا في قرية بنعيز نفسها؟».

«في بنعيز نفسها»...

«والخيمة؟».

«في بنعيز نفسها».

«سبحان الله، يا لهذا الزمان العجيب، كانت الخيمة تنصب أمام هذه الدار التي نجلس فيها الان، وأين هي الان؟... في آخر الدنيا حيث تنتهي الجبال».

التقت عيون كريم وقادر بحركة متزامنة، وانطبعت على وجهيهما ابتسامة تكاد تقول: «هذا يصلح لمجلس هابو».

وبعد الانتهاء من تناول طعام الغداء تشاور كريم ومردان في مسألة مواصلة مسيرتهما الى الشيخ في نفس اليوم، بيد أن حمه غريب تدخل مانعا سفرهم في نفس اليوم منعا باتا بمختلف

الحجج، وبأنه سيرافقهم في صبيحة اليوم الثاني بنفسه لأنه من أحد دراويش الشيخ المخلصين.
وشعر مردان أن كريم قد أرتاح كثيرا في مجلس ابن عمه الساذج، وأنه يحتاج الى مثل هذه الاجواء فأشار له بضرورة البقاء بين اولاد العم، على أن يسامرهم بحكاياته وقصصه.

وفي اليوم الثاني عندما هموا بالسفر، جلب حمه غريب ثلاثة سيوف بأغماد جلدية قديمة ودفاً كبيرا، قال وهو يشد السير الجلدي المربوط بالسيف على وسطة:

«الدرويش بدون السيف ليس درويشا».

قال كريم بعد أن انتهى من شد السيف الثقيل الذي تدلّى جانبا و تكاد طرفه يلمس الارض:

«والبندقية؟... بأيهما أحارب اذا اقتضى الامر؟».

«يمكنكما ترك البندقيتين هنا ريثما نرجع، انكما لستما بحاجة اليهما».

قال مردان بابتسامته المعهودة:

«واذا خرج علينا قطاع طرق ببنادق؟... أنهم سيستولون على سيوفنا».

أجاب حمه غريب بثقة مطلقة:

«قطاع الطرق لا شأن لهم بالدراويش، ثم أن روح الشيخ تجول هنا في كل مكان، انها تختفي وراء كل صخرة وشوك، أنها تظهر أحيانا على شكل ثعلب أو أرنب. وغالبا ما تجد صخرة في منتصف الطريق، ما تلبث أن لا تجدها عندما ترجع، انها روح الشيخ التي تحرس هنا كل شيء، ولذلك فإن حمل البندقية هراء. والشيخ نفسه لا يرتاح لأي سلاح ناري، ولا توجد في تكيته حتى يهكتير واحد».

كانت علائم الوجل والرهبة قد بدأت ترتسم على وجهي كريم ومردان وهما ينظران الى حمه غريب بفضول ويسلمان اياه بندقيتيهما باستكانة، قال كريم وهو يتذكر حلمه:

«اننا قد قطعنا هذه المسافة كي نزور الشيخ ونرضيه وليس لإثارة غضبه».

كانت الشمس تعلن حلول الضحى عندما بدت لهم قرية الشيخ من بعيد، وكانت التكية ببوابتها الكبيرة وجدرانها العالية أشبه بقلعة محصنة، تقع على مرتفع يطل على البيوت الكثيرة المتلاصقة التي تسيجها الاشجار، وكان ثمة جبل أجرد يطل على القرية من جهة الشمال يفصل بينهما وادي نهر عريض توزعت مياهه في جداول صغيرة، ما يلبث بعضها أن يختفي ليظهر في مكان آخر. وأما حمه غريب فقد امتطى بغلا عجوزا يبدو عليه الانهاك، بيد أنه ما أن وقعت عيناه على القرية، إلاّ وبدأ يسرع في سيره. وبالقرب من البوابة أستقبلهم بعض الخدم، مستلمين منهم زمائم الدواب. وما أن وضع حمه غريب رجله على الارض، الا وسحب سيفه من غمده رافعا إياه عاليا وملوحا به في الفراغ وهو يدور حول نفسه ثم راح يميل يمنة ويسرة ويتلو بصوت

متناغم يتوافق مع حركاته: «لا الا... اله هههها الله ه ه... لا اله الا الله...». أرتبك كريم في بادئ الأمر وظل واقفا بلا حركة يتابع حركات حمه غريب بدهشة، وأما مردان فرمى لفة رأسه جانبا وسحب السيف بخفة وراح يهز رأسه يمنة ويسرة ضابطا حركاته مع حركات حمه غريب، ولكنه كان أسرع، ولما أحس هذا أن حركات مردان أسرع منه، راح يتسابق معه، وبحركة سريعة من يده دفع هو الاخر رأسه وكانا يرددان بصوت واحد «لا اله الا الله...».

سرت قشعريرة في كيان كريم، وراحت الدماء الحارة تدفق في شرايينه، مرت في ذهنه بسرعة صور متلاحقة تطارد بعضها البعض: الجنية (في) بشعرها الاصفر المسترسل وهي عارية تلمع في ضوء القمر، السيِّد العربي وزوجته شمسه وهي تهجم عليه بالمذود الحديدي، فاطمة وهي تستسلم له رافعة ساقيها العاجيتين، هابو برأسه البغلي وصدره الناتيء ذي الشعر الابيض الكثيف وحلمه الغريب الذي ساقه الى هنا، وأهتز جسده، وراحت إجزاء جسمه تتحرك من تلقاء نفسها، ومدَّ يده بصورة لا ارية الى سيفه ينضم الى جوقة الذكر التي ضمٌ عدد كبير من الرجال، لا يدري من أين جاءوا. وكانت الجوقة تتحرك وتتماوج مثل كتلة واحدة، وتردد بصوت واحد: «لا اله الا الله... لا اله الا الله...» ولم يكفّوا عن الذكر الا بعد ان جاءهم رجل عجوز، استرسل شعره الطويل الابيض على كتفيه مزاحما لحيته العريضة التي تغطي صدره، وهو يقول بصوت عال: «اللهم صلّ على محمد وآل محمد». وتوقفت الجوقة، وكان بعضهم ما زال تحت تأثير الذكر عبثا يحاول ضبط نفسه. وراحو يمسحون العرق المتصبب من جباههم متابعين الرجل العجوز، وعندما انصرف الاخرون، انفرد بالضيوف الثلاثة الجدد وهو يكلم حمه غريب بدون كلفة، ويناديه بـ(درويش حمه غريب) فعلم كريم آنَ ذاك ان ابن عمه فعلا من دراويش الشيخ المخلصين. وكان حمه غريب ينادي الرجل العجوز بـ(خليفة علي). وأتفقوا على أن يقضوا ليلتهم في التكية، اذ أن العودة في نفس اليوم قد يجلب النحس وسوء الطالع، ثم أن طقوس الذكر الحقيقية تبدأ مساءً، وأن ما حصل الان هو كان مجرد استقبال للضيوف الجدد. ولاحظ كريم أن حمه غريب سعيد جدا ويشمخ أمام الاخرين بوجود ابن عمه كريم بين ظهرانيهم، ومما زاد من فرحه ان الشيخ دعاه للجلوس الى جانبه أثناء تناول طعام الغداء.

كان الشيخ يتوسط كريم وخليفة علي في صدر المضيف الكبير الذي كان أشبه بقاعة طويلة، وقد جلس على الجانبين في صفين طويلين عدد كبير من الدراويش بشعورهم الطويلة ولحاهم وسيوفهم وخناجرهم وهو يبسمل ويتلو آيات غير مسموعة، ويحسب بيده اليمنى حبّات السبحة الطويلة:

«كان والدك درويشا من دراويش تكيتنا المعروفين، وكان لا يمر شهر دون أن يزور المرحوم والدي، لماذا هجرنا يا درويش كريم؟».

وراح كريم يذكر مختلف الحجج لانقطاع والده عن زيارتهم منها كبره في السن وعجزه عن الحركة، وأكد له أنه لا ينقطع عن ذكر أسم الشيخ الذي هو دائما على لسانه، ثم ذكر له بالتفصيل ما حلّ به هو وروى له حلمه، وبعد أن بلغه تحيات والسيد العربي أخرج من جيبه كيسا صغيرا فية عدة ليرات ذهبية كان قد نذر بها الشيخ زوراب للتكية، وهو يقول مسلما إياه للشيخ:

«هذه هدية متواضعة من والدي للتكية، وقال أنه اذا تحسنت صحته فسيزوركم بنفسه».

لم يمد الشيخ يده لتسلم الكيس كعادته، فوضعه كريم تحت مخدته، بيد أنه أحس بملامح الشيخ وهي تتفتح وتنشرح بعد أن كانت مكسوة بعلائم التذمر والعتاب، كما أنه أنشرح بشكل ملحوظ عند سماعه لحلم كريم، وتمتم الشيخ وهو يحدق في الفراغ ويقوم بحركات توحي كما لو أنه يجلس في مكان آخر بعيد، بالقرب من عرش الله فوق السماء السابعة، تحيطة الملائكة والجن قال وقد انطبعت على وجهه ابتسامة وقورة:

«التكية هي بيت الله، وبابها مفتوح لكل الخيرين، وسواء استطاع الشيخ زوراب زيارة التكية أم لم يستطع فإن يد الله معه. كنت أتابع أخباركم وكنت أرى بأم عيني كيف أن السيد يحيطك برعايته. قل لوالدك أن الشيخ سيزور وادي كفران بنفسه، وسأحل عليكم ضيفا مع كافة دراويشي. سنبقي عندكم عدة أيام، وسنقوم بالذكر في كل قرية حتى نجلب لكم الخير والبركة».

قبل كريم يد الشيخ مرة اخرى قائلا: «سنضع أموالنا وأرواحنا في خدمة تكية الشيخ». وضع الشيخ يده على رأس كريم قائلا: «سيرعاك الله يا بني اينما ذهبت، وسيحقق كل ما تتمناه...».

وعندما حل المساء وتم تناول طعام العشاء وأسدل الظلام. كانت الفوانيس الموزعة في كل مكان تضيء فناء التكية الذي راحت تعمه الحركة والضجيج. وقال الشيخ لكريم: «سيريك دروايشي هذه الامسية معجزاتهم يا درويش كريم...». وكان حمه غريب أحد الوجوه النشطة حيث كان يلهب ضمن جوقة حاملي الدفوف حماس الدورويش الذين بدأوا بعد فاصل من الذكر بإستعراض ألعابهم السحرية. تقدم في بادىء الامر ثلاثة من حاملي السيخ وراحوا يطعنون بها احدى الوجنتين ويدفعون بها الى أن تخرج من الوجنة الثانية دون أن تسيل قطرة دم. وظلوا يدورون في حلقة ذكر صامتة لفترة غير قصيرة الى أن جاءت مجموعة من حاملي السيوف لتحل محلهم. وراحوا يطعنون بطونهم بالسيوف الطويلة ويدفعون بها بقوة الى أن تظهر رؤوسها من ظهورهم، وعند ذلك كانت تتعالى الصيحات «الله أكبر...» ثم كانت تحيط بهم حلقة من الدورويش الصغار وهي تتحرك مع ايقاع الدفوف المنتظم وتتلو بصوت منتاغم واحد: «لا اله الا الله... لا اله الا الله...». وكانت تأتى مجموعة أخرى تتميز بالسرعة، لتشكل حلقة موازية الحلقة الاولى وهي تصيح بصوت أسرع مما عليه حلقة الدروايش الصغار «الله حي... الله حي». وعندما كان حاملوا السيوف ينتهون من سحب سيوفهم ملوحين اياها في الهواء دون أن يبدو عليها أي

أثر للدم، كانت ترتفع الصيحات من جديد: «الله أكبر... الله أكبر...»، اذ ذاك كانت تأتي مجموعة من الدراويش حاملة في أكفها الجمرات المستعرة. وفي الختام جاءت مجموعة، راحت تجلس بمؤخرات عارية على صجان حامية.

وفي اليوم الثاني حين ودعوا الشيخ بتقبيل يده، فاجأ كريم بتسليمه عصا وأدعية طلب منه أن يخيطها على أماكن معينة من ملابسه، وطلب منه أن يكرر من زياراته الى التكية، اذ أنه لمع على وجهه نور محمد صلى الله عليه وسلم، فهو لا يحمل اسم كريم اعتباطا، واعتقد الشيخ أن مردان لا يزال يعمل عند جهانگير الذي كان يزوره فيما مضى، فقال له أن المسافة بين التكية والسنجق أقرب من المسافة بين وادي كفران والتكية، فلماذا هذا الهجر؟ هل أعماه المال؟. وهدد بأنه يستطيع أن ينزل عليه غضب الرسول ويجرده من ماله اذا أراد ذلك. أجاب مردان أنه ترك العمل عند جهانگير، وأنه أصبح واحد من افراد عشيرة وادي كفران، ولكنه يستطيع أن يبلغه كلام الشيخ. وهزَّ الشيخ رأسه بارتياح قائلا: «حسنا فعلت يا بني، ان مال الدنيا زائل، ان جهانگير اذا لم يرجع الى طريق الصواب فإنه سيخسر.». ثم تركهم قائلا: «اذهبوا والله معكم...»

وعندما انحدروا الى أسفل الوادي تاركين وراءهم بوابة التكية الكبيرة، صاح حمه غريب مبتهجا:

«هل تعرف قيمة هذه العصا التي أعطاك اياها الشيخ يا ابن عمي درويش كريم، حتى أنا لا أملك مثلها»...

١٦

كان ميرزا وهابو والسيد الشاي، عندما جاءت زوجة ميرزا راكضة مرتعبة وهي تصيح بأنفاس متقطعة: «فرسان، فرسان، عدد كبير من الفرسان يا ميرزا آغا، انهم يتوجهون الى القرية». كانت شمس الضحى المتوهجة تمر كل شيء خارج الخيمة. وظلّت هي واقفة في الشمس تجيل اليها الرجل برهة بدهشة وبعيون مليئة بالوجل وقد تجمدت في أيديهم الاقداح، ثم راحو ينظرون الى بعضهم البعض بصورة لاشعورية، قال ميرزا على غير عادته بهدوء، اذ أنه بعد مضاجعته الاولى قد تغيّر كليا، وكما شهد رمضان في حينه فأن ميرزا هو غير ذلك الرجل الذي كان يرفس لأتفه سبب:

«فرسان»؟

قال السيّد وهو يحرك سبحته بإنفعال:

«يا ساتر، يا الله»...

وأما هابو فلم يعلّق، بل قام من مكانه بخفة متوجها الى خارج الخيمة. ولحق به صاحباه، وراحوا ينظرون بإهتمام وفضول الى الافق الشرقي. قال هابو بأشمئزاز:

«لابارك الله فيهم، انهم لا يقلون عن ثلاثين فارسا.» تساءل ميرزا:

«من هم هؤلاء»؟

أجاب هابو وقد بدت على وجهه علائم الخوف:

«انهم البابائيون، سترنا الله من شرهم».

هرع ميرزا الى الخيمة جالبا بندقيته وهو يقول:

«سأبيدهم عن بكرة أبيهم هؤلاء الكفار اذا تعرضوا لنا».

كانو لا يزالون يشكلون خطاً أسودا في الافق، يقترب ببطء، مد السيّد يده وأنتزع البندقية من يد ميرزا، قائلا:

«أعطني هذه العصا يا ميرزا آغا، والاّ فانها ستجلب لنا كارثة، انك لا تعرف من هم البابائيون». وصاح السيد على زوجته التي كانت مشغولة بالطهي في الهواء الطلق: «يا شمسه، تعالي ضمي ها الحديدة...». وأشار هابو هو الآخر الى ابنة عمته، زوجة ميرزا بأن تسرع الى

القرية وتبلغهم بأخفاء البندقيتين. وراح ميرزا ينظر ببلاهة الى كل من هـابو والسيّد قائلاً:

«ولماذا نملكها اذا كنا لا نستطيع استعمالها عندما يحلّ الخطر.»

«الا تراهم يزحفون الينا كالنمل يا ميرزا اغا؟... هل تريد أن تقاوم هذا الجيش بثلاث بنادق»؟

ظل هـابو ينظر الى السيّد بيأس، متوقعا منه جوابا يزيل حيرته فقد حدثهم عابر سبيل قبل أسابيع من مجيء الشيخ زوراب وجماعته، بأن هؤلاء بدأوا في الآونة الأخيرة يعتدون على العشائر المجاورة، ويأخذون الغنائم، وإذا مرّوا بإحدى القرى فانهم سيأتون على الاخضر واليابس، ويقال أنه حتى أفراد الجندرمة يرهبون جانبهم.

كان هـابو يتلوى من الخوف دون أن يستطيع الاستقرار، وفكر في أن يأخذ زوجته ويهرب الى مكان ما، ولكن الى أين؟ ولا سيما أنهم قد أصبحوا على مشارف القرية، ولاحظ السيّد ذلك، فقال محاولا تهدئتهُ:

«دعوني أنا أتكلم معهم، حذرا أن تنفعلوا»...

وعندما أقتربوا من القرية، خرجت كوكبة من الفرسان بسرعة من الحشد، وراحت تتوزع، مطوقة القرية من جميع الجهات وهي تطلق النيران في الهواء فوق القرية مباشرة، وخرجت النساء والاطفال والشيوخ فزعة وهي تتلاصق ببعضها، ويدأ الاطفال بالصراخ والبكاء. توجه السيد الى العوائل طالبة منها العودة الى البيوت فورا، ثم تقدم كل من ميرزا وهـابو وبعض الرجال المسنين لإستقبال الحشد من الفرسان. وفي الساحة القريبة من الخيمة كبح الفرسان زمائم خيولهم الهائجة. كانوا رجالاً أقوياء بشعور مسترسله وشوارب عريضة وطويلة بنهايات مدببة معقوفة مثل ذيل العقرب صاعدة ونازلة، لفوا رؤوسهم بعمائم سوداء وحمراء، كان يتوسطهم كهل مهيب بعينين خضراوين نفاذتين وبملابس أنيقة وحصان مزركش، بدا أنه رئيسهم، يحيطه من الجانبين شابان أنيقان أحدهما أشقر بعيون زرقاء. وراحوا يجيلون نظراتهم بأحتقار بين ميرزا وهـابو والسيد. وأطبق الصمت على المكان. وكان أفراد الكوكبة قد كفوا عن اطلاق النار بعد أن أحتل كل واحد منهم مكانه. قال السيّد:

«أهلا بالضيوف، تفضلوا كبروا رؤوسنا»...

قال الرجل المهيب بلهجة كردية تعذر على ميرزا فهمها، وأما هـابو فقد فهمها بشكل جيد:

«التقى غرابان، فراحان يعتاشان من براز بعضهما البعض، ألم تجدا مكانا آخر غير هذا المكان، أيها الكلبان العجوزان»؟

أنفعل هـابو وأجتاحه الغضب، وما أن فتح فمه كي يقول شيئا، الا وتلقى من فارس رابع كان يقف على مقربة من الشاب الاشقر، سوطا ألهب صدره المكشوف تاركا وراءه خطا طويلا راح ينزف منه الدم، ثم وجه اليه فوهة بندقيته قائلا:

«اذا تفوهت بكلمة واحدة فسأطيح برأسك مثل الكلب يا ثور».

لم يستطع ميرزا أن يضبط نفسه فقال بعصبية:

«ستندمون على فعلتكم يا أولاد الشيطان».

أراد الرجل أن يلحقه بسوط، ولكن الشاب الاشقر مسكه من يده بسرعة. قال الرجل المهيب بنفس لهجة وادي كفران وبنبرة فيها أحتقار:

«أنت اذن الرجل المدعو بالشيخ زوراب رئيس عشيرة وادي كفران»؟

«كلا، أنا ابن عمه».

«وأين هو؟... اننا نريد أن نكلمه»...

أشار ميرزا بيده الى جهة الشرق، قائلا بتحد:

«انه هناك في وادي كفران، في قرية بانشاخ، اذا كنتم رجالا فاذهبوا اليه وكلّموه بنفسه، الاعتداء على شيخ أعزل مثل هذا ليس من شيمة الرجل».

حاول الرجل أن يسحب سوطه مرة أخرى، بيد أن الشاب الاشقر منعه. أبتسم الرجل المهيب وقال:

«لسانك سليط جدا يا رجل، كأي مسن من مسني عشيرتك الخرة، ان رجالكم حين يكبرون، فانهم يخرفون، والاّ لماذا جئتم الى هذا المكان؟ هل جئتم تبحثون عن الموت؟... أم عن الثعابين»؟

قال ميرزا وهو يرتجف غضبا:

«اننا جئنا الى هنا وبيدنا فرمان، ان هذه المنطقة هي جزء من وادي كفران».

قال الرجل المهيب بهدوء وهو ينظر من طرف عينه الى حامل السوط ودون أن يحرّك رأسه:

«خراي على لحيتك وعلى عشيرتك وعلى الفرمان وعلى من أعطاكم الفرمان، يبدو أنك فعلا أحمق».

وهجم الرجل على ميرزا، يلهب جسده بسوطه من كل الجهات، دائرا حوله بحصانه الهائج الذي كان يضربه بحوافره هو الآخر، وكان ميرزا يطلق الشتائم مهددا ومتوعدا: «يا أولاد الشيطان، يا كفرة يا من تنكحون أمهاتكم وبناتكم، سوف أنكح بناتكم وأمهاتكم واحدة تلو أخرى...» وأرتفع صراخ وعويل الاطفال والنساء، وراح السيّد يتوسل الى الرجل المهيب بالكف عن ضرب ميرزا. قال الرجل المهيب وهو يتابع بدم بارد حركات السوط الذي ينزل بخفة ودون خطأ على أنحاء مختلفة من جسم ميرزا:

«سيِّد، أنت لا دخل لك بالموضوع، نحن الاكراد، أولاد الحرام نحل مشاكلنا فيما بيننا بأنفسنا.».

ولم يكف الرجل عن الضرب الاّ بعد أن سقط ميرزا مغشيا عليه. ثم وجه الرجل المهيب كلامه الى هابو قائلا:

«بلِّغ صاحبك المدعو زوراب أن مكانه ليس هنا، ان هذه المناطق هي مراعي مشاعة لنا، واذا بنى هنا بيتا واحد فاننا سنهدمة على رأسه، هل فهمت»؟

ودون أن ينتظر الجواب، أرخى زمام حصانه الذي قفز من مكانه بقوة، وقفلوا راجعين من حيث أتوا. وأستغرب هابو لأكتفائهم بهذا القدر من الاعتداء، وكان يعتقد في أعماقه أنهم سَيسبون القرية ومن فيها ويستولون على ما فيها من مؤن، وقال لزوجة ميرزا التى كانت تولول وهو يزيحها من على صدر زوجها:

اهدأي يا خهجه، وأحمدي ربك أنهم لم يطيحوا برأسه بطلقة ولم يمدوا أيديهم الى نسائنا وأموالنا».

ونقلوا ميرزا الى الخيمة، وكان الدم يقطر في مواضع عدة من جسمه. رشّ السيِّد وجهه بالماء وراح يعالج جروحه بعقاقير جلبتها له زوجته، ثم راح يفحص أطرافه وضلوعه وفتح ميرزا عينيه وراح يجيلهما حوله، وهو عبثا يحاول تحريك رأسه، فوضع السيد مخدة أخرى تحت رأسه قائلا:

– لا تتحرك يا ميرزا آغا، الله كريم...

أرسل هابو بسرعة رجلا الى بانشاخ لتبليغ الشيخ زوراب بالحادث، وكان كريم ومردان قد عادا من زيارة الشيخ البرزنجي ويصحبتهم بعض العوائل من أقربائهم على رأسهم ابن عمه حمه غريب، وعندما بلَّغهم الرجل بالخبر بصورة مفصلة ثارت ثائرتهم، بيد أن الشيخ زوراب هدّأهم، مؤكدا بأن كل شيء سيتخذ مجراه الطبيعي، ولكن بهدوء وروية. وجرت في مجلسه مساءً مناقشات عريضة وطويلة بحضور كافة أولاده ورجال العشيرة، كلها تندد بالويل والثبور لعشيرة البابائيين، وكانوا يقدمون مختلف المقترحات لكيفة ابادتهم والقضاء عليهم قضاء تاما. كان مردان ساكتا طيلة الوقت، كما أن شيخو ورمضان، كانا يطرحان مجرد أسئلة وينتهيان الى الاجوبة والمقترحات المطروحة، وكان أكثر المتحمسين لإبادة هؤلاء، الذين كان يسميهم بالكفار هو حمه غريب.

وعندما أحس الشيخ زوراب أنهم أفرغوا كل ما في جعبهم من الغضب والمقترحات المختلفة، سحب كمية من الدخان من غليونه وأتكأ على الجدار قائلا:

«لقد تكلمتم كثيرا يا أولادي والكلام الكثير ليس عليه ضريبة، لا سيما اذا كان الانسان متكئا على الجدار في وضعي أنا الان. انكم بكلامكم قد حولتم المنطقه الواقعة بين وادي كفران والبابائيين الى مقبرة يرقد فيها المئات من القتلى. ترى، هل المسألة جديرة بالقيام بمثل هذه المجازر؟... هذه أموريجب أن نبحثها بروية والان يمكنكم أن تنصرفوا الى بيوتكم».

وبدا من ملامحه أنه لم يرتح لسير المناقشات. بقي رمضان وشيخو وكريم وعندما أراد مردان أن ينهض طلب منه البقاء، قائلا: «انني اريد أن أبحث معكم موضوع الفرمان ومنطقة بنعيز بصورة بعيدة عن الانفعال.». وحين أستفسر شيخو ما اذا كان بإمكانه استدعاء ابن عمهم حمه غريب للمساهمة في المناقشات، أجاب، بأن هذا الاحمق لا يثير حوله سوى النرفزة والضجة الفارغة، وأن أمور العشيرة اذا أصبحت بأيدي أمثاله فأقرأ السلام عليها. ثم استرسل:

«انني لا اريد أن أدافع عن البابائيين، فهم فعلا بدأوا يعتدون على العشائر الاخرى، وهذا موضوع نستطيع أن نعالجه بأساليبنا الخاصة، ولكنني واثق أن ميرزا لو مسك لسانه وعرف كيف يكلمهم لما أنهالوا عليه ضربا، ومع ذلك فاننا سنثأر له، ولكنني أحب أن اقول لكم ما يدور بذهني حول الفرمان، انني أشك بأنها مجرد فخ لتنشغل العشائر بالاقتتال فيما بينها، وتتفرج السلطة علينا ومن ثم تتصرف بنا كالخرفان».

قال شيخو وهو لا يزال يفور من الغضب، دون أن يبدو ذلك عليه:

«ان الانسان اذا بصق مرة، فانه لا يستطيع أن يعيد بصقته الى مكانها تماما مثل الطلقة، اذا انطلقت فمن المستحيل أن تعود الى الفوهة. اننا عندما استلمنا الفرمان، فلم نستلمها بصورة سرية من يد القائممقام، ولا باتفاقية خاصة بيننا وبين الدولة. كان رؤساء العشائر كلهم حاضرون، وكل واحد منهم تسلم فرمانه الخاص به، حتى أن القائممقام سألهم واحدا تلو آخر ما اذا كان لهم رأيا مخالفا لكل ما جرى، فلم يبد أي انسان اعتراضا بما فيهم رئيس البابائيين، لقد أصبحت المسألة الآن، مسألة كرامة وليست مسألة أرض، اننا نملك من الارض ما يكفينا والحمد لله، لذلك فاننا سنبدأ اعتباراً من يوم غد بأتخاذ ما يلزم لبناء القرية الجديدة، وتحصينها بالمواقع الدفاعية وأبراج المراقبة ووضع خطّة لتأديب هؤلاء بشكل بحيث لن يفكروا بالاساءة الينا الى الابد. يجب أن نعلمهم من هو الشيخ زوراب، ومن هي عشيرة وادي كفران»...

أستقبلت مشاعر الشيخ زوراب كلمات شيخو بأرتياح، وفكر مع نفسه أن ابنه لن يخذله، وأن مصير العشيرة في يد أمينة، ولا يهمه ان وافاه الموت في هذه اللحظة، فالعشيرة لا خوف عليها بدونه، ومما زاد في فرحه أيضا أن شيخو هو الذي اقترح أن تحمل القرية الجديدة أسمه، الامر الذي يعني أن اسمه سيظل ملاصقا بالعشيرة الى أبد الآبدين. ونظر الشيخ زوراب الى رمضان، منتظرا منه رأيه، بيد أن هذا نظر بدوره الى كريم، فقال بعد أن فهم نظرات رمضان:

«انني أؤيد كل ما قاله أخي الاكبر شيخو، فما علينا الا أن نبدأ بالعمل».

وأطبق عليهم الصمت، وبعد فترة غير قصيرة، التفت الشيخ زوراب الى رمضان:

«يبدو أنك يا رمضان لا تريد أن تتكلم اليوم.».

تململ رمضان الذي بدت على ملامحه لأول مرة آثار الجد والحزن، فقال متحسرا:

«الكلام ألف بيد أن كلاما واحدا منه هو النافع. أن وادي كفران السهل قد ولد كي يبقى، فاذا لم نستطع الحفاظ عليه، سنفقد اذ ذاك وادي كفران الجبلي أيضا».

التفت الشيخ زوراب الى مردان الذي كان يستمع بأنتباه الى كل كلمة، ويبدو كما لو أنه يفكر في مشكلة مستعصية، قال:

«مردان، انك قد أصبحت واحدا منا، تكلم».

شعر مردان باعتزاز لم يعهده من قبل، وبلغت الفرحة الى درجة كاد أن يجهش بالبكاء، قال بصوت متشنج:

«ان هؤلاء يجب أن نفعل بهم مثل ما فعل بي رستم وقادر وعباس، بحيث ظهرت أمامكم حافيا حاسر الرأس كأي ضراط تلفضه مجالس الرجال».

علّق رمضان:

«هذا هو كلام الرجل الحقيقي».

قام الشيخ زوراب من مكانه قائلا:

«انني اذا لم أذهب الى ميرزا هذه الليلة، فأنني سأنفجر».

قام مردان هو الآخر من مكانه بسرعة، احتراما للشيخ زوراب وقال:

«أنا مجرد خادم مطيع عندكم، ولا أريد أن أتدخل في شؤونكم، ولكنني اذا لم أقم بعمل ما هذه الليلة فانني سأنفجر أيضا».

ونهض الكل. وقرروا أن يسافروا نفس الليلة، على أن يلحق بهم في اليوم الثاني عدد من العوائل التي أبدت رغبتها للسكن هناك وتولت سنجان الاشراف على أخذ ما ينبغي أخذه من الضروريات، وتقرر أن تسافر معهم زوجة شيخو ورمضان ايضا على أن تبقى زوجة كريم مع الأولاد تشرف على ادارة شؤون بيت الشيخ زوراب، وعندما ودع الشيخ زوراب الاولاد أوصاهم أن يتصرفوا كالرجال ويحافظوا على بنادقهم، ويلزموا الحراسة بالتناوب حتى الصباح، كما وعليهم أن يكلفوا أولاد أعمامهم وأقاربهم في القرى الأخرى بتشديد المراقبة طيلة النهار، وملازمة أي غريب يدخل أرض العشيرة، والتأكد ما اذا كان عابر سبيل أم باحث عن رزق أو

جاسوس جاء يجمع المعلومات، وفي هذه الحالة يمكنهم أن يظهروا أمامه ببنادقهم، ولكن بحذر، ويبلغوه بأن كل فرد في العشيرة بغض النظر عن سنه، يملك بندقية...

وكانت ثمة كميات فائضة من حبوب العام الماضي، قرر الشيخ زوراب بيعها لجهانكير، على أن يشتري مردان البنادق بثمنها. عندما أختلى الشيخ زوراب برمضان، قال له بحزن وألم: «لقد أجبرنا الزمان اللعين أن نعلم أولادنا على الكذب، وأن نبيع المحصول لجهانكير، ولكن، ثق بالله العظيم، اذا لم احقق كذبتي وأحولها الى واقع فأنا لست زوراب...». ورد رمضان بارتياح بأن كرامة العشيرة ومصيرها هما فوق كل أعتبار.

١٧

في وقت متأخر من الليل، وبعد أن اطبق الصمت المطلق على القرية، أتخذ كل من شيخو ومردان مجلسهما فى كوخ الاخير، وراحا يشربان الشاي ويدخنان وهما يضعان مخطط في كيفة الانتقام من البابانيين الذين يريدون بعملهم هذا كسر شوكة كل عشائر المنطقة، وكان مردان يؤكد دوما على ضرورة الاسراع في تأديبهم، قبل أن ينتشر خبر الاعتداء على ميرزا، الذي هو في الوقع اعتداء على عشيرة وادي كفران كلها، بين العشائر الاخرى، اذ ذاك سيفقد وادي كفران هيبته ويتحول الى جدار واطئ يتبول علية كل كلب متسكع. وأبدى مردان عدّة مقترحات، وبعد أن كانت تتم مناقشة كل مقترح من كل الجوانب، كانا ينتقلان الى مقترح آخر: الى أن توقفا كثيرا عند مقترحين، أولهما هو تدبير هجوم ناجح على مركز الشرطة في السنجق والاستيلاء على مشجب السلاح بكامله، واظهار المسألة كما لو أن البابانيين هم الذين قاموا بالعمية، ولا سيما أن الحكومة هي نفسها غاضبة عليهم الآن، ومن ثم تحرك السلطات ضدهم، وثانيهما هو النزول الى عقر دار شيخ البابانيين والقيام تأديبي مناسب. بالنسبة الى المقترح الاول، فلم يوافق عليه شيخو بأعتبار أن ابناء العشائر يجب أن يحلوا مشاكلهم فيما بينهم بعيدا عن تدخل السطة، وزج السلطة في مثل الامور هو عمل جبان يقوم به من لا حول له ولا قوة، كما أنه في حالة تدخل السلطة يجرى سفك الدماء، لأن هذه مسألة تؤدي الى عواقب وخيمة لا يريدها حتى البابانيون أنفسهم. وتوقفا عند المقترح الثاني الذي كان شيخو يعتقد بتعذر وصعوبة تحقيقه، ولما سمع ذلك منه مردان ضحك وقال بكل ثقة بأن تحقيق هذه الخطة هي أسهل من كل الخطط الاخرى وأنه لا يحتاج لتنفيذه الا الى رجل واحد يقوم بحراسة المؤخرة، واذا وجد مثل هذا الشخص فانه مستعد أن يقوم بالعملية حالا. ومنذ اليوم الذي جلب فيه مردان الاسلحة، أصبح ليس فقط موضع ثقة شيخو، بل كل رجال العشيرة مطلقة به، ولذلك فان شيخو كان يأخذ كل كلمة يقولها مردان بمنتهى الجد والثقة. ولما أبدى شيخو تحمسه وإستعداده للمساهمة معه في تنفيذ الفكره، بشرط أن يطلَع على التفاصيل، لكي تكون الخطة مضمونة مائة بالمائة، أمتلأ مردان غبطة ونشوة، وهو يردد بأن هذه العملية ستكون بالنسبة له فرحة العمر التي لن ينساها، ولكي يدخل الاطمئنان في قلب شيخو قال أنه من المستحيل أن يقدم على مغامرة اذا لم يتأكد من نجاحها مائه بالمائه: «انني أعرف كل التفاصيل، ليس فقط عن البابانيين، بل عن كل العشائر المحيطة بنا، لقد دخلت مع جهانكير في حينه في كل زقاق وبيت، وأعرف كل زاوية من

زوايا بيت كبير البابائيين، وحين تركت العمل عند جهانگير أشتغلت عنده راعيا لمدة سنة، والشخص الذي ضرب ميرزا هو ليس من أصل بابائي، بل رجل مجهول الأصل سيء السلوك، لم يبق خادم في بيت شيخهم لم يضاجع زوجته. أما البابائيون أنفسهم فلهم معتقد خاص بهم يحرم القتل والضرب. واذا كان لابد من ضرب أو قتل أحد فأنهم ينفذونه عن طريق ناس من أمثال هذا القوادِ...» أندهش شيخو لما يملكه مردان من معلومات، فقال كما لو أنه تعرف به تواً:

«من أين أرسلك الله الينا يامردان؟»

أجاب مبتهجا:

«حسن حظي هو الذي ساقني اليكم».

قام شيخو من مكانه شادا حزامه بقوة، وقائلا:

«انني لن أستطيع النوم هذه الليلة اذا لم أقم بعمل أنتقامي، هل أنت جاهز؟»

«أنا جاهز، ولكننا نحتاج الى ازميل وقليل من العجين، الازميل عندي، والعجين يجب أن تدبره أنت».

كانت القرية كلها نائمة وقد أطبق عليها صمت عميق. القمر قد غاب فتحولّ كل شيء الى ظلام دامس لا نهائي. وقدرا أنهما سيعودان الى القرية قبل انبلاج الفجر، وعندما عبرا نهر روخانه الى الجانب الثاني أصبحا على مشارف القرية. وبعد فترة استراحة قصيرة استعرضا خلالها الخطة، بأنه ليس ثمة في الدنيا انسان يجرأ للاقتراب من قريتهم. وبعد مسيرة قصيرة أصبحا أمام بيت كبير ببوابة وجدران عالية. قال مردان:

«لقد أشتغلت بنفسي في بناء هذا البيت، انك يجب أن تشيد لنفسك بيتا أحسن من هذا».

ثم مالا الى الجانب الاخر من الجدار، وعند نقطة معينة توقف مردان مواصلا كلامه، وهو يقفز من على ظهر حصانه:

«هنا توجد فتحة لتصريف مياه المطر».

وقفز شيخو هو الآخر بخفة من على ظهر حصانه. وراح مردان ينشغل بالفتحة ويتفحصها بيديه. قال شيخو:

«أنني، كما أتفقنا، سأبقى دون أن اتحرك من هذا المكان، واذا حصل أي هجوم مباغت فانني سأطلق الرصاص للتخويف فقط».

أخرج مردان رأسه من الفتحة قائلا:

«أنهم نائمون مثل الموتى، فلا هجوم ولا هم يحزنون... انني يجب أن أوسع الفتحة، أنا لا أدرى كيف خرج رأسي من كسّ أمي».

لم يستطع شيخو أن يتغلب على ضحكته، وكان خائفا بعض الشيء، بيد أنه حين أحس بأن مردان يتصرف بدم في منتهى البرودة، زال خوفه. وكان مردان يضرب بأزميله ضربات خبير بدون صوت و قال بصوت خافت:

«من المستحسن أن تهيء العجينة وتمسح بها أبطك، فاذا ظهر فجأة كلب، ترمي له قطعة منها».

«اطمئن، العجينة بيدي».

أبتسم مردان وقال مازحا:

«يبدو أنك يا شيخو بك من رجال الليل...»

«وماذا كنت تتصورني؟...أنتبه ولا تتكلم كثيرا، ان بإمكان المرء أن يسمعك من الجانب الثاني...»

مرت عليه فترة غير قصيرة وهو يوسع الحفرة، أراد شيخو أن يساعده ولكنه رفض، بحجة أن الحفر بدون احداث الصوت فن لا يتقنه الاّ اللص الاصيل. ولما تأكد أنه يستطيع العبور من خلال الفتحة، وقف قائلا:

«وراء الجدار مباشرة على مبعدة عشرين خطوة يرقد الخادم القوادّ على الارض. وأما رئيسه فينام على دكة طينية تبعد عنه أربع خطوات فقط، ان المكان كله يعزله جدار عن بقية البيت، اذا أردت ان تصل اليه عن طريق البوابة فيجب عليك أن تلتف حول حديقة كبيرة. ماذا تقول؟... هذه الآن آخر فرصة، هل ارغم الحارس للخروج من الفتحة بغية ضربه ضربا مبرحا في مكان بعيد ثم ارجاعه حافيا الى أهله؟...»

«دعنا الآن يا مردان من هذه الامور الصبيانية، هياً، ابدأ والاّ سيأخذنا الوقت قد اتفقنا على كل شيء وأنتهى...»

زحف مردان مخترقاً الفتحة بصعوبة، وعندما أصبح في الجانب الثاني مدّ يده وتسلم البندقية من يد شيخو ثم جلس القرفصاء يجيل عينيه في انحاء المكان كان كل شيء كسابق عهده، سوى أنهم بنوا أصطبلا صغيرا في الجانب الايمن من الفتحة، ملاصقا للسور يسع لحصان واحد هو على الارجع حصان الشيخ نفسه، والذي طالما قدّم له مردان العلف وأخذه الى الساقية. أطلق الحصان صهيلا اليفا صغيرا، أفزع مردان، ولكنه عرف من صهيله انه هو بالذات، فتقدم منه مطوقا عنقه بساعده، ثم راح يمسد رأسه، فهدأ، وهمس في أذنه:

«لو كنت أعرف أنك وراء الجدار، لحفرت فيه فتحة بحجمك».

تمدد على الارض وراح يزحف بأتجاه الحارس. كان مستغرقا في نوم عميق، يطلق شخيرا منتظما والى جانبه بندقيته وحزام الخراطيش.

وضع رجله اليسرى على عنقه، وفوهة البندقية على فمه مباشره، وراح يدوس برجله على صدره بقوة، فتح عينيه ناظرا كالميت، محاولا الكلام، ولكن لم تصدر منه سوى تأوهات مضطربة يائسة، تذكر مردان في تلك اللحظة جسم ميرزا الهزيل الذي تقاطعت علية خيوط من الجروح المتهبة، والشيخ زوراب مشغول بجبر كسوره في ساعده الايسر وضلوعه. ضغط بقوة على رأسه. أخرج خرطوشة من حزامه وتوجه الى الشيخ بعد أن تنكب بندقية الحارس وألقى بحزام خراطيشه على كتفه. وقف قرب الدكة الكبيرة المفروشة بالسجاد، وأستغرب لكثرة الوسائد المحاطة به. كان قد استلقى على جانبه الايسر مطوقا رأسه بساعده الايمن وهو يتنفس برتابة، وأمامة مسدس ويلي من نفس النوع الذي يحمله شيخو. حمل المسدس وأفرغة من خراطيشه معيدا اياه الى مكانه وواضعا خرطوشة بندقية فوقه، ثم مدّ يده وسحب برفق حزام الخراطيش الرفيع المطرز بنقوش فضية تلمع في ضوء النجوم الباهت، ملقيا اياه هو الاخر على كتفه وأنصرف، وقبل أن يمد البندقيتين والحزامين الى الفتحة، عانق الحصان بقوة. ثم راح يزحف بخفة لم يعهد بها من قبل، يملؤه شعور من أحتل العالم كله. وحين خرج من الفتحة، جره شيخو بقوة وطوقه بساعديه وهو يقبله في كل مكان من وجهه مرددا: «أنت ابن أبي يا مردان... أنت ابن أبي... » وكان مردان هو الاخر يعانقه ويوزع القبلات على وجهه، وعندما أنتهيا من العناق قفزا على ظهرى حصانيهما، قال مردان فرحا:

«لقد جئت الى الدنيا هذه الليلة يا شيخو بك، هل تدرى ماذا فعلت بهم؟... لقد فعلت بهم مثلما فعل بي الاولاد».

قال شيخو وهو يكاد لا يصدق ما حصل، لذلك جاء صوته كأنه يحلم:

«انك قد رفعت رأس العشيرة يا مردان، انك تاجها».

«أنا خادم العشيرة يا شيخو بك، التاج الحقيقي هو أنت الذي تنازلت وجئت مع خادم مثلي ما عليه سوى أن ينفذ ما يطلبه منه سيده».

عندما ذهب شيخو لجلب العجينة من الخيمة قبل ذهابهما للإنتقام من البابانيين كان الكل نائمين، عدا كريم الذي كان جالسا قرب فراش ميرزا الذي تمكن أن ينام بعد أن خفت آلامهُ. وأبلغه شيخو بأنه سيترك القرية مع مردان الى مركز السنجق لزيارة أحد الاصدقاء، وأنهما سيعودان قبل انبلاج الفجر، ولذلك لاداعي أن يقلق أحد اذا وجد فراشه خاليا. وكان كريم وفاطمة يحاولان منذ ثلاثة أيام عبثا ايجاد فرصة للقاء، ونفذ صبرهما، ولذلك قررا، بعد أن التقيا صدفه في مكان خال من العيون قرب البيادر، أن يسهرا الى أن ينام الجميع، ومن ثمّ يلتقيان قرب مخزن التين القديم الذي شهد لقاءهما الاول. وما أن انصرف شيخو، الا وقفز كريم بخفة، هارعاً الى مكان اللقاء، كانت تنتظره هناك على أحر من الجمر، وحين أقترب منها طوقته بساعديها

وهي تقبله بشراهة من عنقه وفمه وكل جزء من وجهه وهي تذرف الدموع: «كنت أفكر فيك طيلة الوقت بدون انقطاع، كنت أعتقد انك لن ترجع الينا، ان سعادتي لا حدود لها يا نور عيني، ياشمسي» ودفن رأسه في عنقها الطرى ورائحة الخزامى. تخدره وراحت تلثم يده ثم تلعق أصابعه واحدا تلو أخر. قال وهو يشم رائحتها:

«وهابو؟ ماذا اذا استيقظ الآن ولم يجدك في الفراش؟»

«قلت له انني سأنام عند عمتي سنجان، وها هو لحافي معي».

قال وهو يمرر أصابعه برفق على نهديها النافرين:

«أنت أذن الآن عند سنجان، فكرة حسنة، وهل هي تعرف بذلك؟»

«قلت لها بأني سآتي في وقت متأخر، المهم انها اذا أستيقظت في اليوم التالي عليها أن لا تستغرب اذا وجدتني نائمة بالقرب منها. هل فرحت زوجتك بعودتك؟»

فهم كريم مغزى سؤالها، فأرتاح له مستفسرا:

«هل أنت تغارين منها؟»

ضمت يديه الى صدرها بقوة لاثمة اياهما، وأجابت:

«أنا أغار من كل شيء، أغار الشمس حين تقبلك بأشعتها. كان العم ميرزا هو سلواي الوحيد، كنت أجلس ساعات في الخيمة، وأنا أمنّي نفسي بالهواء الذي تنفسته، لو كنت تدري يا كريم أي نار تشتغل في قبلي».

مرر أصابعه في ثنايا شعرها، وكانت هي أتكأت برأسها على كتفه، واضعة شفتيها على عنقه، وفي أعماقه يسرى نفس الخدر الجنوبي الذي كان ينتابه حين يلتقي بالجنية (في)، ولعل الجنية (في) قد تملصت من عالمها اللامرئي وتقمصت شخص فاطمة، والاّ لم هذه العواطف الجياشة التي تتدفق في شرايينه مثل النار، والتي لم يعهدها من قبل، لا بل أن خفقان قلبه الآن هو أشد مما كان عليه عند لقائه بالجنيه التي لم يبد منها أي أثر منذ تعرفه على فاطمة:

«فاطمة، كنت وراء كل صخرة من صخور وادي كفران، ووراء كل نجمة من نجوم سمائه. انني أعرف الآن ما هو العشق الحقيقي، لقد تذكرتك حتى في تكية الشيخ، أنا أدور في حلقة الذكر ولساني يلهج بأسم الله وبأسمك. أنك قد سلبت عقلي وقلبي».

لا يدريان كم من الوقت بقيا هكذا ملتصقين ببعضهما، وكان كل شيء يبدو لهما كحلم لا زمن له، وهما يتأوهان ويكادان يلتهمان بعضهما، وحين راح هو يلثم ذقنها ويلعقه ثم يعضه برفق، أحستً هي برغبة جارفة في مضاجعته، فقالت وهي تجر اللحاف من على الجدار الوطيء:

«هيًا يا كريم، لنذهب الى خارج القرية، انني لا أتحمل بعد».

«سنذهب الى كوخ مردان، حيث كان لقاؤنا الاول، وسنبقى هناك الى ما قبل انبلاج الفجر حى أرتوى منك، وقبل أن يرجع أخي شيخو ورمضان تتسللين الى زاوية سنجان من المدخل الخلفي للخيمة، اذ ذاك أستطيع أن أنام ايضا براحة بال، حيث تستطيعين أن تتدحرجي خطوتين، فتكونين في حضني بالجانب الثاني من الخيمة».

كان هواء تموز دافئا جافا، تتخلله موجات منعشة تعمل شيئا من رطوبة نهر روخانه القريب، أحس هو بالحرارة فنزع ملابسه، قائلا، وهو يفكر في زوجته التي كانت ترفض دوما أن تبدو أمامه عارية:

«فاطمة، أحب أن أراك عارية كما ولدتك أمك، هل توافقين على ذلك؟»

نزعت ملابسها بسرعة، قائلة:

«ماذا يعني هل توافقين، سأنزع لك قلبي ان طلبت منى ذلك».

لم ير كريم في حياته إمراة عارية، سوى الجنية التي كانت تأتيه أحيانا عارية دون أن يتمكن من لمسها، وحين كان يضاجع زوجته أو أية امرأة أخرى من عشيقاته اللواتي طالما كان يتسلل اليهن في جنح الليل، أو في مكان بعيد خارج القرية فأنه لم يكن يفكر في أن يراهن عاريات، ولا يدري هو نفسه لماذا لم تخطر بباله مثل هذه الفكرة. وكان أن انتقل الى السماء، وأنفرد بحورية من حوريات الفردوس، هي اجمل نجمة من نجوم الكون، وهبطت عليه هو الذي أراد أن يصعد السماء كي يعيش هناك مع الجنية (في) الى الابد، بيد أنهم أنزلوه من هناك ليعثر على جني أخرى ينتقل معها الى سماء أخرى. لم يرتو منها، ولا هي أرتوت منه، كان ضمأهما يزداد أكثر فأكثر، ولم يحسا الوقت الاّ حين سمعا وقع حوافر حصاني شيخو ومردان، وهي ترتطم بالارض الصلدة، شاقة سكون الليل من بعيد. وتوجها بخفة الى الخيمة وكأن شيئا لم يكن، بيد أن قلبيهما كانا يحلقان مثل طائرين تائهين، شُرداً من عشيهما في ظلام الليل الدامس.

١٨

أنتشر خبر الاعتداء الآثم على عشيرة وادي كفران الآمنه والمعروفة بوداعتها وطيبتها، كسريان النار في الهشيم. لقد أستقبل الجميع الخبر بغضب، ففي مركز السنجق أقسم جهانگير بطلاقه بأنه سيزود وادي كفران بمختلف أنواع الاسلحة من ماله الخاص، وندد مراد جاووش بالبابائيين الذين راحوا يتجاوزون كل الاعراف والتقاليد وحلف هو الاخر بأنه سيلقنهم درسا لن ينسوه. وعبر شيخ التكية البرزنجية عن غضبه لهؤلاء الذين وصفهم بفاقدي الايمان والذين ينبغي أن ينالوا عقابهم العادل. وأما رؤساء العشائر المجاورة فأرسلوا وفودا الى الشيخ زوراب، تعبر عن تذمرهم وأستعدادهم للوقوف الى جانب وادي كفران. وأما خبر الانتقام فقد أنتشر هو الاخر ولكن بصورة أسرع من الاول، حتى أن بعض الناس سمعوا الخبرين في آن واحد، على أن بعضهم سمع خبر الانتقام دون أن يسمع الخبر الاول. ولَما كان الانتقام سريعا ومفاجئا مثل صاعقة ربيعية، فانه لفت لأول مرة في حياة وادي كفران انتباه الجميع اليه، فراحوا ينسجون الاساطير حوله، ويرددون أسمه في كل مجلس. وأما قصة الانتقام فقد رويت بمختلف الاشكال، كما وراح الناس سواء في مركز السنجق او في العشائر الاخرى، يقدمون مختلف التنبؤات لردود الفعل من قبل البابائيين، والتطورات التي ستتعقبها بين العشيرتين، حتى أن بعض الناس راحوا يتراهنون فيما بينهم حول ما سيتمخض عنه الايام المقبلة: تنبأ بعضهم أن المنازعات بين العشيرتين ستؤدي الى اراقة الدماء وتستمر الى أبد الآبدين، وأكد قسم آخر أن البابائيين سيمسحون الكفرانيين من الوجود، وان الانتقام الذي التجأوا اليه يشكل أكبر حماقة في حياتهم. ورأى فريق آخر أن ما قام به الكفرانيون هو أعظم عمل قاموا به، وان هذا العمل سيظل يذكر الى الأبد، وأن هذه العشيرة المنسية والمنزوية بين الجبال، والتي كان لا يذكر أسمها لا بالعير ولا بالنفير، قد صنعت بأنتقامها هذا لنفسها، أسما لا ينسى.

وأما أفراد عشيرة البابائيين أنفسهم، فقد نزل الخبر عليهم كالصاعقة، ورغم أن بيت الشيخ حاول أن يكتم الخبر، وأحاطه بسرية تامة، فأنه قد أنتشر في كل بيت. ولما كانت العشيرة لم يسبق لها أن تلقت مثل هذه الضربة، لذلك بقيت ساهمة شاردة معقودة اللسان، لا تعرف كيف تفسر وكيف تعلَق. انها حادثة خارقة في حياة البابائيين. ان من يقوم بهذا العمل في عقر دار رئيسهم، يستطيع أن يقوم بأسوأ منه. لقد كان الفاعل يستطيع أن يقتله في فراشه وينتهك جثته، بل أنه كان يستطيع أن يذبحه ويأخذ رأسه، ولكنه كان إنساناً له قيمه، لقد أكتفى بقتل الحارس.

ولكن هل هناك اهانة وانتقاما أشد من هذه؟... أن يفرغ المسدس من خراطيشه وتوضع فوقه في الظلام الدامس خرطوشة بصورة عمودية، واقفة على قاعدتها؟... الا يدل هذا على أن الفاعل كان هادئا لا يعرف الارتباك؟... هكذا يكون الانتقام وإلا فلا... وأنتظرت العشيرة بكاملها رد فعل الشيخ وما سيقوله ويخططه.

وأما الشيخ بابا نفسه فإنه استيقظ كعادته قبل شروق الشمس، وظل يسترجع في ذهنه أجواء الحلم الغريب الذي رآه في تلك الليلة دون أن يترك فراشه بيد ما أن وقعت عيناه فجأة على الخرطوشه المنتصبة فوق المسدس، حتى قفز من فراشه كالمجنون ينادي عبثا على حارسه، فهرع نحوه حافيا. وفجأة وقف أمام المنظر الرهيب كمن تجمد في مكانه وهو يتأمل الرأس الغارق في بركة من الدم، ثم رجع بخطوات متثاقلة، كسيرة الى فراشه وهو يحس برخاوة غريبة في ركبتيه، وما أن جلس على حافة فراشه الا وأنتصبت أمامه صورة ميرزا وهو يتهاوى أمام ضربات السوط وركلات الحصان، قال في نفسه وهو منكس الرأس يتأمل رجليه العاريتين: «هكذا يكون الانتقام والا فلا...». وتذكر الحلم مرة أخرى: ميرزا والشيخ زوراب وآخرون من عشيرة وادي كفران، يعانقونه بحفاوة بالغة في مكان ما خارج أراضي عشيرته، تصورها في الحلم تابعة لوادي كفران، ثم وجد نفسه فجأة مع حارسه وهما يقفان على حافة هاوية لا قرار لها. وكانت الارض تحت أرجلهم رخوة، وعندما ارادا ترك الحافة، مادت بهما فسقطا في الهاويه، وبغتة ظهر أمامه شيخو فمسكه بكلتا يديه وأعاده مرة أخرى الى نفس المكان الاول الذي التقى بهم في وادي كفران، وأما حارسه فسقط في أعماق الهاوية محدثا دويا هائلا رددت صداه الوديان.

وقبل أن يعلن الحادث لأحد، أجتمع بالسيد مام برا حق وأخبره بأنه رأى حلما وأنه يريد أن يرويه له ويعلن له عن وقوع حادث مفجع. طلب اليه المام أن لا يحدثه بأي شيء، بل عليه قبل كل شيء ان يغتسل ويتلو آيات من مصحف يارستان المقدس وبعد أن نفذ ما طلب اليه روى له بالتفصيل حلمه، ثم طلب اليه السيد أن يروي له الحلم مرة أخرى، وهو يقلب بين يديه أوراق مخطوط كبير وقديم، ثم سأله ما اذا كان قد أخبر أحدا بالحادث المفجع، فأجاب بأنه لم يلتق بأحد قبله وهو مازال الشخص الوحيد الذي يعرف بالحادث. وقال السيد وهو يضع المخطوط بكلتا يدية ويرفق على منضدة صغيرة:

«هل حدثتني أنا بالحادث»؟

«كلا يا برا حق، سأحدثك به الآن».

رفع السيد يده اليمنى المعروقة مؤشرا بالتوقف عن الكلام، بينما راح يمسد بيسراه لحيته الطويلة البيضاء، وقال:

«كلا، يا شيخ بابا، أنا الذي سأحدثك به، لقد حذرتك مرارا وتكرارا من التصرفات التي لا يقبلها مذهب أهل الحق، وها أن الانتقام جاء في مكانه. كان من المفروض أن تكون روحك الآن في السماء السابعة، وجئتك مقطعة بين أيدينا، هل تدري أي كارثة كانت ستحل بالعشيرة اذ ذاك؟... انني لا يسعني ألاّ أن احمد ربّ أهل الحق الذي أدخل الرحمة في قلب الشخص الذي جعل من حارسك قربانا لك.»

«أفهم من كلامك أنك لست الى جانب الانتقام يا برا حق».

«ان أي محاولة منك للانتقام سيؤدي هذه المرة الى حرق كبدك، الى قتل أولادك، ثم أن الذين رأيتهم في الحلم قد أصبحوا حسب مراسيم مذهبنا أخوانا لك، فكيف تريد أن تقاتل اخوانك؟... أم أنك تريد أن تبدع لنا من عندك شريعة جديدة»؟

«كلا يا برا حق، انني خادم المذهب وعبد رب أهل الحق».

وبعد الانتهاء من تناول طعام الفطور، الذي استغنى عنه الشيخ بابا، مكتفيا بشرب عدة فناجين قهوة، أجتمع مجلس شيوخ العشيرة، وقرر بعد المداولات والمناقاشات الطويلة وأخذ رأي السيد برا حق، مصاهرة عشيرة وادي كفران وتكوين علاقة دم معها، والعودة الي المصحف وتفسيرات برا حق في كل ما يتعلق بأمور الدنيا.

تلقى مراد جاووش أوامر من كركوك، تطلب اليه وضع حد لتصرفات البابائيين الذين تكاثرت الشكاوى ضدهم، فجهّز وحده من خيرة مقاتليه مسلحين بأحسن الاسلحة من ضمنها مدفع، وعندما وصلت الوحدة الى قرية زوراب في طريقها الى قرية شيخ البابائيين، رفض الشيخ زوراب رفضا قاطعا، مسألة تدخل السلطة في شؤون العشائر، وطلب اليهم العودة الى حيث أتوا، والاّ فان عشيرة وادي كفران ستضطر للدفاع عن البابائيين. واستغرب مراد جاووش من هذا الموقف الذي أعتبره أهوجا، مؤكدا بأنه انما جاءكم يحمي الكفرانيين من اعتداءات البابائيين، ولكي يتمكنوا من بناء قريتهم، بعيدا عن ازعاجات هؤلاء. شكره الشيخ زوراب لمشاعره الطيبة، ولكنه اخبره بأن مسألة تأديب المعتدي هو من صميم واجبات العشائر، ثم أن العشائر هي نفسها كفيلة بحل مشاكلها فيما بينها.

ولأول مرة يسافر كريم الى مركز السنجق ويتعرف على جهانكير الذي قال عنه أنه رجل غريب الاطوار. ورجع هو ومردان في وقت متأخر من الليل مهربين كمية محترمة من البنادق والعتاد التي تبرع بها جهانكير. وفي القرية انتهوا من بناء برج عالٍ للمراقبة بطابقين، يمكن من خلاله مراقبة كل الجهات، وبنوا عدة حواجز ومتاريس، ولا سيما في الجهة المؤدية الى مناطق البابائيين. وأبى شيخو أن يبني لنفسه بيتا كبيرا أو قصرا على غرار رؤساء العشائر الآخرين، بل

أكتفى أن تكون الفسحة كبيرة جدا بجدران سميكة وعالية، وببوابة كبيرة تعلوها غرفة للمراقبة والحراسة، وفتح جدولا فرعيا من نهر بنعيز يشق الفسحة، حتى يكون الماء الجاري في متناول يدهم. وظلّوا عدة أسابيع وهم يشددون الحراسة ليلا ونهارا، وينتظرون الهجوم المتوقع في أي لحظة. وذات يوم شاهد الحارس المكلف بالمراقبة من فوق البرج قدوم ثلاثة فرسان من جهة البابانيين، فهرع الى الخيمة يخبرهم بالامر، وكان شيخو مشغولا مع عدد كبير من ابناء العشيرة بالبناء. كان يشرف بنفسه على اعداد الطين ومزجه بالتبن، ولا يوافق على استعماله الاّ بعد يومين على الاقل حتى يتخمر بشكل جيّد، اذ أن مقاومته بعد ذلك للامطار وتقلبات الجو تكون قوية.

كان الشيخ زوراب والسيد ورمضان وهابو وميرزا يتمتعون بشرب قهوة الضحى عندما فاجأهم الحارس بالخبر. وكانت كسور وجروح ميرزا قد التأمت، وحين أكدّ الحارس بأن القادمين الثلاثة هم من عشيرة البابانيين، مدوّا ايديهم بصورة لا ارادية الى بنادقهم، هارعين الى خارج الخيمة للتأكد بانفسهم من الامر. وكان السيد هو الوحيد الذي لا يحمل السلاح في القرية، رغم أنهم عرضوا عليه بندقية، فرفضها شاكرا، وقائلا بأن سلاحه هو إيمانه وأن حفيد الرسول لا يجوز أن يحمل السلاح. ورغم أن ملامح الفرسان كانت لا تزال غير واضحة، فقد تأكد لديهم بأنهم من البابانيين، ولكن لم يبد عليهم انهم جاؤا للانتقام، فمن له مثل هذه النيّة يستحيل أن يأتي بثلاثة رجال فقط، ثم أنهم كانوا يتنكبون بنادقهم بصورة تدعو الى السلم: الفوهات منكسة الى تحت، والأخامص الى أعلى. ولكن، كل هذه العلامات لم يقتنع بها الشيخ زوراب قناعة تامة، قد يكون مجمل العملية خداعا وحسب، أو ربما جاءوا للاستطلاع وجمع المعلومات تأهبا لهجومهم المنتظر، ولذلك طلب الى الحارس ورمضان أن يخفيا نفسيهما وراء الخيمة، ويستعدا لأي طاريء، لحين التأكيد من نوايا القادمين. ولاحظ الاضطراب والانفعال على وجهي ميرزا وهابو، فطلب اليهما أن يضبطا أعصابهما ولا يتفوها بأي شيء في حضور الغرباء. وفي هذه اللحظة جاءت سنجان فأخبرت الشيخ زوراب بأنها ارسلت أحدهم لأستدعاء شيخو وكريم، ثم وقفت الى جانب الشيخ زوراب تحدق في الظلال الداكنة الثلاثة التي كانت تقترب ببطء وتتوضح أكثر فأكثر. وبعد فترة قصيرة وصلوا الى نقطة حراسة الطريق المؤدي الى أراضي البابانيين، فلما تصدى لهم الحراس، قال أحدهم بصوت ودي: «نحن ضيوف الشيخ زوراب...». عندما سمع الشيخ زوراب ذلك أنطبعت على وجهه ابتسامة عريضة، وراح ينظر الى عيني سنجان المشرقتين، ثم أجال عينيه في وجوه الآخرين طالبا اليهم اتخاذ أماكنهم في الخيمة، وأما الحارس ورمضان فبقيا حيث كانا.

عندما أصبح الفرسان الثلاثة أمام الخيمة، كان شيخو وكريم قد وصلا أيضا، فتقدما مستقبلين الضيوف. وراحوا يسلمون بنادقهم وزمام خيولهم اليهما معتقدين أنهما من الخدم، ذلك أنهما

جاءآ مكتفيين بغسل أيديهما ومرتديين ملابس العمل الملطخة بالطين. وفي هذه الاثناء خرج الشيخ زوراب والاخرون من الخيمة للترحيب بهم. كان الوفد البابائي يتكون من الكاهن برا حق والنجل الأكبر للشيخ بابا وشخص آخر. نظر الكاهن بعينين نفاذتين الى الشيخ زوراب، وقال بصوت ودي عميق:

«أعتقد جنابك هو الشيخ زوراب»

هزّ الشيخ زوراب رأسه بالايجاب، وقال وقد أشرق بابتسامة ودية:

«نعم يا برا حق».

أردف برا حق مبتسما وهو يعانق الشيخ زوراب:

«لقد عرفتني دون أن تراني من قبل، انني أحسد عشيرة وادي كفران لإمتلاكها رجلا مثلك».

وبعد تبادل العناق والتحايا بين الطرفين، قادهم الشيخ زوراب الى الخيمة، وظلّ واقفا احتراما لضيوفه، وهو يكرر ترحيبه بقدومهم، ثم رجاه برا حق أن يجلس ويتخذ مكانه الى جانبه وهو يجيل نظراته بتفحص في وجوه الجالسين وقال:

«ولكنني أفتقد بينكم شيخو بك».

«شيخو بك هو الشخص الذي تسلم منك زمام الحصان يا برا حق، أنه سيأتي للترحيب بكم مع أخيه كريم بعد أن يستبدلان ملابسهما، اذ أن العمل في بناء القرية يجري ليل نهار، ويجب الانتهاء منه قبل حلول موسم الامطار».مسد برا حق لحيته الطويلة البيضاء بيسراه وقال:

«بارك الله فيكم من عشيرة لا يفرق المرء بين رئيسكم وخادمكم، ان مثل هذه العشيرة اذا ظلّت على هذه الحال فلا يمكن لأحد التغلب عليها».

ثم نظر الى الارض محيطا رأسه بكفيه، وظلّ هنيهة هكذا، كما لو أنه ينتظر وحيا يهبط عليه من قوة خارقة، بينما الصمت يطبق على الكل، وأردف رافعا رأسه فجأة وبحركة تمثيلية:

«ما زال أمامكم وقتا كافيا يا شيخ زوراب، ان الامطار، لحسن حظكم ستتأخر هذه السنة، ولكنها ما أن تبدأ بالهطول فأنها لن تتوقف الاّ بعد أن تغطيّ الورود كل شيء. يبدو لي أنكم قد جلبتم بمجيئكم الى هنا الخير والبركة لكل المنطقة، اذ اننا نعاني منذ ثلاث سنوات من القحط والجفاف».

كان الشيخ زوراب يحسب في ذهنه عدد الايام التي مضت على الاعتداء على ميرزا، وراح يقارنها بعدد الايام التي مرّت على موت حارس الشيخ بابا بضربة مميتة من أخمص بندقية مردان، فتوصل الى الاربعين، فرفع رأسه بعد أن كان يحدق في الارض،وقال:

«أن كل ما نريده من الله سبحانه وتعالى يا برا حق هو أن يعم الخير والبركة، وأن يدخل الرحمة في قلوبنا، وينتصر الحق دوماً.» «هذا خير دعاء يمكن للانسان أن يوجهه الى ربه، ولا شك أن الحق هو الذي ساقنا اليكم. وكم تمنى الشيخ بابا أن يزوركم بنفسه، ولكن ضعفا في ركبتيه قد حال دون ذلك مع الاسف».

وراح الشيخ زوراب يضرب أخماسا بأسداس وهو بين شك ويقين من نوايا هؤلاء. أهي دعوة حقيقية للسلم بعد الانتقام المفاجيء؟... أم أنها مصيدة لإنتقام أشرس؟ ولكن اذا كان هؤلاء يريدون الانتقام حقا، فأن بامكانهم اعلان القتال دون أي خوف أو تردد، وهم ليسوا بحاجة الى مثل هذه الاحابيل، ثم أن مجيء سيدهم برا حق بنفسه، لا يعكس سوى النية الطيبة للسلم وفتح صفحة جديدة بين القبيلتين. ولكن، ربما أن السيد برا حق نفسه لا يدري بالفخ الذي نصبه الشيخ بابا، فأستعمله كأداة لكسب ثقتهم، ريثما يوجه ضربته القاصمة بشكل مباغت، فيبيدهم عن بكرة أبيهم. على كل حال ومهما كان الامر، فان الاشياء قد أتخذت مجراها بهذا الشكل الذي يراه أمامه حقيقة ملموسة بحيث لم يسبق له أن حلم به من قبل، أنهم بالضبط بعد أربعين يوما من مقتل خادمهم يأتون منكسين بنادقهم ومسلمين أياها مع زمام خيولهم بيد ولديه شيخو وكريم، ومهما يكن فان خفيا صادرا من غريزته يخبره بأن هؤلاء جاءوا يسعون الى السلم.

وظل حديثهم مقتصرا على الاشياء العامة كالطقس والزرع، ولم يدخل برا حق في صميم الموضوع الذي جاء من أجله الا بعد الانتهاء من طعام الغداء، حيث همس في اذن الشيخ زوراب بأنهم انما جاءوا من أجل مسألة مهمة وسامية تتعلق بالعلاقة بين القبيلتين، وهم لا يريدون طرحها الاّ أمامه هو أو من يوافق على مشاركتهم، فأخبره الشيخ زوراب بأنه لا يوجد بينهم غريب، وأنه يفضلّ أن يجري الحديث بصورة مكشوفة أمام الحاضرين، لأنهم في كل الاحوال لا يستطيعون إخفاء أي شيء يتعلّق بمصير العشيرة، عن شيخها ورجالها وأما السيّد العربي فسيكون شاهدا عن الرسول لكل ما سيتفق حوله، اذا أراد الله أن يتفق الطرفان. وكان برا حق يفضل أن يجري الحديث مع الشيخ زوراب وولديه فقط، ولكنه ترك الامر للشيخ زوراب الذي لا شك يعرف تقاليد قبيلته أحسن من أي شخص من خارجها، وقال:

«إن ما حصل ، قد حصل نتيجة ارواح الشر، ولكن من حسن حظ الطرفين، فقد تدخلت ملائكة الخير في اللحظة المناسبة. انني أعلن باسم البابائيين الذين يؤمنون ويضحون بكل شيء من أجله، بان كلا من الشيخ زوراب وولديه شيخو بك وكريم وميرزا ورمضان قد أصبحوا حسب تعاليم أهل الحق إخوانا للشيخ بابا، ولا يجوز من الآن والى الابد حدوث أي سوء بين الطرفين، كما أن ارواح الخير قد أمرت على ضرورة أن تختلط دماء الطرفين، ولذلك فاننا نعرض عليكم أبنة أحد أشرافنا كي تكون حلقة وصل تجمع شمل البيتين الى أبد الآبدين، وأنا بانتظار جوابكم القاطع».

كان الصمت مطبقا على الجميع وهم يستمعون بمنتهى الانتباه الى كلمات برا حق التي تنساب دافئة مليئة بالثقة والاطمئنان. وكان يبدو بمنظره المهيب كما لو أنه نبيٌ نصفه الثاني في السماء. واطمأن الشيخ زوراب بأن المسألة جدية حقا، وأنه ليست ثمة خطة انتقامية، وما عليه الآن سوى أن يتجاوز كل عقبة من عقبات المعتقد، فهؤلاء لم يفاتحوا أي عشيرة بالمصاهرة، كما وأن اي عشيرة أخرى لا ولن تفكر بمسألة المصاهرة معها. وأحس بغبطة غامضة تغمر كيانه بصورة لم يعهدها من قبل. وكانت الدماء تتدفق في شرايينه وتمنحه قوة وحيوية غريبتين. وكان الكل ينتظر جوابه، هو الشخص الوحيد المكلفّ بالاجابة الحاسمة: نعم أو لا... كلمة واحدة فقط، ويتقرر كل شيء، والرجل الحقيقي هو من يرد الرجولة بالرجولة. لقد كان ذلك شأنهم منذ الازل. وأنتقلت الوصية من السلف، وبقيت راسخة، مثل جبلي قاجر وبازوخ، فوق أي اعتبار آخر لا يعيق تحقيقها أي حاجز. أجل، الرجل الحقيقي هو من لا يرد الصاع صاعين حسب، بل يرد الرجولة بالرجولة أيضا. والجبان هو من لا يفهم جوهر هذه الحقيقة، وينكث بالعهد ويلتجئ الى الطعن من الخلف، ويغدر بمن لا يستحق الغدر. ولولا رجولتهم هم، لما كان رد فعلهم يكون بهذا الشكل. وبعد هنيهة صمت عميقة ومثيرة، تزاحمت خلالها الافكار في رأس الشيخ زوراب، أجاب:

«ان كل ما كنّا نتمناه يا بر حق، هو أن يُدخِل الله الرحمة في قلوبنا، وها أنه قد أستجاب لدعائنا. أننا نستقبل عرضكم بمنتهى الرحب والسعة وبكل فخر، وبالمقابل نعرض عليكم فتاه من حفيداتي».

وبعد أن قاما من مكانيهما ليتعانقا بود، قام الجميع احتراما لهما...

لقد حدث كل ذلك مثل الحلم. وكانت العشائر الاخرى، والسلطة في مركز السنجق والمجالس الخاصة والعامة قد حسبت حساب كل شيء بين القبيلتين، أما أن يأتي وفد من البابائيين ذات يوم الى الكفرانيين، ويحسموا الامور فيما بينهم بهذا الشكل، فلم يدخل في حساباتهم. وأكثر الناس الذين استغربوا لمثل هذه النتيجة هو مراد جاووش الذي هزّ رأسه دهشة للعلاقات العجيبة والغريبة بين العشائر التي لا يمكن لأحد أن يفهمها، ولعله ادرك لأول مرة سبب تحاشي السلطة التدخل في شؤون المنازعات التي تحصل بين العشائر، وتتركهم يحلونها بأنفسهم، كما وتوجس خوفا من هذه العلاقة المريبة التي قد تشكل خطرا على المنطقة كلها. وأكد له جهانگير باعتزاز بانه يعرف جيدا طبيعة أقاربه من عشيرة وادي كفران فهم لا ولن يلتجئوا الى الاعتداء على أحد، ولكنهم رغم أنهم يبدون بسطاء ساذجين وضعفاء، فانهم لا يتسامحون مع من يعتدي عليهم، وعقابهم يكون عادة صارما، وقال بفخر وأعتزاز: «تصور يا مراد أفندي، انهم من اقرب المقربين اليّ، ومع ذلك قاطعوني أكثر من عشرين عاما بحجة انني تعاملت مع اليهود و عشت على الربا...».

وعلم الشيخ بابا بأن الشيخ زوراب يعاني من مشكلة قلة الاخشاب لتسقيف بيوت القرية، فأرسل له كميات كبيرة من جذوع السرو، كما وزودهً بأنواع الفسائل، وأهداه محراثا بثلاثة رؤوس لم يكن الشيخ زوراب أن رأى مثله من قبل. وأما الشيخ زوراب فأهداه مقابل ذلك بندقية جديدة، فرح لها الشيخ بابا كثيراً. وعلم الشيخ زوراب بأن الشيخ بابا يعاني فعلا مرضا في ركبتيه، وأن ذلك لم يكن عذرا موهوما كما أعتقد هو، ولذلك قرر أن يزوره ويعالجه بنفسه وكان هو رئيس العشيرة الوحيد في المنطقة، الذي يزور الشيخ بابا في قصره الذي انبهر به وشبهه بقصور الامراء الفرس أو أمراء بابان، فأمام البوابة الكبيرة أستقبله هو بنفسه متوكئا على عصاه من جهة وعلى أحد أولاده من جهة أخرى. وكان يرافقة شيخو وكريم ورمضان وقد أرتدوا أجمل ملابسهم وزركشوا خيولهم بالاسرجة المطعمة بالنقوش الفضية. وكان عدد كبير من الرجال المسلحين قد توزعوا على جانبي البوابة. وما أن عبرها الشيخ بابا برفقة ضيوفه، الاّ ويدأوا يطلقون النار دفعة واحدة في السماء احتراما للضيوف. وقطعوا طريقا مبلطا بالاحجار تحيطه من الجانبين أعراش الكروم التي أطلت بهاماتها على أشجار الرمان والتين والاترنج، وكان ثمة في نهاية الممر، ممر يتقاطع الى الجانبين يحيطه من الجهتين خطّان من شجرات الورد والدفلة والياسمين...

وفكّر شيخو بجدران بيته التي مازالت لم تتجاوز هامته بعد، ثم راحت عيناه تنتقلان الى عيني رمضان التائهتين اللتين توسعتا عندما التقتا بعيني شيخو الذي فهم كل ما فيهما من المعاني. وأما كريم فتذكر فاطمة وراح يحلم بالاشجار التي ستنمو في قريتهم المقبلة، وتحجب أشعة الشمس بظلالها الوارفة. لقد استغرب كل من شيخو وكريم ورمضان لهذه العلاقة الحميمة التي بدأت بشكل لا يمكن تصورة، سواء بين الشيخ زوراب والشيخ بابا من جهة أو بينهم هم واولاد واقارب الشيخ بابا من جهة أخرى، فقد تصوروا أنفسهم كما لو أنهم ينتمون لهذه العائلة ونشأوا وترعرعوا في هذا البيت الذي وجدوه اليفا يبعث على الطمأنينة. وفي المضيف الكبير الفاخر الذي فرشت أرضه وزينت جدرانه بالسجاد الايراني الجميل حدثهم الشيخ بابا بالتفصيل عن حلمه، ثم أسمعهم من الجهاز السحري العجيب المسمى بالغرامافون بعض الاغاني التركية، وأراهم ساعة جدراية دقاقة وشرح لهم كيفة قراءة الوقت. كان الشيخ زوراب وجماعته ينظرون الى كل هذه الاشياء بعيون مفتوحة، ودهشة عبثا يحاولون اخفاءها. واستطاع رمضان أن يستغل فرصة سانحة ليهمس في أذن شيخو شيئا مما كان يدور في ذهنه: «كنت أعتقد أن جهانگير يملك كل شيء، ولكنه بالمقارنة مع هذا الفيل ليس سوى أرنبا مُجْرَبَاً..» وقال شيخو: «لو كان ميرزا معنا الآن لفضحنا بالتأكيد بأسئلته الغبية».

كان الشيخ بابا يتحدث كثيرا، ويوجه كلامه عادة الى الشيخ زوراب ويسميه أخي، وأستطاع

الشيخ زوراب أن يستغل وقفة صغيرة من كلامه ليقول: «لا تنس يا شيخ بابا بأنني جئت خصيصا كي أعالج ركبتيك، اننا يجب أن نبدأ». قال الشيخ بابا:

«ان الحديث معك طيب يا أخي شيخ زوراب، ولذلك نسيت حتى آلام ركبتي. وطلب شيخ زوراب أن يجلبوا له كمية من الطحين والسمن والماء الساخن وبعد أن أعد العجينة لفها بقطعة قماش وتركها جانبا، ثم أخرج من خرجه قنينة صغيرة راح يدلك ركبتي صاحبه بمحتواها قائلا:

«هذا النفط هو أصل النار يا شيخ بابا، انه سيشفي ركبتيك ويقضي على كل أثر للمرض».

قال الشيخ بابا وهو يحس بالخدر في ركبتيه:

«النار هي كل شيء، هي تهب الحياة وتأخذها يا أخي الشيخ زوراب، هل سمعت أنشودة بابا كركر؟»(•) وراح الشيخ زوراب يتلو الانشودة بصوت متناغم مشغول بتدليك الركبتين بالنفط الاسود:

باوه گوڕگوڕ، باوه گوڕگوڕ، جێگەی نیازی، تۆ بۆ کچ و کوڕ

بەنیازی تۆ هاتووم لە دوور هاتوم بۆ لات بۆ جووتێ کوڕ

باوه گوڕگوڕ، باوه گوڕگور گڕی نوورت دایم بەگڕ

هاتومە لات بەشەرمەوە کوڕ بخەیتە باوەشمەوە

(بابا كركر، بابا كركر، أنت قبلة استجابة دعائنا للبنت والولد

جئتك من بعيد طمعا في تلبية الطلب جئتك من أجل توأمين

بابا كركر، بابا كركر لتتوهج أبدا شعلة نورك

جئتك خجلى لتضع في حضني ولداً)

وضحك الشيخ بابا قائلا:

«لقد أحسنت يا أخي الشيخ زوراب، لا شك أنك قد رافقت نساء كثيرات الى بابا كركر».

«كان ذلك قبل أكثر من خمسين عاما على ما أتذكر، حين نصبنا لأول مرة خيمة بالقرب من النار الأزلية، لقد ظللت طيلة الليل أحدق في اللهب الازرق الذي ينبعث من الارض دون أن ينطفيء، والنساء العاقرات ينشدن هذه الانشودة، ومن كثرة تكرارهن لها حفظتها أنا ايضا بدوري وكما رأيت لم أنسها حتى الآن».

وبعد الإنتهاء من تدليك الركبتين بالنفط، مسحهما بشكل جيد بخرقة، ثم أحاطهما بشرائح العجين الدافئة التي غطاها بالصوف ثم لفهما لفا محكما، وقال:

(•) اعتمدنا في نقل هذه الانشودة على ذاكرة الأديب الكوردي الصديق: فلك الدين الكاكائي.

«والآن يا أخي الشيخ بابا ستبقى جالسا في هذا المكان لا تغادره الاّ للضرورة، وحاول أن لا تمشي لمدةَ ثلاثة أيام، ان ركبتيك بحاجة الى الراحة».

وعندما حاول الشيخ زوراب السفر في نفس اليوم، منعه الشيخ بابا منعا باتا، وقال أن الأخ حين يزور أخاه لأول مرة فإنه يجب أن يبقى عنده على الاقل ثلاثة أيام والاّ فان أواصر الاخوة لا يمكن أن تتوطد. ولما تحجج الشيخ زوراب بكثرة الاشغال وضرورة الانتهاء من بناء القرية، تعهد بأنه سيرسل معه عددا كبيرا من الرجال الاقوياء. ولكي يطمئن أهله في قرية بنعين، أوعز الى ولديه شيخو وكريم بالعودة الى هناك على أن يرجع هو ورمضان بعد ثلاثة أيام. وأرسل معهما الشيخ بابا بالاضافة الى عدد كبير من العمال، بَناءاً معروفا من أهالي كركوك، كان يعيش في قصر الشيخ بابا ويشرف على أمورالصيانة وتنسيق الحديقة والعناية بها. وقبل أن يسافر البناء مع شيخو جرى اجتماع طويل ضمَّ كلا من الشيخ بابا والبناء حسين علي والشيخ زوراب وشيخو، وأما الاخرون فكانوا يراقبون المناقشات عن كثب. نشر البناء خريطة كبيرة على الارض تحتوي على تصميم لقصر الشيخ بابا رسمه مهندس تركي درس في المانيا. كان الشيخ زوراب ينقل عينيه بين كل من الورق ورمضان، ولمّا أستجاب له الاخير بنظرة فيها ابتسامة خفية، ركزّ عينيه في الخطوط الطلسمية المرسومة بعناية وتظاهر بالإنتباه، وأما شيخو وكريم فكانا قد مدا عنقيهما، وهما عبثا يحاولان اخفاء البلاهة المرتسمة على وجهيهما. قال الشيخ بابا، وهو يؤشر بيده الى التصميم:

«ان انسان اذا اراد أن يبني بيتا، فعليه أن يبني مرة واحد فقط أريد أن يكون بيت أخي وأبن أخي شيخو بك نسخة طبق الاصل من بيتي».

كان بيت الشيخ بابا يتكون من ثلاثة أقسام يحيطها سور ارتفاعه خمسة أمتار، سمكه في القاعدة مترين، ويضيق السمك كلما ارتفع الى أن يصل في النهاية الى حافة مدببة، وقد بني السور بطريقة (كنده بس) أي وضع كرات الطين الممزوج بالتين فوق بعضها البعض دون استعمال اللبن او الحجر. كان وضع أكوام الطين يبدأ من نقطة، وعندما ينتهون من الطبقة الاولى بعد الوصول الى نقطة البداية، كانت ثلاثة ارباع السياج تكون قد جفَت تماما بحيث تتحمل الطبقة الجديدة. وكان بناء السور يجري بصور موازية لبناء الغرف والمرافق الاخرى، بخلاف شيخو الذي كان يريد الانتهاء من السور أولا ومن ثم البدء ببناء المرافق الداخلية. وكان الممر الذي يجتاز الحديقة يؤدي الى المضيف المخصص لجلوس الشيخ بابا اليومي مع السيد الكبير وشيوخ العشيرة والفلاحين، أما القسمان الآخران، فأولهما يقع في الجهة اليمنى من المضيف ويسمى الحريم، يُمنع دخوله، الاّ من قبل أقارب الشيخ من الدرجة الاولى، وله بابه الرئيسي الخاص به وفسحته وحديقته، هناك تعيش زوجاته الثلاث وأولاده، ويحتوي القسم على مطبخ ملاصق لبناية الحريم التي تنفسم

بدوها الى ثلاثة أقسام مبنية على الطريقة الشرقية القديمة، تشرف كلها على الفسحة التي تكون عادة أوطأ من الاقسام الاخرى واكبر هذه الاقسام الثلاثة، هو القسم الوسط الذي يرتفع عن القسمين الاخرين بثلاثة أقدام وتحيط به من الجانبين دكتان مستطيلتان من المرمر الابيض الذي حفرت عليهما زخارف ونقوش دقيقة، وكان السقف عاليا بني على شكل قبة، وتمتد على جانبي الجدارين المتقابلين مجموعة من المشاكي والرفوف المزركشة، وهي تحتوي على أنواع الصحون والخزف الصيني، وثمة في نهاية الغرفة الشبيهة بقاعة، دكة مجوفة بأرتفاع ذراع يغطيها قماش ملون يحتوي على صور صيادين يطاردون الغزلان، وتعلو الدكة الطويلة التي تربط الجدراين ثلاثة صناديق مصنوعة من خشب الجوز، تزين كل صندوق صورة رسمت بطريقة بدائية، فالصندوق الاول يحتوي حسب التسلسل على صورة طاووس كرمز لمملكة سليمان، وفي الصورة الثانية يجتمع الملك سليمان بالحيوانات والصورة الثالثة تمثل براق النبي محمد (صلى اللّه عليه وسلم) وهو يطير بجناحيه، وأما بقية الصور على الصندوقين الآخرين فكانت تمثل الامام علي وآل بيته وهم يخوضون المعارك مع يزيد وصحبه، تنتهي في أقصى اليسار بصورة للامام علي وهو يحمل سيفه ذا الفقار، تحيط برأسه هالة من النور كما في الايقونات التي تصور السيد المسيح، كانت الصور التي تمثل الامام علي وآل بيته جميلة بعكس الاعداء القبيحين. كانت هذه الغرفة هي مكان جلوس العائلة. وكان فيما مضى، حين يقضي الشيخ بابا وقتا أطول مع زوجاته وأطفاله الصغار يروي لهم بالتفصيل قصص هذه الصور. كان يبدأ بالنبي نوح، مؤشرا الى جهة الشمال: «هنا على قمة جبل قاجر رست سفينة نوح عليه السلام..»، وتنتهي بأبراهيم الخليل، وفي الجلسة الثانية يبدأ بأبراهيم الخليل وينتهي بالنبي محمد (ص) دون أن يقول صلى الله عليه وسلَم، ويتوقف عن الكلام هنيهة متحسرا ثم يقول: «هنا حدث الخطأ الذي لا يعرفه الكثيرون، أو يعرفونه ولكنهم يتغاضون عن قوله. لقد حدث الخطأ، ولا يعرف أحد حتى الآن من يتحمل الخطأ، ربما فهم جبريل كلام الله خطأ فأنزل الوحي الى محمد، في حين كان من المفروض أن ينزله الى ابن عمه علي».
وذات يوم القى عليه أحد ابنائه سؤالا حيَره: «هل كان الله يتكلم مع جبريل باللغة الكردية؟...» أجاب بكلا، ولكنه هو نفسه أراد أن يعرف بأي لغة يتخاطبان، فالتجأ الى السيد الذي هزّ رأسه للسؤال اللعين، فأوجد له مخرجا قائلا: «ان طرح مثل هذه الاسئلة كفر والحاد وتدخل في شؤون الله...» وأعلمهم هو الآخر بأن يتجنّبوا في المستقبل مثل هذه الاسئلة... وعندما كان ينتهي من رواية القصص، يأخذ قسطا قليلا من الراحة ثم يبدأ بطرح تعليقه الحاسم الذي يبقى سرا يحتفظ به البابائي الاصيل ويتمسك به حتى ولو أدى ذلك الى قطع رأسه: «نحن أهل الحق يا أولادي، لا نهاب أي شيء من أجل قول الحق»، ثم يسترسل في رواية قصة آدم الذي صنعه الله من طين ونفخ فيه روحا: «ولكن، هل تعلمون من الذي كان واقفا في العرش، يطل بقامته المهيبة على صنع آدم؟» ويجيب الاولاد مقاطعين أياه: «الامام علي علية السلام...» ويهز الشيخ بابا رأسه

بارتياح ويقتنع بأن الاولاد قد أستوعبوا الحقائق.

وأما الغرفة الواقعة في اقصى اليمين، فكانت عبارة عن طابقين معتمين، وثمة سلَم خشبي في اقصى الفسحة يؤدي الى الطابق الأعلى، كان السلم لا يستعمل الاّ من قبل الشيخ بابا، وحين كان يصعد الى هناك فيما مضى، يسحب السلَم الى أعلى، وبعد نزوله يسحبه رابطا اياه بقفل حديدي على حلقة في الجدار كي لا يستطيع أحد استعماله. وثمة في نهاية الطابق الاعلى مخبأ سري يحتوى على مجموعة من المخطوطات اليدوية، وصندوق من خشب الجوز بمفتاحين حديديين يحتوي على كنوز العشيرة المتوارثة من الاجداد. وأما الفرمانات التي تسلمها والده فيما مضى سواء من والي بغداد أو من والي الموصل، فكانت محفوظة داخل اسطوانات معدنية، حفظت بدورها داخل صندوق الكنوز. ويبدو أن والي بغداد قد يعمد في حينه، عندما منحهم أراضي متباعدة بين ولايتي بغداد والموصل، وذلك حتى يخفف من خطرهم. ورغم معرفة الشيخ بابا بأن أرضي وادي كفران السهل، كانت مشاعة، فانه أصرّ أمام القائممقام في السنجق قبل تسجيلها بأسم شيخو بك بأنها جزء من أملاكهم، وعندما طلب منه القائممقام أن يثبت ذلك بإبراز فرمان ما، دعاه هو ورهطه الى وليمة كبيرة في قصره علّه يستطيع اقناعه، وكان القائممقام يرغب بتسجيل الاراضي باسم الشيخ بابا، بيد أن اليوزباشي ذكره بأن هناك أوامر مشددة صادرة من والي الموصل بتحجيم أراضي البابائيين، وكان الغرض من اصرار الشيخ بابا واضحا، الا وهو السيطرة على الطريق الذي يربط بين كركوك وبغداد. وخاف القائممقام، وقال للشيخ بابا بأدب: «هل توافق على أن أضع رقبتي تحت رحمة سيف جلاّد الوالي يا شيخ بابا؟ أنت من أهل الحق، فهل ترضى بهذا؟». وتفادياً للإحراج الذي تورط به الشيخ بابا قال: «أنا واثق من وجود الفرمان، ولكنني لا أستطيع العثور عليه، على كل حال، اذا لم أعثر عليه خلال اليومين القادمين، فيمكن تسجيل الاراضي بأسم عشيرة وادي كفران». قال ذلك في حينه اعتقادا منه بأنه سيكون المالك الفعلي لتلك الاراضي بعد أن يخيف هؤلاء البؤساء ممن يدعون بالكفرانيين الذين لا يفرقون بين المنجل والهلال.

وأما القسم الآخر فيقع على الجانب الايسر من المضيف ويتكون من بناية ضخمة مستقلة بطابقين، كل طابق يحتوي على قاعة استقبال كبيرة بقنفات فرنسية تسع لجلوس أكثر من خمسين ضيفا، وشرفتين بواجهات زجاجية، ويحتوي كل طابق أيضا على عشر غرف بمختلف الاحجام، وثمة حديقة خاصه بهذا القسم، تتوسطها بركة مدورة. كان الشيخ بابا قد ورث البيت من أبيه الذي عاشر فيما مضى ولاة بغداد الذين يتناوبون السلطة بين كل سنة أو سنتين تقريبا. وكان والده حصل على فرمانات أراضيه المتفرقة من الوالي محمد رؤوف باشا نفسه. وبني البيت في اوقات متباعدة الى أن انتهى انجازه في عهد الوالي عطاء الله باشا الذي استغنيت عن خدماته

١٨٩٩. ولما كان البيت قريبا من الطريق العام المؤدي الى بغداد، لذلك فان معظم هؤلاء الولاة كانوا يمرون به ويقضون عنده فترة غير قصيرة، سواء عند تعيينهم أو انهاء خدماتهم، فهم في كلتا الحالتين يسلكون نفس الطريق، من والى الباب العالي في استانبول. وبعد وفاته تغيرت الاوضاع، فلم تبق ثمة علاقة بالولاة مباشرة، فارتبطت علاقة الابن بالمتصرف في كركوك والقائممقام في السنجف. وكان هؤلاء ورهطهم حين يحلون عليه ضيفا، يستقبلهم في هذا القسم الذي أنشيء بالحجر والجص وبطريقة أندلسية، بخلاف القسمين الآخرين اللذين استعمل في بنائهما الطين واللبن المجفف في الشمس، وأما الجدران الداخلية فكانت مطلية بالجص.

وضع البناء حسين علي كركوكلي يده اليسرى على تصميم الجانب الايسر قائلا:

«ان انجاز مثل هذا البناء يحتاج الى عدة سنوات يا شيخ، والشيخ زوراب يرد أن ينتهي من بناء بيته والقرية كلها قبل بدء سقوط الامطار، أي أن أقصى ما لدينا من الوقت هو حوالي ثلاثة أشهر. اننا نحتاج الى عصا النبي موسى عليه السلام».

قال الشيخ زوراب متهكما بعد أن تأكد مع نفسه من استحالة تحقيق الفكرة:

«ان هذه العجينة تحتاح الى ماء كثير يا شيخ بابا، ان من لم يتعلم الاكل بالملعقة منذ الصغر، فانه يمدها في كبره الى أنفه. سنبني أكواخنا بأيدينا كما يبني السنونو عشه. هل تريدنا أن نتشبه بأهل المدن، نحن الذين ما زالت احدى رجلنا في خيمة والاخرى في كوخ»؟

قال الشيخ بابا منفعلا: «ان الزمن قد تغير الآن يا أخي يا شيخ زوراب، أنكم من الان فصاعدا تستقبلون ضيوفا من الدولة كالقائممقام والمتصرف ومعهم العشرات من الموظفين والمرافقين، هل تريد أن تسكنهم في الأكواخ؟. ان هذا لا يجوز.».

التفت الشيخ زوراب الى شيخو قائلا:

«أن ما يخص الضيوف القادمين من الدوة يتعلق بك. قرر أنت ما تريد أن تفعله».

قال شيخو:

«اننا حين استلمنا الفرمان، أمرنا القائممقام بنفسه ببناء بيوت تليق برؤساء العشائر، ولكن بناء مثل هذا القصر الفخم عملية ليست سهلة بالنسبة لإمكانياتنا المحدودة».

تدخل البناء حسين علي كركوكلي وحسم الأمر قائلا:

«أرى من المستحسن أن أذهب مع شيخو بك، وهناك يمكننا التحدث في تفاصيل البيت على قطعة الارض مباشرة».

كانت عملية شراء الاسلحة في المدةَ الاخيرة قد أنهكتهم ماديا، فبالاضافة الى ما صرفوه من الليرات الذهبية التي توارثوها عبر أجيال، أتوا على المخزون الاحتياطي من القمح والشعير، فلم

يبق سوى المخزون الجاهز للبذار، وكمية تكفيهم الى الحصاد القادم، واذا لم تتحقق نبوءة برا حق بخصوص تساقط الامطار الغزيرة فان وضعهم سيسوء جدا.

ترك شيخو وكريم القصر منبهرين للأبهة والفخفخة التي يعيش فيهما الشيخ بابا. وبعد أن جرى تناول مختلف أنواع الاحاديث بين شيخو والبنّاء حسين علي، رأى شيخو أن الرجل القادم من المدينة الذي يقرأ طلاسم المخطط ويشرحها كما لو أنه يتنقل بك في أجواء الغرف معطيا طولها وعرضها والكميات التي تحتاج من الحجر والوقت بدقة متناهية، لابد يعرف الكثير من الاشياء الغامضة بالنسبة اليه، ولا سيما ما يتعلق بالامكانات التي توفرت فيما مضى لعائلة الشيخ بابا، ومصادر المال التي أعتمدوا عليها دون أن تنضب، وكيفيةالحصول على الحجر والجص... الخ من الاسئلة الكثيرة التي كانت تهزه، بيد أن أهم شيء كان يدور في ذهبه هو إيجاد مصدر دائمي للمال، وقد أقلقه هذا الموضوع لأول مرة في حياته بصورة جدية عندما قال له والده (عند شراء الوجبة الاخيرة من السلاح): هذه آخر ليرة أملكها...».

وبعد أن رأى شيخو الابهة التي يعيشها الشيخ بابا بأم عينيه، أحس في أعماقه أنه تحول الى أنسان آخر، هو ليس ذلك الرجل الذي كان لا يعرف سوى جبل قاجر وبازوخ اللذين تشرق الشمس كل يوم من بينهما ثم تختفي مساء وراء جبل الامام علي، أو التنقل من هذه الجهة من النهر الى الجانب الثاني. ان هناك اشياء جديدة الآن تتراقص بين عينيه مثل الحلم بدلا من تلك وهي بولاية الموصل، متصرفية كركوك، ولاية بغداد، وهذا الجهاز السحري الذي ينفخ نفير هائل أغاني تركية والذي، قد نسي اسمه. الشيخ بابا رئيس عشيرة وهو الغارق الى ركبتيه في الوحل تحت أشعة الشمس المحرقة، أيضا رئيس عشيرة، وراح سيلا من الاسئلة التي تدور في رأسه الى الاسطة حسين علي كركوكلي، وحلم أن يكسبهُ الى جانبه كما كسب مردان، فاذا كان مردان جريئا الى درجة الحماقة والتهور، فهذا ذكي الى درجة الحكمة والتعقل. ان أجداد الشيخ بابا لم يكونوا أفضل من أجداده هو، كما أن عشيرته، أيضا ليست بأفضل من عشيرته هو، فلماذا إستطاعوا أن يبنوا هذه القصر الذي يبدو كما و أنه جناح في الفردوس؟... وأول ما فعله لإعلان صداقته مع الاسطة حسين هو أن أمر بذبح شاة تحت قديمه، الأمر الذي أثار إستغراب الاسطه الذي قال بدهشة: «ماذا تتصورني يا شيخو بك؟... انني مجرد خادم عند الشيخ بابا» أجاب شيخو بأبتسامة فيها ثقة وألفة:

«اننا هنا يا أسطة حسين لا نفرق بين الخادم والرئيس، أنت بالنسبة لي أسطه، منحك الله عقلا مميزا، ولذلك يجب أن انظر اليك نظرة خاصة، انني اريد أن أتعلم منك».

كان الاسطة حسين حوالي الستين من العمر، قضى أكثر من نصف عمره مع الشيخ بابا، وساهم بنفسه في بناء المرحلة الاخيرة من قصره، ويعتبر نفسه من أقارب البابائين من جهة والدته،

ولكنه لم يسمع من أي واحد منهم مثل هذا الكلام، ولم يحلم أبدا في أن يذبحوا شاة تحت قديمه، وها أن هؤلاء البسطاء يعطونه حقه، ويقدرون امكانياته، فأحس بالاطمئنان وبثقة مطلقة بالنفس لم يسبق له أن عهد بها من قبل. وكان كل من ميرزا وهابو والسيّد ينصتون الى كلامه بكل هيبة ووقار كما لو أنه هو رئيس عشيرة البابائيين. واذ هما يتجولان بين أكوام الطين والاكواخ نصف المنتهية، حيث الكل يعمل مثل خلية نحل، قال شيخو:

«انني، يا أسطة حسين اذا تريد الصراحة اريد أن أبني قصراً أحسن من قصر الشيخ بابا، ولكن ألا تقل لي من اين أدبر المال؟... أمك عاشرتهم وتعرف عنهم الكثير، ألا تقل لي كيف دبروا الاموال لأنجاز كل هذه الفخفخة»؟

كان الاسطة حسين يتوقع أن يطرح عليه مثل هذا السؤال، وكان قد سمع الكثير من والده حول تاريخ البابائيين، قال مبتسما وهو يحدق في عيني شيخو الحالمتين:

«المال الذي تريده يا شيخو بك تحت يديك، ان أموالك أكثر بكثير من الشيخ بابا، ولكنك لا تراه. أنكم الآن لستم في وادي كفران الجبل، بل في وادي كفران السهل، أنتم الآن على أرض هي كانت امتدادا لوادي كفران منذ الازل، ولكنكم كنتم لا تعرفون بها رغم أنكم كنتم تستعملونها كمراعي لحيواناتكم، ولكنها الآن أصبحت ملكا رسميا لكم، وأنتم يجب أن تبدأوا طرازا جديدا من المعيشة بعد حصولكم على الفرمان. هل تعتقد أنك تستطيع انجاز بيتك بسرعة اذا اشتغلت بنفسك؟... ان العمل ليس عيبا، ولكنها مسألة معيبة لعشيرة أن تسمح لرئيسها بأن يطمس في الطين حتى ركبتيه.

ماذا سيقول المصرف أو القائمقام اذا جاء لزيارتك بصورة مفاجئة؟... هل يصح أن يشغل المتصرف أو القائمقام في بيته بأعمال الطين؟. أنت بمثابة المتصرف بين ابناء عشيرتك، وكما يقدم الشعب وأفراد الشرطة والجندرمة والموظفون الولاء الى المتصرف او الى القائمقام، فعلى أنباء عشيرتك ايضا ان يقدموا الولاء المطلق لك. أنت الحاكم المطلق بينهم. ان والد الشيخ بابا لم يصرف فلسا واحدا على ما بناه من جيبه. كان الفلاحون يشتغلون من الفجر الى غروب الشمس، وحتى الطعام الذي كانوا يتناولونه عنده ينتزعه منهم دون أن يحسوا به، وأما الحصول على الجص والحجر فأسهل ما يكون، أنكم تملكون من الجبال الكلسية ما تكفي الدنيا. أعطني عشرة فلاحين، أصنع لك خلال ثلاثة أيام أحسن كورة لانتاج الجص، وأما البارود لتفجير الصخور فيمكنك الحصول عليه رسميا من مركز المتصرفيه أو من السنجق والفحم الحجري والكبريت فسنجلبه من كفري».

وظلّ شيخو أياما تحت تأثير صدمة ما شاهده عند الشيخ بابا وما سمعه من أسطة حسين كركوكلي. كان يبدو حالما شاردا، وهو يفكر في هذه الكثرة من الاشياء التي دخلت دفعة واحدة

رأسه الذي كان خاليا ومرتاحا من مثل هذه الهموم التي راحت تؤرقه، ولأول مرة في حياته يجلس في النوم بعد أن يتقلب طويلا في فراشه، أو ينام نوما متقطعا تتراءى له خلاله أحلام لم يسبق له أن رآها من قبل. وحلم بقصر كبير له عدة مداخل، وظل يتيه في حجراته ودهاليزه الكثيرة وشرفاته المطلة على حدائق جملية تغطيها الورود والازهار الملونة ثم وجد نفسه يمتطي صهوة حصان أبيض، يجري بسرعة فائقة، قاطعا المسافات بين وادي كفران الجبلي ووادي كفران السهل، ولأول مرة يحلم بإمرأة جميلة تأتية نصف عارية الى مخدعه المفروش بالسجاد الايراني والموسلين.

«شيخو بك» كان يقوله أسطة حسين كركوكلي بلهجة صارمة فيها اصرار وقناعة، «انك مخلوق من أجل الرئاسة، انها تليق بك. ان الانسان يميّزك عن الاخرين، حتى وان كنت ترتدي أسمالا، ثق انني حين رأيتك لأول مرة وأنت على ظهر حصانك المزركش، تصورتك أميرا من الأمراء...».

وبعد المداولات والمناقشات الكثيرة التي جرت بينهما، اتفقا على حل انتقالي، الا وهو بناء بيت سريع يمكن الانتهاء منه قبل بدء موسم الامطار، يحتوي على خمس غرف للسكن مع اصطبلات وعنابر، على أن يبدأوا بمشروعهم الكبير في بداية الربيع، اذ «أن العجلة من الشيطان والصبر من الرحمن» كما قال حسين كركوكلي، ثم أنه حتى أب الشيخ بابا حين بدأ ببناء قصره فأنه بدأ اولا بنفس الطريقة. وأراد شيخو أن يقنع أخاه كريم بفكرة القصر ويعيشا فية معا، ولكنه رفضَ رفضاً قاطعا العيش في هذا الجو، وأنه سيظل، كما اتفقوا فيما بينهم، في وادي كفران الجبلي يتردد عليهم باستمرار، وأما بناء القصر كمبدأ فانه يرى بأنه لا بد منه، فالبابائيون ليسوا أفضل منهم. وعندما طرح الرأي على مردان، فرح به كثيرا وقال انه كان يحلم بمثل هذا الشيء وأنه سيساعده في ذلك بكل ما لديه من امكانية، وتعهد بنقل الفحم الحجري الذي تحتاجه كورة الجص كوقود، من كفري بنفسه. وأما ميرزا فأصر أن تبني جماعته بيوتهم في مكان بعيد بعض الشيء عن نواة قرية زوراب، بحيث تبدو كما لو أنها قرية مستقلة بنفسها، فلم يناقشه أحد، سوى أن رمضان علّق بتهكم قائلا: «هذه ليست سوى حماقة أخرى من حماقاتك، والاّ كيف يبني الانسان بيته بعيدا عن مورد الماء؟... وما ذنب النساء كي ينقلن الماء عبر هذه المسافة الطويلة؟.» أجابه ميرزا بلهجة من يخفي سرا: «أنت تفكر بشيء وأنا أفكر بشيء...»

وتكررت زيارات الشيخ زوراب الى بابا، حتى أن السيد قال ذات مرة:

«بعد العداوة حلاوة...» وشفيت ركبتا الشيخ بابا شفاء تاما، الأمر الذي جعل الشيخ بابا والسيد برا حق يُقران بأنه فعلا طبيب حكيم. وكانا يبحثان فيما بينهما في كل مرة أيضا مسألة المصاهرة التي أصبحت أمرا محتوما، وبالنظر لإنشغال جماعة الشيخ زوراب بالبناء من جهة وبحراثة الاراضي الجديدة من جهة أخرى، رأوا أنه من المستحسن تأجيل الزواج الى أشعار آخر.

١٩

كان يوم توديع رستم، يوماً حافلاً لم يسبق لعشيرة وادي كفران أن عاشته من قبل، فلأول مرة في تاريخ العشيرة يخرج صبي لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره لمواصلة الدراسة والانقطاع عن الاهل والعشيرة لفترة غير معلومة قد تصل الى اربع سنوات أو أكثر من يدري..؟ كان الشيخ زوراب لم يكن متحمساً للفكرة، ولكنه تحت تأثير سنجان وشيخو اللذين رأيا أن وجود شخص متعلم في العشيرة مسألة ضرورية جداً، وافق على أن يصبح بعد الانتهاء من الدراسة ملا لقرية زوراب. وأما كريم وزوجته فكانا قد تركا أمر رستم وكل ما يتعلق به للشيخ زوراب وشيخو، وذلك لتواجده الدائم عندهما منذ الصغر. ورغم أن رمضان وميرزا كانا لا يقتنعان بجدوى التعلم والدراسة، فإنهما كانا الى جانب الفكرة وذلك لأن العشيرة بحاجة الى رجل مثل اليوزباشي أو القائمقام، ومن يدري فلعله يصير في رأسه الخير، ويرتقي الى منصب عال من مناصب الدولة. وفي اليوم الذي تم فيه توديعه ذرف الشيخ زوراب لأول مرة في حياته دمعتين، أحس بهما كما لو أنهما تمتصان سنتين من عمره، وبكت سنجان وكذلك بكى كل من رمضان وميرزا وعباس وقادر، ولكن كل على طريقته ويصمت. وأما أمه فكانت تحس بنوع من الكبرياء ولم تبك، بيد أنها بعد يومين أحست بالفراغ، وراحت تجهش بالبكاء.

رافقه الى السنجق كل من شيخو وكريم ومردان، وبعد ان قضوا ليلة عند جهانگير، واصلوا سيرهم الى كركوك بعد ان التحق بهم رمزي، واستغربوا حين رأوا التوديع الاعتيادي من قبل جهانگير وأهله دون ضجة وبكاء ورأى جهانگير انه لا داعي لسفر شيخو وكريم، بل يكفي أن يرافقهما مردان، ولكنهما أكدا أنهما يريدان التعرف على المكان الذي سيعيش فيه ويدرس فيه وما سيحتاجه فيما بعد، وأن الشيخ زوراب أمرهما أن يرافقانه حتى الهدف الأخير.

ورغم تأكيد مردان الدائم على قُصر المسافة بين السنجق وكركوك، فإن شيخو وكريم كانا يعتقدان أنها بعيدة جدا وتقع في أخر الدنيا، ولكنهما استغربا اشد الاستغراب عندما رأيا ان المسافة بين هاتين المدينتين هي أقرب من المسافة بين وادي كفران والسنجق، كما أن قطع هذا الطريق أسهل، ذلك يكاد يكون منبسطاً بعكس الطريق الوعر المؤدي الى وادي كفران، بالاضافة الى وجود حركة دائمة، حيث مجاميع القوافل والعربات التي تجرها الخيول تثير صخباً وضجة يمنحهما وقع الاجراس المتعلقة على رقاب البغال والحمير جوا من الاطمئنان. وبين فينة وأخرى تصادفهم في الطريق سقيفة صغيرة، يسمونها السبيل، تحتوي على حب بماء بارد، يروي به

عابرو السبيل عطشهم. كان فضول ودهشة كل من شيخو وكريم لا يقلان عن نفس المشاعر المستبدة برستم، كانوا يراقبون الأشياء بصمت وذهول، وفي رؤوسهم كثير من الاسئلة المحيرة، بيد أن شيئاً من الكبرياء وعدم الظهور بمظهر الساذج، يجبرانهم على الصمت، فالأشياء ستتوضح بمرور الزمن، فمنذ تسلم الفرمان رأوا وعاشوا ومروا بأشياء لم يسبق لهم أن رأوها حتى في الحلم، فالدينا بكل ما فيها من عجائب والغرائب، أكبر من وادي كفران ونهر آوه سبي ليس النهر الوحيد فيها، وها أنهم يرون بأم أعينهم جبالا أعلى بكثير من جبلي قاجر ويازوخ، ورغم أنها بعيدة جدا فإن قممها العالية المكللة بالثلوج توحي بأن الجبلين الاخيرين ليسا الا تلّين صغيرين. وحين بلغوا مدينة كركوك بقلعتها وقبابها ومنائرها وأسواقها وحركتها الصاخبة، بدت لهم مدينة السنجق كما لو أنها قرية بالمقارنة مع هذا العالم الصاخب، وعندما لاحظ مردان علامات الاستغراب والدهشة على وجوه شيخو وكريم ورستم، حيث رؤوسهم تتلفت يمينا ويساراً، أعلمهم بأن مدينة الموصل أكبر ويقطعها من منتصفها نهر كبير يجري بقوة ويدخل الرعب في النفس.

ورغم مرافقة مردان لرمزي في سفراته مراراً وتكراراً فإنه، عند وصولهم الى المدينة، طلب من رمزي أن يكون هو الدليل، إذ أن الأزقة والطرقات والبيوت المتشابهة تخلط عليه الأمور فلا يستطيع أن يجد سبيله في هذه الشبكة من الازقة، وقال كريم معقبا على كلام مردان:

«انني استطيع أن اغمض عيني وأعثر على كل زاوية من زوايا وادي كفران، أما هذه الأزقة، فلا استطيع أن اجد فيها دربي حتى اذا مررت بها أكثر من الف مرة».

وراح رمزي يشرح لهم بهدوئه المعهود كيفية الوصول الى هدفهم، وبأن الإنسان من المستحيل أن يضيع في هذه المدينة، قال:

«انكم يجب أن لا تنسوا شيئين، كما ينساهما دائما خالي مردان، اولا: أوقاف جادة سي، ثانياً: أوقاف جامعي. الاول، هو الشارع الرئيسي الوحيد الذي يقطع المدينة ويؤدي الى كل الطرق، وأما الثاني فهو أكبر جامع في المدينة ويقع على هذا الشارع، وكل طفل يعرف هذين الشيئين. والجامع هو مكان دراستنا ومعيشتنا».

قال مردان محتجاً:

«في المرة السابقة يا حبيبي ملا رمزي دخلت بنا الى المدينة من مكان غير هذا المكان، وقبله دخلنا ايضاً من مكان اخر، لا أدري في أي بقعة نحن الان، وفي كل مرة كنت تبدل اتجاه الدخول بحجة زيارة صديق، فكيف تريدني أن أتعرف على هذه المسالك التي يضيع فيها حتى الشيطان؟».

قال شيخو ضاحكاً:

«أننا من الان فصاعداً سنثبت على هذا الطريق، فهل عرفته الان؟»

أجاب مردان بلهجة مترددة:

«اذا رجعنا من نفس الطريق، فلا شك انني لا أنساه».

قال رمزي متهكماً:

«نفس الكلام سمعته منك في المرة السابقة».

كان الوقت عصراً حين بلغوا الجامع، وبعد أن اطلعوا على الغرفة التي يسكن فيها رمزي وتسلموا مفتاح غرفة رستم التي حجزها رمزي، تركا متاعيهما ثم ذهبوا جميعاً لتناول الطعام. وكان مردان، يقضي ليلته عادة في خان يقع في قاعدة القلعة بالجانب الثاني من نهر الخاصة قرب الجسر الحجري ويرجع في اليوم الثاني مع أول كروان صغير يتوجه الى السنجق، وكان يفعل ذلك ليس خوفاً من مخاطر الطريق، بل لكي يستطيع الخروج من مسالك المدينة، وما أن يكون الكروان خارج المدينة، الا ويرخي زمام حصانه الذي ينطلق كالسهم مخلفا وراءَهُ سحابة من الغبار الذي يغطي الكروان. وقرروا أن يقضوا ليلتهم في الخان ويتناولوا طعامهم في مطعم الكباب الملاصق له. وبعد ان قطعوا شارع الأوقاف (أوقاف جاده سي) ووصلوا الجسر الحجري، جمدت الخيول في أماكنها، عدا حصان مردان، وهي تدور حول نفسها وترفض العبور، وباءت كل محاولات مردان بالفشل في حث الخيول الاخرى باستعراضات حصانه، وتجمع بعض المارة ينظرون اليهم. ووقفت عربة يجرها حصانان، ينتظر حوذيها أن يفسحوا له المجال بالعبور، تلاه رجل يدفع عربة ثقيلة. سدوا مدخل الجسر وعطلوا حركة المرور دون أن يحسوا بذلك. صاح فيهم رجل كبير في السن على رأسه طربوش مائل، هازا عصاه في الهواء دون أن يفهموا منه شيئاً، تصوره شيخو موظفاً كبيراً أو مسؤولاً عن الجسر، فالتفت الى رمزي قائلاً:

«الا تقل لي يا رمزي، ماذا يريد هذا الأفندي التركي؟»

ولما كان رمزي في الجهة الثانية، ومشغولاً بحصانه الهائج، فلم يسمع كلام الرجل، فتقدم منه بعد أن اضطر للترجل مستفسراً منه باللغة التركية وبأدب، ما اذا كان يريد شيئا، فقال له الرجل بعصبية:

«وشبوا كورد ييشكلرنه سويله بياده اولسونلر». وقبل أن يبدأ رمزي بترجمة كلامه، كانوا قد ترجلوا وهم يجرون خيولهم من أعنتها. وحين عبروا الجسر تنفسوا الصعداء. وبعد ان سلموا خيولهم وأمتعتهم الى صاحب الخان، ساقهم مردان الى مطعم الكباب، وراحت رائحة الشوي تثير شهيتهم وتستفز أمعاءَهم الخاوية. كان مردان سبق وحدثهم عن الكباب الذي لا يوجد لطعمه

مثيل في الدنيا، وها أنهم أمام الكباب والبصل المثروم والخضار الذي يؤكل معه.. وسال لعابهم، وراح مردان يريهم كيفية لف أصابع الكباب التي ينثر عليها مسحوق السماق والبصل المثروم بقرصة الخبز، وبعد أن صنع منها لفة حملها بيديه وراح ينهشها من طرفها، ولما اراد الاخرون تقليده، ضحك رمزي مستفزاً بمردان، وقال وهو يقطع الخبز متناولاً من الكباب قطعة صغيرة:

«ليست هذه، هي الطريقة الوحيدة في أكل الكباب يا خالي مردان. ان من يجلس في المطعم لا يأكل بهذه الطريقة».

لم يرد مردان، فهو عندما يكون مشغولاً بالأكل لا يسمع شيئاً ولا ينطق. وطلبوا وجبة اخرى وشربوا عدة استكانات شاي ودخنوا وهم يراقبون المارة الذين تجد فيهم الباديناني والبدوي والافندي، وأراد كريم أن يسأل عن سبب وجود هذه الكثرة من الناس في المدينة، بيد أن رستم سبقه مستفسراً:

«هل أهل المدينة عندهم عيد هذا اليوم يا رمزي؟»

«كلا الزحام دائماً موجود، معظم الناس يأتون من القرى المجاورة بسبب البيع والشراء».

قال شيخو بعد أن تذكر الافندي:

«انك لم تقل لي يا رمزي ماذا قال ذلك الافندي التركي العجوز، أعتقد أنه شتمنا».

ضحك رمزي قائلاً:

«قال: قل لهؤلاء الاكراد الحمير أن يترجلوا».

قال كريم متألماً:

«لماذا نعتنا هذا الكلب العجوز بالحمير؟ هل أسأنا اليه؟».

«هناك فئة من الاتراك، سواء أسأنا اليهم ام لم نسيء، فهم يرادفون اسم الكردي بالحمار».

قال مردان محاولا اضفاء المرح على الجو:

«ذلك لأن الاكراد يملكون الحمير».

استفسر كريم بجد:

«وهل يطلقون ذلك على العرب أيضاً؟»

أجاب رمزي:

«كلا، انهم يطلقون عليهم عبارة (بيس عرب) أي العربي القذر».

ضحك شيخو هاز رأسه، قائلاً:

«اذن، العرب قذرون ونحن حمير؟ والاتراك؟.. اليست هناك شتيمة خاصة بهم؟»

قال مردان متبجحاً:

«يطلقون عليهم (تركمان بي ايمان) «التركماني بلا ايمان ودين».

علق كريم:

«حمار قذر خير من انسان نظيف بلا دين».

التفت شيخو الى رستم قائلاً وهو يبتسم:

«عليك أذن أن تعوّد اذنيك على مثل هذه العبارات اذا اردت أن تبقى تدرس في المدينة».

قال رمزي بصرامة:

«مثل هذه العبارات غير مسموح بها في المدرسة يا عمي، والا هناك عقوبة الفلقة». كانت الكلمة الاخيرة غير مفهومة للجميع، وأعتقد شيخو أن مردان نتيجة أختلاطه برمزي يعرف ذلك، ولكنه حين وجده ينظر ببلاهة، قال:

«الا تقل لنا يا رمزي ما هي هذه العقوبة؟.. يجب أن نعرف ينتظر ابننا هناك».

«انها عقوبة قاسية، ولكنها لا تطبق الا بعد أن ينبه الطالب عدة مرّات على سلوكه واذا اصر على أفعاله السيئة، اذ ذاك تبدأ الفلقة، حيث يتم شد رجلي المخالف العاريتين بحبل، وترفعان الى الاعلى بعد أن يلقوه على ظهره، ثم يبدأ الضرب بعود الرمان المنقع على باطن الرجلين».

علّق شيخو:

«انها أسوء من عملية خصاء البغل».

التفت مردان باشمئزاز الى رمزي:

«ولكنني لا أعتقد انك مررت بمثل هذه العقوبة».

«كلا، والحمد لله، ولا أعتقد انني سأمر بها».

«ولكنك لا شك رأيتها»..

«المصيبة أنهم يقومون بها أمام أنظار الطلبة».

«ألا يضرط هذا المسكين؟»

«ألف ضرطة بقرش، وتحصل أحيانا أشياء اخرى، تكون الضرطة بالمقارنة بها نعمة».

كانت اشعة الشمس البرتقالية الباهتة تضفي مسحة خريفية على كل شيء، البنايات الخربة القديمة، المقاعد والمصاطب الخشبية المتهرئة المصطفة على الرصيف، قطعان الاغنام والمواشي

المعروضة للبيع، الاسمال البالية التي يرتديها أغلب الناس، الشحّاذون بعاهاتهم وحركاتهم المريبة، الفضلات والقاذورات المكومة هنا وهناك، مجرى نهر خاصة صو الجاف، الذي تحول قاعه الى أخاديد لجداول السيان، وملجأ للكلاب المتسكعة، الازقة والدرابين الضيقة. كان كل شيء غريباً وجديداً عليهم، ومما أثار استغرابهم هو عدم التفات احد اليهم، عكس ماهو عليه الأمر في القرية، وحول هذا الموضوع علّق مردان قائلاً: «ان الناس هنا مشغولون بأنفسهم وأعمالهم، كل واحد يريد أن يكسب على طريقته، فإذا لم ينتبه الانسان على نفسه فإنهم سيقطعون يده..».

وراح يروي لهم ذكرياته عن أيام زمان حين كان يرافق جهانگير العارف بأمور التجارة والاسعار، والذي كان لا يتنازل قيد شعرة في معاملاته، ثم دلهم على تاجر يشتري الصوف بأسعار مغرية، بشرط أن يكون الصوف نقياً وخالياً من الفضلات، وكان رجلاً مؤمناً يضع على رأسه عمامة الحج البيضاء المطرزة بنقوش برتقالية. وعندما دخلوا عليه في غرفته بالخان قام من مكانه ورحب بهم، فلم يجلس، الا بعد أن اتخذوا أماكنهم على المقاعد المفروشة بالسجاد، ودون أن يسألهم نادى على خادمه طالباً منه أن يجلب لهم جميعاً نفرات كباب مع كمية كبيرة من البصل والمخضر. ورغم تنبيهاتهم واعتذاراتهم بأنهم تناولوا طعامهم قبل قليل، ظلّ الرجل مصراً على رأيه ومؤكداً بأنه هو الآخر قد تناول طعامه، ولكن الكباب يؤكل دائماً ولا يمكن للمرء أن يشبع منه، ثم راح يمدح نوعية الكباب الذي يصنعه صاحب المطعم، وان على المرء قبل ان يبادر الى شراء حاجة مهما كان، أن يتأكد من نوعية بائع الحاجة قبل التأكد من نوعية الحاجة نفسها فالناس في هذه الايام يغشون في كل شيء دون أن يهابوا الله، وأن الربح الذي يأتي من الحرام لا يجلب سوى سوء الطالع والنكبات، وانه خير للانسان أن يخسر بضعة قروش من أن يربح قرشاً حراماً. كان ثمة حاجز زجاجي يعزل المكان عن بقية ردهات الخان المليئة بأكوام الصوف التي تنطح السقوف العالية، كان كريم جالساً لصق الحاجز وهو يتأمل بالات الصوف ويمرر رؤوس أصابعه على الزجاج وينتبه بشوق الى لهجة الرجل الاليف التي عرف من خلالها أنه من أهالي السليمانية الذين سمع عنهم بأنهم ينافسون حتى تجار بغداد والموصل، وتذكر صوفهم الذي يصنعون منهم اللباد أو يبيعونه بثمن بخس للباعة المتجولين، قال:

«يبدو لي يا عمي الحاج انك تتاجر فقط بالصوف».

أجاب الرجل بارتياح من كان ينتظر مبادرة أحدهم للكلام:

«نعم، أنني اتاجر فقط بالصوف».

قال شيخو وهو يؤشر بيده الى جهة الحاجز الزجاجي:

«ولكن من يشتري هذه البيادر من الصوف؟».

ابتسم الرجل بألفة وبدت اسنانه الذهبية تحت شاربه الابيض الكث قائلاً:

«الصوف مثل الذهب وهو ضروري لكل انسان، وبدونه يصبح الناس عراة، أنا لا أبيع صوفي الا لمعامل الاقمشة في الموصل وبغداد».

نظر شيخو وكريم الى بعضهما وهما يبتسمان بسخرية، قال شيخو متلفتا الى الرجل:

«بصراحة يا عمي الحاج، نحن عميان وبحاجة الى رجال من أمثالك. صوفنا يذهب هدرا ويضيع بين أيدي الباعة المتجولين».

«انتم لستم وحدكم ممن يعاني مثل هذه المشاكل. انكم كلكم تخافون من المدينة التي هي فعلا مخيفة لمن لا يعرف فيها أحد. أنتم الان والحمد لله قد عرفتم الطريق، وسأعرفكم بدوري بعد تناول الاكل، على ناس يمكنكم الاعتماد عليهم ولا يعرفون الغش، مداساتكم تستطيعون شراءَها من صانع مداسات تركماني محله قريب من هنا، الاقمشة تشترونها من بائع يهودي لا يعرف الغش وأما المؤونة والمواد الغذائية فيمكنكم شرائها من بقال عربي من أهالي الحويجة، أسعاره مغرية جدا وله نوعيات جيدة من الفاصولياء والباقلاء والقيسي»..

وتشعب الحديث، وكان الرجل يؤكد دوما على ضرورة الاخلاص في المعاملات التجارية، وذكر مرتين أسم جهانكير، ولكن بشيء من الامتعاض الذي عبثا حاول إخفاءَهُ، ومدح فكرة دراسة رستم، واعتبرها شيئاً مهماً جداً، وطلب اليهما هو ورمزي أن يزوراه دائماً، ويلجأ اليه اذا صادفتهم عقبة أو مشكلة ثم عاتب رمزي لعدم تردده اليه، فتحاجج رمزي بقلة الوقت وكثرة الواجبات الدراسية الملقاة على عاتقهم، وتعهد أن يزوره باستمرار من الآن فصاعدا.

وتمشوا في اسواق المدينة وهم يتفرجون بامعان على الدكاكين والمخازن والناس وأشتروا بعض الحاجيات الضرورية، وكان رستم مأخوذاً، ساكتاً يبدو له كل شيء غريباً أشبه بحلم يخشى أن يفلت من يديه، ولا يصدق أنه سيبقى لوحده هنا مع رمزي دون الرجوع الى وادي كفران. كانت مشاعره قد شطرته الى شطرين، شطر، في وادي كفران حيث الهدوء المطلق ودفء البيت وولدي عميه وصديقيه قادر وعباس والجولات اليومية على ضفتي نهر آوه سبي وصيد الاسماك وسباق العقارب وركوب الخيل والتنقل بين القرى وحنان الشيخ زوراب وسنجان ومداعبات العم رمضان الذي لا يستطيع المرء أن يفرق بين جده وهزله، كل ذلك يبدو له كما لو أنه كان حدثا قد انقضى بلا عودة، وتخيل المسافة الزمنية بين وادي كفران وهذه المدينة الصاخبة كما لو أنها الف عام. وكم كانت هي جميلة عبارة ألف عام حين كان جده الشيخ زوراب يطلقها بين حين وآخر: هنا على هذه الارض عاش اجدادنا منذ الف عام، هذه الارض هي ملكنا منذ الف عام، نهر آوه سبي يجري هنا منذ الف عام، النبي نوح عليه السلام قد عاش الف

عام. وأما الشطر الثاني، فهنا في هذه المدينة التي أصبحت حقيقة ملموسة منذ ساعات، ورغم أن رمزي كان يحدثه عنها بكل تفصيل، عن شوارعها، أزقتها، أسواقها ومقاهيها وجوامعها، فانها كانت غير موجودة بالنسبة اليه. كان العالم كله بالنسبة اليه يبدأ وينتهي في وادي كفران. وادي كفران هو مركز الكون، فيه تشرق الشمس وتغيب وأصبح فيما بعد كل من مركز السنجق وقرية زوراب أبعد طرفين لهذا العالم الواقع على نهر آوه سبي الذي يحده شرقاً جبلا قاجر ويازوخ وغرباً جبل الامام علي، وأما الان فقد انتهى هذا العالم وولّى الى الابد، وأنه لم يكن سوى بقعة صغيرة من عالم أكبر لا نهاية له. هنا في هذه المدينة ذات الاسواق والازقة والقاذورات تغيب الشمس أيضاً، ويخيّم الظلام، وتشعل الفوانيس كما في السنجق ولكنها هنا أكثر عدداً وإضاءة.

ورغم الفوانيس الكثيرة المعلقة على الجدران ولاسيما في الساحات، فإن الظلام المخيم على المدينة هو أشد مما عليه في وادي كفران، والعفاريت والسعالي التي تظهر في الازقة المقفرة هي أكثر خطورة من عفاريت وادي كفران، ولذلك فإن الناس ما أن تظلم الدنيا، ويبدأ عالم الليل المخيف، يختفون عن الشوارع ويلتجؤون الى بيوتهم. كان يسير معهم ويستمع الى كلامهم وتعليقاتهم ويتجاوب معهم في كل شيء كما لو أنه في حلم. وسألوه عدة مرات ما اذا كان بحاجة الى شيء، فلم ينتبه اليهم، كان يفكر بقادر وعباس وبحصانه وبندقيته، وطفر دمعة من عين قادر وهو يقول: «سوف لا أسمح لأحد أن يركب حصانك طيلة فترة غيابك..». وأما عباس فلا يستطيع أن يكمل كلامه بل يجهش في البكاء وهو يعانقه بقوة. وضرب شيخو على كتفه، قائلاً:

«رستم أين أنت؟».

واستيقظ من شروده، وجد نفسه معهم في محل خياطة، أجل، أنه بحاجة الى بدلة جديدة، السترة والزبون، وبعد أن أخذ الخياط القياسات المطلوبة طلب اليه أن يراجعه بعد اسبوع لإستلامها.

وعندما غابت الشمس توجهوا الى الخان، وبالقرب من الجسر الحجري ودعهم رمزي ورستم على ان يلتقوا غداً ويقوموا بجولة استطلاعية في السوق للتعرف على الاسعار ومواصلة شراء الحاجيات الضرورية. وفي الخان استلقوا على أسرتهم الخشبية وهم يستعرضون ما شاهده منذ وصولهم المدينة، وأبدى شيخو اعجابه أكثر من مرة بشخصية الحاج أمين، تاجر الصوف، وقرر أن يوطّد علاقته معه وأن يزوروا كركوك باستمرار. وروى مردان كيف أن العلاقة بين الحاج أمين وجهانگير كانت وطيدة في البداية، بيد أن أطماع جهانگير وجشعه هي التي جعلت الحاج أمين أن يفقد ثقته به. ورأى كريم أنه من الحماقة الارتباط بسوق السنجق، وأنه كان لايدري أن

المسافة بهذا الشكل، في السنجق لا يوجد غير جهانگير الذي يحدد الاسعار كيفما يشاء، وأما هنا فتستطيع أن تعرض بضاعتك لعشرات التجار، ومن ثَم تبيعها بالسعر الذي يعجبك. قال مردان وهو يحس بالارتياح لنجاحه في ايجاد الصلة بين شيخو والحاج أمين:

«تصوروا، ان جهانگير الان لا يبيع القمح الا بأسعار عالية جدا، وذلك لتأخير موسم المطر وأما هنا فما زالت الاسعار طبيعية، رغم أنها بدأت بالإرتفاع».

علّق شيخو:

«والدي على حق حين يؤكد على جشع جهانگير».

ومرّت عليهم فترة صمت، وراح كل واحد منهم يفكر بأشيأ لم يسبق له أن فكّر بها. قال كريم:

«ان المدينة جميلة وصاخبة، يعجبني أن أزورها بين فترة وأخرى، وأما أن أعيش فيها فمسألة لا يمكنني تصورها».

قال مردان:

«أنا اذا توفر لي السكن والموارد أستطيع العيش فيها، على أن ازور القرية بين فترة وأخرى».

قال شيخو:

«نحن لا نستطيع العيش في مثل هذا الجو الخانق، ولكنني أرى من الضروري إيجاد أساس هنا نركن اليه في زياراتنا القادمة».

قفز مردان من مكانه، وكأنه عثر على شيء وقال:

«أنك تستطيع أن تقرأ الافكار يا شيخو بك، هذا ما كنت أقوله دائماً لجهانگير، اننا نحتاج الى خان صغير نستملكه، الملك رخيص هنا، تستطيع أن تشتري بيتاً بفناء كبير بسعر أربعة بنادق فقط».

هزّ كريم رأسه ضاحكاً وقال باسخفاف:

«لماذا لا تشترون القشلة والسراي؟.. اننا اذا رجعنا بهذا الخيال الى وادي كفران، فإن الشيخ زوراب سيمنعنا من السفر منعا باتاً».

قال شيخو:

«أنا أعرف أبي، انه ضد مثل هذه الخيالات، ولكننا مع ذلك بحاجة الى موقع قدم في هذه المدينة الغريبة».

كانت غرفتهم في الخان عبارة عن قبو بلا نافذة تحتوي على ثلاثة اسرة خشبية حشرت حشرا بموازاة الجدران الثلاثة، تضيؤها لمبة زيتية معلقة على الجدار، ورغم تأكيد صاحب الفندق

بوجود الحراسة المشددة على مجمل الخان، فإنهم قرروا أن يتناوبوا الحراسة فيما بينهم، من يدري؟.. لعل صاحب الخان هو نفسه السارق الذي ينبغي الحذر منه؟

كانت الايام والاسابيع الاولى صعبة بالنسبة الى رستم، الاستيقاظ المبكر قبل شروق الشمس، الوضوء والصلاة خمس مرات في اليوم، الاستحمام بالماء البارد، المساهمة المتناوبة في تنظيف الغرف والفناء، المذاكرة اليومية المشددة، تعلم اللغة التركية والعربية، كثرة الدروس وتنوعها. ورغم أنه كان يعاني بعض الصعوبات، فإنه لم يبد اي تذمر، ونصحه رمزي ان يتحمل الفترة الاولى التي هي حاسمة في حياة أي طالب، اذ من لا قابلية له على التعلم سينهزم، وإلاّ فإن هذا الميدان ليس للخاملين والاغبياء. وكان الطلاب يصنفون الى صنفين، صنف يسمونهم الفقهاء، وكانوا يدرسون مبادىء الدين والفقه والقرآن لفترة لا يتجاوز السنة او السنتين، ويعينون فيما بعد كملالي أو أئمة للجوامع، وأما الصنف الثاني، فيسمونهم طلاب التأهل، يدرسون مبادىء اللغتين العربية والتركية والدين والرياضيات وعلوم الحياة والصحة العامة، وبعد فترة غير محددة قد تمتد الى سنة أو سنتين، حسب كفاءة الطالب، يجرى لهم امتحاناً عاماً يحدد مستقبلهم، وفي حالة الحصول على شهادة التأهل، كان يمكن للطالب حسب اهتماماته وقيافته أن يواصل دراسته في عدة معاهد، مثل دار المعلمين الابتدائية والمدرسة الحربية ومدرسة الشرطة أو المدرسة الطبية وكان معظم هذه المعاهد في الموصل.

ذات يوم جاء رمزي هارعا الى رستم في فرصة الدرس الثالث، خائفا مرتبكاً، فأندهش رستم الذي كان يتدفأ في أحد أركان الساحة الكبيرة بأشعة شمس كانون الثاني، لإرتباكه الذي لم يسبق له أن عهد به من قبل، ناوله تمرة قائلاً بلهجة هادئة:

«هذه آخر تمرة، كلها وقل لي لماذا انت مرتبك؟»

«أنا مرتبك بسببك، هل عملت مشكلة ما؟»

تساءَل رستم باستغراب:

«مشكلة؟.. كلا.. لماذا؟»

«المدير يريدك، والمراقب العام يبحث عنك؟»

«عني أنا؟ لا شك هناك إلتباساً».

ورغم تأكد رستم بأنه لم يقم بأي عمل يخل بنظام المدرسة، فإن هالة من الخوف الغريزي أحاطت بقلبه. وفي هذه اللحظة جاء المراقب العام برفقة ثلاثة طلاب، قال المراقب بعجرفة:

«أنت رستم كريم زوراب؟»

«نعم».

«وهل تعتقد أنك بإخفاء نفسك في هذا الركن ستفلت من قبضة المدير؟ هيا تفضل الى غرفة الناظر».

قال رستم بإعتداد:

«أنا لم أخرج من ساحة المدرسة، ولا داعي أن أخفي نفسي».

علَق أحد الطلبة:

«منذ ثلاثة أشهر والمدرسة لم تشهد الفلقة».

ردَ المراقب بحزم:

«لا أريد أن اسمع تعليقات سخيفة».

كانت هذه المرة الاولى التي يدخل فيها رستم غرفة الناظر، كانت هالة الخوف حول قلبه خفَت، وحين اصبح وجها لوجه امام الناظر تلاشت نهائياً، اذ أن نظراته لا توحي بالشر، وفي أسرع من لمح البصر استطاع أن يجيل عينيه في جميع انحاء الغرفة، يرى بالتفصيل كل شيء، المكتب الخشبي الجميل الذي اصطفت فوقه بانتظام المحابر والاقلام والدفاتر، خزان الكتب المنتصب في الركن وفوقه الكرة الارضية الملونة، كراسي الخيزران، عصا العقوبات، الستائر، صورة السلطان عبد الحميد، صور اخرى لشعراء وفلاسفة اتراك واجانب، وخريطة كبيرة للدولة العثمانية، وسلة المهملات وتقويم معلق على الجدار كتب عليه بخط كبير ١٣٢٦هـ و١٩٠٨م.
كان المدير رجلاً ضخماً يرتدي بدلة الافندية ويضع الطربوش على رأسه، كان واقفاً لصق المكتب، مسندا يده اليسرى على حافته، قال بلهجة ودية لم يتوقعها رستم:

«أسمك؟».

أجاب رستم بلهجة صارمة وبوقفة شبه عسكرية:

«رستم كريم زوراب».

«مذهبك؟».

«مسلم شافعي».

«قوميتك؟».

«كردي».

«عشيرتك؟».

«وادي كفران».

«ما اسم النهر الذي يقطع وادي كفران؟»..

«نهر آوه سبي».

«هذا هو الاسم المحلي، أريد أن تذكر لي الاسم الرسمي الموجود على الخرائط».

«آق صو».

صمت الناظر هنيهة، وراح يذرع الارض ذهاباً واياباً، قال دون أن ينظر اليه:

«هل درست عند الملا يا رستم؟».

«نعم».

«الفترة؟».

«لمدة سنتين».

«هل علمك الكتابة؟»

«كلا، أفندم، هو نفسه لا يعرف الكتابة».

«أجب بقدر السؤال يا رستم، أنا لم أسألك ما اذا كان يعرف الكتابة أم لا»..

«نعم أفندم».

«والان، لماذا لم يعلمك الكتابة».

«لأنه هو نفسه لا يعرف الكتابة».

«هل أنت متأكد أنه لا يعرف الكتابة؟».

«نعم أفندم، لقد طلب جدي زوراب أن يعلمني الكتابة ايضاً، فقال: أنه لا يعرف الكتابة».

«أجب بقدر السؤال يا رستم، أنا لم أسألك عن الحجة التي تدعم كلامك».

«نعم، أفندم».

«والان، هل تستطيع أن تثبت بأنه فعلاً لا يعرف الكتابة؟».

«نعم، أفندم».

صمت الناظر لهنيهة ثم أردف مبتسماً:

«قل لي اذن كيف تعرف ذلك».

«لقد طلب منه جدي زوراب أن يعلمني الكتابة أيضاً، فقال أنه لا يعرف الكتابة».

«هل كنت تعرف اللغة التركية قبل مجيئك الى مدرستنا؟».

«كلا أفندم».

جلس الناظر وراء المكتب، وراح ينقر برؤوس أصابعه على طرفه:

«انظر يا رستم، ان هيئة المعلمين قد قررت إلحاقك بالمدرسة التمهيدية، وهذا يعني أنك ستبقى في مدرستنا لمدة سبعة أشهر أخرى، وبعد ذلك يجب أن تواصل دراستك لمدة أربع سنوات في أحد المعاهد بالموصل وتعمل في أحدى الوظائف المدنية أو ستدرس عندنا سنتين وتعيّن إماماً لأحد المساجد، فماذا تختار».

كان رستم يتوقع من هذه المقابلة الغريبة، وغير المتوقعة كل شيء ولكن أن يوضع أمام خيارين حاسمين، فلم يكن يخطر بباله، قال دون أدنى تردد:

«أحب أن أواصل دراستي في الموصل، أفندم».

هزّ الناظر رأسه بإرتياح:

«الجرأة في إتخاذ القرارات شيء جيد يا بني، ولولا جرأة ماجلان لما تم إكتشاف قارة أمريكا، ولكن قرارك أنت لا يكفي، يجب أن تجلب معك في العطلة الربيعية القادمة مضبطة مؤيدة من قبل مختار السنجق، يوافق فيها ولي أمرك على دراستك في الموصل، وتحمل جزء من نفقة الدراسة على حسابه».

«نعم، أفندم».

«وهل تعتقد أنهم سيوافقون على ذلك؟».

«نعم، أفندم».

«وماذا تريد أن تكون في المستقبل؟.. معلماً؟ ضابطاً؟ موظفا للصحة، أم ادارياً؟».

«أريد أن أكون معلماً، أفندم».

«اختيار جيد يا بني، نحن بحاجة الى معلمين، الجهل يعمّ كل انحاء دولتنا المترامية الاطراف».

قام الناظر من مكانه ببطء ثم اقترب من رستم واضعا يده على كتفه، وهو ينظر بشرود، قائلاً:

«حاول أن تقنع أهلك بكل ما تملك من وسيلة للموافقة على دراستك يا بني، ان هذه الفرصة لن تتكرر، وشهر شباط القادم هو آخر موعد لتسلم المضبطة».

«نعم، أفندم».

«أنصحك بالاستمرار على اجتهادك وسلوكك الجيد، والان يمكنك الذهاب الى درسك».

رفع رستم يده بتحية عسكرية وقال بلهجة واثقة:

«شكراً جزيلاً أفندم».

كان رمزي ينتظر نتيجة المقابلة على أحر من الجمر وعلامات الخوف والإرتباك ما زالت بادية عليه. كان قد حسب ألف حساب خلال فترة المقابلة التي مرّت عليه، مثل دهر من الزمن، فقد كان

يعتبر نفسه المسؤول الاول عن حياة ومصير رستم، الذي سلّموه إياه كأمانة، فلولاه هو لما وافق أحد على دراسته وما زاد من خوفه أيضاً إختفاء بعض الطلبة وأحد المعلمين، والذين قيل بأنهم ينتمون الى جماعة تعمل سراً بإسم «الاتحاد والترقي»، وقد تردد اسم صديقه صائب ايضا الذي لم يبد له أي اثر منذ بدء الدراسة، وعندما لمح رستم وهو يترك غرفة الناظر مبتهجاً بوجه مشرق، تنفس الصعداء، وهرع اليه مستفسراً عن سبب استدعاء الناظر له قال رستم وهو كله فرح وغبطة:

«مسألة كنت لا أتصورها يا رمزي، تصور بعد سبعة أشهر أستحق الدراسة في الموصل:

أجاب رمزي بدهشة:

«مستحيل يا رستم، أخشى أنك لم تفهم الناظر».

«كلا يا رمزي لقد فهمته أحسن من فهمي لهابو البغل، المشكلة أننا يجب أن ندبر مضبطة موقعة من قبل مختار السنجق، يوافق فيها ولي أمري على دراستي في الموصل».

«هذا يعني أنك اختصرت سنة دراسية كاملة يا رستم».

لم ينتبه رستم الى كلام رمزي، بل كان مشغولاً بالتفكير في كيفية انجاز المضبطة واقناع الجد زوراب أو عمه شيخو بالتوقيع عليها، وسرت في أعصابه قشعريرة خوف حين أخبره هاجس من أعماقه بأنهم سوف لا يوافقون على دراسته في الموصل، قال كالمأخوذ:

«انني اخشى أن يخلق لي أهلي مشكلة يا رمزي اذا سمعوا بإسم الموصل»..

«هذه ليست مشكلة، ولكن هل تدري اننا سنذهب سوية الى هناك؟»..

ولم يسبق لرستم أن رأى رمزي من قبل بمثل هذه الانطلاقة والسعادة، كان يركض في ساحة المدرسة فرحاً كما لو أنه طفل صغير، وما لبث أن تجمع عدد من الطلبة لا يتجاوز أصابع اليدين في أحد الاركان، وهم يرقصون ويغنون فرحاً، علم رستم أنهم أيضاً مرشحون مثله للدراسة في المدارس العليا.

كان ذلك في آخر خميس من شهر كانون الثاني، وما أن انتهى الدرس الرابع، الا وهرع كل من رستم ورمزي الى غرفتهما والقيا بحقيبتهما المدرسية في أحد الاركان تاركين الجامع الى المدينة دون تناول الغداء الذي كان يتكون ذلك اليوم من شوربة عدس مع قرصة خبز، وحين سألهما مسؤول مطبخ الجامع ما اذا كانا سيحضرون لتناول طعام العشاء، أجابا بأنهما سيستغنيان عن ذلك. وكان بود رستم لو أنه يستطيع الطيران الى وادي كفران لتبليغ كل أفراد أهله وعشيرته فرداً فرداً بالخبر المفرح، ليرى بعينيه آثار الفرح المنطبعة على وجوههم، ترى ماذا سيكون تعليق عمه رمضان؟.. وماذا سيقول جده زوراب؟.. وما هي انطباعات والده كريم، عمه شيخو، عمه ميرزا، الجدّة سنجان؟.. لا شك أنها الوحيدة التي ستفرح أكثر من الكل، ترى ماذا

سيقول قادر وعباس؟ وأما مردان فستكون فرحته مضاعفة، اذ أنه يستطيع هذه المرة أن يرافقه الى الموصل، وسيظل بعد ذلك يتحدث أسابيع، بل أشهر عن معالم هذه المدينة الاسطورية التي هي صورة مصغرة لأستانبول. ولا شك أن هابو سيعلق هو الاخر، ولكنه هو آخر من يستطيع أن يكون في رأسه صورة واضحة لما يعمله هو في كركوك، وأما أقاربهم وأولاد أعمامهم الذين نزحوا الى وادي كفران، وفي مقدمتهم حمه غريب الابله الذي يهرع الى دفه وسيفه ليشكل بمفرده حلقة الذكر سواء بمناسبة أو غير مناسبة، فإنه بلا شك لا يعرف ما هي كركوك أو الموصل أصلا. اتفقا على أن يظلا الى مغيب الشمس في المدينة ويزورا الحاج أمين، وكان رستم يصر دوما على زيارة صديق رمزي، صائب الذي لم يتعرف عليه بعد، وكان رمزي هو الآخر يشتاق الى صديقه، بيد ان الشائعات الاخيرة التي انتشرت حول من يسمونهم بالاتحادجيين الذين يريدون الاطاحة بالسلطان، حالت دون ذلك، ولذلك كان يتحجج دوما أمام رستم بأن مثل هذه الزيارة خطرة وقد تكون عواقبها وخيمة. وعندما سأل رمزي بعض الطلبة عن سبب غياب صائب، قال بعضهم انه ينتمي الى عائلة غنية وليس بحاجة لإنهاء الدراسة، وأجاب بعضهم بتهكم بأنه انسان مغرور لا يعترف بالدراسة هنا، بل يريد أن يكمل دراسته في استانبول، وقال أحد الطلبة المقربين من صائب بشيء من الاسف بأنه يعاني من خلل في عقله، وأعتقد آخر بأنه هو الاخر قد القوا به في السجن كأخيه. وكان رستم يسمع بدوره كل هذا الكلام وينظر بتساؤل في وجه رمزي الحائر ويزداد فضوله تجاه هذا الإنسان الذي سمع باسمه من رمزي قبل أن يسمع بالمدينة، وتحول صائب عنده الى لغز معقد، مثير ومشوق، اصبح الالتقاء به مغامرة خطرة. تناولا طعام الغداء في مطعم الكباب الذي ارتادوه آخر مرة مع شيخو وكريم ومردان، استفسر صاحب المطعم عن أحوال الدراسة والاهل والزرع، فأجاباه بأن كل شيء على مايرام، سوى أن تأخر هطول الامطار ظاهرة مخيفة، وعلق صاحب المطعم بأن أسعار الحبوب بدأت ترتفع. ورفض الرجل أن يستلم منهم ثمن الغداء، معتبراً اياهما ضيفين عليه هذه المرة، بيد أن رستم رفض ذلك رفضا قاطعا باعتبار أنه قد دعا صديقه لمناسبة ترشيحه للدراسة في الموصل، وانتهت المساومة بأن يشربا الشاي على حسابه. وتجولا في السوق وهما يتفرجان على الناس والمخازن والبضائع المختلفة وقارنا الاسعار بين دكان وآخر. دخلا محلا لخياطة بدلات الافندية، وكان صاحب المحل رجلا أنيقا يرتدي بدلة داكنة، استقبلهما بشيء من الاستخفاف اعتقادا منه أنهما أخطءا في ارتياد محله، ولما سأله رمزي بأنهما بحاجة الى بدلتين، أجاب الرجل بلهجة فيها غرور:

«كما تريان فإن المحل يقوم بخياطة البدلات الأوروبية، وليس بدلات الملالي أو الباشبوزغ».

قال رمزي بلهجة واثقة فيها لطف:

«نعم، رأينا ذلك ولذلك دخلنا محلكم».

استفسر الرجل باستغراب:

«هل تريدان البدلة لأنفسكما؟».

«طبعا لأنفسنا».

«هل يمكنني أن أسألكما لماذا تريدان إرتداء بدلة الافندية؟».

أحسّ رمزي بشيء من الحرج، التفت بصورة لا ارادية الى رستم ثم قال:

«نحن من طلاب المدرسة التأهيلية، تم ترشيحنا للدراسة في الموصل، ولذلك نريد أن نظهر بمظهر طلاب المدرسة العليا».

تبدلت ملامح وجه الرجل فقال ببشاشة واحترام:

«أهلا وسهلاً بكما، تفضلا أجلسا أولا»..

«شكراً جزيلاً، اننا نريد فقط أن نعرف الاسعار والفترة التي تستغرقها خياطة بدلة».

«أنا استطيع أن اخيط لكما البدلة التي تريدونها، ولكنكما لا تستطيعان ارتداءها في المدرسة، ذلك لأن البدلات التي سترتدونها هناك، رسمية وبلون معين توزعها عليكم المدرسة بنفسها».

«نعتذر للازعاج، ونشكركم للمعلومات، كنا في الحقيقة لا نعرف ذلك».

كان رستم يجيل نظراته في الصور المؤطرة المعلقة على الجدران، وهي تمثل رجال أنيقين يرتدون البدلات ويقفون في أوضاع مختلفة، وتصور نفسه وهو يرتدي واحدة من هذه البدلات واضعاً على رأسه طربوشاً مائلا، يتجول في قرى وادي كفران، أو يجلس في مضيف جده زوراب، ويتصور في ذهنه العلائم الغريبة التي ستنطبع في وجوه جدته سنجان ورمضان وميرزا.... هذه المرة لن ينادوه بملا رستم، بل برستم أفندي. واستيقظ من شروره حين ودّع رمزي الرجل وضربه على كتفه. وعندما أصبحا خارج المحل، راحا يضحكان من أمرهما ودخولهما العفوي هناك. كان السوق مزدحما مكتظا بالبشر والدواب والعربات يعلوه الضجيج والصخب. وكانت نداءات الباعة تختلط بأصوات لاعبي الدومينو والطاولي في الجايخانات المتناثرة على جانبي الشارع، أقترح رستم أن يجلسا في أحدى المقاهي ليرتاحا ويشربا الشاي. كانا لم يرتادا بعد أي مقهى، إذ أن الاقاويل كثيرة حول الذين يرتادون المقاهي، عدا بعض المقاهي القليلة المعروفة بسمعتها الطيبة التي يرتادها الموظفون وكبار السن، ولم يسبق لرمزي ذات يوم أن فكر بالجلوس في المقهى، وحين عرض عليه رستم الفكرة، ارتاح لها دون أن تتبدد مخاوفه، قال رمزي:

«ان الجلوس في المقهى غير ممنوع بالنسبة لنا، ولكن المعلمين يعتبرون ذلك عادة ذميمة، ويحذروننا من ارتياد مثل هذه الاماكن».

كان رستم قد قرر في نفسه معايشة تجربتين في ذلك اليوم، واقناع رمزي بذلك مهما كلّف الامر، أحداهما زيارة صائب وثانيتهما، الجلوس في المقهى والتمتع بمشاهدة الغرمافون عن كثب، قال بحزم:

«أنت احيانا تتصرف مثل الاطفال يا رمزي، اننا قد أصبحنا رجالا، انني أريد أن نجلس في جايخانة معقولة ونشرب الشاي، وأحب أن أتفرج عن قرب على جهاز الغرامافون».

وواصلا مشيهما في الزحام وهما يقفان بين فينة وأخرى أمام مقاعد الجايخانه المصطفة على الرصيف، ويدققان في ملامح زبائنها المنشغلين بتدخين الناركيلة ولعب الطاولي والدومينو وشرب الشاي. وقف رستم أمام مقهى بحاجز زجاجي قائلاً:

«ما هو رأيك بهذه الجايخانه؟».

ضحك رمزي قائلاً:

«لا سمح الله أن ندخل مثل هذه الجايخانه، ان روادها من الحشاشين واللواطين. هيّا، سنجلس في مقهى البلدية. كان صائب يجلس هناك مع بعض أصدقائه».

وقبل ان يبلغا هدفهما، توسل اليهما غجري بأن يقفا لهنيهة ويتفرجا على ألعاب وحركات قرده. وراح القرد يقلّد حركات المصلين، وعندما ركع للسجدة، أطلق ضرطة أثارت ضحك المتفرجين، وقفز القرد بحركة لا ارادية مبعثها الحرج وهو يجيل نظراته الحادة في وجوه الحاضرين، وعندما حاول الغجري اعادته الى وضعه التمثيلي، تقرب منه أحد الخبثاء وأطلق في وجهه عفطة قوية، أثارد القرد، فبصق في وجهه ثم راح يريه قضيبه، الأمر الذي ضاعف قهقهة المتفرجين، وراحوا يكافئون القرد بسخاء. كانت ثمة مرايا وصور لسلاطين تكلل رؤوسهم عمائم كبيرة، قد علقت بصورة منتظمة على جدران الجايخانه المغطاة بالخشب، اتخذا مكانيهما على تخت قريب من الغرامافون الذي يراه رستم لأول مرة عن قرب، سألهما النادل ما اذا كانا يرغبان في الشاي أم القهوة أم شربت زبيب، طلبا شربت زبيب. وكان رستم قد شرب هذا الشربت مرتين في حياته، وذلك في الجولات السريعة التي كانوا يقومون بها في المدينة، ولما كانا في المرّة الثانية قد أكلا البقلاوة مع الشربت، فإن أسم هذه الحلوى اللذيذة قد ارتبطت عند رستم بالشربت، فسأل بصورة لا شعورية ما اذا كان عندهم بقلاوة؟.. اجاب النادل بتهكم: «هذه جايخانه، وليست مطعم..». قال رستم محاولا التغلب على حرجه بعد أن أنصرف النادل «هل رأيت؟.. لو كنت قد جلست مع صديقك صائب في هذه الجايخانه، لوفرّت علينا إهانة هذا النادل لنا».

أجاب رمزي بلا مبالاة:

«مثل هذه المفارقات ستصادفك من الآن فصاعدا باستمرار، طالما أنك لست في وادي كفران، المهم هو أن لا تأخذ مثل هذه الامور بجد، وإلاّ عليك مغادرة المدينة».

«أنني اريد أن أسأل النادل ما اذا كان بالامكان اشغال الغرامافون».

«أخشى أن نترذل مرة أخرى يا رستم».

«لماذا وضعوه اذن هناك؟.. انني سأسأله، وهل يخاف المبلل من المطر؟».

وعندما جلب لهما النادل كأسين من الشربت، قال رستم:

«هل يمكن يا أخي اشغال هذا الكرامافون».

قال النادل بتهكم:

«يبدو أن مزاجكما انبساطي، أما بقلاوة أو موسيقى.. الغرامافون يشغله صاحب الچايخانه بنفسه فقط في الأماسي، اذا كنتما من المغرمين بالاغاني فتعالا ليلاً»..

نظر رستم الى رمزي مبتسماً، قال وهو يرتشف الشربت:

«لقد كتب علينا أن نشرب الشربت هذه المرة بلا بقلاوة، وأن نترذل مرتين، فلنر متى تأتينا الرذالة الثالثة».

عندما أراد رمزي دفع الحساب، مسك رستم يده قائلاً:

«لقد قلت لك انك ستعيش اليوم على حسابي فلا داعي للالحاح».

وحين عاد رستم مرّة اخرى الى موضوع زيارة صائب، وهما في طريقهما الى الحاج أمين، أبدى رمزي كعادته مخاوفه، فأستغرب لطبيعة الجبن الكامنة في نفس صديقه، وراح يفكر بجد في مصير علاقتهما، وتذكر أقوال جده زوراب عن مفهوم الصداقة، وبأن الصديق، هو من يقف في الملمات الى جانب الانسان، وأن الصداقة يجب أن تكون مقترنة بالتضحية، فأية تضحية هي هذه من جانب رمزي الذي لم يسأل عن مصير صديقه الذي كان لا ينفك عن ذكر أسمه؟.. وتحولت المسألة في مخيلة رستم الى مسألة اخلاق وموقف، وبأن رمزي لا مانع لديه حتى أن يخذله هو، اذا اقتضى الامر أليس هو ابن جهانگير، الذي قال جده زوراب مراراً وتكراراً بأنه ليست له أية قيم غير مصالحه الانانية الضيّقة؟.. وتكدّرت عواطفه فجأة، وأحس بالانقباض والضيق، وانعكس كل ذلك على وجهه، فلم يعد يعير بالاً لما كان يقوله رمزي. وأحسّ رمزي بالتحول الفجائي في ملامح رستم، وبعد هنيهة صمت بينهما، استفسر ما اذا كان يحس بالحنين الى أهله؟.. أجاب رستم بإنفعال:

«رمزي، قل لي بصراحة، هل كان صائب صديقك الحقيقي أم أنك كنت متأثراً به كمجرد زميل في الدراسة؟».

«طبعاً كان صديقي الحقيقي».

«إذا كان الأمر كذلك فإن من إبسط مباديء الاخلاق هو أن تسأل عنه».

«لقد سألت الكل عنه كما رأيت يا رستم، انني لا مانع لدي من زيارته في البيت، ولكنني أخشى أن لا يرتاح الى ذلك أهله».

قال رستم بلهجة صارمة:

«أنظر يا رمزي، أقول لك شيئاً واحداً. وهو أنني سأقرر مصير صداقتنا نحن في ضوء موقفك من صائب».

قال رمزي بإستغراب دون أن يفهم قصد رستم:

«ماذا دهاك يا رستم؟.. ما علاقة صائب بصداقتنا نحن الاثنين؟».

قال رستم بعصبية:

انك اذ تخذل صديقك الحميم اليوم، فلا مانع لديك من أن تخذلني أنا الآخر».

«انك تفكر يا رستم كما لو أنك جالس في مضيف جدك الشيخ زوراب يحيط بك العم رمضان والعم ميرزا، نحن هنا مازلنا غريبين في هذه المدينة المليئة بالاسرار، ماذا سنفعل اذا القوا بنا في السجن؟ انهم سيرسلوننا الى الدباغ خانه قبل أن يصل الخبر الى أهلنا؟».

«هذه كلها حجج موهومة يا رمزي، لماذا لم يلقوا بك في السجن حين كنت قال رمزي بتحد:

«حسناً، سنذهب اليه اليوم بعد مرورنا على الحاج أمين، وليكن ما يكون، انني كنت أخشى عليك أنت».

وتنفس رستم الصعداء، وعاد اليه وجهه البشوش وهو يحسّ بنشوة الانتصار، قال وهو يؤشر بيده الى بائع متجول:

«والان حان موعد أكل البقلاوة».

هزّ رمزي رأسه بخبث:

«كلا يا رمزي، البقلاوة فيما بعد، أننا ما أن نسلم على الحاج أمين، إلاّ ويطلب من خادمه أن يجلب الكباب، فلماذا نسد معدتنا في وجه هذه الاكلة اللذيذة؟».

«كما تشاء، فيما بعد»..

بعد أن تناولا وجبة دسمة من الكباب، وشربا الشاي ودردشا بما في الكفاية مع الحاج أمين، ودّعاه على أن يمرا عليه في يوم الجمعة القادم، اذ قرر أن يدعوهما الى تناول طعام الغداء عنده في البيت لمناسبة ترشيح رستم للدراسة في الموصل. وسارا بإتجاه الجسر لعبوره الى الجانب الثاني لزيارة صائب في بيتهم الواقع في محلة صاري كهية. كانت هذه الزيارة بالنسبة لرستم مليئة بالالغاز والمفاجآت، بالاضافة الى أنها تشكل اشباعاً لحاجته لرؤية بيت في المدينة مباشرة.

٢٠

رغم تنبؤ السيد برا حق بتأخر سقوط الامطار، فان ذعرا ويأسا شديدين راحا يستبدان، ليس على قرية زوراب حسب، بل على كل المنطقة، وراح دراويش التكية البرزنجية يبتهلون الى الله في حلقات ذكرهم التي كانوا يواصلونها ليلا ونهارا، بفتح أبواب السماء ورش الارض العطشى بخيرات أمطاره. وراحت مواكب دعاء المطر تقرع الطبول والدفوف وتدق الابواب في كل قرية وتشكل في مركز السنجق أكثر من موكب واحد. وفي قرية زوراب شكلّ كل من كريم وأخ ميرزا ومردان حقلة ذكر، أتخذوا من سقيفة بنوها بأنفسهم، تكية متواضعة لها، وراحوا يبتهلون الى الله كي ينعم بسقوط المطر، ولما لم يستجب الله لندائهم، تبرع مردان أن يمثل دور عروسة المطر، فألبسوه أنواع الاسمال البالية والخرق، ثم رشوه بالدقيق وسوّدوا وجهه بالسخام، وربطوا على أسماله عدة أجراس أنتزعوها من رقاب الاغنام، وحمل بيمينه ملعقة غرْف خشبية كبيرة، وبالاخرى دفاً، وأنطلقوا من التكية وهم ينشدون، ومردان يرقص بقفزات متجانسة:

هەياران و مەياران

ياخوا بباریٚ باران

بۆ فەقیر و هەژاران

(أيه ايها الاحباء، أية أيها الاحباء

بالله فلتنهمر المطار

من أجل الفقرا والمساكين...)

وسرعان ما تجمع شباب وأطفال القرية وهم يرددون الانشودة مبتهجين. وكانت النساء قد أعددن الاواني المملوءة بالماء لرشها على الموكب، وعندما مرّوا بخيمة السيّد، رفع يدية الى السماء وصاح: «الله أكبر، الله أكبر...» وخرجت زوجتة شمسة مبسملة وهي ترشهم بالماء، وعندما مرّوا بخيمة ميرزا، أستغرق الشيخ زوراب ورمضان في الضحك لمنظر مردان، الذي يحيطه من الجانبين كريم وحمه غريب وراحت النسوة يرشن الموكب بالماء وهن يحاولن تهديف مردان الذى كان الماء يقطر من أسماله.

واستغلت فاطمة الفرصة، فرشت كريم بدفقة ماء محترمة قائلة بصوت عال:

«من عيونك الحلوة أريد المطر».

وكبر الموكب ضاما كل ابناء قرية زوراب بأقسامة الثلاثة أو أحيانه حسب التسمية الجديدة التي أشيعت خلال أشهر العمل المكثفة: حي بنعيز وحي شيخو بك وحي ميرزا. وقرروا أن لايكفوا عن الابتهال والحركة اليومية للموكب، الا بعد تساقط القطرات الاولى و كان يقوم بتمثيل دور عروسة المطر فى كل يوم رجل يختارونه بالقرعة. وذات يوم أقترح عليهم الشيخ زوراب أن ينيطوا الدور لأحد الصبيان الصغار، لأن ملائكة الغيوم تلبي نداء الاطفال الابرياء الذين لم يتلوثوا بالشرور، أحسن وأسرع مما عليه مع الكبار الملوثين بالاثم.

وفي أزقة السنجق خرج أكثر من موكب وراح أحد المواكب يردد باللغة التركمانية:

الله بريـاغـش أيلـه

دام دواري يـاش أيله

عميم أوغلي كيجنده

قوندراسن ياش أيلـه

(الهي، ارسل مطرا

وبلل الجدران و السقوف

عندما يمر ابن عمي

بلل حذاءه)

كانت الابتهالات الغنائية الممزوجة بالأسى والفرح و باليأس والبهجة، تتصاعد الى أعماق السماء وتصل الى الغيوم المتناثرة هنا هناك، دون أن تحرك ساكنا، وكانت بدلا من أن تتجمع و تتكاثف، تتفرق في نتف صغيرة متباعدة سرعان ما تتلاشى في زرقة السماء الصافية الزرقاء. وزحف البرد القارص فجأة وأصيب العديد ممنّ مثلوا دور عروسة المطر بنزلات برد شديدة، وملّت الناس من كثرة السير في المواكب التي تحولت الى تسلية يومية للاطفال. ورغم صلاة المطر في المساجد، فان السماء أصرت على أن تبخل بالمطر.

وكان الحديث الرئيسي للناس في كل المجالس هو المطر والعواقب الوخيمة التي ستنجم عن عدم هطوله. ومع بدء البرد القارس وأنكماش الناس الى بيوتهم والتحلّق حول المواقد، بدأت الحكايات المتناقلة عن الآباء والاجداد تحتل الصداره فى أماسي الشتاء التي تهبط بسرعة. وحتى فى وداي كفران الجبلي الذي كانت الامطار تتساقط فية بصورة منتظمة، لم تسقط حتى قطرة واحدة. وبدأ القلق يساور الشيخ زوراب وشيخو بصورة لم يسبق لهما أن شعرا بمثله من قبل ورغم أن جهانگير زارهم بنفسة واطمأنهم على أنه يستطيع تزويدهم بالقمح والشعير لسنتين متتاليتين، ظلاً يفكران بهمّ بالغ حول مستقبل العشيرة، ويضعان الخطط لما ينبغي عمله فيما

اذا أصر المطر على عدم السقوط، وحلّ الجفاف الذي لا يعرف الرحمة. كانا جالسين قبالة الموقد في سقيفة المضيف الذي تم بناؤه ضمن البيت الكبير المحتوي على قسمين رئيسيين، يحتوى كل قسم على غرفتين متلاصقتين تشرفان على فسحة، يسكن في أحد القسمين الشيخ زوراب وفي القسم الاخر شيخوة. وقد أشرف الاسطة حسين على البناء وجعلة صورة مصغرة لقسم الحريم الذي يحتوية قصر الشيخ بابا. ومنذ أن أستقرت الامور فى القرية بعد الانتهاء من تسقيف البيوت والاكواخ، وظهور ثلاثة أحياء وإشتداد البرد، برزت عمليا ثلاثة مضائف، هى مضيف الشيخ زوراب ومضيف هابو، بيد أن مضيف الشيخ زوراب ظل هو الغالب والرئيس الذى يلف أكبر عدد يمثل القرية بكل أقسامها، وتقدم فيه الشاي والقهوة بلا انقطاع. كانت نواة المضيف تتكون من شيخ زوراب وشيخو ورمضان الذي بنوا له سقيقة صغيرة بقسمين داخل السور، مردان الذي كان يسكن في برج المراقبة المبنية فوق البوابة. ولما كان كريم دائم التنقل بين الجبل والسهل، فانه عند اول وصوله الى القرية يتوجه الرر بيت ابيه ويترك حصانه هناك، وبعد أن يأخذ قسطا من الراحة ويتناول طعامة، يتنقل بين مضيفي ميرزا وهابو. وينام في آخر مضيف يحل فيهِ، والذى هو عادة مصيف هابو، ومنذ أن بدأ كريم يحدث هابو بلهجة بنعين، راح يتعلق به ويلّح عليه بالمبيت عنده. وعندما كانت سنجان وزوجة رمضان تنتهيان من أعمال البيت، تقضيان بعض الوقت مع الرجال في المضيف ثم يرجعن الى مجلس الشيخ زوراب. ومنذ البداية لم يفكر هابو بأيجاد مجلس خاص به، ولكنه أضطر أن يلتجيء الى ذلك تحت اصرار زوجته التي أتفقت مع كريم على ضرورة وجود مثل هذا المضيف الذى بدونه سيكون لقاء وهما مستحيلا.

كان الشيخ زوراب وشيخو ينتظران مجيء كل من رمضان ومردان حتى يتناولوا طعام العشاء سوية، إذ أنهم بعد أن أستقروا في بيتهم الجديد، كانوا يتناولون وجبات الطعام معا، ورفض مردان في البداية تناول الطعام معهم بحجة أنه ليس سوى الخادم المطيع الذي لا يجوز تناول الطعام في حضرة سيّده، ولكنهم أكدوا له بأنه لا يختلف عن أي واحد منهم، وأنه هو نفسه من أحد أصحاب البيت، ولذلك كان يشاركهم الهّم فيما يتعلق بأدارة السماء الرافضة للمطر.

وأكد الشيخ زوراب كشأنه دائما بأن الله غضب عليهم، وأن سبب الغضب هو هذا الفرمان اللعين الذي كان ينبغى عدم تسلمه منذ البداية، وأدى به اليأس والخوف على مصير العشيرة أن يفكر مرارا و تكرار باعادة الفرمان الى أهله والعودة الى وادي كفران الجبلي، ولأول مرة يفاتح ابنه شيخو برأيه الذي كان يؤرقه ليلا ونهارا، قال وهو يكوم مجموعة من الجمر الملتهب فوق بعض بعصا صغيرة:

«اننا الآن يا شخو وحدنا، أريد أن أقول لك بصراحة بأنني لأول مرة في حياتي أشعر بخوف حقيقي يقبض قلبي على مصير العشيرة، انك لا تعرف ماذا تعني المجاعة، لقد حولنّا كل ما

نملكه من الذهب والقمح والشعير الى بنادق لا تساوي كل واحدة منها قرصة خبز واحدة في زمن المجاعة. ان ألله قد غضب عينا، وينبغي أن نفعل شيئا يرضى منا».

«وماذا تريدنا أن نفعل؟»

عدلّ الشيخ زوراب من وضع فروته وأحكمها على كتفية قائلا:

«أرى أن سبب كل المصائب هو هذا الفرمان اللعين، لذلك أجد أنه أحسن طريقة لكسب ثقة الله وازالة غضبه هو إرجاعه الى الحكومة والعودة الى بانشاخ».

لم يأخذ شيخو كلام أبيه بمأخذ الجد، وأدرك أنه كان بسبب العمل المكثف فى بناء القرية وكثرة تحركه وزياراته المتكررة الى الشيخ بابا من جهة والى وادي كفران الجبلى من جهة أخرى، قد أرهقته، وكان ذلك كله كثيرا عليه، هو المعتاد على الحياة الرتيبة الهادئة، وراح يحاول أن يزيل القلق من باله، فقال وقد أنطبعت على وجهة ابتسامة مليئة بالثقة:

«بابا، حالنا حال العالم. ان الله اذا انزل المجاعة، فهو لا ينزلها علينا نحن فقط. انها ستشمل الكل، والحشر مع الناس عيد. ان هذه المنطقة كما تعرف تعاني الجفاف منذ ثلاث سنوات ومع ذلك لم يمت أحد من الجوع، ان الله الذي خلقنا يدبر رزقنا أيضا».

وأراد الشيخ زوراب أن يقول شيئا، بيد أن مجيء رمضان ومردان قد حولّ خط تفكيره الى مجال أخر، فسأل:

«هل راقبت السماء جيدا يا مردان من برجك؟»

أجاب مردان بتفاؤل وبوجه مشرق:

«أعتقد غدا سنشبع من اللحم وعليكم تحضير الذبيحة من الآن».

وقبل أن يكملّ كلامة، القى علية رمضان نظرة انتقادية متهكما وهو ما زال واقفا:

«يا الله، يا ستار، الا تقل لنا لماذا تحضير الذبيحة؟»

«لقد شممت رائحة المطر، وراقبت حركة الريح، انها شمالية. وأنا أستطيع أن أتراهن بأن المطر الآن قد بدأ بالتساقط في وداي كفران الجيل».

ظل رمضان واقفا، وكانت ذبالة اللمبة الزيتية المعلقة على الجدار القريب منه تلقى ظلالها على وجهه الذى بدت عليه الحيرة. وأما الشيخ زوراب وشيخو فقفزا من مكانيهما صورة لا ارادية، متوجهين الى خارج المضيف، ولحق بهما رمضان ومردان. بعد أن توقف الشيخ زوراب هنيهة ساحبا كمية من الهواء الندي القادم من الشمال، هرع الى السلم المؤدي الى برج مردان وصعده بسرعة، والثلاثة الاخرون عبثا يحاولون اللحاق به، ومن هناك راحوا يراقبون الجهات الاربع. كان الغسق الارجواني الباهت في الافق الغربي قد استسلم أمام جحافل الظلام، وأما

الافق الشمالي فكان داكنا وغارقا في ظلام دامس، تهب منه رياح ندية محملة برطوبة. ويسط الشيخ زوراب كيفة فى وجه الريح كما لو أنه يقيس شيئا، وقال بصوت واثق:

«لقد صدقت يا مردان، المطر يسقط في وداي كفران، وانه سيصلنا هذه الليلة حتما».

وتناولوا عشاءهم بشهية غريبة. وقرروا أن لا يطلقوا الرصاص في الهواء، الاّ بعد أن تسقط القرات الاولى، على أن ينتبهوا جيدا لكي يكونوا أول من يفاجيء القرية بالرصاصة الاولى. وأنشغلوا بالشاي الذي يكون طعمه بعد تناول الخبز الساخن مع البيض المقلي والبصل الاخضر الطري، لذيذا لا يضاهيه أي شيء أخر. وتمددوا في أماكنهم بعد أن رخوّا أحزمتهم، ليبدأوا بموضوع جديد غير المجاعة وويلاتها، وقال رمضان بلجهة يائسة:

«انني أحاول أن اقنع نفسي بكلامكم، ولكنني اذا لم أر المطر بأم عيني...» وقبل أن يكمل كلامة شقّ دوي هائل سكون القرية، عقب على أثره مردان بسرعة:

«هذه الرصاصة من يه كتير حمة غريب».

وأندفعوا الي الباب، كان المطر ينهمر بقوة وغزارة. وراحوا يطلقون النيران التي أختلطت بأزيز الرصاص القادم من كل الجهات. وظلوا يراقبون المطر الذي سرعان ما بدأ يشكل سيولا صغيرة ونقرات مائية، تتحول عليها زخات المطر الى فقاعات كبيرة ما تلبث أن تنفجر في مكانها أو تجد نقرة مائية تجري عليها هنيهه قبل أن تتلاشى، قال الشيخ زوراب بأعجاب.

«كلاو لەسەرمیە. (انها أبو الكلاو)».

وعقب رمضان بفرح غامر:

«انه مطر بهله(*)»

وقال شيخو:

«لقد ظلمنا برا حق بتعليقاتنا».

هزّ رمضان رأسه وجهه علامات الاستغراب قائلا:

«أجل لقد أثبت انه فعلا ساحر ويعرف الأسرار».

وقبل أن يتخذوا أماكنهم في المضيف سمعوا صوت السيد وهو يخرق الظلام الدامس: «الله أكبر، الله أكبر، خير وبركة...»، ثم ظهر أمامهم مثل شبح واقيا نفسه بجوال من شعر الماعز دفع بنصفه الطولي الى الداخل، بحيث أصبح مظلة تغطيه من قمة رأسه الى رجليه. وأكتمل المجلس بحضور كل من ميرزا وحمه غريب وهابو وشللهم وهم يرتدون جوالاتهم كما لو أنهم أشباح قادمة من عالم

(*) بهله تعني حالة تشبع التربة بالمياه وجريان السيول فوقها.

أخر.

عندما تجمعت الغيوم المحملة بالامطار في الافق الشمالي وفوق جبلي قاجر ويازوخ كانت الشمس تجنح الى المغيب، وكان كريم قد جلس في مضيف أبيه في بانشاخ مع كل من قادر وعباس اللذين كانا ما زالا حزينين لسفر رستم الى المدينة للدراسة، طمأنهما كريم بأنه سيصطحبهما ذات يوم لزيارته، وأما في هذه الليلة التي تبشر بالمطر، فعليه أن يسافر الى قرية زوراب، ملحاً عليه بالموافقة على سفرهما لزيارة الجد زوراب على الاقل، فرفض مشعرا اياهما بمسؤلياتهما تجاه البيت والعشيرة وبأنهما لم يعودا صبيين، بدليل أنهما قد أعفيا عن مهمة الرعي لأعمال لا يقوم بها الاّ الرجال. وأكدّ بأنه لا يبقى هناك الاّ ليلة واحدة، وسيكون مساء غد في مثل هذا الوقت معهما.

ومن كثرة تجواله ذهابا وأياباً بين الكفُرانين، تعود حصانه على الطريق، وراح يتلمسه بالغريزة دون أي تدخل من صاحبه. إرتدى معطفه اللباد ذا القلنسوة وشرواله الصوفي وقفز على ظهر حصانه الذي راح يجرى تحته كالسهم يسابق الريح الشمالية، وكأنه يريد بذلك أن يعوض أيام الراحة الطويلة التي حرمّ فيها من الحركة التي يحتاجها. ومع ذلك فان الغيوم القادمة من شمال كانت أسرع، فعلى مشارف قرية زوراب، وقبل أن يصلها بفترة قصيرة هطلت الامطار، فسحب الزمام وراح الحصان يعدو ببطء، وإنتشى هو الاخر لرائحة المطر التى ملأت الفضاء انتعاشا ونشوة، وأحس كريم برغبة، جارفة بتطويق فاطمة. وحين تناهى اليه دويّ الرصاص المنتشر فوق القرية، تنهد بحسرة وعلم أن المطر قد بللها. ولّما بلغ القرية التف حولها ووجه زمام الحصان الى بيت هابو. ربط الحصان في زريبة الحمير، وقفز عبر الجدار الواطيء. أطلق الكلب نبحة واحدة قصيرة ثم سرعان ما عرفه وراح يهز ذيلة فرحا لقدومه. وكانا قد أتفقا أن يضرب هو ضربة واحدة خفيفة على الجدار في مكان تكون فاطمة عادة جالسة وراءه. وعرف من الظلام المنطبق على المضيف أن الرجال لا شك قد ذهبوا الى مضيف أبيه، وخاف أن تكون فاطمة قد ذهبت هي الاخرى الى سنجان فيكون كل جهد قد ضاع عبثا، وراح يفكر في ايجاد وسيلة تمكنه من الوصول اليها بشكل مضمون، بيد أنه لمح بصيصا من النور يتسرب من خصاص الباب الخشبي. اقترب من الباب ببطء وأزاح بخفة غطاء كوة المفتاح فرآها جالسة لوحدها ترتق ملابسها. دق على الباب وهمس: «فاطمة...» وقفزت من مكانها بخفة قطة وقبل أن تفتح الباب، نزع لباده والقاه جانبا وتعانقا.

قال وهو يمسح وجهه المبلل بطرف يشماغه:

«خفت أن لا أعثر عليك في البيت».

«لقد خرجوا قبلك بقليل مع هطول المطر الى مضيف الوالد، لا شك أنهم سيبقون الى وقت

متأخر، أو سيقضون الليل كله هناك».

قال وهو يلثم عنقها الدافيء ويلهبه بأنفاسه الحارة:

«فاطمة، ان جفوني لا تعرف النوم في الليالي، انني أكاد أجن من لهفة الحب...»

«وأنا؟... كدت أشب الحريق في البيت عدة مرات، انني لا أرى أمامي سوى خيالك وهو يطاردني ليلا و نهارا. والآن سأشعل لك نارا جديدة حتى لا تستبرد وأعد لك الطعام والشاي، وبعد ذلك تستطيع أن تفعل معي ما تشاء».

قال وهو يجرها الى ركنها المفروش باللباد أمام الوقد:

«كلا، أولا تستطيعين أن تفعلي معي أنت ما تشائين وبعد ذلك تعدين ألاشياء الاخرى».

كانت عيناها هي الاخرى تلمعان تحت ضوء الفانوس القريب المعلقّ على الجدار برغبة جارفة، وهما مشدودتان الى عينيه بوله وشوق. ومررّ أصابعه برفق على وجهها الذي بدا له أكثر جمالا ونضارة من أي وقت آخر ثم ما لبث أن حرر نهديها اللذين وجدهما أكثر امتلاءً وطراوة، وراح تارة يلثمهما وأخرى يدفن وجهة بينهما الى أن استقر فوق بطنها، وشعرت هي بالنار تلتهب بين فخذيها، فأستلقت على ظهرها مطوقة إياه من خصره بعنف، وأما هو فألقى بساقيها على كتفيه، وأحس بها تحترق تحته وكأنها تنام لأول مرة مع رجل وعندما أنطفات النيران في شرايينهما، همدت في مكانها وهي تمسك بقوة يديه. لثم حاجبيها السوداوين وعينيها، وعندما رفع شفتية من على شفتيها الممتلئتين، قال لها:

«فاطمة يبدو لي أنك أصبحت أكثر جمالا من قبل، هل أستطيع أن أفهم من ذلك انك حبلى؟»

قالت بصوت دافي وقد أنطبعت على وجهها أبتسامة فرح غامر:

«نعم وهل تخاف من ذلك؟... أنها مشكلتي أنا ولا داعي أن تقلق أبدا».

وأحس أنه يملكها حقا ، وداهمه شعور غريب، وقال مطوقا أياها:

«أنني أحتاجك يا فاطمة، ولا أستطيع العيش بدونك. يجب ان افعل شيئا.

قامت من مكانها وهي في حالة يأس، وقالت بصوت كسير:

«يكفيني أن أراك والتقي بك بين حين وآخر، إنك لا تستطيع أن تفعل أى شيء طالما أن هذا البغل على قيد الحياة».

«وهل ضاجعك خلال هذه الفترة؟»

قالت ضاحكة بعد أن جلبت كمية من الشوك من الركن الثاني الذي يعزله جدار:

«لقد ضاجعني مرة واحدة في حياته، وكان ذلك بالقوة وفي ليلة الدخلة قبل حوالي السنة...

إن أول رجل فـي حياتي هو أنت».

قال وقد صعقته المفآجأة:

«ولكن هل تعلمين اننا الآن أمام مشكلة حقيقية يا فاطمة؟...»

كان هو جالسا أمام الموقد الذي هو عبارة عن حفرة في منتصف الكوخ تحيطة عدة أحجار، وكانت ألسنة النيران قد بدأت ترتفع وتنشر الضوء والحرارة في أنحاء الكوخ بعد أن القت فاطمة بكمية من الشوك في الموقد. كانت الارض حول الموقد مفروشة بحصران الخيش والكليم واللباد. كان الكوخ يتكون من قسمين، القسم الذي يقع على الجانب الايمن، ويتكون من ثلاثة أركان معزولة عن بعضها البعض بجدران واطئة خفيفة بنتها فاطمة بنفسها، توزعت عليها الذخيرة كالبرغل و كشك وترخينة، والوقود كالحطب والشوك و البعرور وروث البهائم المجفف. وكان ثمة كه نو وهو عنبر مصنوع من الطين المجفف في الشمس، منصبا في أحد الاركان أقصر من قامة انسان بقليل يحفظ فية الدقيق، ويخرج عند الاستعمال من فتحة صغيرة في الاسفل بحجم اليد، لها غطاء من الطين المجفف وهناك في الجاب الايسر من عنبر الدقيق، صندوق مستطيل من الطين المجفف بلا غطاء يحتوى على هيزة وهى قربة من جلد العجل تحتوي على السمن. كانت هي تتنقل بسرعة بين القسمين وهو يتابع بنظراته الحزينة حركاتها الرشيقة، وضعت أمامة الطبق قائلة بابتسامة مغرية:

«ماذا تعني بمشكلة حقيقة؟... ألم اقل لك انها مشكلتي أنا؟»

رد بحزم:

«كلا، انها ليست مشكلتك أنت فقط انها مشكلتنا، اني لا استطيع أن اتركك مكتوفة اليدين أمام هذا البغل الذي قد يلتجيء الى حماقة، تكون حياتك ضحية لها».

«انة أجبن من ان يقوم بمثل هذه الحماقة، ثم أنه لا يستطيع أن ينكر أمام الناس بأنه ليس الاب الحقيقي للطفل، لأنه يتظاهر دوما كونه رجلا حقيقا له قضيبه الذي يرضي به زوجته الشابة، انه لا شك سيفرح للوليد، ويتخذه أداة الادعاء والفخفخة».

أستغرق كريم في تفكير عميق، ومرت بذهنه سلسلة من الافكار السريعة المتصارية، وراح هاجس يدق أبواب قلبه بعنف وينذره بأنه الان أمام لحظة حرجة وحاسمة قد تؤدي به الى أن يفقد فاطمة الى الابد، وأن ثمة مجالا لتدارك الامور. وكانت فاطمة قد انتهت من إعداد وجبة دسمة من خورماورون (التمر بالبيض المقلي) فوضعت الكتلي الاسود على النار. جلست الى جانبة واضعة يدها على ساقه وقالت:

«هيا ابدأ بالأكل ودع التفكير فيما لا يستحق االتفكير، ولا تخف على حياتي، انني استطيع

الدفاع عن نفسي، وتعلمت استعمال البندقية، هيا أبدا ولا تجرح قلبي».

«ان ما افكر فيه يا فاطمة هو ايجاد وسيلة تسنح لنا الزواج بصورة شرعية بعيدة عن الحماقات والفضائح، لقد قلت لك بأنني لم أعد اطيق العيش بدونك، انني أحتاجك فعلا»

عانقته واضعة رأسها على كتفه، وقالت دون ان يحس بدموعها المتساقطة بصمت:

«مثل هذا الشيء لم أحلم به بعد، حلم يستحيل تحقيقه، كريم أبن الشيخ زوراب رئيس عشيرة وادي كفران يتزوج مطلقة هابو...»

وأطبق عليهما الصمت، وكان المطر في الخارج يهطل بغزارة، ويرتطم بالسقف محدثا لحنا حزينا رتيبا يختلط بصفير الرياح الشمالية التي تهب بين فينة وأخرى بقوة، راشقة السقف والجدران بدفقات قوية من رشاشات مياه المطر الغزيرة. وكان كريم ما زال غارقا في تفكيره، وفجأة بدا كما لو أنه وجد حلا، فعاد الى نفسه، وراح يلثمها ثم بدأ يأكل بشهية. وبعد فترة قصيرة من التناول الشاي وتدخين لفافتين، تشابكا مرة أخرى، ولكن اكثر عنفا وضراوة من المرة الاولى، ولا سيما لأن العملية هذه المرة طالت أكثر بكثير.

كان يعرف بفطرته موعد إنتهاء فترة سهرة المضيف الاعتيادية، بيد أن الوضع هذه الليلة يختلف، ربما أنهم سيظلون يشربون الشاي ويدخنون طلية الليل، ليتأكدوا من مدى استمرارية المطر وغزارته، ليكونوا شهود عيان لقوة المطر الاول الذى عادة يكون حاسما في تقديم المحصول، فاما عام خير وبركة أو عام جفاف. وفي هذه الليلة سيتقرر مصير أسعار قمح وشعير جهانگير الذي توقف عن البيع منذ أكثر من شهرين، اذ أنه يعتبر الشخص الوحيد الذي له مصلحة مباشرة بالجفاف في المنطقة كلها. فتحا الباب وراحا يتفرجان على المطر الذي كان ينهمر بصورة لم يشهدا مثله منذ سنوات طويلة، قالت:

«هل تتذكر رشقة الماء التي تلقيتها مني؟»

«وهل تعتقدين انني أنسى مثل هذه اللحظة، انني ما زلت أحس بوقع الماء الذي نزل على قلبي، ولم يطفيء فيه النار...»

«والآن؟... ألم ينطفيء بعد؟»

رفع يدها التي يمسك بها وضعها على قلبه الذي كان يدق بعنف وقال:

«ألا تحسين بها تتأجج مثل نيران موقدك؟»

سحبت يده برفق ووضعتها على نهدها الايسر، وراحت تمررها حوله قائلة:

«اسأل قلبي أنا... انه قد تحول الى رماد».

وتعانقا، وكانت زخّات المطر الهارية تبلل وجهيهما المشرقين، قال وهو يودعها:

«انني يجب أن أفعل شيئا يا فاطمة، لقد اقتنعت قناعة تامة بأنني لا استطيع العيش بدونك، وأنت لا تبوحي بالسر لأحد».

وأحس بنفسه خفيفا مثل ريشة، وكانت سعادته لا حدود لها، ولا يدري كيف وصل الى مضيف أبيه ربط الحصان في الزريبة الكبيرة التي بنوها في الجهة اليمنى من البوابة التي كانت تسد وتقفل عادة بعد مغادرة الضيوف. وقبل أن يتوجه الى المضيف، ذهب الى سنجان التي عانقته بحرارة ثم تناويت بمعانقته كل من زوجة شيخو وزوجة ميرزا وزوجة رمضان، وكانت شمسة تنتظر دورها وهي تهلهل ثم طوقته غارقة وجهه بالقبلات، وهي تقول:

«هاى وينك يا حبيبي يا كرَومي».

قبل يدها قائلا:

«والله يا خاله أنا طول عمري ما ينسى أنت والسيد، كل الوكت أنا يم فكرج...» قالت سنحان مبدية إعجابها لكلام كريم:

«نحن لن نتعلم هذه اللغة أبدا، في حين ضبطها كريم خلال اسبوع واحد فقط».

أستغرق الترحيب به في المضيف فترة غير قصيرة، كان لابد أن يعانقة كل فرد مستفسرا عن صحته وأحواله وأحول الاولاد والزوجة، وما اذا كان المطر قد سقط هناك ايضا، ومدى قوته، ثم يكرر السؤال مرة أخرى، يضاف له هذه المرة الاستفسار عن أحوال الغنم والمواشي والمراعي، ويكرر السؤال من بعضهم، ولا سيما من أبيه ورمضان وميرزا للمرة الثالثة والرابعة، مضافا اليه الاستفسار عن أحوال أقاربهم الذين هاجروا الى هناك وما اذا كانو قد تأقلموا، أم أنهم يحنون الى قريتهم وراء جبل بازوخ... ويجيب كريم بكل رحابة صدر وبدون أي ملل على كل سؤال بالتفصيل، وأحيانا يعطيهم معلومات عن أشياء لم يخطر ببالهم أن يستفسروا عنها. وبعد مرور فترة غير قصيرة على إنتهاء الاستفسارات ورغم انشغالهم بموضوع آخر، ينطلق أحدهم ويرحب به مجددا ملقيا علية وابلا من الاستفسارات التي سبق أن كررت لأكثر من مرة، ويعود هو يجيب عليها بأسلوب جديد لا يبدو علية التكرار، ودون أن يبدى علية الجزع ورغم أنهم كانوا يسمعون وقع سقوط المطر على السقف والجدران، فأن أحدهم يخرج بين فينة وأخرى ويلقي نظرة فاحصة الى السماء ويبسط يدية كما أنه يريد أن يمسك المطر، وينادي من خارج المضيف: «يا قوم، انه مازال كلاو لهسره، انه نعمة وخير...» ويحتدم النقاش حول نوعية وكمية المحصول المتوقع. وكان كريم ينتظر على أحر من الجمر كي يختلي بمردان ويناقش معه خطته بخصوص وضع حل نهائي لمشكلة علاقته بفاطمة. ولما رأى المطر ينهمر على وتيرة واحدة وبنفس القوة، ودون أن يبدو علية أى أثر للتوقف، والمضيف في أول أحتدامة للأحاديث المتشعبة، همس في أذن

مردان طالبا منه مغادرة المضيف معه الى برجه، ولاحظ مردان منذ البداية أن كريم يعاني من شيء يحاول كبته. وعندما أتخذا مكانيما في غرفته الصغيرة، قال له مردان: «هذه المرةَ يجب أن تصارحني بكل شيء انك لابد تعاني من مشكلة حقيقية، هيا تحدث انني مستعد أن اموت من اجلك...»

كان كريم يدخن ويحسب حبات سبحته بانفعال وعصبية، قال محاولا جهده اضفاء ابتسامة على وجهه الجامد:

«مردان، هذه المرة لا أخفي عليك أي شيء، انني الآن بحاجة الى رأيك القاطع».

كان الشخص الوحيد الذي يبث الية كريم همومه هو مردان الذي يستمع بشغف الى مغامراته العاطفية، ولما كان قد غاب عنهم أكثر من شهر، لذا تصورَ مردان أن الحدث لا بد سيكون شيقا هذه الليلة، وأعتقد وهذا ما كان يخشاه، أن يكون قد ضبط وهو في مخدع عشيقيه التي يسرف في وصفها، وكان كل هم مردان هو أن يرى هذه المرأة التي يصفها كريم بأنها أشبه بحورية من حوريات الجنة وكان مردان، بعد أن ينتهي كريم في كل مرة من سرد مغامرته، يبدى استعداده لخطف الفتاة والذهاب بها الى وادي كفران الجبال او الى اي مكان آخر وجلب الملا مع شاهدين وعقد قرانها بصورة شرعية حتى تنطفئ نيران الحب في قلبه المعذب، وكان جواب كريم في كل مرة أن هذه المرأة لا يجوز خطفها، بل وأنها عملية مستحيلة، فيجن جنون مردان الذي يتوسل اليه أن يصرح له بمجرد أسمها، أو مكان سكنها، اذ ذلك سيرى كيف أنه سيخطفها حتى لو كانت في السماء السابعة. ويبتسم كريم مغيضا اياه أكثر، ومؤكدا أنه من المستحيل خطف هذه المرأة. وأما هذه الليلة فسيعرف مردان من هذه الحورية، وراح يعصره الفضول، وهو يخشى أن يتراجع كريم في آخر لحظة عن ذكر اسمها ومكانها، قال كريم:

«المسألة يا مردان، يا حبيبي ليست مسألة خطف، وياليتها كانت كذلك، المسألة هي اننا نمسك بعصا كلا طرفيها ملطخان بالغائط، يجب أن نفكر بطريقة لمسك هذه العصا دون أن تتلطخ ايدينا. الحورية التي أحدثك عندها هي فاطمة زوجة هابو».

قاطعه مردان فاتحا فمه ببلاهة:

«فاطمة؟... باوكه روّ (اويلاه يا أبتي)، انها فعلا حورية...»

« الآن، دعني أكمل كلامي وأنتبه اليَ جيدا. لقد أقتنعت قناعة تامة بأنني لا أستطيع العيش بدون هذه المرأة، والاَ فانني سأجن هذه المرةَ جنونا حقيقيا، فلا السيدَ ولا أجداد السيدَ يستطيعون علاجي، ولكن كيف نستطيع اخراج هذا الحمار من الوحل؟... انها مسألة شرف حساسة...»

أمتص مردان كمية من الدخان من لفافتة بهدوء، وكانت آثار الدهشة الاولى ما زالت منطبعة على وجهه الذي استعاد وضعه الطبيعي المرح بعد هنيهة من الصمت الذي أطبق عليهما، نظر اليه مردان بعينين حادتين لم يعهد بهما كريم من قبل تساءل بجد:

«هل أنت مقتنع بأنها ليست مجرد نزوة؟»

«كلا يا مردان، انني أحتاجها فعلا، ولن أتنازل عن رأيي، ولكنني اريد أن نحل المشكلة بطريقة سلمية».

قال بلهجة بها ثقة وأستخفاف:

«وهل تعتقد أن هذه معضلة كبيرة؟»

«وماذا تصورها أنت؟»

أشرقت ابتسامة طفولية على وجهه المدور الممتليء وقال:

«أبسط ما يكون، هل تريد أن نبدأ هذه الليلة؟»

أعتقد كريم أنه يعني مسألة الخطف، فقال:

«اذا كنت تعني الخطف، فأنا لا أحتاجك يا عزيزي هذا ليس حلا للمشكلة».

«ولماذا تفسر كلامي بهذا الشكل يا حياتي يا كريم، مهما كنت غبيا فلا بد هناك أوقية عقل في جمجمتي».

ضحك كريم وقال بلهجة إعتذار:

«استغفر الله يا مردان، لو لم أكن واثقا من ذكائك لما فاتحتك بمثل هذا السر، قل لي اذن رأيك...»

«أنت تعرف أن المصاهرة التي حصلت بين هابو وأبي فاطمة هي طريقة كصة بكصة وليست طريقة دفع المهر، وكان أبو فاطمة يريد القيام بهذه المصاهرة منذ البداية، ولكنه اضطر لذلك بسبب ضغوطات معينة واغراءات مادية. اننا نستطيع أن نذهب اليه ونشرح له الامر بكل صراحة ونطلب اليه سواء بالاغراء أو بالتهديد أن يختلق مشكلة مع زوجته ويطلقها، اذ ذاك يضطر هابو هو الاخر للّجوء الى الطلاق حسب قانون ژن به ژن (كصة بكصة)».

تفتحت أسارير كريم وتنفس الصعداء وهو يمتص كمية الدخان براحة:

«لم استشرك اذن يا مردان يا حبيبي عبثا، ولكن هناك مشكلة اخرى يجب أن أبوحك أياها... فاطمة حبلى»

لم يستطع مردان إخفاء الدهشة المرتسمة على وجهه، فقال مسكنًا أياه:

«هذه نتيجة طبيعية للعبة الحب، ولكننا في كل الاحوال يجب أن نستشير الوالد أو شيخويك، وأعتقد أن أحسن طريقة هي اللجوء الى سنجان التي تستطيع اقناعهما بكل سهولة، ثم أنهم في كل الاحوال لا يرفضون أي طلب لك».

قال كريم بفرح طفولي طاغ:

«كنت قد فكرت في مفاتحة سنجان منذ فترة غير قصيرة، وهي تحب فاطمة، وأعتقد أنها تشعر بوجود علاقة فيما بيننا».

كان المطر يهطل بنفس الوتيرة التي بدأها، وهو يتماوج بين حين وآخر أمام الرياح، راشقا جدران البرج بدفقات من الحزم المائية التي تفجر عنها السماء الدامسة. أحس كريم برغبة جارفة في الذهاب الى فاطمة، قام من مكانه، قائلا وجاسًا نبض مردان:

«هل تعتقد أن السهرة ستطول هذه الليلة؟»

لقد قرروا فيما بينهم أن لا يفضوا جلستهم الاّ اذا توقف المطر عن الهطول».

«وهل تعتقد أنهم جادوًن في قرارهم؟»

«انهم أكثر عنادا من البغل، لا شك أنهم سيسهرون هذه الليلة حتى الصباح».

«وهل تعتقد أن المطر سيظل يستمر على الهطول؟»

«طالما أن الرياح شمالية، فان الغيوم ستظل لا تنقطع، أعرف ماذا تريد بأسئلتك هذه. انك بالطبع تستطيع أن تزور حبيبتك مرة أخرى، وسأقوم بحراستك في الزريبة، ولكن عليك ان تنهي بسرعة، لأننا وعدناهم بأن لا نتأخر».

وعندما خرجا من البوابه، قال كريم:

«أليس من الافضل أن نقفل الباب من الخارج حتى نطمئن؟»

«لا داعي لذلك، وأطمئن أنهم سيظلون الليلة كلها عندنا...»

كانت المياه والسيول القوية قد جرفت الاوحال فظهرت الأرض القوية هشة في بعض الاماكن، وكانا يتبينان طريقهما بالفطرة، اذ أن الظلام الدامس قد حجب الرؤية، وحين أهتديا الى بيت هابو، أنتظر هو أمام باب الزريبة الى أن فتحت فاطمة الباب لكريم، ثم انسحب الى الداخل. نفذت الى أنفه رائحة الزريبة المألوفة التي اختلط بعبق المطر الندي، وكان الجو دافئا رطبا. اقتربت منه حمارة بألفة وود وراحت تحتك به بمؤخرتها، أحس برغبة تتحرك في أحشائه، نزع جواله والقاه على ظهورها ثم راح يمسد مؤخرتها في الظلام الدامس، وحين بدأ بدغدغة حواشي فرجها، رفعت ذيلها، فأحس بسلاحه ينصب خيمة متوترة راحت تضيق به، فأدرك أنه ما زال بخير ولا

يدري متى أثبت رجولته آخر مرة، وحين أولج في الدفء، أغمض عينية، ولاح له في الظلام وجه حبيبته التي تعرت في خياله، وراح يتنفس بقوة وسرعة عاصرا بكلتا يدية مؤخرة الحمارة التي تصورها خصر حبيبته التي لم تعرف بحبه أبدا.

وفي الخارج كان المطر يزداد إنهمارا وقوة...



٢١

كان صائب منذ آخر لقاء مع رمزي لم يغادر البيت، وكانت والدته التي فجعت بوفاة زوجها بالسكتة القلبية، لا تتدخل في شؤونه. لقد اكتفت ان ترتدي ملابس الحداد السوداء وتعتصم بالبيت دون زيارة أحد من أقاربها الكثيرين، سواء داخل المدينة أم في الريف، اذ أنهم منذ اليوم الذي القي فية القبض على إبنها الكبير فوزي، قطعوا علاقتهم بهم، خوفا من أن يصير مصيرهم مثل مصيره الذي ما زال مجهولا حتى الآن. وكان عزاؤها الوحيد هو أخوها الاخرس عمر.

كان والد صائب ضبطا كبيرا في الجيش العثماني، تنقل في انحاء مختلفة وساهم في عدة حروب، كما واشترك في قمع حركة الطلبة في استانبول ضد السلطان عبد الحميد، وعندما بلغ الخمسين من العمر أحيل على التقاعد، فالي جانب عقاراته في المدينة، يملك إقطاعية صغيرة خارج المدينة تبعد عنها مسافة ساعة مشياً، أسكن فيها مجموعة من العوائل التركمانية الفقيرة المشتغلة بالزراعة، مقابل استقطاع عشر الحصول. وقبل الانتهاء من بناء بيته الصيفي الذي أراد أن يقضي فيه بقية عمره مع زوجته و ولدية والاخرس، ألقي القبض على ابنه بتهمة لم يقتنع بها ابداً وهي كون ابنه فوزي من الاتحاديين الذين ساهم هو بنفسة أكثر من مرة في قمع حركتهم، وراح ينتقل مثل المجنون بين الدوائر الحكومية، وسافر اكثر من مرة الى الموصل، وقرر أن يسافر حتى الى استنبول، ولكنهم أخبروه أن سفرته لا جدوى منها، وبأنه يستطيع ان يكتب استرحاماً الى السلطان نفسه، ففعل ذلك دون ان يتسلم اي جواب. وفي كل مرة تذهب جهوده إدراج الرياح دون ان يحصل على أي بصيص من النور حول مصير فوزي، ويعود الى البيت خائر القوى ويظل يشرب العرق حتى الثمالة وهو يلعن السلطان ويندم على كل ما قدمة من الخدمات لهذه الدولة العاهرة. وطالما كان يردد: «لو كنت قد اشتغلت قوادا لمدة ربع قرن في أي كلجية بالعالم، كان اشرف بكثير من خدمة هؤلاء اللواطين من عديمي الغيرة والشرف...» ومما زاد في همومة ايضاً مقاطعة اقاربه له، هؤلاء الذين يسميهم بالعقارب. وحين بلغهم عتابه ذات مرة، قال أحدهم: «اذا كان هو بكل ما حصل عليه من أنواط وأوسمه نتيجة إخلاصه وتفانيه في خدمة السلطان، لم يستطع الحصول على مجرد خبر عن مصير ابنه، فكيف سيكون مصيرنا نحن اذا حامت الشبهات حولنا؟»

حين وصله ذلك الكلام، هز رأسه بالايجاب متفهما اياهم، ولكنه لم يعفهم من كونهم جبناء. وفي ذلك اليوم شرب كثيرا، شرب قنينة كاملة من العرق المحتوي على٧٠٪ من الكحول، بدون

ماء، وجمع أوسمته وانواطه التي يقول عنها أنها أعز ما يملكه، وبعد أن القى عليها النظرة الاخيرة، كومها فوق بعضها في المرحاض وطلب الى صائب ان يتبول عليها، ومن ثم دفع بها بطرف حذائه الى المرحاض دون أن يأسف عليها، وطالباً من ابنه صائب ترك المدرسة، وعدم الإشتغال في المستقبل بأي مؤسسة حكومية، وفي نفس اليوم، من أيام الاسبوع الاخير من آب توقف قلبه عن النبض. كان يوما قائظاً لا يحتمل، وكان أي تأجيل في الدفن يعني تفسخ الجثة. لم يحضر احد من الاقارب او الأصدقاء لتشييع الجنازة، وفي اليوم الثاني من حفلة التأبين حضر بعض أصدقائه من العسكريين، وراحوا يدخنون ويحتسون القهوة المرة ويذكرون مآثر المرحوم و شجاعته في الحروب التي خاضها دفاعاً عن شرف الدولة العثمانية.

وظل صائب لعد اسابيع لا يصدق بأن اباهُ قد فارقهم الى الابد، كان يعتقد انه لا بد سيعود اليهم ذات يوم، ورغم أن أمه كانت الى جانب استمراره في الدراسة، الا انه قرر الالتزام بوصية والده، ورغم ان ناظر المدرسة جاءهم بنفسه لأكثر من مرة، فانه لم يستطع اقناعة بالعودة الى الدراسة، واعتذر بأدب امام الناظر قائلا بأن والدته تحتاجه لأدارة شؤون المزرعة، وانه لا يمكنه العودة الى الدراسة الا بعد رجوع أخيه فوزي.

وبعد مرور ثلاثة أسابيع على الوفاة ابلغ والدته انه قرر الانتقام لأخيه ولأبيه اللذين راحا ضحية الدولة الظالمة، ولذلك لا يريد ان يزعجه احد في مكان خلوته بالسرداب لتحقيق مشروعه القديم في الالتقاء بكبير الجن الذي سيحقق له كل ما يطلبه ويتمناه بأسرع من لمح البصر. ولم تفد نصائح الاخرس وتوسلاته بالعودة الى المدرسة والكف عن التفكير في امور خرافية لا تجدي. كان صائب الذي اطلق لحيته، واصبح قليل الكلام يرده بهدوء وبنبرة مليئة بالثقة، بأنه واثق من انتصاره على قوى الشر التي غزت العالم، وأنه سوف لا يقوم بأعادة العدل الى نصابه حسب، بل انه سيعالج خاله عمر أيضاً ويعيد اليه النطق، ولا بد ان يأتي ذلك اليوم الذي سيسمع فيه صوته. كانت مكتبة العائلة تحتوي على انواع الكتب و المجلدات والمخطوطات التي تراكم عليها غبار الزمن. ظل اياما واسابيع ينقب فيها ويمسح عنها الغبار ويعيد ترتيبها وتنسيقها حسب مواضيعها واختصاصاتها. لقد ظلت الكتب متروكة منذ وفاة جده، فوالده كان لا يقرأ، الا نادرا، بيد انه كان يفتخر دوماً بأن والده كان عالماً كبيرا، ضليعاً في كل انواع العلوم، وبأن خيرة علماء المدينة قد تتلمذوا على يده. كان ثمة صناديق خشبية لم يفتحها احد منذ وفاة الجد، بالاضافة الى عدد كبير من الدواليب المحتوية على الكتب في الغرفة الكبيرة التي كانوا يسمونها بغرفة الجد. وظلت الغرفة كما هي عليها منذ وفاة الجد لايدخلها احد. وكان الشخص الوحيد الذي يدخلها بين حين وآخر هو الوالد، والآن وبعد مضي ثلاثة اسابيع على وفاته، يتناول صائب المفتاح من موضعه ويفتح الباب الذي كان موصداً منذ الازل. ويتذكر انه دخل الغرفة لآخر مرة

مع جده قبل وفاته بفترة وجيزة، وكان إذ ذلك لم يتجاوز السابعة من العمر، وما زالت الجملة الأخيرة معلقة في ذهنه. «اذا ضبطت القرآءة والكتابة يا بني، فعليك ان تقرأ كل هذه الكتب إن أباك لا يقرأ أبداً، وهذا ما خاب ظني فيه...» كانت الكتب الموجودة في الدواليب تبحث في التاريخ والجغرافيا وعلوم الحياة والقوزموغرافيا والادب، اما الكتب المتعلقة بالفلك والتنجيم والروحانيات والسحر، فقد أخفاها الجد في صناديق مقفلة بالسرداب. بعد عناء وجهد طويلين، استطاع صائب العثور على مخطوط بدون غلاف، وتبين من زواياه المتهترئة انه قد استعمل كثيراً، وكان ثمة ورقة منفصلة كتبت بخط يد شخص آخر جاء فية: «الخط يبقى زمانا وصاحب الخط تحت الارض مدفون: ايها القارىء الكريم، اذا اردت ان تقرأ هذا المخطوط الثمين وتطبق ما فيه فيجب ان تمتلك جرأة الاسود...». ترك كل الكتب والمخطوطات الاخرى جانباً، وراح يمر بعينيه على صفحاته بسرعة كما لو أنه يريد ان يستوعب محتوى المخطوط الضخم دفعة واحدة. وكان الباب الاول يعطي الفكرة الاساسية عن المحتوى الذي هو عبارة عن سبع مراحل، ينبغي تجاوزها لمن يريد الانتقال من عالم المادة الى عالم الارواح، واذا استطاع الانسان اجتياز المراحل السبع بنجاح، يمكنة اللقاء بكبير الجن الذي سيجري مقابلة تنتهي بوضع كافة خدماته وامكاناته في خدمته، اذ ذلك عليه فقط أن يأمر، وما على كبير الجن سوى ان يحقق مطالبه، على ان تكون عادلة، لا اجحاف فيها. ومن اجل تنفيذ العملية، يحتاج المرء الى مكان هادىء لا صخب فيها ولا ضجيج يسمى الخلوة، تضاء فيها شمعة واحدة، وتحرق فيها البخور، ويجب ان يكتفي الشخص القائم بذلك بتناول لوزة او جوزة واحدة في اليوم لا أكثر، حتى لا يتنجس جسده بالفضلات. وتستغرق عملية الخلوة اربعين يوماً، يجب ان يكرر فية الشخص كل نص الف مرة ومرة، وتتكون النصوص من ألغاز غير مفهومة تحتوي على أسماء الجن ومراتبهم. وتبدأ المراحل السبع في الأسبوع الاخير، اي في اليوم الثالث و الثلاثين، اذ ذاك ينبغي على الشخص قراءة تعاويذ معينة طيلة الليل، وعليه ان لا يرفع رأسه عن النصوص نهائياً، ولا يلتفت لأي شيء يحدث حوله، ولا يدع الخوف يتسرب الى نفسه، كما عليه ان يتفادى كل ما من شأنه إثارة الاغراء والشهوة وإلاّ فان مجمل العملية سيتعرض الى الفشل، وقد يؤدي الى الجنون. في الليلة الاولى تسمع اصوات مرعبة، في الثانية تسمع ما يشبه القهقهات يصاحبها الرشق بالحجارة، في الثالثة يرمونه باطراف مقطوعة، في الرابعة تهجم علية حيوانات كاسرة خرافية الشكل، في الخامسة تحطه نساء عاريات يحاولن اغراءه بمفاتنهن... وهكذا الى ان يأتي كبير الجن في الليلة السابعة، هذا اذا لم يلتفت الى تلك الامور، يأتي منحنيا امام الشخص وهو يقول: «لبيك. يا مولاي انا رهن اشارتك، اية باخرة، تريد اغرقها؟... اي سلطان تريد جلبه لك؟... اية اميرة ساحرة تشتاق اليها؟....» قال صائب مبتسماً وبصوت مسموع بعد أن القى المخطوط جانبا: «اريد شيئين فقط

لا أكثر السلطان، كي القية على الارض وادوس رأسه بقدمي، وامرأة جميلة، لا اجمل منها على الارض، تكون شريكة حياتي...». وبعد ان اعد كل المستلزمات المطلوبة طلب من والدته ومن الاخرس عدم ازعاجه في خلوته بالسرداب، ذلك انه – بناء على وصية جده – يريد قراءة جميع ما خلفه من الكتب، واما في الليل فكان يتسلل الى السرداب دون علمهما، ويواصل قراءة النصوص والتعاويذ في ضوء الشمعة وتحت دخان البخور الكثيف. وما استرعى انتباهة وزاد من حيرته هو حدوث اشياء غير مذكورة في المخطوط، ولا تتناسب مع مواصفاته، فبعد مرور اسبوع، تحول السرداب بما يحتوية من اسقام و ممرات مظملة الى فسحة مضيئة، يتوهج النور في كل زاوية من زواياه، وخرج كبير الجن من صميم بقعة الضوء الساطع، منحنياً امامه بشكله الغريب وقامته الطويلة، قائلاً بصوت عميق بدا له كما لو انه صادر من فوهة بئر مهجورة: «لبيك، يا مولاى صائب، ها انك قد اجتزت المراحل المطلوبة، فاطلب ما تشاء، انا خادمك المطيع...». اهكذا بسرعة؟ ودون ان ينقضي اربعون يوماً؟ لم يسعفه لسانه بالكلام، بيد انه فكر في النساء العاريات اللواتي يحاولن الاغراء بمفاتنهن، وهز كبير الجن رأسه قائلا بعد أن قرأ أفكاره: «حسناً اذن يا مولاي صائب، اغمض عينيك هنيهة ثم افتحهما، ستجد حواليك اجمل ما خلقه الله من النساء يا مولاي، فتمتع بهن...» واغمض عينيه، كانت رائحة البخور النفاذة تتحرك في اعصابه بخدر، وحين فتحهما وجد نفسه محاطاً بحلقة من النساء العاريات يدرن حولة بحركات سحرية ناعسة، تتماوج مع غمائم البخور المتراقصة في الضوء المنبعث من كل زاوية. كان هو قد تسمَّر مكانه يجيل نظراته بين النهود وغابات الشعر المسترسل على الاكتاف، ثم ادار وجهه بحثا عن كبير الجن، ولكنه اينما وجه عينيه، لم يجد سوى العيون الناعسة والنهود والارداف، واغمض عينيه شاعرا بالاثم وهو يفكر في كبير الجن الذي اختفى قبل ان يطلب منه احضار السلطان الجائر. ولا يدري كم من الوقت مرَّ علية وهو بهذه الوضعية من الخدر اللذيذ المزوج بعاطفة غريبة خالية من الشهوة التي كانت تستبد به فيما مضى، وتقض مضاجعه، وفي اسرع من لمح البصر زال كل شيء، وعاد الظلام الى السرداب مرة أخرى، وكانت ذبالة الشمعة المتراقصة خلال سحب البخور، تحاول عبثا إضاءة الزوايا المظلمة. كانت هذه الحالة تتكرر عنده بصورة غير منتظمة، بحيث يختلط عليهِ الليل بالنهار خلال وجوده في السرداب. ذات يوم تراءى له جده بوقاره ولحيته البيضاء وعمامته وهو يرتدي رداء أبيض وبيده مخطوط، قال له انه لم يمت كما يعتقدون، بل هو حي يرزق وانة سيعود اليهم ذات يوم بصحبة فوزي الذي ما زال يعيش في مكان مظلم، وسوف لا يتمكن من ترك هذا المكان الا بعد ان يخرج نجمه من الظلمات. اراد صائب ان يكلم جده ويلقي عليه اسئلة كثيرة تدور فى رأسه، بيد أن الجد قال وهو يختفي مثل الطيف: «سأمر عليك في وقت آخر يا صائب، اما الان فيجب ان انصرف.» وفي نفس اليوم، تراءى

له اخوه فوزي، وكان مرهقاً جدا تبدو عليه آثار التعذيب، اراد صائب ان يلقي بنفسه عليه ويعانقه، ولكن فوزي رفع يده المعروقة المرتجفة، صادا اياه وقائلا: «لا يا اخي لا تقترب مني، جئت كي اخبرك بأنني ما زلت اعيش، انني سأعود اليكم، ولكنك يجب ان تترك هذا المكان، اذهب الى الوالدة فهي تحتاجك..».

اطفأ الشمعة الكبيرة التي يتجاوز ارتفاعها الذراعين، لأول مرة ذلك اليوم، وقبل ان يبادر الى ترك السرداب، التفت الى موقد البخور الذي لا يزال يتصاعد منه الدخان، وبعد ان تأمل الجمرات لهنيهة، مدَّ يده ببطء الى وعاء الماء وراح يصبه برق على الجمرات التي بدأت تنطفيء محدثة وشوشة ودخانا مختلطا بالرماد. وخرج من السرداب. كان الوقت ظهراً، لمحته والدته الجالسة في الشرفة المطلة على الحديقة، واستغربت لتركه السرداب في مثل هذا الوقت. وقبل ان تهم للذهاب اليه، اسرع هو اليها. كان الضعف والهزال باديين بصورة ملحوظة عليه، قالت له والدته بنبرة يائسة: «انك اذا بقيت على هذه الحال، فأنني سألحق بأبيك عاجلا ام اجلا يا صائب، هل ستكون سعيدا اذا مت انا؟». قال بلهجة لم تسمعها منه منذ مدة غير قصيرة، لهجة فيها تفاؤل وثقة، كست وجهة الشاحب وعينيه الملتمعتين بأشراقة غيرت مجمل وضعه:

«ماما، لقد قررت ان لا ارجع الى السرداب، فإطمئني».

طوقت بساعديها قائلة، وهي لا تصدق اذنها:

«هل صحيح ما تقوله يا صائب؟ انني لن احتمل هذا الوضع بعد...»

«لقد قلت لك انني لن اعود الى السرداب، وسترين».

كانت والدته منذ اليوم الذي فقد فيه صائب وضعه الطبيعي، تتردد بأستمرار على الملا صادق، الذي تجاوزت سمعته المدينة كعراف يستطيع الكشف عن بواطن الامور، ويقرأ المستقبل بواسطة الكف والعظام والرمل ويكتب الادعية للعشاق المنكوبين، والقبيحات اللواتي، ما أن يطبقن طقوسه ويحملن ادعيته، الا ويتحولن الى اجمل النساء في نظر الرجال. وكانت هي تغدق عليه الهدايا وتعطيه اضعاف ما يقدم له الآخرون. ومنذ اليوم الذي أخذوا فيه أبنها فوزي، لم تقطع صلتها به، فقبل يومين زارها بعض الفلاحين من قريتهم وجلبوا لها خروفا وقربة سمن وكمية من البرغل والقرة خرمان، وبعد ان تناولوا عندها طعام الغداء وانصرفوا، أخذت هي الخروف الى الملا صادق وطلبت منه أن تحدثه هذه المرة بالتفصيل وبصراحة حول ولديها فوزي وصائب. لم يحلم ملا صادق ذات يوم بمثل هذه الهدية التي لا تعوض، فكل ما يقبضه من الزبائن عبارة عن قطعة صابونة، دجاجة سوداء، ديك رومي، حفنة كشمش، اوقية زبيب او تمر، ونادرا ما كانت تتدحرج بضعة قروش او مجيدي واحد الى جيبه، في حين أن أم صائب قد وعدته بأن نذرها سيكون ليرة ذهبية، اذا عاد فوزي وتخلص صائب من هوسه الجنوني. طلب الملا صادق الى

زوجته ان تقفل الباب، ولا تفتحه لأي كان، لأنه يريد هذا اليوم ان يستعمل كل ما يملكه من معرفة في سبيل الكشف عن مصير فوزي وصائب. جمع ارقام حروف اسم الام والوالدين، كل على حدة وقسمهما الى رقم ١٢ وتوصل الى برجي الولدين، وراح يقارن البرجين بنجميهما في السماء، ويوزع قطعاً من العظام والاحجار على لوح مفروش بالرمل، ويقلب ملامح وجهه بعينين قلقتين، ونبضات قلبها تتماوج بين الصعود والنزول حسب ما يتراءى لها من الملامح في وجه الملا، وأخيرا بدأت علائم التفاؤل تطغي على وجه الملا الذي ترك عليه الجدري مجموعة من النقر الصغيرة وتفاءلت هي الاخرى:

... ان نجمتي فوزي وصائب ما زالتا في الظلمات، ولكنهما تتحركان بسرعة الى النور. فوزي في مكان مظلم وضيق، ولكنه في صحة جيدة، وسيعود قريبا، معززا، مكرما الى اهلة، والسلطان الذي تسبب في الإساءة اليه، سيغضب عليه الله ويزيحه ليحل محله سلطان آخر، لا يبقى على عرشه كثيرا. ان هذا الخروف قد ارسله الله لينقذ صائب من شر كبير، انه بمثابة الخروف الذي ارسله لابراهيم الخليل كي ينقذ به اسماعيل. الباب الذي اوصده الشيطان سيفتح لضيفين سيفرح بهما صائب كثيرا. ان أحد هذين الضيفين سيكون سببا لشفاء صائب وتخلصه من هوسه الذي سببه الصدمة المفاجئة لغياب أخيه فوزي... والله أعلم...

كان الوقت عصرا وكانت اشعة شمس نهاية كانون الثاني الواهنة تغمر الحديقة الموحشة التي أُهملت بعد وفاة الاب، وكانت علائم الفرح والابتهاج بادية عليى وجه الوالدة التي صبت طبقًا اخر من شوربة الرز بالدجاج، قائلة:

«ان معدتك قد جفت يا بني، هذه الشوربة ستلينها. ان معدتك يجب ان تتعود على الاكل بالتدريج».

كان الاخرس لا يستطيع الجلوس من فرط فرحته. قبل صائب من وجنته وراح يأتي بحركات تشترك فيها يداه وملامح وجهه وكل جزء من جسمه، فهما منه ما يلي:

«انك يا صائب رجل عاقل، والرجل العاقل يجب ان يواجة المشاكل والمصائب بقلب قوي وأعصاب متينة. انك يجب ان تكون لنا بمثابة ابيك لقد خسرنا الوالد، رحمه الله، وهو لن يرجع الى الابد، ولكن اخاك فوزي سيرجع الينا قريبا. وانك يجب ان تعود الى مدرستك لتكون عالما مثل المرحوم جدك...»

كان صائب يأكل بصمت دون ان يأبه لكلام الاخرس، واما الوالدة فطلبت اليه ان يكف عن الكلام حتى يتمكن من الاستمتاع بأكله بدون ازعاج. ولما كان الاخرس يعرف بانه لا يستطيع السكوت، لذا قال ببعض الاشارات بانه ذاهب للتمشي خارج البيت. وعندما اتى صائب على

الطبق الثاني، وضع يديه على بطنه وقال: «لقد شبعت.» وبعد هنيهة قال بعد أن حدق في عيني والدته المتعبتين:

«كرري لي ما قاله الملا صادق نصا».

وكررت له لوالدة ما قاله الملا صادق نصا.

هز صائب رأسه وقال وهو يحدق في الفراغ:

«لقد التقيت فوزي بنفسي، قال أنه سيأتينا قريبا».

كانت الوالدة قد اعتادت على مثل هذه الحالات الجنونية التي اصبحت سمة من سمات العائلة، فالاب و الجد كانا ايضاً لا يخلوان من مثل هذه الشطحات التي تجتاحهم في حالات معينة وبدرجات متفاوتة، فالجد كان هو الآخر يختفي بالسرداب ويتنسك لأسابيع ثم يخرج من تلقاء نفسه وهو في حالة صحية يرثى لها. وأما الاب فكان له صديقين يسهر معهما في غرفة الجد في الاماسي ويقومون بتحضير الارواح. وفي امسية اليوم الثاني كانوا يشربون الخمر ويعقبون على نتائج جلسة الأمس. وكانت الام ترى ان جلسات تحضير الارواح أهون بكثير من التنسك والعبادة في السرداب. وأما فوزي فكان يعتبر كل هذه المسائل من الخزعبلات والخرافات، ومما كان يغيض الأم هو لجوءه في بعض الاحيان الى الكفر. وكانت تعتقد ان سبب إلقاء القبض عليه واختفاء اثره هو غضب الله عليه. وكان على الأم ان تتحمل كل هذه الاشياء ولا تتدخل في شؤون أحد. وها هي الان اسعد مخلوقة على الارض، بعد ان ترك صائب السرداب من تلقاء نفسه وقرر ان لايعود اليه، ولا يهمها بعد ذلك ما اذا كان كلامه منطقيا ام هذيانا. ألم يقل جده ذات مرة انه قابل الله في عرشه فوق السماء السابعة، وعندما سأله فوزي عن شكل الله، قال له انه كتلة من النور الوهاج؟... فما الغرابة في الامر اذا اكد ابنها بأنه التقى بأخيه؟... من يدري لعله التقى به فعلا...

عندما انتهت من اعداد الشاي، انفتح باب البيت الخشبي الكبير ودخل الاخرس وهو يكاد يرقص من الفرح وينادي على صائب بأصوات غير مفهومة ولشد ما كانت دهشة صائب كبيرة عندما شاهد رمزي مع صاحبه. وقالت الام بعد ان احست بموجة فرح غريبة تطغي عليها:

«لقد صدق الملا صادق، ها ان الباب الذي اوصده الشيطان قد انفتح وبعد ان رحبت بالضيفين اللذين عانقهما صائب بقوة، راحت تنظر اليهما كالمأخوذ، وتفكر في كلام الملا صادق الذي قال: «ان أحد هذين الضيفين سيكون سببا لشفاء صائب وتخلصه من هوسه...».

كانت زيارة رمزي ورستم ليس بالنسبة لصائب حسب، بل لوالدة والاخرس، ايضا حدثا مهما أعاد العلاقات داخل العائلة الى مجاريها الطبيعية، وفتح نافذة البيت المغلقة الى العالم

الخارجي. وخلال فترة شرب الشاي في الشرفة المطلة على الحديقة جرى حديث طويل متشعب، وسر صائب كثيرا للنجاحات التي احرزها رستم في المدرسة، وقرر أن يعود هو اليها، ولكن بعد عودة أخية فوزي، وقال بأنه هو ايضاً مرشح للدراسة في مركز الولاية بالموصل، وأنه يريد دراسة القانون.

كان رستم يستمع بانتباه ولا يتحدث الا اذا طلب اليه. وحين تحدث رمزي بإعجاب عن زيارته لأهل رستم في وادي كفران، قال صائب بأن رغبته جارفة ايضاً لمثل هذه الزيارة، وهنا رحب رستم بالفكرة واقترح ان يسافر معهم في العطلة الربيعية التي تبدأ قريبا. ولاحظت الوالدة أن صائب يتكلم بصورة اعتيادية جدا وأنه خلال حديثه الطويل لم يشطح اية شطحة غير معقولة، وكانت تعابير وجهه وحركات عينيه طبيعة جدا. وحين انسحبوا الى غرفة صائب بدأ يحدثهما عن قرب نهاية السلطان الجائر، وعن المحاولات اليائسة التي قام بها والده لأنقاذ أخيه فوزي الذي لا يعرفون الى الآن شيئا عن مصيره، الأمر الذي ادى الى وفاة والده المفاجيء. ثم حدثهما بالتفصيل عما شاهده خلال فترة تنسكه في السرداب، وأكد أنه لا شك أخطأ في بعض الامور، لأن العملية جر عكس ما هو مذكور في الكتاب، فبدلا من ان يحضر كبير الجن بعد اربعين يوما من التنسك، جاء بعد اسبوع عارضا خدماته، ولكن الغريب في الامر انه لم ينفذ اي امر من أوامره، وأنه قد مل الحياة الصعبة والجوع والارهاق العصبي في ظلام السرداب، وأنه غير مستعد لتنفيذ العملية مرة اخرى ولا يريد دخول السرداب ابدا. كان رستم يستمع بفضول غريب الى صائب، وذكرته نظراته وبعض ملامح وجهه بأبيه في أيام اصابته بالهوس الجنون، بيد ان الفرق بينهما هو ان اباه كان صامتا لا ينبس ببنت شفه، في حين ان صائب لا يكف عن الكلام. ولم يسبق لرستم ان دخل من قبل بيتا في مدينة، فهو في الوقت الذي ينتبه الى كلام صائب ويخلق تصوراته لعالمه الخاص في سردابه، يراقب كل جزء من البيت الذي جاء مفاجئاً ومخالفا للصورة التي كونها في ذهنه، والتي كان قياسه فيها بيت الخال جهانگير، فالفرق بين هذا البيت وبيت جهانگير شاسع جدا. اول ما استرعى انتباهه الشارع النظيف المبلط بالحجر، ورغم اكوام الفضلات الصغيرة امام الابواب، فانه انظف بكثير من الازقة الغارقة في اكوام القاذورات والمياه الآسنة. الباب الكبير الذي تتوسطه مدقة حديدية تصور قبضة يد، تحطه من الجانبين دكتان للجلوس، ويطل عليه من فوق قوس مدّ ذراعيه الى الاسفل مطوقا اياه بصورة توحي للانسان تصورات غامضة لما وراء الباب الموصد. وعندما ينفتح الباب يستقبلك بهو بغرفة جانبية، يؤدي الى ساحة البيت المبلطة بالقرميد. وثمة حديقة كبيرة يعزلها سياج خشبي عن ساحة، تطل عليها شرفة زجاجية، هي امتداد لغرفة كبيرة مؤثثة بالاثاث الغربي، ورغم وجود عدد كبير من القنفات والكرسي، فان والدة صائب كانت تجلس عادة على الارض المفروشة

بالسجاد. وكان ثمة ممر، مضاء بنافذة صغيرة تطل على الساحة، يؤدي الى غرفة صائب الملاصقة لغرفة الجد، وكانت هاتان الغرفان أكثر ارتفاعا، وتطلان من الجانب الثاني على بهو، يطل على ساحة صغيرة، وتتفرع منه غرفتان أخريان، وبذلك يحتوي البيت على ست غرف، يتوزع تحتها سرداب مظلم بدهاليز كثيرة.

وكانت ثمة في منتصف الحديقة شجرة توت عالية مدت فروعها العملاقة الى جميع الجهات.

وها هي غرفة صائب، غرفة لا يدخلها سواه، يفعل فيها ما يشاء دون ان يتدخل أحد في شؤونه، يقرأ ويكتب ويذاكر ويستقبل ضيوفه فيها دون ازعاج. ترى اذا أرادَ له ايضا غرفة خاصة في بانشاخ فماذا يقول له والده او جده الشيخ زوراب او رمضان؟.. غرفة لوحدك؟.. ولا شك ستبدأ أنواع التعليقات، ولا سيما من العم رمضان، غرفة لك وغرفة لقادر وغرفة لعباس، اليوم ستطلبنا بغرفة يا رستم وربما ستطالبنا غدا أن نبني لك مرحاضا وحماما، من يدري لعلك ستطالبنا أن نبني جايخانة ايضاً... وانطبعت ابتسامة لا ارادية على وجهة وهو يتذكر وجوه الاعمام واولاد الاعمام الذين لا شك بدأ القلق الجدي يساورهم لتأخر سقوط الامطار، ولعل الحديث الوحيد الذي يدور في مظائفهم الآن هو حديث المطر. وانتبه صائب الى شرود رستم فقال بإبتسامة ودية:

«رستم، اين انت يا رستم؟...»

علق رمزي:

«اعتقد انه يفكر كيفية اقناع جده زوراب بالموافقة على دراسته في الموصل».

استفسر صائب بإستغراب:

«وهل تعتقد أنه يرفض مثل هذه الفرصة الثمنية؟»

أجاب رستم مبتسما:

«انهم حين وافقوا على دراستي في كركوك، انما كي ارجع لهم كملا، وليس كأفندي يضع الطربوش على رأسه يا أخي صائب».

ضحك صائب وقال ضاربا قبضته كعادته على المنضدة:

«وهل أنت قلق على ذلك يا رستم؟... سيقوم رمزي بإقناع والده بالتوقيع على المضبطة بختمه بأعتبار أنه هو ولي أمرك...»

«والمصاريف»

قال رمزي بقناعة:

«هذه ليست مشكلة يا رستم المصاريف التي أتسلمها من والدي نُقسمها فيما بيننا».

أضاف صائب:

«سأساعدك انا ايضاً بدوري، انك يجب أن تكمل دراستك، فانت الوحيد الذي يخرج للدراسة من مجاهل عشيرة كبيرة».

قال رستم بابتسامته المعهودة:

«انا اشكركما للإهتمام بدراستي، المشكلة الاساسية هي ليست المشكلة المالية، ان جدي زوراب يجب ان يوافق عن دراستي. لا استطيع التمرد بسهولة على تقاليد عشيرتنا، هذه ليست مشكلة، هناك من يستطيع اقناعه».

قال صائب بحماس:

«المهم هو أن تواصل دراستك بأي ثمن كان... صحيح اننا لا نستطيع التمرد على كل شيء بسرعة، ولكننا أحيانا يجب ان نتمرد، ونعود اهلنا على تحمله».

وكانت والدة صائب والاخرس سعيدين جدا لقدوم الضيفين في وقت يحتاج فيه صائب حقا الى من يخفف عنه همومه ويخرجه من عزلته، التي لا شك هي السبب في تصرفاته. اعدت لهم طعام العشاء والحت عليهما بقضاء ليلتهما عندهم، وايدها صائب مؤكدا انه سيقفل الباب الخارجي ويمنعهما من مغادرة البيت. كان رمزي مترددا، بيد ان رستم ارتاح لفكرة المبيت على أن يتعهد صائب امام والدته هو الآخر بأنه سيزور وادي كفران. وقالت ام صائب شاكية وموجهة كلامها الى رستم: «لقد توسلنا مراراً وتكراراً الى رمزي أن يسكن عندنا فهو مثل ابني، ولكنة يرفض دائما، انه خجول مثل فتاة...».

وتعهد صائب بأنه سيجعل امستيهم شيقة جدا، وانهم سيسهرون الى منتصف الليل، ذلك أنه اصبح خبيرا في تحضير الارواح بعد أن درس بامعان كيفية توجيه العملية.

كان رستم يراقب بذهول واهتمام حركات صائب وهو يحاول تهيئة الجو للبدء بعملية تحضير الارواح، خالقا في ذهنه مختلف التصورات لما سيحدث، ازاح صائب غطاء المنضدة المستديرة، فظهرت دائرة من الحروف الابجدية المكتوبة بخط جميل، تحيط بحرفي لا و نعم من الجانبين. اشعل شمعتين وثبتهما في حمالة شموع فضية، وبعد ان أطفأ المصباح الزيتي ذا المظلة الزجاجية الحليبية، حمل احدى الشمعتين واستكان شاي فارغ وذهب الى غرفة جانبية. وكان الصمت مطبقا على الغرفة الداكنة الموحشة. التفت رستم الى رمزي فبدا له مثل شبح بلا ملامح، قال بصوت خافت وكأنه لا يريد أن يزعج الارواح:

«هل سنرى الارواح بأم أعيننا؟»

هز رمزي رأسه باستغراب:

«لا أعرف...»

«هل يمكن تحضير أي روح نشاء؟»

«لا أعرف...»

«الم يسبق لك ان ساهمت معه في مثل هذه العملية؟»

«كلا...»

دخل صائب قائلا بلهجة مبتهجة:

«هل فكرتما في تحضير روح قريب ما؟»

قال رستم بصورة لا ارادية:

«انا اريد ان أكلم روح جدي الاكبر ناله كورگه».

اراد رمزي أن يقول شيئا، بيد ان صائباً سبقه وهو يناول رستم إستكان الشاي:

«خذ هذا الاستكان وأقرأ فيه في الغرفة المجاورة النص التالي باللغة العربية:

«بسم الله الرحمن الحيم، يا روح جدي الاكبر ناله كورگه أرجو من كل الأولياء الصالحين أن يفسحوا لي المجال بمكالمتك...»

«وهل سأسمع صوته؟»

«كلا، ستأتي فيما بعد الى هنا ونبدأ بالعملية..»

«ولكن جدي ناله كورگه لا يعرف اللغة العربية».

«كل الارواح تتكلم باللغة العربية في السماء، انها اللغة الرسمية هناك...»

خرج رستم الى الغرفة المجاورة، وهو يفكر في السيد الذي كان يتمتم باللغة العربية ايضاً حين عالج والده. وحين عاد قال صائب وهو يقلب الاستكان مقربا فوهته من لهب الشمعة:

«الآن سنبدأ بروح المرحوم جدك ناله كورگه».

وضع الاستكان بصورة مقلوبة ثم ترك رأس سبابته يمس قاعدة الإستكان، وطلب الى رستم أن يفعل مثله، فضغط هذا برأس سبابته بقوة على القاعدة، قال صائب:

«يارستم ليس هكذا، انك يجب ان تمس الحافة مساً رقيقا حتى تفسح المجال للأستكان بالتحرك، أنه سينتقل من تلقاء نفسه بين الحروف الابجدية، وبعد جمع الحروف سنحصل على الاجوبة المطلوبة».

كان كلاهما هو ورمزي يعتقدان حتى هذه اللحظة انهما سيريان الروح أو على الأقل

سيسمعان صوتها ولذلك فأن بعضا من الخيبة بدأ يساور ظنهما، بيد أن الحركة التلقائية للإستكان وتنقله المفاجيء بين الحروف أعاد اليهما الثقة بالامر. كان صائب منحنيا على المنضدة، قال بلهجة واثقة:

«والآن أسال يا رستم».

« ماذا أسأل؟»

«أسأله عن أي شيء، عن وضعه، هل هو الآن في الجنة ام في الحجيم؟...»

قال رستم بصوت جاد أحس به ينقله الى مجاهل الكون:

«ياجدي ناله گورگه، أنا رستم أحد احفادك، أريد ان تحدثني عن وضعك هل انت سعيد ام تعاني الضيق في الاخرة؟»

وتحرك الاستكان باتجاه اربعة حروف ج ب ع ى. وعندما توقف الاستكان سحب صائب اصبعة قائلا:

«لنر ماذا تقول لنا هذه الحروف». قال رمزي: «إنها تقول جبعي، كلمة لا معنى لها، أعتقد انكما يجب ان تعيدا الكرة».

أجاب صائب بلهجة خبير:

«لا يا رمزي احتمالات قراءة هذه الحروف كثيرة، ما قرأته أنت هو الاحتمال الاول. الاحتمال الثاني يبدأ من اليسار الى اليمين ويقول: يعبج، هذه ايضا كلمة لا معنى لها».

كتب صائب الحروف على ورقة بقلم رصاص، وراح يكتب كلمات مختلفة الى أن توصل الى كلمة (عجيب). التفت الى رستم قائلا بأستغراب:

«لقد اجابت روح المرحوم جدك بكلمة «عجيب»، اننا يجب أن نفسر هذا الجواب ونتوصل الى نتيجة».

قال رمزي:

«لماذا لا تعيدان الكرة؟... لعل الجواب سيأتي هذه المرة أوضح».

هز صائب رأسه بنفي:

«لا يا رمزي، ان الجواب الاول مهم، اننا يجب أن نعرف ما هو المقصود بكلمة (عجيب)، هناك معاني كثيرة وراء هذه الكلمة».

أضاف رستم مقطب الجبين:

«انا اعرف ما هو المقصود بهذه الكلمة، يبدو أن روح المرحوم جدي غير راضية عن تسلم

الفرمان من الدولة، جدي زوراب غير راض ايضا، ولكن ما العمل، أنهم أجبرونا على ذلك».

قال رمزي:

«هناك إحتمال آخر، فوجودك أنت هنا في هذه المدينة وفي هذا البيت بالذات، ومخاطبتك أياه بهذه الطريقة يعتبر ايضاً شيئا عجيبا بالنسبة له».

أستفسر صائب:

«هل سبق أن حدث عندكم في العشيرة ما يدعو الى العجب؟»

«نعم أصيب والدي قبل أشهر بهوس سوداوي نتيجة ضربة الجن في الليل، فأخذناه الى سيد عربي عالجه خلال أسبوع، وهو الآن يتمتع بصحة جيدة».

أستفسر صائب بدهشة:

«ضربة جن حقيقية؟»

«أجل، ضربة جن حقيقية، فقد النطق لعدة إيام وأصيب جانب من وجهه بشلل».

قال صائب بصورة لا ارادية:

«عجيب...»

قال رمزي:

«سبحان الله، هل رأيت؟ لقد كررت كلام روح المرحوم ناله كورگه بصورة لا ارادية».

تنفس صائب الصعداء وقال:

«صحيح، والله صحيح، لقد نجحت العملية، أطرح علية الآن سؤالا اخر...»

مسّآ برأسي سبابتهما حافة قاعدة الاستكان برفق، قال رستم:

«انك على علم بكل ما يجرى داخل عشيرتنا يا روح جدي العزيز، ولكنني أحب أن اعرف أيضا ما اذا كنت مرتاحة في السماء...»

تحرك الاستكان ببطء ودار حول نفسه دورة صغيرة دون ان يمر على حرف من الحروف. نظر رستم بتساؤل الى صائب الذي أستغرب لحركة الاستكان الغريبة قال رمزي:

«أعتقد ان روح المرحوم جدك متعبة وتريد ان تنام يا رستم».

قال صائب:

«الارواح لا تعرف التعب، أسأل سؤالا ملموسا حتى يأتى الجواب بنعم أم لا، قل له: هل أنت بخير؟»

«يا جدي العزيز، هل أنت بخير؟»

تحرك الاستكان ببطء وأستقر عند الحرف لا. سحب أصبعه قائلا:

«يبدو أن روح المرحوم فى حالة غير جيدة، متى توفي؟»

«لا اعرف. ربما قبل أكثر من مائة سنة...»

«هل تريد أن تسألة سؤالا آخر؟»

وقبل ان ينتظر صائب جواب رستم، رفع الاستكان وقرب فوهتة من لهب الشمعة ثم أعادة الى مكانه ماسا حافته، قائلا:

«هيا أسأل يا رستم».

«يا روح جدي العزيز هل انت موافقة على مواصلة دراستي في ولاية الموصل؟ تحرك الاستكان ببطء ثم ما لبث أن أسرعَ في حركته، وبعد أن مر بحرفي أ و ى إستقر عند كلمة نعم. وقفز رستم من مكانه بفرح طفولي وهو يصيح:

«لقد وافق جدي على دراستي، لن يمنعني أحد من تحقيق ذلك...»

قال رمزي:

«هذا ما يجب أن تتحدث به في مضيف جدك زوراب يا رستم...»

قال صائب مبتهجا:

«انت محظوظ يا رستم، لقد وافق جدك على دراستك مرتين، لقد أجاب مرة بأى ومرة بنعم، فماذا تريد بعد؟»

وعندما جاء دور رمزي أبي الا أن يخاطب روح الامام خضر الولي، حيث سألها عن موعد حلول يوم القيامة، فكان الجواب: (طز). وضحك صائب ورستم ثم عقب الاول:

«ان مثل هذا الجواب لا يوجد سوى عند الله يا رمزي، أسأل سؤالا معقولا».

«حسنا، سأسأل سؤالا يهم والدي، يا روح المرحوم جدي أحمد أرجو أن تخبرني عن مصير المحاصيل في السنة القادمة».

لم يتحرك الاستكان، وأنتظروا هنيهة عبثا. قال رستم:

«اعتقد أن روح جدك نائمة يا رمزي».

«كان المرحوم ينام كثيرا في حياته».

قال صائب:

«الارواح لا تعرف النوم، أعتقد أنك تضغط بقوة على الأستكان يا رمزي».

سحب رمزي سبابته ثم راح يلمس بطرفها الاستكان برفق، وبدأ بالتحرك.

قال رستم:

«سبحان الله، لقد أستيقظت روح جدك من رقادها».

ومَر الاستكان بالحروف أ ب ج د ه. وبعد أن سحبا أصبعيهما هز صائب رأسه متعجبا وهو يقول:

«لقد وضعتنا روح المرحوم جدك أمام لغز».

«كان كل كلامه في حياته عبارة عن ألغاز».

«أسأله سؤالا آخر وخلصنا من جدك المعقد يا رمزي».

«هل أنت مرتاح فى الآخرة يا جدي؟».

وتحرك الاستكان على الحرفين ب أ.

قال صائب باحتجاج:

«لغز آخر يا رمزي، الا تخلصنا من جدك؟ أعتقد أنه يمزح معنا».

قال رستم بابتهاج:

«أنه اجاب بالكردية، بآ يعني نعم».

ضرب صائب بقبضته على المنضدة فأهتزت ذبالة الشمعة، وقال:

«الان فهمت ماذا قصد المرحوم جدك بالحروف، أنه اراد أن يقول لنا أنه لا يعرف الابجدية التي هي رمز للغة العربية...»

وقبل أن يبدأ بتحضير روح جده والقاء الأسئلة عليها، قام رستم من مكانه، قائلا أنه بحاجة لقضاء حاجة صغيرة، فرافقه صائب طالبا منه أن يختار أية زاوية يشاء. كان الظلام دامساً، والسماء ملبدة بالغيوم. وقف رستم هنيهة، يستنشق الهواء الندي البارد بعمق، ويحرك يديه في الفراغ كما لو أنه يريد أن يلمس شيئا، قال صائب باستغراب:

«أنك ستتبرد يا رمزي، ألا تريد أن تتبول؟»

قال رستم بفرحة غريبة:

«انظر يا صائب، الا تحس بالرطوبة في الهواء؟ أنها ستمطر هذه الليلة».

قال صائب باستخفاف:

«وثم ماذا؟»

جاء صوت رستم في الظلام وهو يختلط بحفيف أغصان التوت المهتزة أمام الرياح الشمالية، قائلا:

«الدنيا كلها تنتظر المطر يا صائب، وأنت تقول ثم ماذا، أهكذا تفكر في أحوال الشعب؟»

كان رمزي هو الآخر قد ترك الغرفة ووقف جنب صائب ينظر الى السماء، فسمع ما قاله رستم، عقب قائلا:

«المطر يا صائب أهم عند الفلاحين من سقوط السلطان الجائر، أنهم لا يعرفون في دنياهم سوى المطر، فانه اذا لم يهطل تهددهم المجاعة».

قال صائب وكأنه يكلم نفسه:

«أننا أهل المدن نظرنا قصير جدا، فانا مثلا أتمنى دوما أن لا تمطر، اذ أن الازقة والشوارع تتحول الى مستنقعات وأوحال لا يمكن أجتيازها».

قال رستم بعد أن قضى حاجته ووقف الى جنبهما وهو ينظر الى السماء المكسوة بالظلام الدامس:

«أعتقد أن المطر يهطل الآن بغزارة في واد كفران بقسميه الجبلي و السهل ووصل الى مركز السنجق».

قال صائب:

«كيف تعرف ذلك؟»

«أنني أشمه واحس به بيدي...»

«وانت يا رمزي هل تحس بنفس ألاحساس؟»

«تقريبا، ولكن ليس بالقوة التي يحس بها رستم».

«شيء عجيب حقا، انني يجب ان أزوركما في الريف، وهل تعتقد أن المطر سيهطل هذه الليلة فعلا...»

أجاب رستم بثقة مطلقة:

«أنا واثق كل الثقة بأنها تمطر الآن، وأن ابناء القرية سيسرون هذه الليلة في مضيف جدي زوراب، أنه أسعد عيد يمكن أن يحتفل به الناس يا صائب»،

«اذ كان الامر كذلك فسنحتفل نحن أيضا، ونسهر الى أن يسقط المطر، ولكن اذا لم يسقط المطر هذه الليلة يا رستم فماذا ستفعل؟»

«سأعزمكما أنت ورمزي غدا لتناول الطعام في أغلى مطاعم المدينة».

وقبل أن ينتهي صائب من معاركه وتحريضاته ضد السلطان الجائر على مائدة تحضير الارواح المستديرة التي شهدت الجلسات الروحية لأسلافه، بدأ صخب الرياح المزمجرة في الخارج يرتفع بالوقع المتناغم لزخات المطر المرتطم بالسقوف والجدران، والذي بدأ ينهمر كما لو أنه رشاشات تفجرت عنها السماء. وقفز رستم من مكانه بصورة لا اردية هارعا الى الباب. وكانت النقر المائية المتجمعة قد بدأت تشكل الفقاعات على أثر ارتطام الزخات الكبيرة بها. صاح رستم بالكردية ناسيا أنه كان يتحدث طيلة الوقت بالتركية مع صائب:

«رمزي، رمزي، كلاو لەسەرمیە... كلاو لەسەرمیە...»

٢٢

لم تتفاجأ سنجان بالموضوع عندما صارحها كريم بعلاقته بفاطمة، قد أدركت بفطرتها وجود مثل هذه العلاقة منذ يوم زواج رمضان وميرزا، ولكن أن تكون فاطمة حبلى منه، فهذا لم يكن يخطر ببالها. وسكتت كشأنها في مثل هذه الحالات غير المتوقعة، وهي تحدق في ملامحه، حاجبيه الداكنين المقطبين، عينيه الملتمعتين، لحيته الخفيفة التي مازال يتخللها زغب الصبا، حركات يديه المنفعلتين، ويذكّرها كل لمحة من ملامحه، وكل حركة من حركاته بأبيها،نفسها في الخامسة عشرة من عمرها وهي جالسة مع أبيها الذي كان اذ ذلك في نفس عمره، وكأنه قد عاد اليهم بعد رحلة مجهولة، أو شقّ كفنه وترك القبر ليزورهم في شخص كريم الذي أرجعه الله اليهم من جديد بعد أن كاد أن يكون في عداد الموتى في عداد المجانين، لولا معجزة السيّد العربي الخارقة التي أعادته اليهم مشافى ومعافى. وعندما أصرّ كريم على عبارة:

«انني اريد هذه المرأة يا ميمي، والاّ سأجن هذه المرة جنونا حقيقيا لايستطيع حتى أجداد السيد شفائي منه»، بدا لها كما لو أنه طفل صغيرة. وكانت تعرف جيدا أن كريم كان دوما طفلا بالنسبة لهم جميعا، وها أنه بعد أن عذّبهم أياما غير قليلة بهوسه، يضعهم أمام مشكلة جديدة معقدة قد تؤدي الى شرخ داخل العشيرة التي التحمت مع جماعة بنعين، ثم أن المسألة هي شرف بحتة لا يعرف عواقبها الاّ الله. ورغم كل ذلك فان كريم له الحق أيضا أن يختار الزوجة التى يريدها، فهو منذ زواجه الذي تمّ برغبة الوالد، لا يزال يبدو ويتصرف كما لو أنه ضيف في بيته، يتنقل على ظهر حصانه بين قرية وأخرى دون أن يستقر له قرار. وها أنه بعد أن تخلّص من حبائل الجنّية يقع في حبائل جنية حقيقية يمكن لمسها باليد، جنية سلبت عقله وقلبه وربطته بحبل متين يستحيل التخلص منه، ولا بد أن يهون كل شيء من أجل كريم، فاذا كان هو يريدها وهي تريده فلا بد من ازاحة هابو من طريقهما، ولكن بصورة لا تؤدي الى تصاعد رائحة الفضيحة، وكما يقول المثل الكردي: (قوز گايين بهجهبله ريزان نابى) «مضاجعة الفرج لا تتم بالتصفيق»، فان عليهم أن يضعوا خطّة محكمة، يجري بموجبها مجمل العملية بصورة طبيعية.

كانت الشمس قد أشرقت، وبدت السماء زرقاء صافية كما لو أنها لم ترسل المطر طيلة الليلة الماضية، ورغم السهرة الطويلة التي أمتدت الى وقت متأخر من الليل، فأن الكل قد أستيقظوا قبل شروق الشمس، وبعد تناول طعام الفطور خرج كل من الشيخ زوراب و شيخو ورمضان الى الحقول لقياس عمق المطر النازل الى الارض. وعندما تأكد كريم من خلو البيت منهم جرّ سنجان الى ركن منزو لمفاتحتها بالموضوع.

وأما مردان فقد ظلّ معتصما ببرجه دون أن ينزل لتناول طعام الفطور مع الجماعة، بانتظار إشارة كريم. قالت سنجان بصوت خافت بعد أن توقفت عن خض اللبن:

«هل أنت متأكد يا كريم بأنك أنت الاب»؟

«كل التأكيد يا ميمي».

«وماذا سنفعل اذا تبين بعد الولادة بأن هابو هو الاب»؟

قال كريم بلهجة صارمة:

«سأطلق النار على رأسها وأذبح الطفل».

«لا سمح الله أن تقوم بمثل هذه الجريمة يا بني».

سكتت سنجان هنيهة وهي تتأمل الفراغ ثم قالت:

«لا اريد أن اثقل والدك الان بهذا الموضوع، وأفسد عليه نشوة فرحته بالمطر، ولكن لا بأس في أن تذهب مع مردان الى والد فاطمة وجس نبضه، والآن سأعد لكَما الفطور».

قفز كريم من مكانه فرحا وصاح بأعلى صوته:

«مردان... مردان».

وخرج مردان من برجه دون أن يبدو عليه أي أثر للنعاس، فقد كانت سنجان تعتقد أنه ما زال نائما. أخرجت كمية من الزبدة الطازجة وقدمتها أياهما مع عدة أقراص من خبز الصاج الحار الذي كانت تعده زوجة شيخو، وأما البيضات الاربع التي دفنتها في نار البعرور بالموقد قبل قليل فطلبت منهما أن يخرجاها بأنفسهما ويتأكد ما اذا كانت قد شويت تماما. بعد أن بللّ مردان يديه وصفع وجهه بحفنة ماء من الابريق الفخاري أتخذ مكانه جنب كريم في المضيف وهو يمسح وجهه بطرف يشماغه. نظر في وجه كريم المشرق غامضا احدى عينيه، مستفسرا عن نتجة اللقاء مع سنجان بحركات من رأسه ودون أن ينبس شفة، أجاب كريم بحركة من يده بأن كل شيء على ما يرام. وراحا يلتهمان بشهية، قال مردان بعد أن تأكد من ابتعاد سنجان عن المضيف:

«بعد نجاح العملية، سنسافر الى المدينة لزيارة ملا رستم، وسأتناول هذه المرة ثلاث وجبات كباب دفعة واحدة».

قال كريم وهو يصب الشاي:

«لا تحلم بالكباب، هذا اليوم سنتناول وجبة برغل في مضيف والد المحبوبة، كُلْ جيدا فالطريق أمامنا طويل».

قال مردان بلهجة العارف بكل الامور:

«لا يا عزيزي، معلوماتك ضعيفة، انني أستطيع ان اريك قريتهم من البرج».

حفر الشيخ زوراب بسكينته في الحقل حفرة بلغت حوالي الشبرين، وكان القاع مازال رطبا، قال وهو يقوم من مكانه:

«الحمد الله، مثل هذه البلة (الرطوبة) لم أجد لها مثيلا، انها تكفي الى يوم نوروز».

قال رمضان:

«اذا لم يداهمنا مرض الزنجار، فان الحصول سيكون أعجوبة».

كانا قد أبتعدا عن القرية مسافة فرسخ مشيا. وكانت حافة الحقل غير المحروثة، صلبة، تشكل طريقا سهلا بين الحقول المترامية، الراقدة تحت شمس كانون الثاني وكان الهواء الباردالمحمّل بالرطوبة تحول دون إنتشار الدفء الذي ترسله أشعة الشمس، وعندما سارا بأتجاه القرية لمحا كريم ومردان من بعيد وهما يمتطيان حصانيهما متوجهين شمالا بأتجاة منابع نهر روخانه، قال الشيخ زوراب:

«الى أين يجرجر كريم بمردان؟»

قال رمضان دون أن يأبه بهما:

«مثلما جرجرتنا نشوة المطر الى هنا، فانها تجرجرهما الى حيث أرض الله الواسعة، لا شك أنهما يريدان الاطلاع مثلنا على قوة المطر في مكان أخر».

وواصلا سيرهما، وهما مازالا ممتلئين بنشوة المطر.

كانت علاقة فتاح بحميه هابو غير جيدة، اذ أن هذا الزواج بطريقة «ژن به ژن» قد جلب له الكثير من المشاكل مع أهله وأقاربه، حتى أنهم قاطعوه وحددوا علاقتهم معه لمصاهرته رجلا من خارج العشيرة، وكانت أبنة هابو نفسها غير مرتاحة من زوجها، وعدما زارت أهلها في حفلة زواج عمتها وابنة عمة أبيها من رمضان وميرزا، أرادت أن لا تذمرها من زواجها والمعاملة القاسية التي تلقاها من عندهم، حتى أن فاطمة نفسها أيدتها ثم جرتها الى ركن منزو تبث لها همومها وتؤكد لها بأنه من المستحيل الاستمرار على هذه الوضعية، فإنهما في هذا العمر تحتاجان الى رجلين حقيقيين يشبعان حاجتهما الجنسية، وليس الى شيخين طاعنين في السن، يسعلان طيلة الليل ويضرطان ويلطخان جدران وزوايا البيت ببقع البلغم والبصاق، وأستغربت أبنة فتاح حبيبة، التي كانوا يسمونها حبه من كون فاطمة لم تصادق أحدا سرا، وكانت تعتقد أنها تخفي عليها ذلك خوفا من الفضيحة، لذلك راحت تحدثها عن علاقتها الغرامية براعي أغنامهم، الذي تزوره كل ليلة في فراشه بالمطبخ، لعلها تعترف لها هي الاخرى بقصة حبها، ولما تأكدت حَبَهْ بأنها فعلاً خالية من مثل هذا الشيء، راحت تحثها على أن تحذوها، وإلا فإنها ستتحطم وتفوتها لذة الحياة الحقيقة. كانت فاطمة لا تصدق كلام حبه، وتعتقد أنها تريد أن تورطها، ولكنها عندما أسترسلت في سرد تفاصيل علاقتها بالراعي الشاب، وتصف لها بالتفصيل عملية الجماع التي يتفنن بها الراعي،

هاجت فاطمة وراحت تتأوه وهي تصور في خيالها فتى أحلامها المجهول وتساءلت بحيرة عن كيفية الحصول على مثل هذا الشاب، وكيفية المبادرة الى مكالمته واشعاره بالموضوع، كانت بأختصار: «غبية في مثل هذه الامور...» كما قالت هي. وضحكت حبه لسذاجتها. كانتا اذ ذاك جالستين أمام قدر كبير تتظاهران بأشعال النار وتراقبان عن كثب شباب القرية وهم يرقصون ويمرحون لمناسبة حفلة زواج كل من رمضان وميرزا. وكان كريم واقفا لوحده متكئا على جدران مخزن التين. تساءلت حبه عمن يكون هذا الشاب الجميل الواقف هناك لوحدة؟... حكت لها فاطمة قصته وبأنه هو الابن الاصغر للشيخ زوراب، وكيف أنهم جاؤا به الى السيد لأخراج الجنية من رأسه... قلت حبة بلهجة فيها شفقة: «أنت فعلا طفلة يا فاطمة في مثل هذه الامور، أنك يجب أن تتأكدي قبل كل شيء بأنك جميلة وتستطعين الحصول على أي رجل تريدينه. انك لا تعرفين طبيعة الرجال، انهم مثل الكلاب، يسيل لعابهم لكل امرأة، فما بالك وأنت جميلة حقا. ان وضعية هذا الشاب الجميل الواقف هناك لا تحتاج الى أي تفكير، انه عاشق من حيث لا يدري، ركزّي عينيك في عينيه وأبتسمي له، أهملي كل الرجال الاخرين في حضوره، هيّا اذهبي اليه الآن بسرعة قبل أن تذهب اليه فتاة أخرى...». بدا لها كلام حبه مثل الخيال. أنها لا تنقصها الجرأة، وهي معجبة به في كل الاحوال، ولكنها تخشى أن يخذلها، فربما هو انسان متردد، من النوع الذي يهمه شرف العائلة، ولا يريد التورط في أمور تجلب الفضائح والمشاكل، وراحت تضرب أخماسا بأسداس وحبه تستمع الى تداعيات مخاوفها. قالت حبه بكل هدؤ وبنبرة فيها ثقة بالنفس وشفقة: «هل تريدين أن نتراهن الان؟ وأذهب اليه وأجره من يده كالخروف وأذهب به الى البيادر وأتضاجع معه ثم أعود اليك؟... ماذا تقولين أيتها الجبانة؟». أبتسمت فاطمة مقتنعة بالفكرة وشاعرة برغبة جارفة في مضاجعة كريم وأحست بقوة داخلية غريبة تدفعها الى الحركة والتحدي، سألت بغنج: «واذا أمتنع؟...» قالت حبه بأصرار: «ثقي، انك اذا لم تذهبي حالا، فسأذهب أنا...» قامت من مكانها مضيفة: «ماذا تقولين الان؟». أجابت بصوت دافيء شبق: «سأذهب حالا...» قالت وهي ترافقها الى الخيمة: «خذي معك لحافا خفيفا، ولا تخافي، اذا أمتنع سندبر له خطة أخرى...». وظلّت حبه تراقبها الى أن دارت حول اللودة (مخزن التبن)، وعندما رأتهما يختفيان في الظلام، تنفست الصعداء، أغمضت عينيها لهنية ومدّت يدها بصورة لا ارادية تحك وسطها، أحسّت بلذة غريبة تسري في أحشائها أشبه بحالة إستحلام، بيد أنها استيقظت على أصوات أطفال يتصايحون بالمقربة منها.

عندما بلغ كريم ومردان قرية فتاح، كانت الشمس لم تبلغ منتصف السماء وكان نهر روخانه الفائض يهدر بأمواج مياهه الرمادية الفاتحة، ويرتطم بقوة على الجرف المنحدر الذي تنتصب فوقه القرية، وكأنه يريد أن يقتلعها ويطعمها لأمواجه المحملة بالغرين وجذوع الاشجار وأنواع المواد العالقة التي جرفتها في طريقها. أشار مردان الى بيت في الطرف الآخر من القرية تحيطه

مجموعة من أشجار الصفصاف وحزم القصب الاصفر، قائلا:

«في هذا البيت ترعرعت حبيبة قلبك».

قال كريم متنهدا:

«مردان، دعنا نقف قليلا هنا، في هذا المكان الذي فتحت فيها فاطمة عينيها على النور، ألا تجده أجمل مكان في الدنيا»؟

قال مردان بصورة لا ارادية وهو يتأمل أمواج النهر الهادرة:

«طبعا أنه أجمل مكان في الدنيا يا عزيزي».

استدار كريم بحصانه وكأنه تذكر شيئا:

«ولكننا لم نتفق على أي شيء يا مردان، ماذا نقول لهم»؟

«لا نقول لهم أي شيء... الم نتفق على ذلك؟ ماذا تريدنا أن نقول لهم؟ هذه الزيارة هي للتعارف والإستطلاع فقط، كنا نمر هنا في طريقنا الى التكية البرزنجية. فأقترحت عليك أنا بأن نمر على قريبنا فتاح، ونسأل عن أحواله... هذا كل ما في الامر، أم لديك اقتراح اخر»؟

«كما تشاء يا مردان سأترك الامور لمبادراتك أنت.».

عرفت حَبهْ أن هذه الزيارة ليست عابرة، وليست صدفة محضة كما أراد مردان أن يصورها، وعرفت بفطرتها أن كريم قد تعلق فعلا بفاطمة، وأن الامر لم يبق مجرد متعة، وراحت تردد بخبث أسم فاطمة مستفسرة عن أحوالها وما اذا كانت مرتاحة هناك، وهي تراقب آثار كلامها على وجهه وعينيه الشاردتين. كانا لوحدهما في البيت، هي تعد التنور وهو متكيء على وسادته يدخن، تركا موضعيهما بفرح عندها دخل مردان جارا زمام حصانه وناهرا الكلب الذي يحول دون تقدمه، ولم يصدقا مردان حين أبلغهما أن ضيفهما كريم أغا أبن الشيخ زوراب رئيس عشيرة وادي كفران واقف أمام الباب. وبدا عليهما الارتباك، هو هرع الى الباب، وهي الى الغرفة، استبدلت شالها المتسخ البالي بشال أبيض نظيف وراحت تفرش المضيف بالسجاد والوسائد. كانت الاشياء تبدو- لكريم كما لو أنها تتحرك ضمنْ حلم، وكانت بشاشة وطيبة فتاح الممزوجتين بمرح مشرق، تحطمان الحواجز بينهما وتمنحانه روح الابوة الباعثة على الاطمئنان. وحسب الخطة التي اتفقا حولها، بادر مردان الى الكلام مبينا أنهما كانا في طريقهما لزيارة الشيخ، وأنهما في الحقيقة أرادا فقط أن يسلما على قريبهما ويستفسرا عن أحواله ثم يواصلان سيرهما، هنا نظر فتاح بخيبة الى زوجته حبه قائلا:

«ماذا تقولين يا حبة؟... هؤلاء هم أقاربك الذين دوختيني بهم، انهم جاءوا كي يدخنوا عندنا لفافة واحدة ثم ينصرفوا.»

قالت حبه بدلال:

«انني سأخفي الحصانين في مكان أمين. فاذا كان بامكانهما الذهاب مشيا الى هناك فليذهبا الآن».

قال مردان بخبث:

«الحقيقة أن كريم أغا غير مستعجل، ولكنني أنا اريد أن ازور الشيخ بسرعة».

قام فتاح من مكانه قائلا:

«أنت يا مردان لا تملك أي قرار، ان ضيفا مثل كريم آغا اذا دخل بيتي وكبّر رأسي، فانه لا يستطيع أن يخرج منه بهذه السهولة، انني الآن سأذبح الخروف بسرعة وبعد ذلك سنواصل حديثنا».

نظر كريم الى مردان مؤشرا بحركة، فهم منها الاخير أنه يريد أن يمنع الرجل من تحقيق مبادرته، فأشر مردان بدوره بحركة أن يسكت ولا يتدخل فيما لا يعنيه، وقام هو الآخر هو مكانه قائلا:

«اذا كنت مصرًا على ذبح الخروف، سأغيّر رأيي، ولكنني يجب أن أساعدك يا مام فتاح».

قال فتاح بأرتياح:

«هكذا يجب أن يكون الكلام يا مردان».

وقبل أن يتركا المضيف، أضاف:

«أنت يا حبه أبق جالسة مع ابن عمك كريم آغا، ولا تهتمي بالتنور، سأنادي على ابنة أختي لمساعدتك».

بعد أن ذبح فتاح حملا وعلقه على الجدار في الشمس بصورة مقلوبة، شقّه من النصف بحركة يد خبيرة وقال دون أن يلتفت الى صاحبه:

«مردان، أنك لا تستطيع تتصور مبلغ فرحي لزيارة كريم آغا لي، ولكنني كلما أفكر، أرى أن هذه الزيارة ليست مجرد صدفة، ان مجيء كريم أغا معك ليس عبثا».

تنفس مردان الصعداء، ورأى أن الفرصة مواتية لطعن الموضوع في الصميم، وخير الحلول والمعالجات هي تلك التي تأتي بدون سابق انذار أو تخطيط، قال مردان وهو يساعده في ازاحة جلد البطن المتدلي:

«مام فتاح، نحن صديقين قديمين، وقد زرناك أنا وجهانگير عندما كنا نعمل معا مرارا وتكرارا وكنا دائما صريحين مع بعضنا البعض، ولم يجد الغش طريقه الينا، هل هذا صحيح أم لا»؟

«هذا صحيح، والله يعلم ذلك أيضا».

« أنت سألتني الآن سؤالا ذكيا، وتريد مني جوابا صريحا، فهل تريدني أن أتحدث معك بصراحة، أم تريدني أن اراوغ معك»؟

«أريدك أن تحدثني بصراحة الرجل يا مردان، لماذا المراوغة».

«أنا أعتقد أن الوقت لم يحن بعد، وأخشى أن يجرحك جوابي الآن».

توقف فتاح عن معالجة فصل الجلد عن اللحم ونظر بأستغراب الى مردان قائلا:

«أنا لا أفهم كلامك يا مردان، أنتما الآن ضيفان عزيزان عندي، تريدان رأسي خذاه فلماذا المراوغة».

قدم له مردان لفافة بعد أن اشعلها وقال:

«حسنا يا مام فتاح اذا كان هذا رأيك فانني سأفاتحك بالموضوع ولكنني ارجو منك رجاء واحدا، وهو أن يبقى هذا الكلام سراً بيننا سواء قلت لي لا أو نعم،»

«اذا كان بمقدوري تحقيق مطلبكما، فلن أقول لا. ان طلب رجل مثل كريم آغا أبن الشيخ زوراب رئيس عشيرة وادي كفران لا يمكن أن يرفض».

مدّ مردان يده ومسك يد فتاح الملطخة ببقع الدم وراح يلثمها. قال فتاح وقد أمتلأ اعتزازا وهو يجرّ يده برفق:

«دع هذا يا مردان، لقد قلت كلمتي وأنتهى».

«الكلام الذي سأقوله لك يا مام فتاح لا يعرف به حتى الشيخ زوراب نفسه، لقد أرسلتنا اليك زوجته سنجان، فاذا كنت أنت موافقا، فيمكن للأمور أن تأخذ مجاريها الطبيعية».

قال فتاح بنبرة من فقد صبره:

«هل تريدني يا مردان أن أوافق على شيء لا أعرفه؟... هات ما في قلبك».

«انها مسألة قد تكون محرجة بالنسبة اليك، والحل ليس بيدك أنت فقط، ولكن طالما اننا قد وصلنا الى هذا الحد، فلا بد أن أصارحك مصارحة الرجال، ان كريم آغا يطلب يد ابنتك فاطمة يا مام فتاح».

كان فتاح يتوقع كل شيء، أما أن يطلب أحدهم يد ابنته المتزوجة، فلم يخطر بباله، توقف عن العمل فجأة كما لو ضربته صاعقة، وراحح ينظر الى مردان بذهول. وبعد هنيهة من الصمت أستعاد وضعه، وقال بصوت متهدج، سرعان ما بدأ يتماسك:

«مردان ان وضعي أنا وزوجتي حبه هو أشبه بوضع الاب والبنت، لا أستطيع حتى أن ألمسها، لقد أرسلتها الى بيت أبيها أكثر من مرةً، ولكن ماذا أفعل اذا كان هابو لا يريد أن ينزل من بغلته، هيّا خذاها معكما اليه، وأقنعاه بالموضوع، انني أفتخر أن يكون لي نسيبا مثل كريم آغا أبن الشيخ زوراب»...

تباطأت حبه في إعداد الشاي وراحت تكثر من أسئلتها عن أوضاع الاهل والاقارب ولا سيما

عن وضع فاطمة التي قالت عنها، بأنها لا شك غير سعيدة مثلها هي، وأن هذا الخطأ الذي كان والده هـابو هو البادي بأقترافه يجب أن يصحح، ورجته أن يبلغ والدها بأخذها اليه، والاّ ستأتي لوحدها ولن ترجع هذه المرةً مهما كلَف الامر، وأكدَت أنها مصرة على الطلاق، وأن فتاح نفسه لا مانع لديه اذا وافق والدها. وكان كريم ينصت بأهتمام الى كل كلمة تقولها حبه التي لم يكن يتصورها لبقة وجذابة بخلاف أبيها النحس، وأحس من مضمون كلامها أنها أدركت سبب زيارتهما، وأن فاطمة لا شك قد المحت بعلاقتها به، فالنساء لهن أساليبهن الخاصة في فهم بعضهن، وتبادل الاسرار فيما بينهن، والاّ كيف تبادر وتطرح مشكلتها أمامه كما لو أنها تعرفه منذ زمن غير قصير؟... وهزّ كريم رأسه بشيء من الخجل وقال:

«الله كريم يا أختي، انه دائما الى جانب المظلومين»

بعد الانتهاء من تقطيع اللحم صاح فتاح ابنة أخته المنشغلة بالتنور، وأعطاها الكبد والرئة طالبا منها شويهما في التنور للضيفين، وأما حبه فراحت تهيء الاواني والقدور للطبخ بعد أن أنتهت من اعداد الشاي. وبقي الرجال الثلاثة في المضيف لوحدهم، أطبق عليهم صمت عميق يكتنفه الغموض والحرج والحيرة. وكان فتاح المشغول بأواني الشاي يعاني من شعورين متناقضين، شعور الغبطة بمصاهرة رجل محترم له سمعته ومنزلته، وشعور من تهجره زوجته الى الابد، بيد أن شعوره الثاني لم يكن مقترنا بالحزن العميق فهذه التي يسمونها زوجته، ليست سوى فرسا هائجاً صعب المنال لم يستطع ترويضها منذ اليوم الاول، وظلّت منذ ذلك اليوم مجرد فرس زينة يستحيل ركوبها، فلم اذن الاحتفاظ بها؟... بعد أن انتهى من صب الشاي، رفع رأسه بأعتداد وقال وهو ينظر في عيني كريم العميقتين:

«أنا في الحقيقة سعيد جدا هذا اليوم، ان زيارتكما لي خير و بركة، لقد رفعتما رأسي وكبرتماني. ان كل شيء بالقسمة و النصيب. وما كتبه الله لابد أن يتحقق.»

قال كريم بعد أن فهم من اشارات مردان بأن الامور تسير بشكل جيد:

«صحيح يا مام فتاح، كل شيء بالقسمة والنصيب، واننا كلنا مسيّرون من قبل الله».

بعد أن تناولوا الكبدة والرئة المشويتين مع خبز التنور الحار وشربوا الشاي، طلب منهما فتاح أن يتمددا ويفكّا حزاميهما وأن لا يفكراً بالسفر هذا اليوم، ثم أسترسل قائلا كما لو أنه يريد أن يعتذر عن خطأ قائم:

«كنت منذ البداية ضد هذا الزواج الذي فرض عليّ، وقد حذرَني الملاّ عدة مرات بأن مثل هذا الزواج غير محبذ، ظلم للنساء، ولكن الشيطان أبى الاّ أن يفرض ارادته».

قال مردان:

«انه القسمة والنصيب يا مام فتاح».

ظلّت سنجان ساهمة شاردة طيلة النهار، تتصرف بحركات عشوائية لا ارادية، لاترى سوى شبحين يطلان عليها، ويحجبان عنها رؤية الاشياء الاخرى، هما كريم وفاطمة، أخشى ما كانت تخشاه هو أن يجنَ هذه المرةِ جنونا حقيقيا، حتى أن زوجها الشيخ زوراب، الذي لا يستطيع الاستقرار لحظة واحدة في مكانه من فرط فرحته لأنهمار المطر في الوقت المناسب، قد لاحظ عليها شرودها، ففي فترة قصيرة جدا، وبخلاف عادتها كسرت قدحا للشاي وسكبت الحليب وداست على طشت مليء بالعجين وراحت تلعن الشيطان. وعندما جلست في المضيف مع كل من الشيخ زوراب ورمضان لتشرب معها الشاي بعد أن أنتهيا من تناول طعام الغداء، قال الشيخ زوراب: «يبدو لي أن المطر قد أهاج حنينك الى بانشاخ يا سنجان، أنت اليوم صامتة وشاردة، هل رأيت حلما مزعجا»؟

كانت سنجان تضع في مخيلتها مختلف أنواع الخطط لإقناع الشيخ زوراب بموضوع كريم وزواجه، وبعد تفكير عميق أقتنعت بضرورة طرح الفكرة عليه مباشرة، اذ أن حل مثل هذه المشكلة المعقدة لا يمكن أن يتم دون معرفته وبأشرافه، واذا أحس بأن الامور تجري خلف ظهره، فان العواقب قد تكون وخيمة. وحتى أنها اذا لم تطرح علية القضية بكل تفاصيلها، كمسألة كون فاطمة حبلى من كريم، فلا بأس أن تطرح عليه بأسلوب مقنع ضرورة زواج كريم من فاطمة، وكونها هي مقتنعة بهذا الزواج. كانت في البداية قد قررت أن تفاتحه بعد عودة كريم ومردان من عند فتاح، ولكن هاتفا من اعماقها ألح عليها بمفاتحته فورا، وأن أي تأخير في ذلك يؤدي الى فشل القضية، وها أن الفرصة مواتية، لا سيما بادر هو وسألها عن سبب شرودها، ولعل وجود رمضان سيخلق مناخا أحسن لمناقشة الموضوع بدون إنفعالات. ورأت أن تطرح الموضوع بصورة، بحيث تضرب على أكثر الاوتار حساسية، أجابت:

«كلا يا زوراب، لم أر حلما مزعجا وانني سعيدة بكم جميعا سواء أكنت هنا أم في بانشاخ، ولكنني أفكر في أمر معقد جدا، وأنا قلقة عليه وخائفة».

تبادل الشيخ زوراب ورمضان النظرات بأستغراب، قال رمضان:

«أنت قلقة وخائفة يا ابنة عمي سنجان، وتخفين علينا كل ذلك»؟

أردف الشيخ زوراب:

«وهل أنت خائفة من طرح همومك علينا»؟

«بلى، أني خائفة، لأنكم أنتم الرجال لا تستطيعون فهم بعض القضايا، ولذلك أنا مترددة من طرح الموضوع، وأخشى أن تخلقوا ضجّة ونزيد الطين بلةً بدلا من حلّ المشكلة».

أعتدلا في جلستيهما وراحا ينظران بقلق، قال الشيخ زوراب بوجل:

«سنجان، ماذا حصل؟ تكلمي».

«انني قلقة على كريم، أنكم جميعا تعتقدون أنه قد شفي وأنتهى كل شيء، ولكن مخاطر عودة هوسه المرضي مازالت قائمة».

قال رمضان:

«يا ستار، يا الله، هذا يعوزنا».

قال الشيخ زوراب:

«هل أحسست بشيء يا سنجان؟ كان وضعه طبيعيا جدا ليلة أمس في المجلس، كيف توصلت الى هذا الرأي؟

«أنا مقتنعة قناعة تام مما أقول، وأقول لكم بصراحة، ليكن هذا النهار شاهدا على كلامي، ان هوسه المرضي اذا داهمه هذه المرةً فلا السيد العربي ولا الشيخ البرزنجي ولا خضر الولي يستطيعون علاجه، اننا سنفقد كريم هذه المرةً الى الابد».

قال الشيخ زوراب وعلائم الخوف والحيرة قد طغت على كل كيانه:

«سنجان، أنا لا أستطيع التحمل بعد، أن قلبي يكاد ينفجر خوفا، قولي لي ما الامور، وماذا بأمكاننا فعله»؟

قالت بنبرة إحتجاج:

«العلاج بيدكم أنتم الرجال، وأقول لكم بصراحة اذا حصل أي شيء لكريم، فانني هذه المرةً سأحرق نفسي».

قال رمضان بلهجة هادئة محاولا ازالة جو التوتر:

«سنجان، يا ابنة عمي، اننا تركنا بانشاخ وجئنا الى هذا المكان القفر كي نكون على مقربة من السيد العربي حفيد الرسول، من أجل عيون كريم فماذا تريدينا أن نفعل بعد؟ اذا كان بمقدورنا فعل أي شيء من أجله فاننا سنقوم به دون تردد».

قال الشيخ زوراب:

«رحم الله والديك يا ابن عمي رمضان، هذا ما كنت اريد قوله، واذا كان العلاج بيدي أنا، فليقطع الله يدي اذا لم أحققه».

قالت سنجان:

«لا سمح الله أن تقطع يدك يا ابن عمي، ولكنكم أنتم الرجال اذا وافقتم وبذلتم قليلا من الجهد، فان كريم سيكون أسعد انسان على الارض ويزول هوسه الى الابد».

قال الشيخ زوراب:

«نحن الرجال سنبذل كل جهودنا يا سنجان، الآن قولي لنا ماذا تريدين»؟

«كريم يريد امرأة، فاذا لم يستطع الحصول عليها فان وضعة سيسوء».

قال رمضان بعد أن زالت مخاوفه:

«ألكل هذا السبب أطلت علينا الموضوع»؟

قال الشيخ زوراب وهو يتنفس الصعداء:

«غدا سنجلب له عروسة حتى اذا كانت في اخر الدنيا».

«المشكلة ليست مشكلة أي امرأة وحسب، أنه يريد أمرأة معينة، أخشى أن يكون الحصول عليها مستحيلا.»...

قال رمضان بنبرة واثقة:

«اذا دقّ ابن عمي زوراب رجله على الارض، فلا يقف أمامه أي مستحيل».

أحست سنجان في أعماقها بالانتصار على دولة الرجال، ولكنها رأت أن المسألة الحاسمة لم تعلن بعد، وأن هذه المسألة هي نقطة البداية لخلق مجموعة من المشاكل والتعقيدات، فلو أن كريم أراد الزواج من فتاة غير مربوطة بأحد لهان الامر، ان رأس البلية هو أنه يريد إمرأة متزوجة مازالت تعيش في كنف زوجها، بغض النظر عن نوعية الحياة الزوجية التى يعيشانها، هذا من جهة ومن جهة اخرى فأن هذا الزوج الذي هو هابو له علاقات عائلية واجتماعية متينة بعائلة الشيخ زوراب وبالاضافة الى كل ذلك فأن لكريم علاقة بهذه المرأة، وان هذه العلاقة قد ادت الى ورطة ان تكون فاطمة حبلى من كريم، فضيحة من النوع الذى لم يسبق لسنجان ان عهدتها، فعملية تحقيق الفكرة، هذا اذا وافق الشيخ زوراب، تمر بمجموعة من القنوات المعقدة، فهابو وفتاح يجب ان يوافقا على الطلاق، وحتى اذا تمت عملية الطلاق، فأن والد فاطمة يجب ان يوافق على زواج ابنته من كريم، وقبل البدء بطلب يد فاطمة بعد الطلاق يجب مشاورة هابو ايضاً، وفى كل الاحوال ينبغى ان يقتنع قناعة تامة بأن السبب من زواج كريم من فاطمة هو لتعلق سنجان بها، ولأنها بحاجة الى امرأة تساعدها فى شؤون البيت، كي لا يوسوس هابو بوجود علاقة مسبقة بين زوجته المطلقة وكريم، الامر الذى يؤدي الى خلق الحزازات فالشرخ بين العائلتين، ولاسيما انها التحمت بشكل متين فى ظروف صعبة.

قال الشيخ زوراب بعد ان لاحظ عدم حدوث اى تغير فى ملامح سنجان: «لماذا الشرود يا سنجان، ألم تقتنعي بكلام ابن عمك رمضان؟»

استيقظت سنجان من شرودها وقالت مبتسمة:

«بلى اقتنعت بها»

«انطقي اذن، قولي لنا من هي هذه المحظوظة التي سلبت عقل ابني كريم؟»

«انها فاطمة زوجة هابو»

قال الشيخ زوراب بنبرة حائرة وبدأ كما لو انه يخاطب حشداً من الناس:

«بالله عليكم ياقوم ، أليست هذه مصيبة؟»

قال رمضان بعد برهة صمت:

«هناك مصائب اكبر من هذه يا شيخ زوراب، المصيبة الحقيقية هي ان نفقد كريم لا سمح الله».

قال الشيخ زوراب بصرامة ملتفتاً الى سنجان:

«اخشى ان تكون له علاقة معها».

قالت سنجان بحركة تمثيلية بارعة:

«استغفر الله يا زوراب، ما هذا الكلام؟»

قال الشيخ زوراب بغضب:

«ولكن كيف تريدين ان نمد ايدينا الى شرف الناس يا سنجان، هل نذهب الى هابو ونقول له اننا جئناك كي نخطب زوجتك لأبننا؟ مثل هذا الشيء لا يوجد حتى في شريعة الكفار»

رأت سنجان ان نقطة الخطر التي كانت تتوقعها قد بدأت، وعليها ان تكون حذرة وتستعمل كل الاسلحة في اجتياز هذه النقطة، منها محاولة كسب رمضان الى جانب الفكرة، التفتت اليه قائلة:

«لقد قال ابن عمي رمضان كلاماً حقيقياً يجب ان نضعه في مقدمة كل شيء، وهو مصير كريم، هل تقبل ان يطلق كريم لحيته ويتجول في القرى حاسر الرأس يضحك عليه الاطفال؟... وماذا سيقول رستم حين يرى اباه بهذه الوضعية؟ ألم ننقذه بألف الحمد وقلة من براثن الجنون؟ ألم نجرجر عمي ميرزا، هو وخيمته من بانشاخ الى هذا المكان المقفر من اجل عيون كريم؟

حاشا اذا كنت انا وانت ورمضان او عمي ميرزا جئنا الى هنا من اجل الفرمان، ألم تقل انت بنفسك بأنك ستظل هنا الى جانب السيد العربي حفيد النبي؟»

وهنا بدأت تجهش بالبكاء وهي تواصل كلامها بصعوبة:

«ثقوا بالله العظيم، اذا حصل شيء لكريم فأنني سأحرق نفسي.»

قال الشيخ زوراب بألم:

«اعوذ بالله من الشيطان الرجيم، يبدو ان كل هذه الاشياء كانت مكتوبة على جبيننا»

قال رمضان بهدوئه المعهود، وقد كست وجهه علائم التفكير العميق والتفاؤل:

«انظر يا شيخ زوراب، يا ابن عمي، كل شيء يهون من اجل كريم ، الكلام الزائد الآن لا يفيدنا، اننا يجب ان نفكر كيف نحل هذه المشكلة. ان هذا الضراط هابو ابو رأس البغل الذي لا يساوي

بارة واحدة، قد حجز هذه الطفلة كأي طفل يمسك بعصفورة، فسواء اجلاً ام عاجلاً فأن هذا الذي يسمونه زواجاً سيتفسخ، وان مام فتاح نفسه غير راض من هذا الزواج، وسمعت بنفسك من هابو بأن ابنته لا تريد البقاء عند زوجها، فهل تعتقد بأن مثل هذه الوضعية ستستمر؟»

تغير الوضع النفسي للشيخ زوراب، وكانت عدة صور تمر بمخيلته وهو ينصت الى كلام سنجان، تذكر تلك الليلة التي حلم فيها بالجنية ومضاجعته لها، واصابته بالذهول والخرس في اليوم الثاني، واقتراح الغجرية العجوز بضرورة زواجه، ثم تراءت له ملامح وجه كريم المتشنج بعد ضربة الجن له، سحب كمية من الدخان من غيلونه وقال:

«طبعاً ان مصلحة كريم هي فوق كل شيء عندي، ولكنني لا اريد خلق ايمشكلة تؤدي الى خلق الحزازات والقطيعة مع هابو، ان دماءنا قد اختلطت مع هؤلاء، واصبحنا بيتاً واحداً معهم»

انفض المجلس في ليلة المطر بمضيف الشيخ زوراب في وقت متأخر من الليل، ورغم انهم كانوا قد قرروا ان لا يغادروا المكان الا بعد توقف المطر عن الهطول، فأنهم لم يستطيعوا الثبات على قرارهم، اذ ان المطر كان اقوى من اعصابهم التي استسلمت للنعاس، ثم انهم اقتنعوا بأن المطر قد ادى واجبه وتسرب الى اعماق الارض اكثر من اللازم. وعلى خلاف الاخرين، فأن هابو كان لا يزال يقضاً، تملؤه الحيوية. ويبدو ان حلاوة التمر بالسمسم التي اعدوها لمناسبة سقوط المطر منحته طاقة اثارت رغبته، فقرر ان يضاجع زوجته هذه المرة بأي ثمن كان سواء باللين ام بالقوة، بيد ان المشكلة هي ان هذه اللعينة التي تنقل قربة الماء من النهر يومياً عدة مرات، وتشتغل مثل البغل طيلة النهار، اقوى منه بكثير، فقد جرب مرة ان ينزع لباسها بالقوة ، وكانت النتيجة ان لوت يده وراحت تضربه على رأسه بمغرفة خشبية، مهددة اياه انها ستقتله اذا اقترب منها مرة اخرى، مدّ المفتاح الخشبي من خلال الكوة المربعة، مولجاً اياه برفق في المزلاج ثم فتحه ببطء متجنباً احداث اي ضجيج. كانا ينامان منفصلين على الارض بمحاذاة الجدارين المقابلين، يفصل بينهما الموقد ولم يسبق لهما ان ناما في فراش واحد الا في ليلة الدخلة التي مرت عليها مثل كابوس لن تنساه، كانت ليلة اختلط فيها الدم بالقيح والارق والكوابيس، وكانت النتيجة تلك المرة الاولى والاخيرة لأغتصابه لها، فقررت في اليوم الثاني ان تنام لوحدها وتمنعه من الاقتراب منها. كان سلاحها في البداية اظافرها الحادة التي يعرف هابو جيداً كم هي موجعة، ثم طورت اسلحتها بمرور الزمن الى ان وجدت في المغرفة الخشبية الثقيلة المصنوعة من خشب البلوط، احسن سلاح يرتعب منه هابو. وذات مرة سحب هابو خنجره مهدداً اياها بذبحها ففاجأته بضربة خاطفة على يده شلتها من الحركة لمدة اسبوع، وكانت كلما استهدفته بضربة ما تلحقها بعبارة: «ايها الضبع العجوز».

تلمس طريقه في الظلام الى فراشه بخطوات وئيدة، وتحسس من انفاسها الرتيبة والعميقة التي اثارت ثعابين شهوته، انها مستغرقة في نوم عميق، فداعبته فكرة ان يضاجعها وهي نائمة، مد يده

فى الظلام الى طرف خيط لباسه الداخلى الطويل، وجر حالاً عقدته ومحرراً نفسه من اللباس الذى القاه جانباً، ثم تسلل الى فراشها. كانت تنام بنفس ملابس النهار ويلباسها الطويل المشدود بالخيط. استلقى الى جانبها وهو يستذكر فى خياله ساقيها وفخذها وبطنها مد يده برفق تحت لحافها متوقعاً فى كل لحظة تلقي ضربة مفاجئة، كانت مستلقية على ظهرها، وفكر، لولا هذا اللباس اللعين المشدود بخيط لا يعلم الا الله اين تقع عقدته ، لسهلت العملية، ولاسيما انها مستلقية على ظهرها، مباعدة ساقيها عن بعضهما، كان من الممكن ان يهيء نفسه ويزيح اللحاف ويدفن سلاحه فى فرجها بأسرع من لمح البصر، اذ ذاك يستطيع ان يشبك خصرها بيديه ولا يحلهما الا بعد ان يفرغ نيران شهوته فى اعماقها، وليكن بعد ذلك ما يكون، ولكن كيف يمكن تحقيق ذلك وهذا اللباس اللعين يقف حائلاً بينهما ؟ كانت يده اليمنى تمر على بطنها الاملس برفق منحدرة بأتجاه وسطها، عندما التقت بخيط اللباس المشدود بقوة ، توقفت وراحت انامله تتحرك بأمتداد الخيط بحثاً عن العقدة، كانت رتابة انفاسها تختلط بهدير الرياح ودفقات المطر المرتطمة بالسقف والجدران فى الخارج بلغت انامله نهاية خصرها الايسر دون العثور على العقدة، فعادت ببطء شديد الى الجانب الاخر متلمسة اياها فى اقصى مكان بحيث اصبحت فى الزاوية التى تشكلت عند تلامس الخصر للفراش الصلب، دق قلبه فرحاً عند العثور على العقدة، بيد انه عاد وأكتأب لإختفائها فى الدرز، وحاول ان يجر الخيط ولكنها فى اللحظة اطلقت شخيراً قصيراً متقلبة الى الجانب الايمن فأصبحت العقدة تحتها مباشرة، وما ان اتخذت وضعيتها هذه الا وبدأت ترسل انفاسها الرتيبة كالسابق، تحسر لضياع الفرصة وراح يفكر فى طريقة اخرى، كانت قد اصبحت قبالته، مكورة نفسها ومثنية ركبتيها اللتين بلغتا نهديها عبر من فوقها الى الجانب الثاني، تلمس براحة يديه مؤخرتها التى ازيح عنها اللحاف، فهاج، واحس بذكره انتصب بصورة لم يعهد بها منذ اشهر طويلة، فكر ان يشق الخيط واللباس بمدية، ولكنه اذ يمسد مؤخرتها الملساء برؤوس انامله ويحذر شديد و اصطدم وسطاه بخرق صغير يقع في منتصف المؤخرة. تنفس الصعداء وهو يحاول توسيع الخرق، وكلما اصطدم رأس اصبعه باللحم الطري كان يزداد هيجانه ويقل حذره وبصورة لا ارادية شق الخرق ووقف على ركبتيه محاولاً دفع ذكره فى الشق الذى نزل بأمتداد فرجها، نسى نفسه معتقداً ان العملية قد كتب لها النجاح، فمسك بها بكلتا يديه بقوة دافعاً بجزئه الاسفل الى الهدف الذى اخطأ فى اصابته وعندما حاول ان يعيد الكرة، قفزت فاطمة من مكانها مثل قطة جريحة، دافعة اياه بكلتا يديها بصورة لا شعورية وقبل ان تصيح بأسمه سمعت بأرتطام رأسه على الارض قال متأوها فى الظلام:

«فاته لقد كسرت رأسي ، لماذا هذا العذاب؟»

قالت بنبرة عصبية وهى تضغط على اسنانها «بحق هذه الليلة، اذا مددت اصابعك مرة اخرى الى جسمي، سأقطع يدك ايها الضبع العجوز»

جاء صوت هابو في الظلام متوسلا:

«فاته، حبيبتي، اقبل يديك وقدميك دعيني افعل مرة واحدة فقط هذه المرة فقط».

قامت فاطمة من مكانها بسرعة وفتحت الباب وراحت تتبول امامه مباشرة فأختلط خرير بولها بوقع ارتطام زخات المطر على السقف وهاج هابو اكثر، قالت وهي تحكم من شد عقدة خيط لباسها:

«لقد قلت لك ألف مرة بأنك لن تذوقه، فأترك هذا الموضوع».

قال بأستكانه وهو يمسك بذكره الذي فقد صلابته:

«فاته، مرة واحدة فقط سأعطيك كل ما تريدين، سأعطيك ليرة ذهبية ثمينة ورثتها من والدي، مرة واحدة فقط، لا اكثر، اقبل يديك».

دست نفسها في الفراش قائلة:

«ليرتك الذهبية احتفظ بها لنفسك، احذرك للمرة الاخيرة، المغرفة الان بجانبي لمسة واحدة من عندك هذه المرة ستكون نهايتك يا عديم الحياء».

«ولكنك زوجتي الشرعية يا فاته، الا تخافين الله يوم القيامة»؟

«دعني انام الان انا متعبة».

قال هابو بعد ان استسلم، اعتقاداً منه أنه سيثير غيرتها:

«هل تقبلين ان اذهب الان واضاجع الحمارة؟»

قالت بصوت لا ابالي متعب:

«اذهب وضاجع الكلبة ان شئت المهم لا تقترب مني»

«انني لا امزح معك يا فاته، سأفعلها حقاً»

كانت زخات المطر المرتطم بالسقف تذكره بكريم ، وراحت تمرر راحة يدها على بطنها وكأنها تريد ان تتلمس اثارة، ولكي تحتفظ بشيء منه في جسدها ابت ان تغتسل قبل الذهاب الى الفراش، وتأوهت وهي تتذكر كلماته الاخيرة «يجب ان افعل شيئا» وبدر انه فعلاً سيفعل شيئا، فأزدادت قوة واصرار وقالت:

«افعل ما تشاء هابو، المهم لا تقترب مني».

اراد ان يذهب الى زريبة الحمير، بيد انه كان منهكاً، واحدث ارتطام رأسه على الارض صداعاً في جانبه الايسر، واما ذكره فتحول الى خرقة رغم دفء يديه اللتين فقدتا حرارتهما. وقبل ان تستسلم هي للنوم، بدأ شخيره يشق الظلام.

عاد كل من كريم ومردان الى قرية زوراب بعد تناول الغذاء عند فتاح مباشرة، اذ انهما اعتذرا عن البقاء اكثر او المبيت عنده لكثرة الاعمال التى تنتظرهما، ورجا فتاح من مردان ان يبلغ هابو سلامه ويقول له انه سيجلب له ابنته حبه هذه المرة للمرة الاخيرة ويرجع مع ابنته فاطمة، لذلك عليه ان يهيء نفسه للطلاق ولا يفتعل اي مشكلة وهو يفضل ان يتم الافتراق بصورة سلمية واخوية.

ومن فرط فرحتهما راحا يتسابقان بحصانيهما وصادفا فى طريقهما قطيعاً من الغزلان، قطعا الطريق عليها مختفين وراء احد التلول، واستطاع مردان ان يصيب غزالة فى رأسها، فعادا وهما محملين بعشاء العائلة كلها.

وقبل ان تختفى الشمس وراء الافق، تلبدت السماء بالغيوم بسرعة، وبدأ المطر يهطل من جديد. وكلف الشيخ زوراب مردان بأستدعاء كل من ميرزا والسيد وهابو لتناول طعام العشاء عنده، وبعد ان مر مردان على ميزرا والسيد عرج الى هابو، فأستغل الموقف ليبلغه ما كلفه به، احس مردان بأن العلاقة غير طبيعية فى البيت، وكان هابو فى وضع نفسى سيء، وبدأ له كما لو انه قد طعن فى السن اكثر مما كان عليه من قبل، وحين بلغه انه مدعو لتناول لحم الغزال عند الشيخ زوراب، تفتحت اساريره، فأعطاه لفافة وكانت فاطمة جالسة امام الموقد، صامتة هادئة على غير عادتها، ترقع الملابس، رأى مردان ان تأجيل تبليغ هابو بما كلفه به مام فتاح ليس له داع. بل العكس ، قد يؤدى به وضعه النفسي السيء ان يحسم الامر ويقتنع بالطلاق. التفت الى فاطمة وقال:

«لقد خرجت اليوم للصيد فوصلت الى قريتكم وزرت والدك»

قالت فاطمة فرحة وقد تغيرت ملامحها الكئيبة:

«حقاً زرت والدي؟ حسنا فعلت ما هي اخباره؟ وماذا قال؟... كيف هو وضع حبه، وماذا قالت؟»

حدق مردان في وجه هابو، فرآه قد ازداد اكتئاباً، وتساءل بنبرة من يحاول الخروج من دائرة كآبته، او يريد الظهور بمظهر المهتم بهم:

«كيف هي امورهم؟ هل هم مرتاحون؟»

«انهم مرتاحون ويسلمون عليك كثيراً ويسألون عن اوضاعكم ، وسلمت حبه عليك كثيراً وقالت انها تقبل يد والدها وترجوه ان يأتي ويأخذها لأنها لا تطيق العيش هناك وقال مام فتاح انه سيأتي بنفسه معها ويعود مع فاطمة، وهو يرجو ان يتم الطلاق بصورة سلمية وأخوية وبدون مشاكل».

قالت فاطمة واشراقة التفاؤل بدأت تطغى على كل جزء من كيانها:

«هذا ما اريده انا ايضاً، امنيتي ان ارجع الى بيت ابي».

«الزمي فمك ، انت لا يحق لك الكلام».

قال ذلك هابو، ثم التفت الى مردان مواصلاً كلامه:

«ليأتي ويأخذ ابنته، ولكن يجب ان يعيد لي البندقية، والا لن اوافق على الطلاق».

رغم ان مام فتاح لم يحدثه بشأن البندقية، فأن مردان عرف انها مهر اضافي، ولكي يضع حداً لكل حجة قال:

«طبعاً انه سيعيد اليك البندقية يا مام هابو، انه يريد، كما سبق وقلت لك، ان ينتهي كل شيء بسلام وبدون مشاكل».

وإبق عليهم الصمت: وكان المطر يهطل في الخارج بقوة ويرتطم بالسقف والجدران كشأنه ليلة أمس، باعثاً نشوة غامضة في النفوس، بيد أن نشوة السعادة التي كانت تغمر فاطمة لاتضاهيها أي نشوة أخرى.

خرق مردان جو الصمت قائلاً:

«مام هابو، أننا يجب أن نذهب، أنهم ينتظروننا الآن في مضيف الشيخ زوراب».

كانت سنجان تستدعي فاطمة دوماً في مثل هذه المناسبات بيد أنها تجنبا للشكوك تعمدت هذه المرة عدم دعوتها، فأدركت فاطمة بغريزتها أن عدم دعوتها، ومجيء مردان اليهم بعد أن مرّ على والدها، وتبليغه لهابو ما كلفه به في الخفاء دون أن تدري هي بتفاصيلها، تنهدت متذكرة ملامح كريم، وراحت تطن في أذنها كلماته الاخيرة: «انني يجب أن أفعل شيئاً..». وفكرت، ان مثله إذا اراد أن يفعل شيئاً، فانه يفعله حقاً، وتنفست الصعداء وهي تحس بنفسها كما لو أنها محمولة على ظهر غمامة ربيعية...

وفي الطريق قال مردان:

«يا مام هابو، مالك وهذه الطفلة الساذجة فاطمة؟ أرسلها الى البيت ابيها وريّح نفسك».

«ليتها كانت ساذجة، أنها مجنونة ماكرة، وسأطردها من بيتي مثل الكلبه، لكنني لن أطلّقها اذا لم يرجع لي أبوها بندقيتي.»..

مضى على تعيين القائممقام الجديد شريف بك أكثر من شهر دون أن يجتمع بمجلس ادارة السنجق، ورغم الحاحات جهانگير ووجوه المدينة الاخرين بإقامة وليمة على شرف تعيينه، فإنه رفض بصورة باتة قبول مثل هذه الدعوات والولائم التى لاتنسجم مع السياسة الجديدة التى سيتبعها. وجرى مختلف التفسيرات لعبارة (السياسة الجديدة) التي بدأ يرددها الموظفون بصورة يكتنفها الغموض والرهبة والترقب، ومما زاد في مخاوف الناس تعيين قومندان جديد بدلا من اليوزباشي المعروف بتساهله فيما يتعلق بالتجنيد، ومما أثار اهتمام الناس سواء فى المدينة أو بين العشائر مجيء حامية جديدة من الجندرمة، قيل أنها مسلحة بأحث الاسلحة مثل البنادق الرشاشة والمدافع. وقيل أن هذه الحامية كانت ترافق عادة هذا القومندان المعروف بشراسته وهجماته الانتقامية ضد العشائر التى ترفض دفع الضرائب وإرسال اولادها للجيش. وأما الى أين انتقل القائممقام واليوزباشى السابقين، فبقى سرا لم يستطع إكتشافه أحد. وراحت الشكوك تساور جهانگير، ولأول مرة يحس بالخوف والقلق على مصيره ومصير أمواله، ومما زاد فى حيرته ومخاوفه هو هيمنة جو من الرعب على الموظفين الذين قطعوا صلتهم بصورة مفاجئة بالاهالي. وكان الشخص الوحيد الذى يختلط به القائممقام ويحترمه هو ضابط تركماني متقاعد ثري يملك بستان وعقارات، وهو نفسه صاحب الخان الذى استأجره جهانگير. ولما كانت أصغر زوجاته الاربع كردية، لذا فإنه كان يرتاح لجهانگير، وكان هذا قبل أن يترك الشرب بسبب الالام في معدته ينادمه فى جلسات السكر، يشاركهما مراد جاووش. ولما ذهبت محاولات جهانگير بالإتصال بمراد جاووش أو بمدير التلغراف أو أي موظف اخر عبثا، لذا رأى أنه من المستحسن أن يزور صديقه القديم عاصم بك، فطرب للفكرة التي بمثابة بمثابة الوحي له. ولكي لا تكون الزيارة مفتعلة قرر أن يأخذ معه عقد الايجار لتمديده ودفع المستحقات فأرسل ابنه الكبير يُعلمهُ بنية الزيارة، وما اذا كان له الوقت لاستقباله. ورحّب عاصم بك بالفكرة وقال أنه سينتظره لتناول طعام العشاء معه، في بيته وإنه يفضّل أن يأتى لوحده لانه له أيضاً أحاديث خاصة معه. وإخبرت جهانگير حاسته السادسة التي نادراً ما خانته، بأن هذه الاحاديث الخاصة لاشك غير مريحة، وأن ساعة الشؤم التي كان يتوقعها منذ بداية غناه قد حلّت، وعليه أن يتدارك الامور بسرعة وروية وتعقل وأن ينتبه بكل دقة لكل كلمة يتفوه بها عاصم بك الذي يعتبر احد اقدم الاعضاء فى مجلس الادارة، والذي عندما كان يتكلم ونادراً ما كان يتكلم، يصبح

الجميع آذنا صاغية ولايجرؤ أحد على مقاطعته، وحين كان يأتي الى مجلس ما يقوم الجميع بما فيه القائممقام احترما له، فيقول بتواضع: (أستغفر الله اجلسوا..). ورغم أنه لايتحدث في مجالسه عن حياته الخاصة، الا أن الجميع يعرف أنه خاض عدة حروب ونال أرفع الاوسمة، وعرف عنه أنه كان يعامل الاسرى وغير المسلمين معاملة انسانية، ويرفض أي نوع من انواع اعتداء والسلب والنهب، وكان وجوده في مجلس ادارة السنجق عاملاً مهما في عدم التشديد على العشائر أو ارسال حملات التأديب ضدهم ورغم أنه يشرب الخمر بصورة منتظمة، فأنه يرسل يوميا قدراً جاهزاً من حساء العدس أو الفاصولياء أو الهريسة الى الجامع، وكان الفقراء يحمدون ربهم وعاصم بك ويبتهلون الى الله أن يزيد من أمواله ويكثر من أمثاله. ورأى جهانگير أن خير هدية يمكنه أن يأخذها معه هو زجاجة شراب معتّق، احتفظ بها منذ فترة غير قصيرة، وراح ينتظر موعد حلول غروب الشمس على أحر من الجمر وهو يضرب أخماسا بأسداس وفي ذهنه تضطرب أنواع الافكار والخيالات.

كان قد قرر أن يزور الشيخ زوراب ويشاركهم افراحهم ويتمتع بالربيع الذي قيل أن المنطقة كلها لم يسبق أن عهدت به من قبل، وأن المحصول قد بلغ حد الانفجار. وها أن الربيع قد انقضى وجرت أحداث كثيرة في وادي كفران دون أن يجد الوقت الكافي للتمتع بها مع الاخرين. شيخو تزوج من الابنة الكبيرة للشيخ بابا، والابن الاكبر للشيخ بابا تزوج أخت شيخو. حفلة العرس دامت عشرة أيام، قاطعها ميرزا وجماعته وأراد ان يترك العشيرة الى مكان آخر، ولكنهم أقنعوه بالعدول عن فكرته بعد أن اختاروا فتاة لأخيه حمه غريب. هابو ومام فتاح فسخا عقد زواج الـ(ژن به ژن) فعادت ابنة كل منهما الى أهلها، ولكن الشيخ زوراب سرعان ما وجد له أرملة من أقاربه، وقال مردان عن آخر زيارة له الى جهانگير أن هابو بعد هذا الزواج قد تغيّر كلياً وإصبح انسانا لطيف الكلام والمعشر. وابت سنجان الا أن يتزوج كريم من فاطمة ابنة مام فتاح، وتحسر لعدم مشاركته في كل الاحداث بحجة عدم وجود الوقت الكافي وشعر لاول مرّة في حياته بإن الخان وما فيه من الاموال قد اصبح عبئاً عليه. كان في كل مرّة يقر فيها القرار النهائي بالسفر، تأتيه جماعة من الفلاحين بمحصولهم وأحمالهم فينشغل بهم مؤجلاً سفرته الى اشعار آخر، وفي المرة الاخيرة كان من المقرر أن يصطحب أبنه رمزي وصديقه صائب الذي جاء خصيصاً من كركوك لزيارة رستم في وادي كفران، بيد أن وصول قافلة محملة بالديون وبكميات كبيرة من الغلال المعروضة للبيع قد حالت دون تنفيذه الفكرة فسافر رمزي وصائب لوحدهما، وهما لازالا هناك. وبدا له أن ابنه رمزي لايريد أن يعاونه نهائياً في أعمال الخان، فهو بعد توطيد علاقته برستم وصائب لايريد أن يسمع حتى اسم الخان. وشعر بعزلة قاتلة وخيبة امل أشاعت اليأس والعبث في كيانه، دون أن يدرك سببها. كان كل أمله في الحياة هو أن يسعد رمزي ويدخل البهجة في قلبه ويهيأه لتسلم أمور

الخان، وها هو لا يريد أن يعرف أي شيء له صلة بالخان والاموال.. ولقد انقضى على نقل القائممقام السابق واليوزباشي أكثر من ستة أشهر، ومنذ ذلك اليوم، وبالاخص بعد وصول القائممقام الجديد وصاحبه القومندان، أصبح يحس بالعزلة والوحدة، لايزوره، بل حتى لايسأل عنه أي موظف. انهم فقط موجودون حين يدعوهم الى وليمة وإلاّ فإنه غير موجود بالنسبة لهم، فأدرك أن أهميته لم تأت من كونه يدعى جهانگير، بل لانه صديق حميم للقائممقام واليوزباشي. والشخص الوحيد من اصدقائه القدماء، الذي كان يتردد عليه باستمرار لحين وصول القائممقام الجديد هو مراد جاووش، بيد أن هذا بدوره ايضا قد تحول الى ما يشبه الزئبق، أصبح الالتقاء به شيئاً مستحيلاً، ولابد سيتوضح اليوم كل شيء عند عاصم بك، هذا اذا لم يتردد هو الاخر في فتح صدره له.

كان قيظ نهاية مايس قد أزال كل أثر للربيع وداهم الناس بصورة فجائية، وقيل أن هذا الربيع الجميل الذي لم تشهد المنطقة مثيله سيخلّف صيفاً حاراً قد يكون حافلاً بمفاجاءات غير مريحة، ولذلك على الناس أن يتمتعوا به ويخفوا اغلالهم في أماكن أمينة، فالاعتماد السائد عند الناس هو أن كل شيء اذا تجاوز حده، قد يكون باعثاً لجلب الشؤم، فالديك الفرح الذي يصيح قبل نضوجه يجب أن يذبح، والطفل الذكي جداً لايعيش طويلاً. وها قد ولّى هذا الربيع دون أن تتمتع بجماله الخلاب. وعاش أقاربك أجمل أيامهم وإفراحهم دون أن تشاركهم اياها وتستعيد ذكريات أيام زمان. انهم هناك لم يكن لهم همّا سوى المطر الذي أرسله الله مثل لهم سيل عرمرم جلب معه خيراً وبركة لم يسبق لهم أن عهدوا بها من قبل. انهم هناك يعيشون لبعضهم البعض ضمن عائلة واحدة كبيرة لايشعر أحدهم بالسأم والملل، وإلاّ لماذا يهرع اليهم ابنك رمزي فرحاً مبتهجا، وكأنه وجد ضالته المنشودة عندهم؟.. وأنت؟.. ها إن أموالك قد جاوزت حدها الطبيعي وأصبحت تنوء تحتها وتمنعك من الحركة، لقد منعتك من زيارة تكية الشيخ البرزنجي الذي كنت من احد دراويشه المخلصين، منعتك من زيارة صديقك القديم الشيخ زوراب الذي هو الشخص الوحيد الذي يربطك بالماضي، منعتك من اداء فريضة الحج، منعتك حتى عن التفكير الطبيعي السليم، لقد طاردتك حتى في أحلامك، خلقت المشاكل بينك وبين أقرب المقربين اليك، أسات اليهم وجرحت عواطفهم فقاطعوك الى الابد، لقد جرحت بعملك هذا حتى عواطف ابنك رمزي إن أموالك لم تجلب لك سوى حقد الناس وحسدهم، فما فائدتها اذا كنت لاتحتاجها حقاً؟.. ألا يعيش الاخرون حياة طبيعية دون الاموال الطائلة؟ وهنا في هذه المدينة الصغيرة ما زلت غريباً رغم السنوات الطويلة التي قضيتها فيها. ها انك لوحدك في مضيفك، ترى هل يمكن أن يحصل مثل هذا الشيء بالنسبة الى الشيخ زوراب ورمضان وميرزا وهابو؟.. مستحيل ان هناك آلاف الخيوط والجذور التي تربط هؤلاء ببعضهم، القطا لايستطيع أن يترك سربه ويعيش لوحده وكذلك النملة

والجراد كل من يترك سربه أو جماعته يكون مصيرة الهلاك، فما بالك يا جهانگير تريد أن تعيش خارج السرب، أنت الذي لم تخلف وراءك سرباً؟

لم يسبق لجهانگير أن عانى قلق الانتظار والترقب مثل ما عاناه اليوم، فالزمن لا يريد أن يتحرك، لاحظ ابنه علائم القلق على وجهه، فهو منذ فترة غير قصيرة أصبح قليل الكلام ويدخن كثيراً وقلّت شهيته للأكل وحتى أنه بدأ يقلل من تردده الى الخان، وذات يوم رفض شراء كميات من الحنطة والشعير من الفلاحين القادمين من قادر كرم، بيد أن الحاحهم لحاجتهم الى النقود جعله يعدّل عن فكرته، قال له ابنه وهو يصب الشاي محاولا فتح باب الحديث معه:

«بابا، انك تدخن كثيراً، وهذا هو سبب السعال الحاد الذي يمنعك من النوم ليلاً، ألا تستطيع أن تترك التدخين؟».

«لا يا بني لا أستطيع ترك التدخين، انه عزائي الوحيد»..

«أنت تفكر يا أبي في أشياء، ينبغي عليك أن تهملها، ما قيمة أن تزور القائممقام أو يزورك هو. ألا نستطيع أن نعيش بدون هؤلاء؟».

قام من مكانه بعد أن كان متكئا على الوسادة وقال مؤشرا بيده:

«هذا ما أفكر به بالضبط يا بني، يبدو لي أنني مددت رجلي أكثر من اللازم، لقد صدق رمضان وشيخو بك حين قالا أن السلطة مهما كانت فإنها لا يمكن الاعتماد عليها. إن القائممقام والقومندان اللذين أدارا ظهرهما لنا لابد يطبخان شيئاً ضدنا. ان رجلا في وضعي لايستطيع أن يفعل ما يشاء أنا أريد أن أعيش بدون هؤلاء، ولكن هذا لايجوز، انهم لايتركوننا بهذه السهولة».

«هل كتُبَ علينا أن نعيش في هذه القصبة الى الابد؟ ألا تحن الى أهلك وعشيرتك؟ فلنترك هذا المكان ونرجع الى أصلنا».

«لنر ماذا سيتمخض من لقائي اليوم بعاصم بك»..

كان عاصم بك بن يرتدي دشداشة بيضاء طويلة ويضع الطربوش على رأسه حين استقبله في البيت هاشا باشا. وكان الحوش المبلط بالقرميد قد رش بالماء، اتخذا مكانهما أمام الحديقة فوق لباد سميك يعزله حصير من الخيش عن الارض. وكانت الصينية الكبيرة الموضوعة على الارض مباشرة تحتوى كأسين فارغين وأصناف من المزة مثل الزيتون والفول والحمص المسلوقين واللبن بالثوم واللحم المشوي تتوسطها قنينة عرق. وخلال الاستفسار عن الصحة والاحوال، قدم له جهانگير الزجاجة قائلاً:

«أرجو أن يعجبك هذا الشراب عاصم بك، انه معتق جلبوه لي خصيصاً من القوش».

قال عاصم بك وهو يتفحص الزجاجة:

«انه بلون الدم يا مام جهانگير، دواء يزيل كل الامراض، أشكرك جدا».

وحين أراد أن يصب له العرق، مدّ جهانگير يده مانعا اياه:

«معدتي يا عاصم بك، انها ستنفجر اذا شربت العرق».

«ساضع لك ماءا زائداً يا مام جهانگير، لا تبالغ بمعدتك. العرق لم يقتل أحداً، انه احسن من التدخين».

وشربا نخب لقائهما الذى انقطع منذ مدة غير قصيرة. والقى عاصم بك اللوم عليه هو لانشغاله بجمع الثروة وإهماله لأصدقائه. وكان هذا بمثابة الاشارة للبدء بالموضوع، قال جهانگير:

«صحيح يا عاصم بك، أنا نفسي قد أحسست بذلك، والآن بعد أن حصلت على كل ما اريده، أرى أننى ظلمت نفسي والكثيرين من إصدقائي وأقاربي من أجل لاشيء. لقد غيرت تصرفات ابني رمزي مجمل تفكيري وإهتماماتي، المال الذي قتلت نفسي من أجل جمعه لايهمه أبدا، ولأول مرّة فى حياته وحياتي يقف فى وجهي ويرفض مساعدتي في الخان، تصور يا عاصم بك في أي زمان أصبحنا».

قال عاصم بك وهو يمضغ قطعة من اللحم المشوي:

«عندكم مثل كردي جميل يا مام جهانگير، (قسه هه زاره يه كيكى به كاره) «الكلام الف، ولكن واحداً منه ذا منفعة».. انك لاتستطيع أن تعاتب ابنك رمزي على مثل هذا التصرف، انه يرى الاشياء بعينيه هو وليس بعينيك أنت. أنا لو أطعت كلام والدي لما تمكنت من مواصلة الدراسة والعمل كضابط عسكري، ولا استطعت أن أتزوج إمرأة كردية، الظروف هي التي تتحكم فينا ولسنا نحن الذين نتحكم فيها، ولكن هناك الان تطورات جديدة يا مام جهانگير، انها أدهى وأمر من تصرف أبنك رمزي الذي اراه صحيحاً جداً. منذ ايام وأنا اريد أن التقي بك كي أتحدث معك في أمور في غاية الخطورة».

وقعت الجملة الاخيرة مثل حجر ثقيل على قلب جهانگير، فمد يده بصورة لا ارادية الى الكأس، واصل عاصم بك:

«اشرب يا مام جهانگير، الدنيا لاتساوي شيئا، المهم أن يعيش الانسان بشرف ولايحتاج مساعدة اللئيم. اننا قد كبرنا، والمسافة بيننا وبين الموت ليست طويلة، ولكن يبدو أننا قبل أن نموت سنرى العجائب الغرائب، انني سأحدثك اليوم عن أشياء أرجو أن تبقى سراً فيما بيننا.. هناك اضطرابات وتحركات مسلحة ضد الباب العالي فى مناطق أرضروم وسامسون وتبليس وديار بكر. الفلاحون والاقطاعيون يرفضون فى كل مكان دفع الضرائب للدولة ويقال أن السلطات أرسلت وحدات عسكرية لتأديب العشائر، ولكنها بدلا من قمعها تضامنت معها، ويقال

أن عدداً كبيراً من العشائر الكردية قد أعلنت العصيان، والدولة تخشى أن تصل العصيانات الى منطقتنا، ويبدو أن القائمقام السابق واليوزباشي قد قدما للمحاكمة بتهمة التساهل مع العشائر وعدم اجبارها لارسال ابنائها الى الجيش وثبت أنهما منذ تعينهما لم يرسلا شخصاً واحداً للجيش ولذلك فإن الدولة قد أصدرت قراراً بتعيين أتراك شرسين وحاقدين على الاكراد والعرب».

هنا اقترب عاصم بك من جهانگير هامسا في أذنه:

«هناك خطة لمصادرة كل أموالك وتحويل الخان الى ثكنة للعسكر، حجتهم انك تتعاون مع العشائر الكردية وتمنعهم من دفع الضرائب. وهناك خطة لئيمة أخرى لايقوم به الا المأبونون من أمثال القائممقام الجديد، وقومندانه، وهي انهما سيستدعيان رؤساء كافة العشائر للاجتماع بالقائممقام، ويقوم القومندان باستفزازهم واهانتهم فاخراجهم من طورهم حتى يتسنى لهم اعتقالهم، وفي نفس الوقت يجري ارسال وحدات عسكرية لنهب وسلب أموال العشائر، لقد أرادوا مني أن أساعدهم في مشروعهم هذا ولكنني رفضت ذلك رفضاً قاطعاً وحذرتهم من مغبة الظلم بالناس، ولذلك يا عزيزي مام جهانگير عليك أن تنقذ ما يمكنك انقاذه وتنتقل الى مكان أمين في الريف».

قال جها نكير بصورة لا ارادية:

«وابني رمزي كيف مع دراسته؟».

«ابنك رمزي لاشأن له بالموضوع، انه يدرس في كركوك وليس في السنجق، الدولة أصبحت خان جغان يا مام جهانگير، كل مدينة ودائرة تحكم حسب هواها، هناك تمردات داخل الجيش والناس يشتمون السلطان عبدالحميد علنا، اننا هنا نائمون لانعرف أي شيء. الفوضى الان هي التي تحكم. ومن لايحافظ اليوم على جلده يتحول الى ضرطة في بحر. ان كل موظف ومسؤول يحاول الان أن يستغل الاوضاع ويثري. هناك جماعة ظهرت باسم الاتحاديين يهددون السلطان علنا، لقد اختلطت الامور الى درجة ان الكلب بات لايعرف مالكه».

قال جهانگير بأسى:

« لقد حانت الساعة التي كنت أتوقعها، كنت أعرف أن هذه النعمة لن تستمر الى النهاية، أنا أشكرك يا عاصم بك، أشكرك من كل قلبي، سوف لا أنسى فضلك، انني اذن يجب أن أتدبر أمري وأترك القصبة مع عائلتي وأموالي».

«هذا أحسن حل يا مام جهانگير، ان هذين الرجلين من عديمي الاخلاق، أنت لا تعرفهما، أنا أعرفهما جيداً، أنهما ببساطة مأبونين، والظاهر أن الدولة في هذه الايام تحتاج الى مثل هؤلاء

المخنثين، وحاول أن تقول بصورة غير مباشرة لجماعتك من الاغوات الاكراد أن يكونوا حذرين ويوحدوا كلمتهم».

أطبق عليهما الصمت لدقائق، جلبت زوجته خلالها عدة صحون ورحبّت بجهانكير الذي سألها ما اذا كانت قد تعلّمت التركمانية، فقالت أنهما يتعلمان اللغتين بصورة متوازنة، هي تعلمه الكردية وهو يعلمها التركمانية، وأما ابنتهم كولباغ فإنها تتكلم اللغتين فى آن، واحد قال عاصم بك:

«أحسن مكان لتعلم اللغة يا مام جهانگير هو الفراش، إليس كذلك يا أم كولباغ؟».

وضحكا، وأما هي فقالت بحياء ثم انصرفت:

«أنتم الرجال، كلما كبرتم، اقترب عقلكم من عقل الاطفال».

عقب عاصم بك ضاحكا:

«ليت كل شيء فينا اقترب من الطفولة».

قال جهانگير متحسرا:

«لا الشباب ولا الطفولة يعودان يا عاصم بك، كل شيء الى زوال».

كان مفعول الخمر قد بدأ يسري في كيان عاصم، مّد يده بترنح الى الكأس وقال:

«اذن لنشرب نخب هذه الساعة الجميلة التي جمعتنا يامام جهانگير، انني أحبكم انتم الاكراد، ولايهمك، فما قيمة المال اذا كان كل شيء زائلاً، هل انت الان قلق على أموالك؟».

كان مفعول السكر قد سرى في اعصابه هو الاخر، وأحس بمعدته تستقبل الخمر بانتعاش ولذة، قال بلهجة فيها قناعة وصدق:

«ثق بالله العظيم عاصم بك، ان هذه الساعة معك تعادل عندي الان كل أموال الدنيا، وسأبدأ أعتباراً من هذه الليلة حياة جديدة، وسترى.. على فكرة ينقصنا هذه الليلة كل من مراد جاووش و كريبت أفندي، ولكنني لا أدري لماذا ادار الجاووش ظهره عليَ، عبثاً حاولت الاتصال به في المدة الاخيرة».

«مام جهانگير، أنت لاتدري ماذا يحصل في الخفاء، هناك أوامر مشددة لكل الموظفين ولاسيما أفراد البوليس والجندرمة بعدم الاختلاط مع الاهالي، الرجل يحبكم، ولكن وضعه في خطر دعه وشأنه وأما كريبت فأعتقد انه اما سينقل الى مكان آخر أو يحال للتقاعد».

«يبدو ان الدنيا مقلوبة دون أن نعرف ذلك».

«الظلم تجاور حدّة والسلطان عبدالحميد لايهمه سوى قضيبه، ان هذه الاجراءات التي يقومون

بها لن تطيل حكمه، بل بالعكس تقربه من نهاية المحتومة. ان الاتحادجيين سيطيحون به، ان آجلا أو عاجلاً».

نزع جهانگير يشماغه بإنتعاش وقال بلهجة مرحة:

«أنت تتحدث اليوم بالسياسة عاصم بك، كلامك يعجبني جدا».

نزع طربوشه ثم التقط زيتونة قائلاً:

«للجدران آذان يا مام جهانگير، انك تشتهيني للحديث، ولكنني أخشى أن يؤدي استرسالي فى الكلام الى فقدان رأسي».

قال ضاربا يده اليسرى على صدره:

«مني أنا لاتخش يا عاصم بك، هذا الصدر مليء بالاسرار».

كان عاصم بك بفطرته لايحب التحدث فى السياسة أو التدخل في شؤونها، وهو كأي عسكري آخر من ضباط الجيش العثماني ممن تدربوا ودرسوا على يد العسكريين البروسيين يحب الضبط والطاعة العسكرية الصارمة والتمسك بالحياد التام تجاه الصراعات السياسية مهما كان لونها، بيد أنه كان يرى – كمجموعة من اصدقائه المقربين ممن تأثروا بكنايزه ناو وشارن هورست – بأن العسكري الشريف لايمكن أن يتحول الى مجرد الة ميكانيكية تحركها الحكومات كيفما تشاء، ولاسيما اذا كان يتعلق بإنزال القوات المسلحة الى الشوارع لقمع الحركات الشعبية، فإن مثل هذا العمل – في رأيه هو ورأي جماعته – ليس من واجب الجيش فالجيش يحافظ على حدود الدولة السامية ويذود عنها ضد هجمات العداء فقط ولا يجوز في كل الاحوال ان يتحول الى كلب حراسة للحكومة اذا كان الشعب غير راض عنها. ها ان السلطان عبدالحميد وحكومته الظالمة يريدان تحويل الجيش الى اداة لقمع الحركات الشعبية في كل مكان، بل أنه استعمله فعلاً ضد الجماهير داخل استنابول نفسها، وهذا أمر لايمكن التوقف عنده بسهولة، وقبل احالته للتقاعد قبل خمس سنوات سمع بأحد الاتحادجيين، وقرأ بعض مناشيرهم دون حماس بيد أنه قبل أيام، عند زيارته لأحد اصدقائه في كركوك ممن يعملون في جهاز استخبارات حامية المدينة، سمع أشياء كثيرة عن التطورات الاخيرة قال له صديقه بالحرف الواحد بأن نهاية السلطان قد قربت وان سقوطه حتمي، انه مجرد وقت... وان الضباط الشرفاء يجب أن لايظلوا متفرجين تجاه التدخل في حرمة الجيش، كما وأخبره بأن الضباط والموظفين الشرفاء اما يحالون على التقاعد أو ينقلون الى اماكن نائية، ويحل محلهم عسكريون وموظفون أمعات وساقطون، وذكر له مثلاً القائممقام والقومندان الجديدين اللذين عينا عندهم في السنجق، فقال ان ملفيهما تحت يده، ويمكنه الاطلاع عليهما بنفسه اذا كان لايصدق كلامه، في ملفات كل منهما تقرير طبي يشهد أنهما لوطيان وشاذان جنسياً منذ الصغر. اذ ذلك هزّ عاصم رأسه باستخفاف، مواصلاً: «نهاية

مشرفة للدولة العلية العثمانية، كلا... كلا... لايجوز السكوت...».

أراد أن ينوه شيئاً من هذا القبيل لجهانكير، بيد أن سليقة الضابط العسكري حالت دون ذلك فأكتفى بالقول:

«أنا ثقتي مطلقة بك يا مام جهانگير، وأنا واثق أنك ستجتاز هذه المحنة، لابل كلنا سنجتاز هذه المحنة... الله كريم»...

ردد جهانگير:

«الله كريم... الله كريم»..

وقبل أن يغادر مضيفه، تناول عنده عدّة فناجين قهوة مرّة قوية، اذ أدرك جهانگير انه يجب أن لا يتأخر هذه الليلة بعد أن سمع هذه الاخبار غير المفرحة. كان الفانوس المعلق على الجدار يرسل نوراً باهتاً عبثاً يحاول خرق حجب الظلام، وتحت نور الفانوس الباهت تودعاً بعناق شديد وصمت مطبق اجتازه صوت زوجة عاصم بك:

«الله معك يا عم جهانگير».......

مشى بمحاذاة الجدول الموازي للطريق. كان الظلام دامساً تتخلله أضواء فوانيس البلدية الخافتة. وكانت النجوم المتلالئة في السماء تشيع في نفسه مرحاً طفوليا ينقله الى مكان بعيد طالما أفتقده. ومرّ بالخان، نظر الى البوابة الكبيرة الموصدة، نظرة غريب يمّر من هنا لأول مرة، وأسرع في خطاه كأنه لا يريد أن يكدر صفو مرحه بهذه البوابة الثقيلة الشبيهة ببوابة قلعة سجن خرج من بين أسواره توا. وقبل أن يعرج يمينا وقعت عيناه على بوابة سوق القيصرية المسقفة التي يضيؤها فانوسان معلقان من الجانبين كانت البوابة التي تصون دكاكين اليهود من عبث اللصوص أحكم وأمتن من بوابته هو بكثير. ضحك بصوت مسموع وقال في سره: «ماذا جاء بك الى هنا أيها الاحمق؟..». ومرّت بذهنه أنواع الافكار، ولأول مرة في حياته أحس أنه أمام مهمة، لاتتعلق بمصالحه الخاصة، يجب عليه أن يؤديها مهما كان الثمن، وعليه أن يبادر الى تحقيق ذلك اعتباراً من هذه اللحظة، ورأى أن أي تأخير في ذلك يؤدي الى كوارث..

كان ابنه يشرب الشاي لوحده في الفسحة امام المضيف حين جاء ابوه وعرف من وضعه انه شرب عند صاحبه عاصم بيك ، وقف احتراماً لأبيه منتظراً منه البدء بالكلام ، قال جهانگير بإشارة من يد مرتجفة:

«اجلس يا بني، اجلس».

وبعد فترة صمت قصيرة، ارتشف خلالها استكاناً من الشاي، واصل بعد ان امتص كمية من الدخان من لفافته:

«اذكر اننا حين جئنا الى هذه المدينة لأول مرة قبل عشرين عاماً قد وصلناها ليلاً، والان، ارى اننا سنتركها ليلاً ايضاً».

«اذا كان الله قد كتب ذلك على جبيننا، فلا يجوز تغييره».

« هذا هو الكلام الصحيح يا بني، ان ارادة الله شاءت ان نترك هذه المدينة الى الابد، وفي هذه الليلة بالذات».

قال الابن وكأنه كان يتوقع مثل هذا الجواب:

«هل اخترت الجهة التي سنستقر فيها؟».

«خير مكان نستطيع ان نستقر فيه هو وادي كفران، سنحتمي بظل الشيخ زوراب الذي سنجد فيه الاطمئنان والراحة».

«هل تعتقد اننا نستطيع نقل كل امتعتنا وغلالنا هذه الليلة يا ابي؟».

اجاب جهانگير بأصرار:

«سننقل كل ما بأستطاعتنا نقله، وما لا نستطيع نقله، نستغني عنه، المهم هو ان نترك هذا المكان قبل انبلاج الفجر»..

أثار الانتقال المفاجئ لجهانكير الى وادي كفران واستقراره في قرية بانشاخ، وما رافق ذلك من الهجرة المعاكسة من قرية زوراب الجديدة الى هناك، والتي حدثت بسرعة عجيبة، اثار كل ذلك انتباه معظم العشائر الاخرى التي لم تأخذ تحذيرات شيخو بمأخذ الجد، بيد انهم حين تأكدوا انهم قد فرغوا القرية من سكانها وجمعوا غلالهم واخفوها في اماكن امينة، وانه لم يبق هناك سوى ميرزا وهابو وجماعته، تأكدوا ان المسألة جدية، وكانت العشيرة الوحيدة التي بنت التحصينات الدفاعية واخفت الغلال هي عشيرة البابائيين، حيث بلغهم الشيخ زوراب بنفسه بالخطر. كانت المشكلة الوحيدة التي تشغل بال كل من الشيخ زوراب وشيخو بعد الاستقرار من جديد في قرية بانشاخ هي انقاذ اموال جهانگير الموجودة في الخان، ورغم ان جهانگير اكد عليهم مراراً على عدم اهمية المال وترك هذا الموضوع، فأنهم جهزوا قافلة من البغال ومجموعة من الرجال المسلحين يقودهم شيخو بك بنفسه ويرافقه في ذلك مردان، وحين اراد ابن جهانگير أن يرافقهم في حملتهم، منعه أبوه قائلا أنه لايريد أن تكون له أي حصة في هذه الاموال ولايريد أن يراها. وفي وقت متأخر من الليل تسللوا الى سنجق من الجانب الشمالي، حيث الخان، طلب مردان من شيخو أن يبقى مؤقتا بمعية القافلة خارج القصبة في حين يقوم هو مع شخص آخر باستطلاع الطريق المؤدي الى الخان، كانت المنطقة المحيطة به مليئاً بالفوانيس، التفت مردان الى صاحبه قائلاً بصوت خافت:

«لايوجد في هذه القصبة زقاق لم أسرق فيه بيتا أيام زمان، كان فيما مضى لايوجد مثل هذه الفوانيس اللعينة، عدوة اللصوص».

توقف عند أول فانوس، وبعد أن جلس القرفصاء طلب الى صاحبه أن يصعد على كتفه. وبهذه الطريقة جمعوا كل الفوانيس وأطفاؤها، فأطبق الظلام الدامس على المكان. وفي الظلام اولج المفتاح في القفل الكبير وفتحه وحين أراد فتح أحد جناحي البوابة، شعر بشيء يعرقل العملية، وراح يبحث برؤوس أصابعه التي توقفت عند خيط مختوم بشمع، فجرّه بقوة وإنفتح الباب. كانت المسافة بينهما وبين القافلة لا تتجاوز مائتي خطوة. وعندما بدأت البغال تدخل الخان واحدا أثر آخر، ظهر حارسان، وكان أحدهما يترنح بشكل ملحوظ، قال بلغة كردية مكسرة:

«من أنتم وماذا تفعلون هنا».

كان مردان قد لزم البوابة مع صاحبه، قال بهدوء وبلهجة تركمانية مكسرة:

نحن فلاحون وهذه أحمالنا كما ترى، جئنا لنبيعها في المدينة».

«ولكن الباب مختوم بالشمع الاحمر، من فتحه لكم».

«الباب كان مفتوحاً يا صديقي، أنت تتكلم شيش بيش هل أنت سكران».

التفت المترنح الى صاحبه وقال وهو يضع يده على كتفه:

«هل تستطيع أن تحل لي هذا اللغز يا موسى؟».

قال موسى بصوت ممطوط متقطع:

«أنا أفكر طيلة الوقت في الفوانيس، قمنا قبل ساعة بجولة في هذا المكان وكانت الفوانيس تشتعل».

همس مردان في أذن صاحبه أن يذهب الى شيخو بك ويبلغه بالعمل بهدوء وبأنه سيتولى امر هذين الحارسين السكيرين:

قال الحارس المترنح:

«اننا يجب أن نذهب الى مركز البوليس ،نبلغهم بالأمر».

قال الحارس الاخر :

«ولكننا يجب أن نأخذ معنا اثنين من هؤلاء الفلاحين حتى يشهد لنا بأن الباب كل مفتوحاً».

تساءل مردان:

«ومن هو عريف الخفر هذه الليلة؟».

أجاب المترنح:

«وهل هناك غير مراد جاووش؟.. أنه الوحيد الذى يسهر على أمن المدينة»..

«الا تخافان أن يلهب ظهريكما بحزامه الجلدي؟».

قالا معا بصوت مخمور:

«يلهب ظهرينا بالضرب؟.. ولماذا؟

واصل المترنح:

«هل نحن حمار القاضي حتى يلهب ظهرينا بالضرب؟».

قال مردان يغضب مفتعل:

«انتما ثملان، هل يجوز السكر اثناء الدوام؟».

قال الحارس الاخر:

«هل تريد أن تحاسبنا أيها الفلاح الابله، مراد جاووش هو نفسه يسكر كل ليلة مع القومندان الجديد».

«اننا قبل أن نذهب الى مراد جاووش والقومندان، يجب ان نتأكد عمّن فتح الباب وأخذ الفوانيس، أنا أعتقد أن الولي بيرداود قد خرج من مرقده وأخذ الفوانيس لأنها تزعجه».

كان ثمة بالقرب من الخان مزار يؤمه المارة ويشعلون فيه الشموع في ليالي الجمعة، وكان قبل ظهور تعليق الفوانيس على الجدران، يترك مرقده ويتجول ليلاً في أزقة القصبة، وقد شوهد اكثر من مرة وهو يمر كالطيف بملابسه البيضاء الناصعة التي تلمع كالبلور في الظلام الدامس. وفي بداية عهد تعليق الفوانيس، كان معظمها يختفي رغم الحراسة المشددة، وقد عثر أحدهم ذات مرة على فانوسين في مرقد بيرداود. وشهد اكثر من شخص في حينه بأنه رأى الولي بيرداود بأم عينيه وهو يرتفع عن الارض مثل ريشة طائرة ويمد يده الى الفانوس، فما أن ينتزعه من مكانه الا وينطفئ النور فيأخذه معه الى مرقده، ويبدو أنه نسي في تلك الليلة نقل الفانوسين الى عالمه. ولكن البلدية صمدت أمام مصادرة بيرداود للفوانيس، واصرت على تزويد السنجق بالفوانيس مهما كلف الامر، فالقانون هو القانون، إن كل قصبة يجب أن تضاء ليلاً، والاّ فإنها ستتحول الى مرتع خصب للّصوص. ومنذ أن ثبتت عادة تعليق الفوانيس، لم يعد شبح بيرداود يظهر في الازقة، فتأكد الناس ان الفوانيس تزعجه حقا، وأن ظهر بين حين وآخر ففي مكان مظلم جدا أو بين الاطلال البعيدة عن الفوانيس.

قال الحارس المترنح:

«الولي بيرداود قد تركنا الى الابد، ولذلك عَم الفساد في السنجق أيها الفلاح البائس».

قال مردان هو يضحك بإستخفاف :

«البائس هو من لايستطيع رؤية شبح بيرداود، لقد رأيناه أنا و صاحبي بأم أعيننا، وهو يجمع الفوانيس ويأخذها الى مرقده».

«أنت رأيته بأم عينك؟.. أنت».

«أجل أنا رأيته بأم عيني، هيا لنذهب الى المرقد فربما سنراه».

قال المترنح بوجل:

«نحن لا ندخل المرقد ليلاً.. هل أنت مستعد لذلك؟».

«سأدخل أنا بنفسي، ولكن انتظرا هنيهة، يجب أن أستدعي صاحبي».

واختفى مردان في ظلام فسحة الخان، قال شيخو وهو يشد آخر حمل على ظهر بغلة:

«لقد تخلصت من عبء رفع الاحمال، ماذا الان مع صاحبيك السكيرين؟ اننا يجب أن نأخذهما معنا، وإلا إنهما سيعرضاننا الى خطر جدي».

هذا ما افكر فيه أنا ايضاً ولكنني احتاج الى قميص ابيض وحبل ومن يدخل معي الى مرقد بيرداود».

قال شيخو:

«انا قميصي ابيض، واذا اردت سأعطيك سروالي الداخلي، ولكن قل لي ماذا تريد فعله؟».

«اعتقد من المستحسن أن نقوم بالعملية بنفيسنا يا شيخو بك. حتى يبقى سرا فيما بيننا. ستأخذ فانوساً وتجلس في المرقد، وحين أهم أنا بالدخول، تخرج انت وبيدك الفانوس وتطلب منا نحن الثلاثة متابعتك الى مكان ما خارج السنجق».

قال شيخو باستخفاف:

«وما لك وكل هذه اللعبة؟».

«انها ضرورية جداً وسترى، انها ستخلصنا من كل أثر الملاحقة».

إنسل شيخو بك بخفة الى المرقد دون أن يحس أحد، وحين أصبح الثلاثة أمام بابه قال مردان:

«هل تدخلان أنتما، أم أدخل أنا؟».

قال المترنح:

«لقد اتفقنا أن تدخل أنت، فلماذا بدأت تتردد؟».

وقف مردان أمام الباب قائلاً :

«بسم الله الرحمن الرحيم، يا روح الولي بيرداود أن هذين الحارسين لا يصدقان بوجودك هنا، ألا تثبت لهما بأنك موجود فعلاً».

وخرج الشبح الابيض وبيده الفانوس قائلا:

«ايها الكفار المنافقون والسكارى، هيا اتبعوني وإلاّ نزعت أرواحكم».

أطفا شيخو الفانوس وأوثقا هو و مردان يدي الرجلين اللذين فقدا النطق والحركة، وراحا يجرجرانهما وهما يسيران في مؤخرة القافلة.. بعد مسيرة غير قصيرة طار السكر من رأسي الحارسين، وراحا يسيران بخطوات طبيعية ولما أحسّ بهما مردان قال بلهجة استرحام:

«ولكن ما ذنبي أنا يا مولاي بيرداود، لماذا لاتخلي سبيلي؟».

«سأخلي سبيلكم حين نبلغ نهر روخانه، هناك سأختفي ولن أرجع الى السنجق، لأنها قد إمتلات بالزناديق والكفار.. قولوا لأهل السنجق أن بيرداود زعلان عليكم، ولن يظهر في أزقتكم ولا يمد يده الى فوانيسكم اللعينة».

كان الشيخ زوراب فخورا جدا وسعيداً لالتجاء جهانكير اليه وتركه السنجق، ورأى أن صاحبه الذي فرق بينهما الزمان لحوالي ثلاثة عقود من الزمن هو هو، لم يتغير سوى ما أضفت عليه الاعوام من آثار الشيخوخة. واما جهانكير فبدا له كل شيء بالنسبة الى حياته الجديدة كما لو أنه يبدأ من تلك اللحظة التي قطع علاقته فيها بالشيخ زوراب، وكأن تلك الفترة الطويلة بينهما لم تكن. وحين قال له شيخو: «ها قد جلبنا لك يا عمي جهانكير كل أموالك بدون أي نقصان..». أجاب منفعلاً بأنه سبق أن قال انه لا علاقة له بهذه الأموال: «افعلوا بها ما تشاؤون، وزعوها فيما بينكم، أو خذوها للشيخ البرزنجي..».

وأتفقوا أن ينقلوها كتبرع من جهانكير الى تكية الشيخ.

انتشر خبر ظهور الولي بيرداود وأخذه للحارسن والفوانيس فى اليوم الثاني فى السنجق كسريان النار في الهشيم، وراح الناس يتزاحمون لالقاء نظرة أو لمس أحد الحارسين اللذين مسهما بيرداود بيديه الكريمتين، وأما ملابسهما فمزقت أربا اربا ليحصل منها كل عائلة على خرقة صغيرة للتبرك، واشيع بأنهما سيتحولان بدورهما ايضا الى وليين صالحين، ذلك أن بيرداود لم يخترهما عبثا لتبليغ الناس بقراره. كان كل فرد من افراد السنجق مأخوذاً بهذا الحادث الخارق الذي هو دليل ملموس بأن الفساد قد عم فعلاً في القصبة، وقال الكثيرون ان هذه انما علامة لها علاقة بالقائمقام الجديد والقومندان اللذين عرفا بسمعتهما السيئة. الشخصان الوحيدان اللذان لم يصدقا باللعبة هما مراد جاووش و عاصم بك. وقبل إجراء اي تحقيق مع

الرجلين، هرع الاول الى الثاني مستفسراً اياه ما اذا كان يصدق اللعبة؟.. أجاب عاصم جذلاً: «ان هذه الدنيا مليئة بالالغاز والاسرار يا جاووش، اذا كانت امورنا قد انيطت الى المناويك واللواطين، فلا تستغرب اذا ظهر غدا الدجال بنفسه..». أراد مراد جاووش أن يتأكد ما اذا عاصم بك فعلا يصدق هذه اللعبة التي لاشك يختفي وراءها جهانكير وصاحبه مردان، فقصة مصادرة الفوانيس من قبل بيرداود ليست جديدة، ولكنها اصبحت قديمة لايتذكرها الا الجيل القديم. كان يجلسان في قوناغ عاصم بك، قدم له هذا فنجانا من القهوة التي كان يكثر من شربها بعد الفطور مباشرة، قائلاً:

«انك تلح كثيراً في الامور يا مراد جاووش، هل تريد أن تتعاون مع هذين الفاسدين؟».

«استغفرالله أن أفعل يا عاصم بك، ان هؤلاء يأتون ويذهبون، ونحن أهل السنجق الاصليين باقون، فهل تعتقد انني سأخرب علاقتي مع أهل مدينتي والعشائر من أجل هؤلاء؟.. هذا مستحيل .. مستحيل»..

«اذن لاتنقب عن أب اللقيط، وصدّق ما يقوله الحارسان السكيران».

هز مراد جاووش رأسه وقال ضاحكا:

«هل تدري ان القائممقام والقومندان قد اصابهما الرعب من الحادث؟»

«حاول ان تزيد من رعبهما، حدثهما عن السعالي وقايشبالدر، وكيف كانوا فيما مضي يتجولون ويسرحون ويمرحون في ازقة السنجق»..

وصلت تعليمات جديدة من الوالي، تؤكد على ضرورة الاسراع في استحصال الضرائب من العشائر وربطها بالبحث عن الهاربين من الخدمة العسكرية وغير المسجلين والمكلفين الجدد، والضرب بيد من حديد على كل من يتقاعس عن تنفيذ ذلك. وجرى في غرفة القائممقام اجتماع طويل حضره القومندان وضابط التجنيد ومدير المال وقولجي الاستهلاك وقولجي الكمرك وآمر الحامية الجديد ومراد جاووش. وكان من المقرر أن يجتمع كل من القائممقام والقومندان في ذلك اليوم بعد الانتهاء من إجتماعهم برؤساء العشائر السبع التي هي عبارة عن خمس عشائر كردية، وعشيرة عربية واخرى تركمانية، بيد أن اعتذار رؤساء خمس عشائر، ومجرد حضور رئيسي عشيرتين كرديتين صغيرتين، قد قلبا الخطة التي بيّتها القائممقام والقومندان رأسا على عقب، ومما زاد في حقد الاثنين هو عدم حضور رئيسي العشرتين العربية والتركمانية، واللذين كان القائممقام والقومندان يأملان الاعتماد عليهما في تنفيذ العديد من الخطط المبيّتة، ولما كان مراد جاوش على علم بالعداوات الموجودة بين هاتين العشيرتين الكرديتين والعشائر الكردية الاخرى، لذا حاول أن يصرفهما حتى لايستفيد القائممقام منهما، بيد أنهما الحا على ضرورة اللقاء به أو

بالقومندان، وظَل مراد جاووش يعرقل اللقاء مؤكدا على القومندان بعدم أهمية هاتين العشيرتين، وبأن رئيسيهما يقدمان خدماتهما لكل من هَب ودّب، وان الاعتماد عليهما سيؤدي الى مضاعفات ومشاكل لاتحمد عقباها مع العشائر الخمس الاخرى، التي هي الرئيسية، لم تثمر جهود مراد جاووش فقد ظلاً مصرّين باللقاء على الاقل بأحد المسؤولين، وذلك لحيازتهما على معلومات مهمة تهم أمن وسلامة الدولة، فتم الاتفاق على أن يلتقي بهما القومندان ويستمع الى رأيهما. كانت أرض العشيرتين سهلة، منبسطة وغير وعرة، وكانت سلطة الرئيسين لاتشمل الامتدادين المتوغلين في الجبال الوعرة، واللذين رفضا قبول الفرمان في حينه في شخص رئيسهما الاصليين اللذين لازالا معترفين بهما، سواء من قبل عشيرتيهما أو من قبل العشائر الخمس الاخرى، كان هذان الرئيسان اللذان تسلما الفرمان دون موافقة الرئيسين الاصليين يعتبران أنفسهما الرئيسين الرسمين ولكنهما كانا في الواقع يحكمان قريتين فقط . لما كان لقاء رؤساء العشائر الذي جرى في قصر رئيس عشيرة البابائيين يضم الرئيسين الاصليين لهاتين العشيرتين، لذا هرع هذان الى السنجق وقررا أن يضعا كافة خدماتهما في خدمة الوضع الجديد.. وكان القومندان يعرف بسليقته أن مثل هؤلاء الاشخاص الغير مرغوبين من قبل عشيرتهم والمتهافتين على التعاون مع السلطة بأي ثمن كان، لايستطيعون حسم الامور لصالح الحكومة وربما يكون ضررهم أكثر من منفعتهم، ولذلك لم يأخذهما بمأخذ الجد، كما لم يبد تجاههما الاحترام الذي كان يتوقعانه، ولكنه أبدى موافقته على التعاون معهما وتسجيل أفراد عشيرتيهما المزعومتين كأعضاء مسلحين في وحدات الجتة شبه النظامية، ومن خلال الحديث القصير الذي دار معهما، عَلم القومندان بالاجتماع الذي جرى في قصر رئيس عشيرة البابائيين، ولكن دون معرفة أي شيء عن التفاصيل التي دارت فيه، الامر الذي أثار غضبه، فأستدعي مراد جاووش وراح يستفسر عنه ما اذا كان على اطلاع لما يجري بين العشائر، كان القومندان منفعلاً وخائفاً. فالمعلومات التي وصلته قبل فترة وجيزة تؤكد على وجود خلافات جدية بين العشائر قد تؤدي في أي ساعة الى التصادم فيما بينها، في حين يؤكد الخبر الجديد على عكس ذلك، فأيهما يا ترى هو الاصح؟ قال مراد جاووش وهو يمسح العرق من جبينه.

«أمر هذه العشائر يحَير يا جناب القومندان، أن أي تدخل في شؤونهم من قبل الدولة يوحدهم وينسيهم خلافاتهم، ولكن ما أن تهملهم الدولة وتتناساهم حتى يبدأون بالتذابح فيما بينهم، ولذلك فإن أحسن حل تجاه هؤلاء هو إهمالهم».

«ولكن الاوامر هي أوامر يا مراد جاووش، هل تعتقد أن الدولة نقلت القائممقام السابق واليوزباشي عبثاً، أنا والقائممقام الجديد قد عينّا هنا خصيصاً من أجل تطبيق أوامر الدولة فيما يتعلق بالعشائر وإرغامها على الطاعة والخضوع للقرارات والالتزام بها، ان كل عشيرة في هذه

المنطقة قد تحولت الى حكومة بحد ذاتها، وكأنه لاتوجد حكومة مركزية. اننا يجب أن نستدعي رؤساء العشائر السبع للقاء بهم هنا بأي ثمن كان».

«لقد بلغناهم كلهم واحداً واحداً يا جناب القومندان وحددنا لهم اليوم المعين ولكنهم لم يحضروا كما ترى، وأن أعتقد لا فائدة من إرسال تبليغ جديد، ولا سيما اذا كان خبر اللقاء في قصر الشيخ بابا صحيحاً».

«والنتيجة؟».

«أرى أن نستعمل معهم سياسية اللين والاقناع».

قام القومندان من مكانه وراء مكتبه ضاربا بقبضته على المكتب وقائلاً بغضب:

«لقد أدبت عشائر أشرس من هذه الجرذان، سأعلمهم ما هو النظام وما هي الدولة».

اتفق رؤساء العشائر السبعة على ان يبقوا على صلة دائمة ببعضهم البعض، وان لايتخذ أي رئيس قرارا أو إجراء فردياً دون الرجوع الى المجلس الذي شكلوه بإسم العشائر. واقترح الشيخ بابا أن يكون الشيخ زوراب رئيساً للمجلس، وذلك لكونه أكبرهم سنا فتمت الموافقة على ذلك بالاجماع، وبعد مداولات ومناقشات طويلة واتصالات سرية بعاصم بك ومراد جاووش، وقرر المجلس أن يتجنب الاصطدام المباشر بقوات الجندرمة التي راحت تتوزع على اراضي العشائر مرافقة موظفي الضرائب والقولجية وضابط التجنيد واتخذ القومندان دار الشيخ زوراب في قرية بنعيز مقر لقيادته وتم احتلال القرية التي فرغت من سكانها. وعندما طلب اللقاء بوجوه القرية جاء السيد جواد وميرزا وهابو. فهموا منه انه يريد منهم أن يذبحوا له ووحدته العسكرية يوميا خروفا على الاقل، ويعدّوا لهم الطعام ثلاث مرات يومياً، وكان مراد جاووش حاضراً في اللقاء قال السيد بتهكم:

لم يفهم القومندان كلام السيد فالتفت الى مراد جاووش، متسائلاً بحركة من رأسه، أجاب مراد جاووش:

«هؤلاء يا جناب القومندان لايملكون حتى قرصة خبز في بيوتهم، إنهم يعتقدون بأننا نحن الذين سنوفر لهم الطعام».

«نحن ليست لدينا تكية كي نوفر لهم الطعام، أين هي أكوام البيادر؟».

كان القومندان يتحدث بلهجة تركية يصعب فهما حتى على مراد جاووش، ومع ذلك تمكن من ترجمتها الى اللغة الكردية، أجاب ميرزا بإنفعال:

«قل له أن البيادر قد طارت الى هناك، الى جبال وادي كفران، فليذهب هو وعسكره الى هناك».

أقنع مراد جاووش القومندان بأن الحديث مع هؤلاء هو مجرد مضيعة للوقت، وأن الغلال قد

نقلت الى داخل الجبل، فأمر بإجراء تحريات دقيقة في القرية وأطرافها، وتوزع أفراد الجندرمة في أزقة القرية، يدخلون البيوت بحذر، شاهدين أسلحتهم وكأنهم في حالة حرب، وراحوا يبحثون في كل زاوية من البيوت بكل دقة وعناية وحذر، فلم يصادفوا سوى القطط والكلاب السائبة. وجاءته المعلومات من الوحدات الاخرى الي توزعت على العشائر، تفيد أن قراها هي الاخرى قد فرغت من سكانها واخفت الغلال، وأن افراد الجندرمة بحاجة حقيقية الى الخبز.

اتصل القومندان بالقائممقام في السنجق وبمقر القيادة في كركوك يبلغهما بآخر التطورات:

* الغلال والحيوانات وسكان القرى اختفوا بين الجبال والوديان، وجرى البحث عنهم دون جدوى.
* معنويات افراد الجندرمة سيئة للغاية بسبب الحر الشديد وندرة المؤونة.
* تجمع عدة عشائر مسلحة، من ضمنها دراويش التكية البرزنجية في وادي كفران الذي يحتاج احتلاله الى المدفعية الثقيلة والعتاد الكثير.
* تجمع العشيرتين العربية والتركمانية على أراضي العشيرة البابانية، وبنائهم لاستحكامات دفاعية على امتداد الضفة الغربية لنهر روخانه.
* الرئيسان الكرديان اللذان تعاونا مع الحكومة اصطدما مع امتدادي عشيرتهما في الجبل، وكانت النتيجة ان التحق اتباعهما مع اسلحتهم بالرئيسين الاصليين، فلم يبق معهما سوى مجموعة لايتجاوز عددها أصابع اليدين.
* الوحدات بحاجة ماسة الى المؤن، زودنا بها، وضعنا سيء للغاية..

كان الوقت ظهراً، والقيظ لايحتمل حين أملى القومندان تقريره المقتضب لعريف التلغراف بحضور مراد جاووش في مضيف الشيخ زوراب الذي أحاطته من كل الجهات حراسة مشددة. وأما البرج الذي يسكنه مردان، فاتخذه ثلاثة جندرمة ببنادقهم الرشاشة مقرا لهم. كان القومندان يشرب الشاي ويدخن بكثرة، التفت الى مراد جاووش قائلاً:

«كنت اتوقع كل شيء، أما أن تكون مشكلة الطعام عقبة حقيقة أمام وحداتي، فكنت لا أتوقعها، تأخر إرسال الاوامر من مقر القيادة هو الذي أوصلنا الى هذه النتيجة».

قال مراد جاووش:

«ولكن يا جناب القومندان حين ترسل الدولة هذا العدد الكبير من الجندرمة النظامية، الا تفكر بطعامها؟».

«قالوا أن المحصول خرافي في هذه السنة. ثم اننا كنا نعتمد على الكميات الهائلة المتوفرة في خان المدعو جهانگير».

«ان الدولة يجب أن تجد حلا معقولا، وإلا فإن المؤونة الإحتياطية اذا انتهت ستجابهنا كارثة، ثم اننا لانستطيع الاعتماد على اهالي السنجق. انهم هم أنفسهم كانوا يعتمدون على التاجر جهانگير».

قال القومندان بلهجة من يعرف الحكومة جيدا:

«ان الدولة لا ترسل لنا حبة واحدة من القمح، اننا يجب ان نستحصل قوتنا من الفلاحين سواء باللين أو بالقوة، والوضع الحالي يضع امامنا خيارين، أما أن نقوم هجوم عنيف أو نعود بالوحدات الى مقراتها الاصلية».

«ولكن جناب القومندان هل تعتقد اننا بإعلان الحرب على سبع عشائر نستطيع تحقيق ما نريده؟».

«ليس من الضرورة أن نشن الحرب ضدها كلها، سنحاول أن نركز ضد عشيرة واحدة فقط. واذا تمكنا من تأديبها بصورة جيدة، اذ ذاك ستذعن العشائر الاخرى، تستسلم. المهم هو أن تصلنا الاوامر».

«هذه مسألة لانستطيع أن نحددها نحن يا جناب القومندان، اننا اذا قمنا بأي تحرك، فإن العشائر السبع ستعلن الحرب علينا. انهم نسوا خلافاتهم وشكلوا مجلساً فيما بينهم.» قال القومندان باستخفاف:

«تقديراتك خاطئة يا مراد جاووش تجاه قوة هؤلاء، العبرة ليست بالعدد، ان كل الاسلحة الموجودة عندهم لاتقاوم ساعة واحدة، اننا سنجابهم بإحدث الاسلحة الفتاكة، وسوف نعلمهم ماهو النظام وما هي الطاعة»..

أراد مراد جاووش أن يقول بأنه ليس الى جانب مثل هذه الحلول ولكنه سكت هنيهة ثم قال:

«اعتقد أن الامر ليس بهذه السهولة يا جناب القومندان، انهم يملكون أيضاً اسلحة جيدة، ونتيجة للمنازعات المسلحة فيما بينهم، تعلموا أيضاً فنون القتال، هل كنت تتوقع انهم سيخلون قراهم، ويخفون الغلال بهذا الشكل؟».

قال القومندان مفكراً في شيء ما ومحدقا في الفراغ:

«عنصر المفاجأة مهم جداً في القتال، إعتقد ان معلوماتنا غير وافية عن هذه العشائر السبع، على فكرة هل هي فعلا سبع عشائر، أم أنها مجرد كنية؟

انطبعت علائم الانشراح على وجه مراد جاووش وتنفس الصعداء لتأثير كلامه الذي بدأ يسري في كيان القومندان» وقال:

«انها في الحقيقة أكثر من سبع عشائر يا جناب القومندان، فمثلاً أن دراويش التكية البرزنجية

الذين بلغ عددهم المئات والقرى المتاخمة لعشيرة وادي كفران، كلها لم نحسبها ضمن العشائر السبع، وهكذا الامر لكل العشائر الاخرى. ان كل عشيرة لها فخوذها وبطونها وملحقاتها المتوزعة هنا وهناك، فما أن أحست بوجود القتال الاوهرعت لنجدة العشيرة الام، ولذلك فإن ورطة الحرب مع هذه العشائر ستؤدي الى كوارث لاتحمد عقباها».

قال القومندان كمن يحدث نفسه:

«الملاعين قد توزعوا الى جبهتين استراتيجيتين، مستفيدين من الموانع الطبيعية كمن درس فن القتال في مدرسة عسكرية».

«ان البابائي مثلا يا جناب القومندان اذا ثبتً ركبته على الارض خلال القتال، فإنه لن يتراجع خطوة واحدة، وان اطلاقته لن تذهب هباءاً، انها تستقر في اللحم، انه يظل يقاوم بلا هوادة دون أن يحرك ساكنا، سواء أهجمت عليه بالخيول أو بالمدافع، أقول لك هذا عن تجربة، وأما أفراد عشيرة وادي كفران فإنهم مثل الذئاب، انك تظل تتوغل في أراضيهم الوعرة دون أن تحس بوجود بشر، وما أن تصل الى منطقة معينة، الا وتجد نفسك مطوقا من جميع الجهات، فما عليك الا الاستسلام فالانسحاب، وتركهم وشأنهم، لذلك يا جناب القومندان كان الذنب ليس ذنب القائممقام السابق أو اليوزباشي اللذين تم نقلهما فمحاسبتهما. الذنب هو ذنب هذه العشائر التي لايمكن التغلب عليها بسهولة، وكان الحل الوحيد في حينه للتعامل معهم بصورة سلمية ،مقنعة هو توزيع الفرمانات عليهم لكسبهم واستدراجهم الى جانب الدولة، انهم مثل الخيول الهائجة التي لايمكن ترويضها الا بالصبر والنفس الطويل».

كان القومندان يحس في قرارة نفسه بالخوف والرهبة وذلك لعدم وجود تصور كامل في ذهنه حول عدد المسلحين ونوعيات اسحتهم وطبيعة الارض التي سيجري عليها القتال والمفاجأت غير المتوقعة التي قد تحصل خلال الهجوم ومدى ثبات جنوده واستعدادهم للقتال الذي لم يخوضوه منذ فترة غير قصيرة، ومما زاد في قلقه جواب مقر القيادة الذي وضعه عريف التلغراف أمامه والذي راح يدرسه بإمعان مع مراد جاووش:

«الى قومندان السنجق والأطراف/برقيتكم: بنعيز/مستعجل... انسحبوا الى مركز السنجق ولا تعقدوا الامور/ انتم تتحملون مسؤولية اختفاء الناس والغلال. حلّوا مشكلة الارزاق مع وجهاء السنجق والعشائر/ ننتظر جوابكم..

امر مقر القيادة

قال القومندان بعد أن قرأ البرقية للمرة العشرين:

«ما هو رأيك يا مراد جاووش؟».

أجاب بلهجة المنتصر الواثق من نفسه:

«كنت أتوقع مثل هذا الجواب من مقر القيادة، انها حكيمة حقا».

قال القومندان بحيرة:

«اعتقد هناك تغييرات ومشاكل حتى داخل مقر القيادة، انهم حين أرسلونا الى هنا، كانت لهجتهم غير هذه اللهجة.. كانوا يؤكدون على تأديب العشائر واجبارها على الخضوع والطاعة ودفع الضرائب المضاعفة الخ.. من الاجراءات، والان يحملوني أنا مسؤولية اختفاء الناس والغلال.. هل هذه أخلاق؟».

«هذا ما كنت أؤكد عليه دوما يا جناب القومندان. اننا كمسؤولين مهما كانت درجاتنا يجب أن نكون حذرين جداً، والا سندفع الثمن غاليا، تصور ماذا كان يحدث لو دخلنا في مناوشات حقيقية مع العشائر».

«اننا يجب أن ننسحب فورا الى مركز السنجق، ولكن من هم وجهاء المدينة؟ انني أعرف وجيها واحد فقط وهو عاصم بك».

«اذا اعتمدت على عاصم بك، فأنه سيحل لك الكثير من المشاكل يا جناب القومندان، ان هذه المنطقة حساسة جداً لايفيد معها سوى الهدوء والتعقل، إنها حتى مثل هذه الايام في العام الماضي، كانت مختفية عن الانتظار لاترى منها سوى بضعة شيوخ كبار في السن، فتمكنا بجهود الدولة وبفضل الفرمانات ان نخرجهم الى النور، نقربهم من الحكومة، اننا بحاجة الى صبر طويل معهم يا جناب القومندان، وبدأ القومندان باتخاذ الاجراءات اللازمة لجمع أفراد وحداته وأرسال الاوامر للوحدات المتوزعة على المناطق الاخرى بالعودة فوراً الى مقرها في مركز السنجق، وطلب الى عريف التلغراف بإعلام مقر القيادة بأن الاجراءات الفورية قد اتخذت لتنفيذ الاوامر بحذافيرها. ودب الهرج والمرج في صفوف افراد الجندرمة الذين كانوا يعيشون على اعصابهم خوفاً من وقوع مصادمات مسلحة مع العشائر فراحوا يحزمون امتعتهم بسرعة وفرح بالغين، وعلى غفلة من القومندان المنشغل بأصدار الاوامر الى معاونيه، ذهب مراد جاووش مسرعاً الى خيمة ميرزا، كانت الشمس تميل الى الغروب وكان هابو والسيد وميرزا وحمه غريب يتناولون طعام العشاء فما ان رأوه، الا وسحبوا ايديهم من الاكل بصورة لا ارادية، وهم ينظرون اليه بأستغراب قال السيد: «يا الله، يا ستار» واما هو فكانت ابتسامته عريضة قد انطبعت على وجهه، أشّر بيده طالباً منهم ان يواصلوا اكلهم. وجلس الى جانبهم ماداً يده هو الاخر الى الطعام قائلا:

«كلوا براحة، لي اخبار مفرحة لكم».

وعندما رأى ميرزا انه يأكل بشراهة طلب الى حمه ان يجلب صحناً اخر من الثريد، وظل ساكتاً دون ان ينبس ببنت شفة الى ان انتهى من تناول الطعام، وحين بدأ بشرب الشاي والتدخين قال بصوت خافت:

«لقد وصلت برقية من كركوك، اننا يجب ان ننسحب فوراً الى مركز السنجق وسوف يحاسبون القومندان محاسبة شديدة لتصرفاته اللا مسؤولة، بلغوا الشيخ زوراب والشيخ بابا بالأمر فورا، ولكن بهدوء ودون ضجة».

قال ميرزا وهو يحك ابطه بأنفعال:

«هل تعتقد يا مراد جاووش انهم يستطيعون العودة الى بيوتهم؟»

قال مراد جاووش بلهجة صارمة:

«طبعاً يا ميرزا آغا، ان هذه القرية هي قريتهم، انهم يجب ان يرجعوا فوراً».

قال السيد:

«اخشى ان يكون هذا فخاً جديداً يا مراد جاووش».

– كلا يا سيد. اطلعت على البرقية بنفسي .

«قالوا بالبرغية خلّى يرجع شيخ زوراب للجرية؟».

وشرح لهم مراد جاووش بالتفاصيل بأنّ الحكومة في كركوك لا تعرف بأن الشيخ زوراب وجماعته قد تركوا قريتهم. قال السيد بلهجة اعتزاز وفخر كما لو انه يحدث نفسه:

«عفارم شيخ زوراب، عفارم عليك، شيخ زوراب معروف حتى بالولاية».

ودمدم هابو:

«لعنة الله على الظالم، والله الحياة بدون الشيخ زوراب حرام».

«اي والله صحيح... الله يحفظك يا شيخ زوراب».

وقبل ان يخيم الظلام، كان اخر نفر من الجندرمة قد ترك القرية وكان كل من هابو والسيد وميرزا وحمه غريب وزوجاتهم قد وقفوا امام الخيمة ينظرون الى طوابير الجندرمة التي اتخذت الطريق المؤدي الى مركز السنجق وهم يكادون لا يصدقون عيونهم، وينظرون الى بعضهم بدهشة وتساؤل وفرح.

٢٤

انتشر خبر إنسحاب قوات الجندرمة النظامية الى مركز السنجق في كل مكان كسريان النار في الهشيم فقد اعتبر الكل ذلك هزيمة شنعاء لقوات الدولة التي رضخت لمشيئة العشائر، عدا بعض الكبار بالسن، ممّن رأوا ان مثل هذا الموقف، انما مبعثه الحكمة والتعقل من السلطات العليا، بيد ان الاخبار التي تسربت بسرعة بصورة خفية جعلت ايام حزيران تمضي ببطء وترقب وخوف بالنسبة الى القائمقام والقومندان اللذين كانا يسكتان عن الكثير من الشائعات والأقاويل التي تدور في مقاهي و مجالس السنجق فالشتائم الموجهة الى السلطان عبد الحميد لم تعد تجري في الخفاء، بل علناً وعلى مسمع ومرأى من الناس، ونقل بعض المسافرين القادمين من كركوك اخبار تؤكد على ان هناك هيجان، وأن بعض المتطرفين قد هجموا على بعض المقاهي ومزّقوا صور السلطان وداسوها في الشوارع وهتفوا ضده منادين بسقوطه، وأن افراد البوليس كانوا يتفرجون فقط ولا يتدخلون، وقسم احد المسافرين بطلاقه بأنه رأى بأم عينيه كيف يشتمون السلطان علناً ويتحدثون عن حريمه ودعارته وطغيانه وقتله للابرياء، وعبثاً اراد القومندان أن يعرف شيئاً عن تفاصيل وحقيقة تلك الشائعات بواسطة الاستفسارات التي يرسلها بواسطة عريف التلغراف. كان نفس الجواب يأتيه في كل مرة: «لا تتدخلوا في شؤون الناس ولا تهمكم الشائعات، ولا تقوموا بأي تصرف طائش...» لقد تغيّرت حتى لهجة البرقيات الواردة الى مقر القيادة، ما المقصود بـ«تصرف طائش؟» واكد القومندان انه منذ عمله في الجيش لم يسمع مثل هذه العبارة التي لا معنى لها. الشخص الوحيد الذي فسّر له المعنى هو عاصم بك الذي قال بأستهجان: «التصرف الطائش يا جناب القومندان هو استنفار الوحدات المسلحة وتحريكها ضد العشائر، كما لو انك اعلنت الحرب ضد دولة أجنبية».

وحاول القومندان، عن طريق بعض عملائه من المرتزقة، نشر شائعات تغض النظر عن الشائعات القادمة من المدينة بأستمرار، فراحوا يشيعون بأن هناك خطة مبيتة من قبل العشائر للهجوم على السنجق ونهب وسلب اموال وممتلكات الناس، بيد ان عاصم بك استطاع اطمئنان الناس بسرعة بأن هذه الشائعات انما هي من صنع القومندان الذي يؤيد السلطان.

وبناء على التأكيدات الواردة من مقر القيادة على ضرورة اللقاء برؤساء العشائر وخلق جو ودي معهم، فأن القائمقام والقومندان قد بذلا مختلف الجهود لعقد اجتماع معهم، حتى انهما ابديا استعدادهما بعقد الاجتماع في بيت أي واحد يرتأوه هم، وكان الجواب دوما، الرفض ورفض

عاصم بك هو الاخر أن يلعب دور وسيط، وكان هو نفسه ضد هذا اللقاء الذي يعني تحقيقه أعادة الاعتبار الى هذين الموظفين الغير مرغوب فيهما، وفي اللقاء الذي عقده مجلس العشائر في دار رئيس عشيرة البابائيين، جرى بحث تطورات خطيرة لم يسبق لهؤلاء الرؤساء أن عهدوا بها من قبل، فقد أخبرهم رئيس العشيرة العربية عجيل بأن رسولا من عشائر الشمر والعبيد والجبور حمل له رسالة تؤكد بأن العشائر المذكورة قد أعلنت العصيان، وترفض دفع الضرائب، وقال الشيخ عواد قوجة رئيس العشيرة التركمانية أن عشائر تلعفر هي الاخرى قد اعلنت العصيان، وأما الشيخ زوراب والشيخ بابا فقدّما عرضا للقاء الذي دار بينهما وبين الوفد الذي يمثل عشائر الجاف والبابان والبهدينان ،مناطق ديار بكر، فقد تمردت كلها وأعلنت العصيان، وأكد بأن أقساما كبيرة من الوحدات العسكرية التي ارسلت لقمعها قد تمردت هي الأخرى وأنضمت الى العشائر. وقبل أن ينفض المجلس قرر بالاجماع عدم الاعتراف بالقائممقام والقومندان وعدم دفع الضرائب وإرسال المجندين، الاّ على أسس عادلة يتم الاتفاق حولها، مع قائممقام آخر جديد يحترم إراده العشائر.

ورغم أن الشيخ زوراب وشيخو قد تأكدا بأنه من المستحيل حدوث هجوم مفاجئ من قبل قوات الجندرمة المتمركزة في مركز السنجق، فأنهما قررا أن تبقى الحراسة مستمرة ليلاً ونهاراً في جميع أرجاء وادي كفران، كما وأتفقا على إرجاع بعض العوائل الى قرية زوراب مع التأكيد على ابقاء الغلال في مخازنها السرية تحت الارض وعدم بيعها.

كان رستم ورمزي وصائب وقادر وعباس قد قضوا نهارهم في مضيق خورنەوزان الذي وصفه صائب بالجنة، في الوقت الذي كان القيظ لا يحتمل والشمس المحرقة تلهب كل شيء، كانوا يشعرون بالبرد، وكانت الشلالات الصغيرة المتساقطة التي تغسل مجاميع النباتات والشجيرات المعلقة على جانبي الجرفين الحادين، تتحول الى جداول صغيرة أتخذت لنفسها مجار متفرقة في الاخاديد المحفورة على جدار الجرف الصخري، أو تتحول الى رذاذ متطاير يجعل الهواء ندياً عبقاً برائحة النعناع والريحان. كانوا قد ربطوا خيولهم بجانب صخرة كبيرة مطلة على النهر، وأسندوا بنادقهم على قدم الجرف. وكانت النار التي شووا عليها السمك مازالت حامية، يتصاعد منها الدخان المحمل برائحة السمك المشوي.

كانوا يتركون بانشاخ كل يوم بعد شروق الشمس بقليل، مارين في طريق الذهاب بالقرى الواقعة على الجانب الايمن من نهر آوه سبي، وأما في الإياب فكانوا يمرون بالقرى الواقعة على الجانب الايسر، متوقفين بعض الشيء قرب الكهف أو يدخلونه دون أن يجدوا أثرا لا للجنية ولا للسعالي. وذات مرة أجتازوا المضيق الى الجانب الثاني، حيث يمكن المشي على جانب واحد فقط، وأقترح عليهم صائب أن يتابعوا السير الى أن يصلا المنبع، بيد أن رستم رفض ذلك مؤكداً على أن حدود عشيرتهم تنتهي في نهاية المضيق، وبأن ذلك يحتاج الى عدة أيام. وعندما بدأت الشمس تميل الى

المغيب، حزموا أمتعتهم، وقبل أن يمتطوا خيولهم، رفع قادر يده اليمنى ومد رأسه منتبها كما لو يريد أن يسمع شيئاً قائلا:

«أنتبهوا معي، هناك خيول وحمير دخلت المضيق».

وجمدوا في أماكنهم يترصدون شيئاً ما بآذانهم. وبعد فترة صمت قصيرة بدأت الضجة ترتفع وتختلط بإرتطام حوافز الخيول والحمير على الحصباء، ورغم أنهم كانوا لايرون أثرا، الاّ أن أصوات الرجال والنساء والاطفال كانت تأتيهم واضحة، ولكن بلغة غير مفهومة، تهيأ كل واحد منهم بصورة لا أرادية محاولاً الانسحاب الى الاماكن الأمنية وراء كتل الصخور المطلة على النهر، كما لو أنهم يُهيئون أنفسهم لمعركة، واما رستم، فظل ينظر اليهم بإستهزاء وقال ضاحكا:

«لا داعي لكل هذه الاستعدادات، أنهم الغجر، هياً لنستعجل، والاّ سيزعجوننا بأسئلتهم ومطاليبهم».

قال صائب بدهشة:

«غجر؟ يجب أن نتكلم معهم يا رستم. انني لم أر الغجر في حياتي».

قال رستم وهو يقفز على ظهر حصانه:

«لاتخف يا صائب، أنهم سينصبون خيامهم على النهر قبالة بانشاخ مباشرة، وسنذهب ليلاً مع الوالد الى حفلاتهم الليلية».

قال قادر وهو يميل يشماغه:

«كاكه سايب، النساء الغجريات حلوات».

وأنطلقوا يخبوّن بخيولهم التي راحت تعدو بسرعة كما لو أنها تريد أن تعوض خمول نهار كامل تحت ظلال خورنهوزان الوارفة. وقبل أن يختفي قرص الشمس الباهتة وراء جبل الامام علي، بلغوا قرية بانشاخ. كان المجلس يضم كالعادة الشيخ زوراب ورمضان وجهانكير وشيخو وكريم والملا بادر رستم وأخبرهم بقدوم الغجر و هو يدقق النظر في ملامح أبيه الذي كان يشاركهم طربهم، فأستغرب حين لم تبد على وجهه أية علامة فرح، قال الشيخ زوراب بتهكم:

«أنهم أصبحوا شركاء عمرنا و جاءوا ليأخذوا حصتهم».

قال رمضان ملتفتا الى كريم:

«أنهم جماعتك يا كريم، يجب أن تقوم بالخدمة».

قال كريم:

«هناك من يقوم بخدمتهم بدلاً مني، أنا لا أستطيع ترك فاطمة لوحدها، أنها تنتظر وليدها في أي لحظة».

كان رستم والشلة قد أتخذوا أماكنهم في المجلس، قال جهانگير موجهاً كلامه الى رستم:

«هذا واجبك أنت يا رستم أفندي، عندما ينتهون من نصب خيامهم ويبدأون بإحياء حفلاتهم الليلية، تأخذ جماعتك وتذهبون اليهم، ولكن حذار أن يقع أي واحد منكم في حب فتاة غجرية، نحن وافقنا على دراستكم في الموصل ولكن لن نوافق على الزواج من الغجر، أليس كذلك يا شيخ زوراب؟».

ضحك الشيخ زوراب، معقبا:

«كل شيء تمام، يعوزنا هذا فقط».

قال شيخو ناظرا الى صائب بود:

«أعتقد أن الجماعة بعد رحلتهم الطويلة قد جاءوا، هل نبدأ بتناول طعام العشاء؟».

كان مردان وحمه غريب، الذي زارهم منذ اكثر من أسبوع، جالسين في غرفة المراقبة الصغيرة التي بنوها عند عودتهم فوق سطح بيت الشيخ زوراب، يدخنان ويراقبان الجهات الاربع لاحظ حمه غريب ظهور نقاط سوداء بالقرب من المكان الذي أختفى فيه قرص الشمس وهي تتحرك بأتجاه القرية، صاح مردان، وهو يطل من فوق السطح على المجلس:

«شيخويك، ثلاثة فرسان قادمون الينا، ولكننا لانستطيع تشخيصهم».

أطبق الصمت برهة على الجميع، وهم يتبادلون النظرات بتساؤل ثم سرعان ما تركوا أماكنهم الى السطح، وكل واحد يحاول أن يشخص النقاط الثلاث الداكنة التي بدأت تقترب رويدا رويدا، بطريقته الخاصة. وبدأ كل واحد يقدّر ويحلل هوية الاشخاص الثلاثة التي مازالت غير واضحة. وكان صائب هو الوحيد الذي ظل عينه في الافق بلا جدوى، ولكن عندما بدأ الاخرون يوّحدون آراءهم في تشخيص هويات القادمين، تمكن هو من رؤية النقاط، اذ ذاك التفت الى رستم قائلاً:

«أنتم ترون الغيب يا رستم، من أين لكم هذه العيون القوية؟».

قال رستم ضاحكاً:

«هكذا هي الحياة يا صائب، أنت تحضّر الارواح ونحن نرى الغيب».

كانوا لازالوا لم يوحدوا آراءهم بالاجماع الى أن صاح كريم مسرورا:

«لقد عرفتهم، أنكم لن تصدقوني أنا نفسي لا أصدق ما أرى، أنهم هم، هم أنفسهم».

قال رمضان بلهجته التهكمية المعهودة:

«قل اذن من هم، والاّ سأشتمهم وأرسل الى أجدادهم قناطير اللعنة».

قال الشيخ زوراب وهو يعالج رماد غليونه:

«لا تستعجل في إرسال قناطير اللعنة يا رمضان لأنها قد تستقر في قبور اجدادنا، إن بركات العجل الذي قدمناه ضحية لروح نالة كورگة بناء على أقتراح رستم وصائب لم تصل بعد».

أجال شيخو عينيه بين أبيه ورمضان قائلاً بأستغراب:

«لقد عرفتهم أنا ايضاً تصوروا، اليوزباشي بالملابس الكردية ومراد جاووش وعمي ميرزا».

قال رمضان بإستخفاف دون أن يصدق كلامه:

«قل شيئاً آخر يا شيخو بك، أننا يجب أن نتأكد بأنفسنا يا شيخ زوراب، والا لن نتوصل الى نتيجة».

قال الشيخ زوراب، هازا رأسه بتعجب، قائلاً كما لو أنه يتحدث مع نفسه:

«ولكن أين كان اليوزباشي حتى الان؟.. أنهم لاشك يحملون أنواع المفاجآت والاخبار».

كانت طلائع الفجر قد بدأت هي الاخرى تظهر من الجهة الشمالية، وهي تنشر الهرج والمرج بضجيجها وأجراسها المعلقة على رقاب الدواب، في انحاء الوادي وبعد أن أجال الشيخ زوراب ورمضان وشيخو بك نظراتهما في آن واحد بين قافلة الفجر والثلاثة الذين بدأوا يقتربون قال:

«كنا أيام زمان ننتظر أسابيع بل أشهر حتى نتصيد عابر سبيل ونجعله موضوعا للتندر وقضاء الوقت، وأما الآن فأننا بفضل الفرمان قد اصبحنا موضوعا يتندر به الآخرون. تصوروا، ميرزا يرافق اليوزباشي ومراد جاووش».

تدخل جهانگير قائلاً بإنشراح:

«وادي كفران لن يتحول الى موضوع للتندر يا شيخ زوراب، هذه الحركة التي تجدها حواليك هي خير وبركة. إن أبن درويش سعيد الذي يأتينا بدون ملابسه العسكرية لابد يحمل معه اخبارا سارة، ووجود ميرزا معها دليل خير».

قال شيخو:

«اعتقد أن وقوفنا هنا لا داعي له، أننا يجب أن نهيء الطعام لهؤلاء الضيوف القادمين من الجهتين».

علق رمضان بتهكم موجها كلامه الى شيخو:

«اجل اننا نحتاج الى طعام كثير هذه الليلة، لاشك أن عزيزنا اليوزباشي أبن درويش سعيد سيحدثنا بالتفصيل عن نواظيره وعرباته التي تسير على الطرق الحديدية، والمؤسف أن صاحبه القولجي لم يأت معه هذه المرة حتى يحدثنا عن بواخره التي تتسع لعدة قرى».

قال الشيخ زوراب:

«ليت الحديث ظلَّ مقتصرا على هذه المواضيع الجميلة، فقد شبعنا من أخبار العصيانات وأفعال السلطان والضرائب، وما سببه لنا الفرمان».

عقّب رمضان:

«أعتقد أن أحسن حل للعودة الى حياتنا السابقة، والتخلّص من كل هذه المشاكل، هو أعادة الفرمان الى اليوزباشي، كي يعيده هو بدوره الى الباب العالي».

راى شيخو أن وقوفه لاجدوى منه، فهرع بسرعة يهبط السلم مصطحبا معه كريم ومردان، أما جهانكير فكان لايستطيع أن يفرق بين الجِد والهزل في الاحاديث الجارية بين الشيخ زوراب ورمضان، اذ طالما جعلا منه موضوعا للمقالب دون أن يحس بذلك. ورغم أنه بدأ يفهم طريقتهما التهكمية في معالجة الاشياء، الا أنه رآهما جادين في مسألة إعادة الفرمان الى اليوزباشي، الذي لا دخل له في مسائل منح وإرجاع الفرمانات، فقال:

«لقد مضى على أستلامكم الفرمان سنة كاملة يا شيخ زوراب، بنيتم خلالها قرية وزرعتم أراضي شاسعة، فكيف تفكرون بإرجاع الفرمان؟ إن هذه مسألة مستحيلة».

أجاب الشيخ زوراب:

لماذا مسألة مستحيلة؟ إن كل ما يتسلمه الانسان يستطيع إرجاعه، إنها مجرد ورقة ليأخذوها ويريحونا».

قال رمضان:

«يا خالي جهانكير، الم تستغن أنت عن بيتك وخانك حتى تتخلص من مشاكل السنجق؟.. نحن ايضاً نريد أن نصبح مثلك، فلماذا لايجوز أن نستغني عن الفرمان حتى نتخلص من مشاكل القائممقام والقومندان الذي يريد أن يجرنَا الى حرب لا نهاية لها؟».

دفعهما الشيخ زوراب برفق بأتجاه السلم قائلا:

«أمامنا ليلة كاملة للاحاديث الطويلة، والان يجب أن نستقبل الضيوف».

كان مجئ قافلة الغجر واليوزباشي مع صاحبيه الى وادي كفران يعتبران بالنسبة الى صائب شيئاً جديداً فمنذ وجوده هنا لحوالي شهرين حدثه رستم الكثير عن العشيرة سواء عن عالمها الظاهر ام عالمها الخفي الملئ بالسعالي والغيلان والجنية (في). وفي جولاتهم اليومية على ظهور الخيل او مشياً، تعرف كل شبر من اراضي ووديان وجبال هذه العشيرة، ومرَّ بكل زقاق ومزبلة من ازقتها ومزابلها التي تتصاعد منها رائحة البهائم والبعرور المحروق والخبز، وغالباً ما كان شروده ينقله الى تصور غريب لم يسبق له ان فكر به من قبل وهو انه جزء من هذه العشيرة، وان رستم ورمزي وقادر وعباس هم اخوانه الحقيقيون، الذين فرق بينه وبينهم الزمن لسبب ما، وان سنجان هذه الإمرأة الطيبة التي تعانقه وتقبله مثلما تقبل اي واحد من الاربعة الاخرين، انما هي امه الحقيقية، واما والدة رستم او زوجة ابيه فاطمة وزوجة شيخو وغيرها، فهن اخواته او عماته الحقيقيات وكان يعرف جيداً ان هذه العواطف صادقة الى ابعد حدود

الصدق، فحين ينظر اليه الشيخ زوراب او رمضان او أي واحد من هؤلاء بعينيه المشرقتين، يحس بالاطمئنان، فيقتنع انه انما ولد لكي يعيش فيمثل هذا الجو الهادئ، وليس في جو السرداب الخانق الذي كاد ان يؤدي به الى الجنون. ورغم ان رستم ورمزي قد حدثاه عن اليوزباشي وزيارته الى وادي كفران قبل عام، وعن قصة الفرمان، إلاّ انه احس كما لو ان شيئاً غريباً، يتطلب الحذر، يريد ان يتسرب الى جسد العشيرة، حتى انه بدأ يشعر بالغيرة، حين احس بالفرح والارتياح في بعض الوجوه لقدوم اليوزباشي، ولذلك حين همَّ الجميع لترك السطح، طلب هو الى رستم ورمزي ان يمكثا معه قليلاً، فأتخذوا اماكنهم في برج المراقبة وهم ينظرون تارة الى الغجر واخرى الى اليوزباشي وصاحبيه الذين اصبحوا على مقربة من القرية، قال صائب:

«أمر هذا اليوزباشي يحيرني، ان استبدال ملابسه العسكرية بملابس شعبية مشكوك فيه».

قال رمزي بقناعة:

«كلا يا صائب، ثقة والدي عالية باليوزباشي، ثم ان اباه كان صديقاً قديماً لوالدي والشيخ زوراب، انه في كل الاحوال لا يخذلنا» .

«ولكنه واحد من السلطة يا رمزي، انه يمثل السلطان الجائر، لا شك انهم غيّروا خططهم في السنجق، رأوا انهم لا يستطيعون تحقيق هدفهم بأعلان الحرب على العشائر، فالتجأوا الى ارسال ناس مقربين منكم، حتى يحصلوا على ما يريدون».

قال رمزي:

«لا اعتقد ان اليوزباشي يقوم بمثل هذه المهمة للدولة، لأنه هو نفسه قد حورب واتهم بالتعاون مع العشائر، ثم انه حين يأتينا بدون ملابسه العسكرية، فيدل هذا على انه جاء لزيارتنا بشكل شخصي، وليس كممثل للحكومة».

سأل صائب:

«اين كان طيلة هذه الفترة؟»

اجاب رمزي:

«قال والدي ذات مرة، يحتمل انه القي به في السجن».

علق رستم:

«انه بعد قليل سيصل مع صاحبيه، وسنعرف عنه كل شيء مباشرة وسنعرف ايضاً ما اذا كان ما يدور من الكلام هنا وهناك مجرد اشاعات ام حقائق».

كان ميرزا فخوراً جداً بمرافقة اليوزباشي مراد جاووش، وقال انه لولا استعجال اليوزباشي

وشوقه للقاء الشيخ زوراب، لجلب معه الخيمة فقال له رمضان ان مكان الخيمة هو هناك في قرية زوراب، ولكنه كان ينبغي ان يجلب معه هابو حتى يكتمل المجلس فأجابه ميرزا بأن اليوزباشي قد كلفه بالذهاب الى الشيخ بابا، ليبلغه بالاخبار الجديدة، ولاحظ الكل ان اليوزباشي قد تغير كثيراً، وبدا هزيلاً مضنياً يعلو وجهه الشحوب، حتى انه لم يقو على معانقة الكل فساعده مراد جاووش وشيخو، وقادوه الى مكانه، ولما احس بالصمت المطبق على الجو وأن الكل ينظر اليه بأستغراب وقلق وتوجس، انطبعت ابتسامة عريضة على وجهه الشاحب وقال بصوت نقي وواضح :

«كانت هذه اللحظة امنية حياتي يا عمي الشيخ زوراب، ان التقي بكم هنا في بانشاخ وأتنفس هواء وادي كفران، والان لا يهمني اذا مت في مكاني».

قال الشيخ زوراب، بعد ان تأكد من لهجته، بأنه لم يعد رجل الحكومة:

«الموت لأعدائك يا ابني، وطالما انك قد وصلت الى وادي كفران بسلامة، فأن الله سيعطيك العافية والعمر الطويل».

اطبقت عليهم الصمت لهنيهة، وكانت الشمس قد اختفت، وبدأت العتمة تنتشر في الافق الغربي واصل الشيخ زوراب:

«يبدو ان هذا الفرمان الذي تسلمناه قبل عام، لم يجلب المشاكل لنا فقط يا جناب اليوزباشي، بل خلق لك ايضاً المتاعب. ألا نستطيع أن نعيد هذه الورقة اللعينة الى الباب العالي، نتخلص من شرّ السلطان؟».

تبادل اليوزباشي ومراد جاووش وجهانگير ومردان، النظرات، وأما رستم ورمزي وصائب فكانوا متوترين ينتظرون على أحّر من الجمر ما ينطق به اليوزباشي. قال اليوزباشي بعد أن أعتدل في جلسته:

«أن زيارتي هذه يا عمي الشيخ زوراب تختلف عن زيارتي الاولى لكم، أنها زيارة شخصية، وحتى زيارة جاووش ليست لها علاقة بالدولة، أنه الآن يتمتع بأجازة، وأما أنا، فقد خرجت من السجن قبل يومين، وربما لن أعود الى الوظيفة أبداً، يبدو أنكم هنا لاتعرفون بما يجري في الدنيا، لقد أنقلبت الدنيا رأسا على عقب».

أراد ميرزا أن يعلّق، بيد أن رمضان لكزه بمرفقه.

قال الشيخ زوراب:

«أنت هنا بين أبناء عشيرتك، يمكنك أن تعيش بيننا الى الابد، حالك حالنا، وأرجو أن لاتكون قد دخلت السجن بسببنا، أما اذا كانت الدنيا قد أنقلبت رأسا على عقب، فأننا في الحقيقة لم

نسمع حتى الآن، سوى ما أشيع عن وجود أضطرابات وعصيانات، واذا كانت الدولة منهمكة بأرسال نماذج من أمثال القومندان، فلا غرابة أن يعلن الناس العصيان في كل مكان،» قال اليوزباشي:

«المشكلة يا عمي شيخ زوراب ليست مشكلة القومندان، أن هذا الشخص مجرد أداة، ولما كانت هذه الاداة أساسا سيئة، ومستعدة لتنفيذ كل ما تطلبه الدولة منه، لذا تَم إختيار هؤلاء النماذج لتنفيذ مهمة معينة في وقت معين، ولكن الله مع العدالة وضد الطغيان، أنتم الان لاتدركون أهمية هذه العصيانات التي وصلت حتى الى داخل قصر السلطان. أن العالم كلّه يتحدث في هذه الايام عمّا يجري في أستانبول».

علّق جهانگير:

«اذا كانت العصيانات قد وصلت الى بيت السلطان نفسه، فأقرأ عليه السلام».

«طبعاً إقرأوا عليه السلام يا عمي جهانگير، وأنتهى كل شيء، لقد أستسلم وأصدر أرادة الى العالم، ولعلمكم فأن الدولة قد تنازلت عن الضرائب».

قال رمضان:

« هل أنها تنازلت عن الضرائب أم أنهم يضحكون علينا كالعادة».

«أن الاتحادجيين يا عمي رمضان هم الّذين أزاحوا السلطان، وهناك ضباط شرفاء قاموا بالمهمة من أمثال الملازم أحمد نيازي والصاغ أنور بك وغيرهما، أنكم فعلا قد تخلصتم من عبء الضرائب».

أرتسمت علامات البهجة والانشراح على وجوه رستم وصائب ورمزي وراحوا يتشاورون فيما بينهم، فاتفقوا على أن يطرح رمزي السؤال الذي كان يهزهم، فبادر قائلا:

«عندما كنا في كركوك سمعنا من بعض الطلبة بأن بعض أقاربهم وأخوانهم قد ألقوا في السجون بتهمة الانتماء الى الاتحادجيين، هل أطلق سراح هؤلاء أيضاً؟».

«أطلقوا سراح الكل، لم يبق أحد في السجون».

قال رستم بصورة لا ارادية:

«هل كان عددهم كثيراً؟».

«كنا من جميع انحاء كركوك سبعة أشخاص فقط، حجزونا في غرفة صغيرة مظلمة، وقطعوا أخبارنا نهائياً عن اقاربنا، كان اثنان فقط من الاتحادجيين، أما البقية، وأنا منهم، فكنا لم نسمع بهذا الاسم من قبل».

قال صائب بخجل وإرتباك:

«هل كان معكم شخص أسمه فوزي؟».

أجاب اليوزباشي بسرعة:

«طبعا كان معنا شخص أسمه فوزي، و هو اتحادجي قح وجريء، لولاه لقتلنا اليأس في زنزانتنا».

وقف رستم موجها فوهة بندقيته الى الاعلى قائلاً:

«أنه أخ صديقنا صائب، لقد توفي المرحوم والده بحثا عنه».

وراح يطلق النار في الهواء، وقام رمزي هو الاخر ويتبعه الاخرون، وراحت عشرات الاطلاقات تدوي، شاقة عنان السماء، تتردد اصداءها في ارجاء الوادي، ومنَ تحت، حيث الغجر قد إنتهوا من نصب خيامهم على ضفة النهر، دوت أطلاقتات جوابيتان تعلنان عن شكر الغجر لأستقبال وادي كفران الحافل لهم هَزّ رمضان رأسه بأستخفاف، وقال مكلما الشيخ زوراب: «لا تمت أيها الحمار، فقد جاء الربيع»، وأما صائب فلم يتمالك نفسه، إذ هزّه بكاء صامت هزاً عنيفاً، جعل الكل يغرق في صمت عميق، وكان اليوزباشي هو أول من خرق الصمت الذي خيّم عليه الظلام:

«صائب، عليك أن تفتخر بأخيك، وأما أنتما يا رستم ورمزي فعليكما أن تفتخرا بالاثنين».

قال الشيخ زوراب متباهيا:

«كنت حتى الان مترددا في ارسال رستم الى الموصل للدراسة، ولكنني الان لا أخاف عليهم ثلاثتهم حتى اذا ذهبوا الى آخر الدنيا».

كان الملا لا يرتاح منذ البداية لرمزي الذي أعتبر مناقشاته معه في زيارته الاولى إهانة له وللدين، الذي يعتبر نفسه المثل الوحيد والشرعي له في وادي كفران، ورغم أحترام صائب له، وتجنبه دخول المناقشات معه، فكان لا يرتاح اليه هو الآخر، لأنه بالتأكيد لعب دوراً كبيراً في إفساد رستم، وها أن اليوزباشي سواء أشاء هؤلاء أم أبوا، فأنه ينتمي الى نفس الجوقة التي توجهً سهامها المسمومة ضد السلطان الذي هو خليفة المسلمين وظلّ الله على الارض، فكل تهجم على السلطان هو تهجم على الدين وأنتقاص من شأنه. لقد حاول أن يلعب دوراً ما في هذا الغريب الذي لم يستطع كسبه الى جانبه حتى الآن، ورأى من واجبه أن يقوم ما يفسده الاخرون، ولكن مع من يبدأ وكيف؟.. هل يبدأ مع الغجر، الذين هم أبعد الناس عن الدين؟. هل يبدأ مع جهانكير، الذي أشتغل مع اليهود وتعلم منهم أمور الربا والفائض؟ هل يبدأمع كريم، الذي لايهمه من أمور الدنيا سوى الملذات التي كللّها بالزواج من مطلقة هابو؟ هل يبدأ مع الشيخ زوراب أم رمضان أم ميرزا، الذين لايفهمون من أمور الدين سوى تقديم الولاء الشكلي للتكية البرزنجية؟ هل يبدأ مع شيخو، وشيخو لا يخطو خطوة واحدة دون استشارة أبيه، ولا يبدي رأيه في أي شيء قبل أن يسمع رأي أبيه؟ ولكن

مع ذلك فهو الشخص الوحيد الذي يملك زمام الامور بيده، وهو رجل المستقبل الذي سيحسم كل شيء فلابد أن يطلعه على الاقل على رأيه لكل مايجري في هذا العالم المجنون الذي بدأ يغزوه الكفر بطغيانه ويعيث فيه الفساد. وأختلى الى شيخو وراح يبث له مخاوفه وشكوكه عمّا يجري من الكلام الذي يشمّ منه رائحة الكفر والالحاد، ولا سيما ما يتعلق بشخص السلطان الذي هو ظل الله على الارض وخليفة المسلمين، وأن هؤلاء الذين يسمونهم بالأتحادجيين، لاشك هم زنادقة ومن أهل البدع، ممن لادين لهم ولا إيمان وطلب الى شيخو أن يلعب دوره كرئيس للعشيرة، ولا يسمح يجعل أرضها موطئا لكل من هَب ودَب، ممن جادوا ينشرون الاكاذيب.

كانت الحركة قد بدأت تدب في القرية، وكانت القدور المنصوبة في الهواء الطلق تتصاعد منها الابخرة وتحيطها ألسنة اللهب من جميع الجوانب، مشكلة هالات النور وسط الظلام الدامس. كان شيخو ينصت بانتباه الى كل ما يقوله الملا ويدقق النظر في ملامح وجهه العبوس الذي لا يتذكر أنه إرتاح اليه ذات يوم، وأدرك فوراً أنه يريد بكلامه ضرب حصار محكم على صائب ورمزي واليوزباشي، حتى يبقى هو الشخص الوحيد الذي يتحكم في عقل العشيرة، قدم له شيخو لفافة قائلاً: «يا ملانا العزيز، أن أبواب وادي كفران مفتوحة للجميع سواء أكانوا غجراً أم دراويش أم عابري سبيل أم أصدقاء، وحتى أعداءنا اذا طلبوا منا الصفح والتجأوا الينا، فعلى الرحب والسعة، وأما أن الكلام ضد السلطان هو كفر والحاد وأن الاحادجيين هم زنادقة، فهذه كلها أمور لاتهمني أنا، أنهم كلهّم بالنسبة لي سلطة و دولة. واذا كنت تعتقد أن اليوزباشي يستطيع أقناعنا بوضعنا في خانة الاحادجيين، فأنت متوهم. ان السلطة هي سلطة، وسنظل الى الابد على طرفي نقيض منها، انها اذا أعفتنا فعلا هذه السنة عن الضرائب، فأنها ستعوضهًا في السنوات القادمة، وإلا كيف تستطيع أن تعيش؟..» كانا واقفين قرب جدار المضيف من الجهة المطلةعلى النهر، قال شيخو كلامه وأنصرف دون أن ينتظر منه الجواب، وأما الملا، فظل واقفاً في مكانه لهنيهة وهو يحدق في ألسنة النار المتصاعدة، رمى عقب لفافته بأنفعال متوجها الى المجلس، وهو يدمدم: «لعنة الله على الشيطان الرجيم..»

أراد شيخو أن يختلي بكل من أخيه كريم ومردان للتشاور في بعض الامور، ولكن أنشغال كريم بزوجته التي قد تضع في أي لحظة، حال دون أن يشترك معها، وأتخاذ مكانيهما في برج المراقبة. كان الشيء الذي يشغل بال شيخو هو زيارة اليوزباشي، فرغم قناعته التامة بأن اليوزباشي لا يمكن أن يخذلهم، وبأن مراد جاووش يستحيل أن يدير لهم ظهره، فأن شيئاً من الشك كان يشيع القلق في كيانه، ويخلق عنده الحذر تجاه هذين الشخصين اللذين لايشك في براءتهما، ولكنهم لهم مثلهم الخاص بهم داخل العشيرة: أن من يرتدى ملابس الحكومة ويعتاش على خبزها وملحها لايمكن ان يكون موضع الثقة تماماً مثل الذئب الذي يستحيل تحويله الى كلب حراسة، وعبر عن همومة هذه لمردان بأنه هو الاخر يعاني من نفس المشكلة، رغم اعتقاده التام بأن هذين

الشخصين لن يخذلانهم واعترف مردان لأول مرة بأنه قد اشترى الاسلحة في حينه من مراد جاووش نفسه، ولذلك فأنه مسك بخصيانه بقوة، وانه من المستحيل ان يكون موضع الخوف، فإذا كان ثمة من يخاف فهو الجاووش نفسه لا غيره. وتوصلاً الى حقيقة ان اليوزباشي ايضاً برئ، بيد ان وقوفه الى جانب هؤلاء الذين اطاحوا بالسلطان، قد يؤدي الى ان يعطوه منصباً كبيراً في الدولة، يجعله ان يدوس بقدميه على كل شيء، ولذلك قررا ان يكونا حذرين، ليس تجاه اليوزباشي بل تجاه مراد جاووش ايضاً فقررا منع ظهور الشباب بأسلحتهم، وعدم اعطاء المعلومات عن عدد بالغي سن الرشد وعن كمية الغلال وعدد رؤوس الحيوانات، لأي كان ومهما كان السبب ورأى مردان ان هذه الليلة هي ليلة فريدة في حياة وادي كفران: كريم ينتظر وليده على احر من الجمر ويأبى الا ان يقوم هو بالحراسة للمولود الذي يتمنى ان يكون ولدا، رستم وصائب ورمزي سعداء جداً للاخبار التي نقلها اليوزباشي، ولا سيما ما يتعلق بأخ صائب الذي خرج من السجن، الشيخ زوراب ورمضان وجهانگير وميرزا سعداء جداً لكونهم قد التقوا وسمعوا أخبار التخلص من عبء الضرائب و وصول الغجر في وقت تحتاج فيه العشيرة لأحياء الاحتفالات والافراح، وهم في كل الاحوال يجلبون معهم حسن الحظ والطالع الحسن، وجود اليوزباشي ومراد جاووش كضيفين وليس كمسؤولين رسميين، ترك جهانگير لسلوكه القديم الى الابد وعودته الى أحضان العشيرة، نحتاج رستم الباهر في دراسته ومواصلته لها في مدينة الموصل التي ستكون هدفها لزيارات مردان القادمة، فلابد أن كباب الموصل له مذاق خاص، من يدري لعله سيعترف هناك على أصناف جديدة من المأكولات. ولما كانت قضية سرقة الفوانيس وظهور الولي بيرداود في أزقة السنجق، قد ظلاً سراً لا يعرف بهما سوى مردان وشيخو والشخص الذي رافق مردان في تلك الليلة، والذي حلفوه بطلاقه أن لا يفشي بالسر، لذا قررا أن يقوم مردان بلعبة يذهل بها الجميع، وجعل حتى اليوزباشي ومراد جاووش يصدقان القصة، وليزيلا بذلك أي شك قد يساور أحدهم في السجن بشأن الولي بيرداود و فوانيسه. وقبل أن يبدأ بتناول طعام العشاء، طلب الشيخ زوراب الى شيخو أن يذهب ويدعو شيخ الغجر لتناول الطعام معهم، فهؤلاء الذين يمرون مرتين في السنة من أراضي عشيرة وادي كفران، لا يجلبون معهم عند مرورهم بأراضيهم سوى الخير، وأن نسى الشيخ زوراب، فهو لن ينسى فضل والدة الشيخ الساحرة التي أنقذته من هوسه وأقترحت بأن يتزوج، وفسرت حلمه الذي تحقق فعلا، وهي نفسها التي سمت رستم بأسمه، وها أن فاطمة تنتظر وليدها بالذات في هذه الليلة، أليس كل هذه الاشياء مرتبطة اذن بقدوم الغجر؟... أنهم بالضبط مثل فرج الضبعة أو سن الذئب أو خشب الدفلة تلك الاشياء التي لها قوة التمائم وسحرها. وفي الوقت الذي أنصرف فيه شيخو لإستدعاء الضيف الغجري، قام الشيخ زوراب من مكانه متوجها الى فاطمة التي كانت تعاني آلام المخاض. كانت سنجان والنساء الاخريات يهتمن بها، وكريم يتأرجح بينهم وبين المجلس قلقا مرتبكا يعتريه الخوف والتشاؤم، ولما رآه والده بهذه الحال، قال بسخرية: «ألا تخجل

يا أبني؟ منذ متى وأنت خائف مثل امرأة ضعيفة؟.. هيا أذهب وأجلس مع الرجال في المجلس».

قال كريم بلهجة يائسة: « أنني أخاف من الجنية (في) يا إبي، أنها قد تكون خطرة هذه المرة».

أجاب الشيخ زوراب بلهجة واثقة: « الجنية (في) يا أبني لا تحضر في هذا الزحام والضوضاء، إن النيران التي أطلقناها قبل قليل في الهواء قد طردت كل الارواح سواء الخيرة منها أو الشريرة، من وادي كفران، هيا أذهب وأجلس مع الرجال». قالت سنجان: «ان كريم أو أي رجل آخر يجب أن يبقى على مقربة منها؛ لقد رأتها فاطمة هذا المساء عدةَ مرات وصاحت بأسمها، أنها لاتخاف منا نحن النساء».

«حسنا، فليبق كريم عندكن».

قال الشيخ زوراب ذلك وأنصرف، بعد أن تأكد من سير الأمور بشكل صحيح فيما يتعلق بمخاض فاطمة، وحين بدأوا بأحضار الطعام، همس مردان في أذن شيخو:

«أنا الآن جاهز، ولكنني أخاف أن يجرب أحدهم بندقيته ويصيب بيرداود فيرديه قتيلاً».

ضحك شيخو وأردف:

«مثل هذا الطيش ممكن، ولكن لاتخف، أنني لا أعطيك أشارتي، الاّ بعد ان أتأكد من انشغالهم كلهم بالأكل، أنهم بأياديهم الزفرة لا يستطيعون إستعمال بنادقهم». قبل أن يمد ميرزا يده الى الاكل، التفت الى الشيخ زوراب قائلا:

«يا للخسارة ليتنا كنا نحي هذه المناسبة تحت الخيمة».

«سنحيي تحت الخيمة يا ميرزا حفلة لم يسبق لها مثيل لا تستعجل، كل شيء بالصبر».

ويبدو أن الجوع كان قد أستبدّ بهم جميعا، فما أن بدأوا بالأكل، الاّ وأطبق عليهم الصمت، وظل شيخو كعادته واقفا وهو يزودهم بين فينة وأخرى بصحن من الرز أو المرق أو أقراص من الخبز الحار. وحين تأكد أنهم قد هدّأوا ثعابين الجوع في أحشائهم وبلغوا الذروة، أنسحب بهدوء الى الظلام ومد يده الى جيبه ليلتقط الحجارة التي تم الاتفاق مع مردان على أن يرشق بها برج المراقبة بيد أنه قبل أن يلتقطها سمع إطلاقات نارية تشق هدوء الليل بدويها الهائل، وظهر كريم راكضاً بأتجاههم، وهو مازال يطلق النار في الهواء ويصيح:

«ولد، ولد، ولد، لقد أنجبت فاطمة ولدا وتمت الولادة بسلامة، وفي هذه اللحظات مرّ شبح أبيض يحمل عدة فوانيس ويمتطي حصانا يكاد يطير من سرعة الجري». وصاح شيخو بصوت عال:

– الله أكبر، الله أكبر، هذا هو الولي بيرداود .

جمد كريم في مكانه، وكادت البندقية تسقط من يده، وقام الجميع من أماكنهم بصورة لا إرادية وهم يبسملون ويبحثون بعيونهم القلقة عن الشبح الذي مرّ كالطيف وأختفى في جنح

الظلام. ورغم الحاحات شيخو والشيخ زوراب بالعودة الى الطعام ومواصلة الاكل، فأنهم ظلوا جامدين في أماكنهم يعلقون مختلف التعليقات ويعطون مختلف التفسيرات لهذه الظاهرة التي قال عنها الملا بأنها ظاهرة خير حقيقية، وأما مراد جاووش قال أن ظاهرة تجول شبح الولي بيرداود في أزقة السنجق وأخذه الفوانيس مسألة طبيعية، وأما وصوله الى وادي كفران فشيء غريب، وأما رستم ورمزي وقادر وعباس فراحوا يتباهون أمام صائب بأنهم أخيراً شاهدوا بأم أعينهم شبحاً حقيقياً، فهو بذلك لم يعد الشخص الوحيد الذي سبق له أن التقي بالاشباح في سرداب بيتهم، وقبل أن يعود الرجال الى أماكنهم، صاح مردان من برجه:

«تعالوا أنظروا الى هذه الاضواء التي تلمع في كل مكان، ألله أكبر، الله أكبر..»

وهرع الجميع الى السطح، وأنبهروا حين رأوا خطا من الاضواء المتلألئة في الافق قال مردان وهو يتصنع الدهشة:

«لقد رأيته بأم عيني وهو يترك وراءه هذه الاضواء.. وكان يلمع مثل النور، ثم صعد بحصانه الى السماء بسرعة فائقة مثل شهاب وأختفى».

كان الكل مأخوذا، وكل فرد يعلق بطريقته الخاصة به، بيد أن الكل قد أجمع بأن هذه العلامة الفريدة، انما هي علامة خير وبركة. اليوزباشي رأى أنها بشارة خير رافقت السلطة الجديدة التي أزاحت السلطان الجائر، ورأى الملا عكس ذلك، وأما شيخ الفجر فعرف كيف يستغل هذه الظاهرة كي يوطّد علاقته التقليدية بوادي كفران، بعد أن ذكرّ الشيخ زوراب بحلمه القديم في ليلة ميلاد رستم:

«لقد ظهرت روح الولي بيرداوود لسبب واحد فقط، الا وهي مباركة هذا الوليد الذي لابد سيكون وليا من الاولياء الصالحين، إنه يجب أن يسمّى بيرداوود».

قال اليوزباشي:

«من يدري؟... ربما سيصل المولود الجديد الى أستانبول للدراسة، بعد أن يصل أخوه رستم الى الموصل».

قال رمضان:

«أن هذا العام يستحق أسماء كثيرة، فالمناسبات التي نادرا ما كانت تأتينا في الاعوام السابقة بدأت تداهمنا هذا العام دفعة واحدة».

قال ميرزا:

«لقد تغيّر الزمن فعلا، كنا فيما مضى لا نجد مناسبة واحدة حتى نسمي به العام، وأما الآن، فيحتار المرء في أختيار الاسم، أنا أري أن نسميه عام الخير والبركة». قال رمضان متهكما:

«أنا اقترح أن نسميه عام زواج ميرزا ورمضان».

قال اليوزباشي:

«أعتقد أن عام الاتحادجيين هو الاسم المناسب».

قال حمة غريب:

«لم لا نسميه عام القومندان؟»

قال شيخو:

«أرى أن نسميه عام تحالف العشائر السبع»

وتوالت المقترحات:

«عام هجرة جهانگير الى وادي كفران».

«عام بيرداود».

«عام هزيمة القومندان ووحدات الجندرمة أمام العشائر السبع».

«عام دراسة رستم».

«عام اليوزباشي بدون ملابسه العسكرية»

«عام بناء قرية زوراب».

«عام زيارة صائب لوادي كفران».

«عام الامطار الغزيرة».

«عام صيد السمك».

«عام الصلح والمصاهرة بين عشيرتي وادي كفران والبابائيين».

«عام الشاي...»

كان الشيخ زوراب فرحا مبتهجا، وأحس أنه يكاد يطير، لا يقوى على الجلوس في مكانه، قام قائلا بلهجة مغتبطة:

«يجب أن أذهب الآن والقي نظرة على حفيدي الجديد بيرداوود، أما أنتم فعليكم أن تبدأوا الرقص والغناء، يجب أن نحتفل هذه الليلة حتى الصباح لأحداث هذا العام، الذي هو أطوال عام في حياة عشيرة وادي كفران...»

ماركليبيرك/لايبزك

١٩٨٧/١٠/٧ - ١٩٨٩/٥/٢